



ISSN:2707-8183

المجلة الدولية للدراسات التاريخية والاجتماعية

العدد 12 ديسمبر كانون الاول 2020



مجلة علمية محكمة تصدر عن الاتحاد الدولي للمؤرخين



ISSN:2707-8183

المجلة الدولية للدراسات التاريخية والاجتماعية

العدد 12

**INTERNATIONAL JOURNAL OF
HISTORICAL AND SOCIAL STUDIES**

Historical.magazine2015@gmail.com

www.int-historians.com

ديسمبر كانون الأول 2020

هيئة التحرير واللجنة العلمية الاستشارية

رئيس التحرير

الاستاذ الدكتور ابراهيم سعيد البيضاني

نائب رئيس التحرير

الدكتور عثمان برهومي / تاريخ / تونس

مديرة التحرير

الدكتورة وفاء سمير نعيم / اجتماع / مصر

الهيئة العلمية الاستشارية

الأستاذ الدكتور ناهدة حسين علي الاسدي / تاريخ / العراق

الأستاذ الدكتور جنان عبد الجليل هموندي / تاريخ / العراق

الأستاذ الدكتور ميلاد مفتاح الحراشي / علوم سياسية / ليبيا

الأستاذ الدكتور حاجي دوران / اجتماع / تركيا

الأستاذ الدكتور حسين جبار شكر / تاريخ / العراق

الأستاذ الدكتور محمد سالم الطراونتي / تاريخ / جامعة السلطان قابوس

الأستاذ الدكتور علي علام / تاريخ / المغرب

الدكتور لحسن اوري / تاريخ / المغرب

التصميم الداخلي للصفحات وغلاف المجلة

م. آثار حيدر عباس جاسم الداوودي

السياسات والقواعد والاجراءات

ترحب المجلة الدولية للدراسات التاريخية والاجتماعية بالبحوث العلمية المكتوبة وفقا للمعايير العلمية في اي من الحقول الدراسات التاريخية او العلوم المساعدة ذات العلاقة ويشمل ذلك كل العلوم نظرا لطبيعة التاريخ كعلم يتناول النشاطات الانسانية كافة مع مراعاة عدم تعارض الاعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، والا تتخذ اية صفة سياسية والا تتعارض مع الاعراف والاخلاق الحميدة، وان تتسم بالجدة والأصالة والموضوعية وتكتب بلغة سليمة واسلوب واضح.

سياسات النشر

تسعى المجلة الدولية للدراسات التاريخية والاجتماعية الى استيعاب رو افد كل الافكار والثقافات ذات البعد التاريخي ويسعدها ان تستقبل مساهمات الافاضل ضمن اقسام الدورية البحوث والدراسات عروض الكتب عروض الاطاريح الجامعية وتقارير اللقاءات العلمية.

هيئه التحرير

تعطي هيئة التحرير الأولوية في النشر والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية الواردة للمجلة، ووفقا لاعتبارات علمية وفنية تراها هيئة التحرير.

وتقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالمجلة للتأكد من تو افر مقومات البحث العلمي وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية. يحق لهيئة التحرير اجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار تنسيق النص في عمودين مع مراعاة تو افق حجم ونوع الخط مع نسخه المقال المعياري.

هيئه التحكيم

يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصيه هيئة التحرير والمحكمين، اذ تجري عملية التحكيم السري للأبحاث المقدمة وفقا لاستمارة خاصة بذلك.

يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث الى المدى ارتباط البحث بحقل المعرفة والقيمة العلمية لنتائجه ومدى اصاله افكار البحث وموضوعيه ودقه الادبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، فضلا عن سلامه المنهج العلمي المستخدم في الدراسة ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث وسلامه تنظيم اسلوب العرض من حيث صياغة الافكار ولغة البحث وجوده الجداول والاشكال والصور ووضوحها.

البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون اجراء تعديلات جذريه عليها تعادل الى اصحابها لأجرائها في موعد اقصاه اسبوعين من تاريخ ارسال التعديلات المقترحة الى المؤلف اما اذا كنت التعديلات طفيفة فتقوم هيئة التحرير بأجرائها.

تبذل هيئة التحرير الجهد اللازم لإتمام عملية التحكيم من متابعه اجراءات التعديل والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة حتى التوصل الى قرار بشأن كل بحث مقدم من قبل النشربحيث يتم اختصار الوقت الازم لذلك الى أدني ممكن.

في حالة عدم مناسبة البحث للنشر تقوم الدورية بأخطار الباحث بذلك، اما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتازت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها واستوفت قواعد وشروط النشر بالمجلة فيمنح كل باحث افاده بقبول بحثه للنشر.

البحوث والدراسات العلمية

تقبل الاعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها وتقديمها للنشر في مجله الكترونيه او مطبوعة اخرى.

يجب ان يتسم البحث العلمي بالجودة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه متوافقا مع عنوانه. التزام الكتاب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات و اقتباس الافكار وعزوها لأصحابها وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.

اعتماد الاصول العلمية في اعداد وكتابه البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع مع الالتزام بعلاقات الترقيم المتنوعة.

اعطاء مساحة واسعة للتحليل والاستنباط والقراءات الفكرية والتوقعات المستقبلية بالنسبة للموضوعات التي تأخذ بعدا تاريخيا سياسيا.

ارشادات المؤلفين (الاشتراطات الشكلية والمنهجية)

ينبغي الا يزيد حجم البحث على ثلاثين 30 صفحه ولا يقل عن 12 صفحة حجم A4 ، مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميا بشكل البحوث بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل ملخص مقدمه موضوع البحث خاتمه ملاحق الاشكال الجداول الهوامش المراجع . عنوان البحث

يجب ان لا يتجاوز عنوان البحث عشرين 20 كلمه وان يتناسب مع مضمون البحث ويدل عليه او يتضمن الاستنساخ الرئيسي.

نبذة عن المؤلف والمؤلفين

يقدم مع البحث نبذة عن كل مؤلف في حدود 50 كلمة تبين اخر درجة علمية حصل عليها واسم الجامعة والكلية والقسم التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة والوظيفة الحالية والمؤسسة او الجهة او الجامعة التي يعمل لديها والمجالات الرئيسية لاهتماماته البحثية مع توضيح عنوان المراسلة العنوان البريدي وارقام التليفون الموبايل الجوال والفاكس.

صور شخصية

ترسل صورته واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع .

ملخص البحث

يجب تقديم ملخص باللغة الانكليزية للبحوث والدراسات باللغة العربية في حدود 100 الى 150 كلمة، اما البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود 150 الى 200 كلمة.

الكلمات المفتاحية

الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشره كلمات يختاره الباحث بما يتواكب مع مضمون البحث وفي حاله عدم ذكرها تقوم هيئه التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وادراجه في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث اثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكه الانترنت.

مجال البحث

الإشارة الى مجال تخصص البحث المرسل العام والدقيق.

المقدمة

تضمن المقدمة بوضوح دواعي اجراء البحث والهدف وتساؤلات وفرضيات البحث مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة.

موضوع البحث

يراعي ان تتم كتابة البحث بلغة سليمة واضحة مركزة، وبأسلوب علمي حيادي وينبغي ان تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحة وملائمه لتحقيق الهدف وتتوفر فيها الدقة العلمية مع مراعاة المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيدا عن الحشو تكرار السرد.

الجدول والاشكال

ينبغي ترقيم كل جدول شكل مع ذكر عنوان يدل على فحواه والإشارة اليه في متن البحث على ان يدرج في الملاحق ويمكن وضع الجداول في متن البحث اذا دعت الضرورة الى ذلك، وبالنظر الى ان المجلة في الجانب الفني تنظم على عمودين لذا نرجو من الباحثين تنظيم الجداول والرسوم بما يتناسب ذلك او وضعها كمرفقات في نهاية البحث.

خاتمة البحث

تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث على ان تكون موجزه بشكل واضح ولا تأتي مكرره لما سبق ان تناوله الباحث في اجزاء سابقه من موضوع البحث .
الهوامش

• تنظم الهوامش بطريقة الكترونية ويكون الهامش بتسلسل اسفل كل صفحة بالنسبة لدليل شيكاغو. ووفقا للالية المعتمدة في اسلوب APA.

• تعتمد المجلة في تنظيم الهوامش اسلوبين الاول دليل شيكاغو والثاني APA. حجم ونوع الحروف،

• مراعاة التنظيم الالكتروني والفني للبحث وفق ما يلي:

نوع الحرف المطلوب sakkal Majalla وبحجم 20 بخط عريض للعنوان وحجم 18 عادي للتمن وحجم 14 عادي للهوامش، وتكون هوامش الصفحة من جميع الجهات 2 سم.
عروض الكتب

• تنشر المجلة المراجعات التقييمية للكتب العربية والأجنبية حديثه النشر.

• يجب ان يعالج الكتاب احدي القضايا او المجالات التاريخية المتعددة ويشتمل على اضافته علميه جديده.

• يعرض الكتاب ملخصا و افيا لمحتويات الكتاب مع بيان اهم اوجه التميز واوجه القصور و ابراز بيانات الكاتب كامله في اول عرض اسم المؤلف المحقق المترجم الطبعة الناشر مكان النشر سنه النشر السلسلة عدد الصفحات .

• الا تزيد عدد الصفحات العرض عن ستة صفحات.

عروض الاطاريح الجامعية

• تنشر الدورية عروض الاطاريح الجامعية رسائل الدكتوراه والماجستير التي تم اجازتها بالفعل ويراعي في الموضوعات المعروضة ان تكون حديثه وتمثل اضافة علمية جديدة في احدي حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة. وخاصة التي تعالج موضوعات فكرية تاريخية تسهم في وضع اطار نظري لمدرسة تاريخية جديدة.

• ابراز البيانات كما وردت في اول العرض اسم الباحث اسم المشرف الكلية الجامعة الدولة سنه الإجازة.

• ان يشمل العرض على مقدمة لبيان اهمية موضوع البحث مع ملخص لمشكلة موضوع البحث وكيفية تحديدها.

- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وادواته وخاتمة لاهم ما توصل اليه الباحث من نتائج.
- ولا تزيد عدد صفحات عرض الاطروحة او الرسالة عن 8 صفحات.

تقارير اللقاءات التعليمية

- ترحب المجلة بنشر التقارير العلمية عن الندوات والمؤتمرات والحلقات النقاشية سينمار الحديثة الانعقاد والتي تتصل بموضوعاتها بالدراسات التاريخية والاجتماعية والانسانية.
- يشترط ان يغطي التقرير فعاليات اللقاء نوه مؤتمر ورشه عمل سينمار مركزا على الابحاث العلمية واوراق العمل المقدمة ونتائجها واهم التوصيات التي يتوصل اليها اللقاء.
- لا تزيد عد صفحات التقرير عن 6 صفحات.

قواعد عامة

- ترسل كافة الاعمال المطلوبة للنشر بصيغه وورد, ولا يلتفت الى اي صيغ اخرى .
- المساهمون للمرة الاولى من اعضاء هيئة التدريس بالجامعات يرسلون اعمالهم مصحوبة بسيرهم العلمية وفقا أحدث نموذج مع صورة شخصية واضحة.
- ترتيب الابحاث عند نشرها في المجلة وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث او قيمة البحث.
- حقوق المؤلف
- المؤلف مسئول مسئوليه كامله عما يقدمه للنشر بالمجلة وعن توفر الأمانة العلمية به سواء لموضوعه او لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفي الاشارة الى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والافكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن رأي أحد غيره وليس للمجلة او هيئة التحرير ايه مسئوليه في ذلك.
- ترسل المجلة لكل صاحب بحث منشور نسخة الكترونية متكاملة للعدد الصادر.
- يحق للكاتب اعاده نشر البحث بصوره ورقيه او الكترونيه بعد نشره في المجلة دون الرجوع لهيئة التحرير ويحق للمجلة اعاده نشر المقالات والبحوث بصوره ورقيه لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للمجلة اعاده نشر البحث المقبول منفصلا او ضمن مجموعه من المساهمات العلمية الاخرى بلغتها الأصلية او مترجمة الى ايه لغة اخرى وذلك بصوره الكترونيه او ورقية لغايات غير ربحيه.
- لا تدفع المجلة ايه مكافئات ماليه عما تقبله للنشر فيها ويعد ما ينشر فيها اسهاما معنويا من الكتاب في اثناء المحتوى الرقمي العربي.

الاصدارات والتوزيع

- تصدر المجلة الدولية للدراسات التاريخية بشكل دوري فصلي، ومن الممكن ان تصدر شهريا وفقا للابحاث المقدمة والملفات العلمية.
- المجلة متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الالكتروني على شبكة الانترنت.
- ترسل الاعداد الجديدة الى كتاب المجلة على بريدهم الالكتروني الخاص.
- يتم الاعلان عن صدور الدورية عبر المواقع المتخصصة والمجموعات البريدية والشبكات الاجتماعية.



المحتويات

3..... السياسات والقواعد والاجراءات

11..... (التطور التاريخي للمعارف في العراق خلال الحكم العثماني) 1914-1534

ا.د حسين جبار شكر:- كلية التربية للعلوم الإنسانية/جامعة كربلاء

ا.م.د فلاح حسن كزار:- كلية العلوم/ جامعة كربلاء

27..... أهمية التاريخ ومسؤولية المؤرخ في المجتمع

أ.د: علي علام، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، المملكة المغربية

أهمية الدراسات التاريخية في تحليل ظاهرتي الأزمة والصدمة في الاقتصاد العالمي المعاصر

37.....

الأستاذ الدكتور عمار فاضل حمزة / كلية التربية للبنات – جامعة البصرة

الأستاذ المساعد الدكتور خولة طالب لفته / كلية الآداب – جامعة البصرة

57..... الذكرة الجماعية والتاريخ الثقافي "نموذج الريف المغربي"

د. لحسن أوربي والطالبة الباحثة نادية بودة جامعية سيدي محمد بن عبدالله كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس- فاس

67..... إسهامات العرب المسلمين في تقدم العلوم في العصور الوسطى مقارنة تاريخية"

الاستاذ المحاضر الدكتورة طييح نصيرة/ كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية/جامعة عبد الحميد بن

باديس.مستغانم.الجزائر

96..... اثر علم التاريخ وفلسفة التاريخ في صيرورة المدارس التاريخية الحديثة-اوربا انموذجا"

ا.م.د.صباح كريم رياح الفتلاوي- أ.م.د.بشرى هاشم ناصر الساعدي

كلية العلوم السياسية – جامعة الكوفة كلية الآداب- الجامعة المستنصرية

118 مساهمة في قراءة الظواهر التاريخية لضبط بعض قوانين زوال الحضارات والدول

ذ. عبد المجيد النوري / الأكاديمية الجهوية لمهن/ التربية والتكوين طنجة تطوان الحسيمة.

- 158 الهوية والثوابت الوطنية نموذجا
الاستاذ المحاضر الدكتورة مليكة عالم / جامعة الجليلي بونعامة / خميس مليانة / الجزائر
- 171 الماركسية والتفسير الاقتصادي للتاريخ
الاستاذ المساعد الدكتور عمار خالد رمضان الربيعي /كلية الاداب / جامعة البصرة
- 190 خصائص المنهج التاريخي و تطبيقاته في العلوم الأخرى
الدكتور محمود علالي-جامعة عمار ثلجي بالأغواط
- 200 دراسة المجتمع والذهنيات بتونس
من خلال رحلة المبشر كريستيان ايفالد من تونس الى طرابلس سنة 1835
عثمان البرهومي، جامعة صفاقس/تونس
- 218 تأسيس الاتحاد العام للعمال الجزائريين في سنة 1956 والمواقف المختلفة منه
أستاذ محاضر د. بغداد خلوفي / المركز الجامعي نور البشير - مدينة البيض، الجزائر
- 234 خروج سيف بن سلطان على أخيه الإمام بلعرب (1104 - 1105هـ/ 1692- 1693م)
د. إبراهيم بن يحيى البوسعيدي / جامعة السلطان قابوس د.موسى بن سالم بن حمد البراشدي/ وزارة التربية والتعليم- مسقط
- 252 جوانب من الأوضاع الاقتصادية في لواء الكرك 1311-1372هـ / 1893-1952م
تيسير محمد نواف القويدر....أ.د.ميسون منصور عبيدات/ جامعة مؤتة
- 285 عاثورة الجزائرية في عيون الشعراء العرب المعاصرين
د. مهدان ليلي / جامعة الجليلي بونعامة -خميس مليانة...كلية الآداب واللغات
- LA VISION RELIGIEUSE ETRUSQUE, LIBYCO-PUNIQUE.....285
ET ORIENTALE : ORIGINALITÉS ET CONTINUITÉS**
- 315 مراجعات لطفي عيسى لسرديات الانتماء واستعاراتها في كتاب "أخبار التونسيين"
د. عادل النفاتي، جامعة تونس / تونس

(التطور التاريخي للمعارف في العراق خلال الحكم العثماني)

1914-1534

ا.د. حسين جبار شكر- كلية التربية للعلوم الإنسانية/ جامعة كربلاء**ا.م.د. فلاح حسن كزار- كلية العلوم / جامعة كربلاء**

المقدمة:

يعد التعليم احد الركائز الرئيسة، فضلاً عن ركيزتي الصحة والقضاء لقياس مدى تقدم وتطور المجتمعات والدول، فمهمته لا تقتصر على خلق أجيال مزودة بسلاح العلم والثقافة والمعرفة فحسب، بل انه يُعد الجهة الرئيسة ان لم تكن الوحيدة المسؤولة عن رفد جميع المؤسسات والدوائر الرسمية وغير الرسمية بالكوادر الوظيفية المؤهلة والمتخصصة في تلك المجتمعات والدول، وبقدر تعلق الموضوع بركيزة التعليم في العراق، فانه لا بد لنا ان نتعرف على أسس تطوره، والتي تعود الى حقبة الاحتلال العثماني له حيث دامت قرابة اربعة قرون (1534-1914)، وعليه يمكن عد السيطرة العثمانية عليه خلال تلك الحقبة التاريخية البدايات الاولى لنشوء المعارف ومجالسها فيه، اذ سعت تلك الدولة الى تطويره - نوعاً ما- من اجل تحقيق عدد من أهدافها ومصالحها والتي يعد من ابرزها، (كسب الرأي العام العراقي والظهور له بمظهر المصلح اولاً، ومحاولة منها لإصلاح مؤسساتها العسكرية التي تراجعت كثيراً -قياساً بالمؤسسة العسكرية الاوربية- وادراكها بان ذلك الإصلاح لا يمكن ان يتم دون إصلاح المؤسسة التعليمية برمتها ثانياً)، وعليه جاء هذا البحث ليوضح التطور التاريخي للمعارف في العراق خلال تلك الحقبة.

تم تقسيم البحث الى مقدمة وأربعة مباحث وعدد من الاستنتاجات، وقع الاول منها تحت عنوان (المعارف وادارتها) وتطرق بشكل رئيس لمفهوم مفردة (معارف) واهم الخطوات الإصلاحية التي اتخذها السلاطين العثمانيين في مجال المعارف، وخصص المبحث الثاني للحديث عن كيفية تشكيل مجالس المعارف حتى عام 1908، في حين تطرق المبحث الثالث الى عمل مجالس المعارف أثناء حكم الاتحاديين (جمعية الاتحاد والترقي العثمانية) 1908-1914، وأشار المبحث الرابع الى اهم مصادر التمويل المالي للمعارف ومجالسها.

كتب البحث وفق منهج البحث التاريخي التحليلي القائم على جمع المعلومات من المصادر الرصينة وعرضها وفق تسلسلها الزمني وتحليلها تحليلاً علمياً أكاديمياً، واعتمد على عدد من المصادر التي تنوعت ما بين الكتب القديمة والحديثة والدراسات الأكاديمية الواردة في ثنايا عدد من الرسائل والاطاريح الجامعية.

وهنا لا بد من الإشارة الى اننا لا ندعي الكمال لبحثنا هذا فالكمال لله سبحانه وتعالى، وحسبنا ان قدمنا موضوعاً بحثياً قد يرفد المكتبة التاريخية بما احتواه من معلومات، فضلاً عن فتحه الآفاق أمام باحثين آخرين لإضافة معلومات وبيانات جديدة تزيد الموضوع اثراء وتزيل عنه ما كان مبهماً.

والله ولي التوفيق

المبحث الاول

المعارف وادارتها:-

ارتبطت تسمية المعارف بالعلوم والفنون العربية القديمة والاثار الاسلامية التي كانت من المراكز العلمية الكبيرة انذاك بالشكل الذي جعلها محورا للمفاهيم والافكار الانسانية، الامر الذي دفع بعض افاضل الامة الاسلامية على العمل من اجل أعلاء تلك المعارف عن طريق جمع الكتب العربية القديمة وصيانتها وحمايتها من الضياع والتلف، وتأسيس جمعية علمية حملت ذلك الاسم والمعنى (المعارف)، اخذت على عاتقها طبع بعض الكتب العربية القديمة وجاءت الكتب الدينية في المقدمة منها، فضلا عن طباعة بعض الآيات القرآنية والكتب ذات الصلة بأصول النحو، وبعض الكتب العربية الفكرية⁽¹⁾، وهذا يشير الى ان كلمة (معارف) من حيث الاصطلاح جاءت الدلالة على العلوم العربية ونشرها والافادة منها. بعد الاحتلال العثماني للعراق عام 1534 من قبل السلطان العثماني سليمان القانوني⁽²⁾، عمل السلطان على وضع اسس جديدة للنظام الاداري فيه⁽³⁾، الا ان واقع الحال اكد غير ذلك اذ عانت تلك الادارة من الفوضى والارباك، وافتقرت الى نظام ووسائل اتصال مقبولة، فضلا عن ذلك ضعف نظام التعليم ومؤسساته⁽⁴⁾، الذي لم توله الدولة الاهتمام المطلوب اذ اقتصر على (الكتاتيب)⁽⁵⁾ والتكايا والربط المجاورة للمساجد او البيوت الخاصة، التي لم تلق هي الاخرى الدعم المطلوب من الدولة

11 جمعية دارالمعارف العثمانية، مقالة تاريخية، مطبعة دارالمعارف العثمانية، (حيدرآباد، مركزودود للمخطوطات، 1354هـ)، ص1.

(2) هو سليمان بن السلطان سليم الاول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح، ولد عام 1495، واصبح احد سلاطين الدولة العثمانية الاقوياء، اذ تمكن من ضم العديد من المناطق الى املاك الدولة العثمانية، وقد وضع العديد من الانظمة الداخلية التي شملت مختلف فروع الحكومة، وادخل بعض التغييرات في نظامي العلماء والمدرسين، توفي عام 1566. للمزيد من التفاصيل ينظر: محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية. (بيروت، دارالنفائس، 1981)، ص 198-252.

(3) سياركوكب الجميل، استراتيجية العراق واثرها في نشوء الصراع العثماني الايراني، "افاق عربية"، مجلة، العراق، السنة السادسة، العدد 10، حزيران، 1981، ص19.

(4) ستيفن همسلي لونكريك وفرانك ستوكس، العراق منذ فجر التاريخ وحتى ثورة تموز 1958، ترجمة: نعمان احمد، بغداد، مؤسسة مصر مرتضى للكتاب العراقي، (2009)، ص73-75.

(5) هي مراكز تعليمية عرفها العرق منذ عهد الدولة العربية الاسلامية، وهي مخصصة لتعليم الصبيان القران الكريم بأسلوب الحفظ والتلقين، فضلا عن تعليمهم مبادئ الكتابة والخط واصول الحساب. للمزيد من التفاصيل ينظر: مهمل اسماعيل حسين العلي بك، تاريخ الخدمات الوقفية في الموصل (1249-1337هـ/ 1834-1918م، اطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية- ابن رشد-، جامعة بغداد، 2005، ص145.

ولم تشترط المؤهلات الاساسية في اعداد المعلمين فيها وفي الجهة المخولة في ادارتها والاشراف عليها⁽¹⁾، وعليه اقتصرت ادارة تلك الاماكن (التعليمية) على شخص يدعى (الملا)⁽²⁾ لقد اثر انحدار المستوى التعليمي في الدولة العثمانية في تراجع نفوذها وقوتها العسكرية مقارنة بقوة الغرب المتنامية⁽³⁾، وادرك سلاطينها تلك الحقيقة وشعروا بالحاجة الماسة لأصلاح اوضاع الدولة داخليا⁽⁴⁾، لاسيما بعد الخسائر العسكرية الكبيرة التي منيت بها قواتهم امام قوات الدول الغربية، الامر الذي دفعهم الى التوجه السريع تجاه اصلاح المؤسسة العسكرية ونظمها والتي تطلب اصلاحها بطبيعة الحال اصلاح المؤسسة التعليمية⁽⁵⁾.

فضلا عن ذلك ان شعور الدولة العثمانية بخطورة البعثات الاوربية التبشيرية التي تمكنت من افتتاح مدارس لها في عددا من ولايات الدولة العثمانية لاسيما في ولاية العراق، قد اثارت مخاوفها من منافسة اوربية لها في ولاياتها وشكل عامل ضغط اخر من اجل الاسراع في اصلاح التعليم ومؤسساته⁽⁶⁾، فأنشأ السلطان سليم الثالث⁽⁷⁾ بعض المدارس العسكرية على النمط والطراز الاوربيين واستقدم اليها مدرسين فرنسيين، كما عمل السلطان عبد المجيد الاول⁽⁸⁾ على تنظيم شؤون التعليم ومؤسساته، فتم اصدار مرسوم اصلاح عام 1839

- (1) بكر شيخ امين، مطالعات في الشعر المملوك العثماني، (بيروت، د.مط، 1980)، ص 62.
- (2) والشخص الملقب (بحافظ القران) الذي لم يكن يمتلك من الثقافة والعلوم سوى حفظ عددا من آيات القران الكريم وقراءة الادعية. للمزيد من التفاصيل ينظر: عبد الرزاق الهلالي، تاريخ التعليم في العهد العثماني 1638م- 1917م، (بغداد، شركة الطبع والنشر الاهلية ذ.م.م، 1959)، ص 54.
- (3) حسن احمد السلطان، التعليم في العهد العثماني، بحث منشور، "المعلم الجديد"، مجلة، ج 1، السنة الحادية عشرة، شباط، 1947، ص 10-14.
- (4) عبد الرزاق احمد النصيري، دور المجددين في الحركة الفكرية والسياسية في العراق 1908-1932، اطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الاداب، جامعة بغداد، 1990، ص 84.
- (5) عبد الوهاب القيسي، (حركة الاصلاح في الدولة العثمانية وتأثيرها في العراق 1839-1877)، "الاداب"، مجلة كلية الاداب، جامعة بغداد، العدد 34، كانون الثاني، 1961، ص 112.
- (6) احمد جودة، تاريخ التربية والتعليم في العراق واثره في الجانب السياسي (دراسة تحليلية عن تاريخ التربية والتعليم 1534-2009)، (بغداد، مؤسسة مصر مرتضى للكتاب العراقي، 2009)، ص 35.
- (7) هو ابن السلطان مصطفى الثالث بن السلطان احمد الثالث، ولد عام 1762، تولى عرش السلطنة في وقت كانت فيه الحرب مستعرة بين الدولة العثمانية وروسيا (حرب القرم الاولى 1787)، وقد وقع معاهدتين مذلتين مع روسيا هما (معاهدة زشتوي 1790، ومعاهدة وياش 1791) فقدت الدولة العثمانية بموجبهما الكثير من الاراضي لصالح روسيا، عزل عام 1807. المحامي، مصدر سابق، ص 363-393.
- (8) هو ابن السلطان محمود الثاني بن السلطان عبد الحميد الاول، ولد عام 1822، تولى عرش السلطنة عام 1839، وشهد عهده اندلاع فوضى داخلية فضلا عن تدخل الدول الاوربية في شؤون الدولة العثمانية، تفي عام 1861. للمزيد من التفاصيل ينظر: المصدر نفسه، ص 455-529.

باسم (خط شريف كلخانة) ⁽¹⁾، الذي اكد على ضرورة تحمل الدولة العثمانية جميع تكاليف ونفقات التعليم ⁽²⁾، كما تشكلت عام 1864 لجنة خاصة لدراسة الواقع التعليمي في الدولة العثمانية وولاياتها وتقديم المقترحات اللازمة للنهوض به، وقد قامت اللجنة بتقديم توصيات تم على ضوئها تشكيل مجلس (ديوان) عالٍ للمعارف مقره في العاصمة استانبول يتولى مهمة الاشراف على شؤون التعليم ⁽³⁾ مع لجنة استشارية ⁽⁴⁾.
عد ذلك المجلس النواة الاولى لأول ادارة تعليمية تولت رسم السياسة التعليمية في الدولة العثمانية، واشرفت على تنفيذها بدلا من رجال الدين، ومن حيث ارتباطه الاداري اصبح هذا المجلس تحت اشراف نظارة (وزارة) الخارجية في اول الامر، ثم ألحق (بنظارة المعارف) التي تأسست عام 1847 ⁽⁵⁾.
على الرغم من ذلك فان الواقع التعليمي لم يتطور بالشكل المطلوب، الامر الذي دفع السلطان عبد المجيد الاول الى اصدار مرسوم اصلاحي جديد عرف باسم (خط همايون) ⁽⁶⁾ وذلك في شباط عام 1856، الذي اكد فيه على الاصلاحات السابقة وضرورة وضع تشكيلات جديدة للمعارف وانشاء مكاتب اهلية للمعارف على ان يراعى في ذلك طرائق التدريس واختيار المعلمين فيها من اختصاص ومهام مجلس المعارف ⁽⁷⁾.

وعليه يمكننا القول ان الدولة العثمانية لم تكن راغبة بالقيام باصلاحات حقيقية تعالج جذور المشكلة ويجاد الحلول الفعلية لها، بل اشارت الى قشورها وسعت ليجاد حلول سطحية لها بالشكل الذي يخدم

- (1) وهو جزء من عملية الاصلاح التي قامت بها الدولة العثمانية بهدف النهوض بالدولة من جديد واعادة الثقة بكيانها وقوتها العسكرية اولا وتنظيم شؤونها الداخلية ثانيا وبضمنها الشؤون التعليمية.. محمد كمال الدسوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، دار الثقافة، مصر، 1976، ص 292؛ رجب حراز، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب (1840-1909 م)، (مصر، د.مط، 1976)، ص 292.
- (2) مهدي صالح سعيد العباسي، كركوك في اواخر العهد العثماني 1876-1914 دراسة في اوضاعها الادارية والاقتصادية والثقافية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الاداب، جامعة الموصل، 2005، ص 140.
- (3) لى عبد العزيز مصطفى عبد الكريم، الخدمات العامة في العراق 1869-1918، اطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الاداب، جامعة الموصل، 2003، ص 43.
- (4) فاضل مهدي بيات، التعليم في العراق في العهد العثماني (دراسة تاريخية في ضوء السالنامات العثمانية، "المورد"، مجلة"، بغداد، القسم الاول، المجلد الثاني والعشرون، العدد الاول، 1994، ص 30.
- (5) ابراهيم خليل احمد، تطور التعليم الوطني في العراق (1869-1932)، (البصرة، منشورات مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة، 1982)، ص 32.
- (6) جاء هذا المرسوم مكملا لحركة الاصلاحات التي عقدت الدولة العثمانية على تنفيذها لاسيما في المجال التعليمي وانظمة المدارس. للمزيد من التفاصيل ينظر:- نيزك سعيد عبد الكريم، الادارة العثمانية في ايالة بغداد (1831 م- 1869 م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، الجامعة المستنصرية، 2012، ص 65-67.
- (7) شكري محمود نديم، العراق في عهد السيطرة العثمانية 1326 هـ - 1337 هـ - 1908-1918 م، (عمان، دار دجلة، 2008)، ص 24.

مصالحها ويحافظ على بقاء نفوذها في الولايات الخاضعة لسيطرتها، عن طريق امتصاص نقمة شعوب تلك الولايات والظهور لهم بمظهر المصلح اولا، وتعزيز ارتباطها اداريا مع مركز الدولة ذاتها بصيغة علمية وادبية ثانيا.

المبحث الثاني

تشكيل مجالس المعارف في العراق في العهد العثماني حتى عام 1908:-

استمرت اصلاحات الدولة العثمانية في الجانب التعليمي حتى اصدار (نظام المعارف العمومية- معارف عمومي نظامنامه سي) في العشرون من ايلول عام 1869، الذي عد اول نظام مدني تشريعي للتعليم الجديد في الدولة العثمانية، وقد كان هذا النظام متأثرا بشكل كبير بنظام التعليم الفرنسي⁽¹⁾.

تضمن نظام التعليم الجديد مائة وثمانية وتسعون مادة، تطرقت الى شؤون التعليم المختلفة وادارته ومؤسسته، كما اشار الى ان ادارة التعليم في الولايات سوف تناط بمجلس معارف كل ولاية والذي سيتشكل لهذا الغرض، وعد المجلس السلطة الادارية الرسمية للتعليم في الولاية، بحيث يكون بمثابة شعبة تابعة لمجلس المعارف الاعلى الموجود في العاصمة استانبول⁽²⁾، كما نص على تشكيل مديريات للمعارف برئاسة رئيس مجلس معارف الولاية، على ان تتولى نظارة المعارف العمومية مسؤولية تعيينه وتعيين كبار موظفي مجلس معارف الولاية⁽³⁾.

كما نص النظام ان يكون بعض موظفي مجلس معارف كل ولاية من الشخصيات المحلية التي تختارها ادارة الولاية، اما الادارة التعليمية في السناجق (الاقضية) التابعة للولاية فتناط بشخصين من موظفي مجلس معارف الولاية يطلق عليهم اسم (المفتشين)⁽⁴⁾، فضلا عن ذلك حدد النظام المذكور مهام مجالس معارف الولايات بما ياتي:-

- 1- تنفيذ تعليمات و اوامر نظارة المعارف.
- 2- صرف الاعانات المالية التي تقدم لمعارف الولاية في اماكنها الصحيحة.
- 3- الاشراف على بناء المدارس والمكتبات العامة والمطابع.
- 4- تنظيم الميزانية السنوية للمدارس الحكومية.
- 5- مراقبة سير التدريسات في مدارس الولاية ورفع تقرير سنوي الى نظارة المعارف العمومية ومجلس الولاية عن اوضاع ومشاكل التعليم.

(1) حيدر جاسم عبد عبيس، الباء الدومينكان في الموصل دراسة في نشاطاتهم الطبية والثقافية والاجتماعية 1750-1974، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة الموصل، 2001، ص112.

(2) جميل موسى النجار، الادارة العثمانية في ولاية بغداد من عهد مدحت باشا الى نهاية الحكم العثماني 1869-1917، (القاهرة، مطبعة مدبولي، 1991)، ص422.

(3) المصدر نفسه، ص421.

(4) عدنان هريرجودة الشجيري، النظام الاداري في العراق (1920-1939) دراسة تاريخية، اطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الاداب، جامعة بغداد، 2005، ص18.

6- اختيار وتعيين المعلمين للمدارس الحكومية واصدار اوامر الفصل بحقهم اذا اقتضت الضرورة.

7- منح رئيس مجلس المعارف في كل ولاية صلاحية صرف مخصصات المعارف في الابواب المخصصة لها (1).

كما نص ايضا على تولي المجلس المحلي في كل ولاية وصندوق المعارف فيها مسؤولية الصرف على المؤسسات التعليمية الحكومية (2).

تزامنت تلك الاصلاحات مع تعيين مدحت باشا (3) واليا لبغداد عام 1869، الذي اولى بدوره هو الاخر التعليم اهتماما يذكر، حيث اشار بالقول ((الاهلون لائقون لكل تعليم، وانهم يستطيعون اكثر من غيرهم التقدم عند توفر الفرصة)) (4)، وكجزء من سياسته الاصلاحية المتعلقة بالتعليم وضع نظام المعارف النظام الصادر في العشرين من ايلول عام 1869 موضع التطبيق، فانشأ عددا من المدارس فضلا عن انشائه المؤسسة التي تشرف عليها (5).

وقدرت تعلق الامر بالنظام التعليمي الذي اقرته الدولة العثمانية، وما تضمن من تعليمات وتوصيات فالمؤكد ان الاهتمام بالتعليم وشؤونه لم يحظ بالاهمية اللازمة اذ بقي حبرا على ورق، وارتبط ذلك بعدم جدية السلطات العثمانية في نشر التعليم من جهة، وافتقارها للامكانيات المادية والملاكات المتخصصة الكفوءة من جهة ثانية (6)، لاسيما اذا ما علمنا بان تلك الاصلاحات لم تتعد اصدار التشريعات القانونية وارسال بعض الاشخاص لتولي ادارة تلك المجالس او الايعاز بفتح بعض المدارس (7).

في عام 1871 اصدرت الدولة العثمانية (نظام الولايات العثمانية) والذي اصبح العراق بموجبها مقسما الى ثلاث ولايات (الموصل، بغداد، البصرة) بعد ان كان ولاية واحدة، وقد فرض هذا النظام تقسيم الولاية الواحدة الى عدد من الوحدات الادارية تتولى مسؤولية ادارتها مجالس ادارية تضم عددا من

(1) النجار، مصدر سابق، ص 422.

(2) عبد الكريم، مصدر سابق، ص 44.

(3) ولد في استانبول عام 1822، ودرس في مدارسها وعمل في احدى دوائرها بوظيفة (كاتب)، في عام 1860 منح لقب وزير ثم عين واليا لولاية (ولايانيش) في بلغاريا، ثم واليا لبغداد عام 1869، توفي عام 1884. للمزيد من التفاصيل ينظر:- محمد عصفور سلمان، العراق في عهد مدحت باشا 1286-1289 هـ 1869-1872 م، (بغداد، مؤسسة مصر مرتضى للكتاب العراقي، 2010).

(4) مقتبس في: المصدر نفسه، ص 84.

(5) احمد، مصدر سابق، ص 40.

(6) الاء عبد الكاظم جبار الكريطي، موقف الفئة المثقفة في كربلاء من التطورات السياسية في العراق 1908-1932 دراسة تاريخية، (كربلاء، مكتبة الحكمة، 2008)، ص 32.

(7) عروبة جميل محمود عثمان، الحياة الاجتماعية في الموصل 1834-1918، اطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الاداب، جامعة الموصل، 2006، ص 245.

الاعضاء المنتخبين واخرين معينين من قبل الولاية⁽¹⁾، كما اناطت بعض مواد مسؤولية التعليم وادارة شؤونه بالمجالس الادارية ذاتها⁽²⁾، اما وظائف مديري المعارف، فقد تحددت برئاسة مجالس المعارف في ولاياتهم والاشرف المباشر على اعمال ادارات المعارف فيها⁽³⁾.

على ضوء ذلك تم تشكيل اول مجلس للمعارف في ولاية بغداد عام 1872، الا ان هذا المجلس فشل في اداء اعماله نتيجة عدم تنظيم اعماله وعدم وجود الكوادر المتخصصة من جانب، وانعدام الرغبة الجادة للادارة العثمانية في احداث الاصلاحات الفعلية في الولايات التابعة لها من جانب اخر، ولا ادل من ذلك قيامها بعزل الوالي مدحت باشا عن ولاية بغداد في العام ذاته وذلك لخشيته من ان تؤدي اصلاحاته الى التأثير بشكل سلبي على وجودها في العراق⁽⁴⁾، فضلا عن قلة المدارس وقلة الموارد المالية المخصصة لها⁽⁵⁾.

بعد تولي عبد الحميد الثاني⁽⁶⁾ عرش السلطة عام 1876، بدأت مرحلة جديدة من الاصلاحات التعليمية لاسيما بعد اعلانه الدستور في الثالث والعشرين من كانون الاول من العام ذاته، والذي اشار الى انشاء قسما للرقابة في (نظارة المعارف العمومية) تكون مهمته تطبيق قوانين الصحافة والمطبوعات⁽⁷⁾، والاشرف على الحركة التعليمية في البلاد، الا ان حدوث الاضطرابات المشاكل الداخلية والخارجية التي رافقت عهده حالت دون ذلك⁽⁸⁾.

لم يستمر الوضع على هذا الحال، ففي عام 1880 عادت الدولة العثمانية للاهتمام بالتعليم والمؤسسات القائمة عليه من جديد، فتم اعادة هيكلة مجالس المعارف في الولايات والتي اصبحت تضم

(1) سالنامه ولاية بغداد لسنة 1315، ج13، ص305-308، نقلا عن: فاضل بيات، بغداد من خلال وثائق الارشيف العثماني، (استانبول، مركز الابحاث للتاريخ والفنون والثقافة الاسلامية باستانبول، 2008، ص90؛ نديم، مصدر سابق، ص43-44.

(2) العباسي، مصدر سابق، ص142.

(3) عبد الكريم، مصدر سابق، ص5.

(4) جودة، مصدر سابق، ص33.

(5) فردوس عبد الرحمن كريم اللامي، الحياة الاجتماعية في بغداد 1831-1917، اطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية-ابن رشد، جامعة بغداد، 2002، ص311.

(6) هو ابن السلطان عبد المجيد الاول، ولد عام 1842 وتولى عرش السلطة في وقت عانت فيه الدولة العثمانية من المشاكل الداخلية والخارجية، صدر في عهده الدستور العثماني المعروف باسم المشروطية الاولى عام 1876، تم خلعه عن عرش السلطة عام 1908، توفي عام 1918. للمزيد من التفاصيل ينظر: مذكرات الاميرة عائشة عثمان اوغلي، والدي السلطان عبد الحميد الثاني، ترجمة: صالح سعداوي صالح، (الاردن، دار البشير، 1991)؛ انور الجندي، السلطان عبد الحميد والخلافة الاسلامية، (بيروت، دار ابن زيدون، 1407 هـ).

(7) احمد عبد الرحيم مصطفى، في اصول التاريخ العثماني، ط2، (بيروت، دار الشروق، 1993، ص213-243.

(8) السلطان، مصدر سابق، ص10-14.

مديرا للمعارف وعدد من الموظفين بضمنهم المحاسب والكاتب، فضلا عن استحداث تشكيل لجان للمعارف في بعض الالوية والسناجق⁽¹⁾، ويهدف تفعيل عمل تلك المجالس في الولايات، صدرت ارادة سلطانية في الرابع من شباط عام 1882 نصت على تشكيل مجالس للمعارف في كل الولايات العثمانية وفق ما نص عليه نظام المعارف العمومية السابق⁽²⁾، وتبعاً لذلك تم عام 1884 اعادة تنظيم مجلس معارف بغداد حيث ضم رئيسا وستة اعضاء نصفهم من موظفي المعارف الذين ارسلتهم نظارة المعارف العمومية وهم من الاترك، اما النصف الاخر فاقترص على الشخصيات البارزة من ابناء الولاية، مع الاشارة الى ان جميع الاعضاء كان يتم استبدالهم بين عام واخر⁽³⁾.

كما ضم المجلس دائرتين خصصت احدهما للكادر الوظيفي ومهمتها الاشراف على شؤون التعليم في الولاية، فيما خصصت الدائرة الثانية للاعضاء المحليين ومهمتها مناقشة شؤون التعليمية في الولاية، والعمل على تطويره وحل المشاكل التي تواجهه واختيار المدرسين للمدارس⁽⁴⁾، وبقصد تميز عمل كل دائرة منهما اطلق على الدائرة الاولى تسمية (قلم المعارف) وعدت جهة تنفيذية، فيما سميت الثانية (بمجلس معارف الولاية) وعدت جهة استشارية، هذا وقد عملت الدائرتين معا تحت مسمى (هيئة مجلس المعارف) حتى عام 1892⁽⁵⁾.

فضلا عن ذلك تقرر انشاء مجلسين اخرين في كلاً من ولايتي الموصل والبصرة⁽⁶⁾، وتم تشكيل هيئة مجلس المعارف التي ضمت ثلاثة عشر عضوا بادارة جميل زادة محمد⁽⁷⁾، واصبح في كل ولاية مديرية للمعارف ضمت مديرا وعددا من الموظفين، كما تالفت لجان للمعارف في بعض السناجق، مع التاكيد على ارتباط عمل جميع تلك التشكيلات بديوان نظارة المعارف العمومية الذي كان يتالف من دائرة التحريرات ودائرة المحاسبة واربع مديريات ومجلسين للمعارف اطلق على الاول منه اسم (مجلس المعارف الاعلى) الذي كانت مهمته متابعة الامور الادارية وشؤون التعليم في الدولة وولاياتها، والثاني اطلق عليه اسم (مجلس المفتشين) الذي حددت مهمته تدقيق الكتب المدرسية وتفتيش المدارس⁽⁸⁾.

(1) ابراهيم خليل احمد، حركة التربية والتعليم والنشر، بحث منشور في: حضارة العراق، ج11، (بغداد، د.مط، 1985)، ص598.

(2) احمد، تطور التعليم الوطني في العراق (1869-1932)، ص41.

(3) الهلالي، مصدر سابق، ص228.

(4) النجار، مصدر سابق، ص424.

(5) الشجيري، مصدر سابق، ص18.

(6) فلاح مجيد حسون العارضي، وزارة المعارف...الهيكل الوظيفي وتطور مؤسسات العمل التخصصي 1958-1968، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة القادسية، 2013، ص1.

(7) بيات، التعليم في العراق في العهد العثماني (دراسة تاريخية في ضوء السالنامات العثمانية، ص30.

(8) احمد، تطور التعليم الوطني في العراق (1869-1932)، ص41.

في عام 1893 صدر نظام جديد لتشكيل مجالس المعارف في الولايات، غير انه لم يختلف عن سابقه، فتم تشكيل مجلس جديد للمعارف في ولاية بغداد برئاسة حكمت بك وذلك عام 1894⁽¹⁾. كانت تلك المجالس متشابهة بصورة كبيرة من حيث الشكل والمضمون، اذ انها لم تؤد الى تطوير شؤون المعارف في الولايات، ولم تكن لها ارادة جادة في ذلك، بل على العكس من ذلك حيث انيطت ادارتها بموظفين صغار لا يمتلكون الخبرة والكفاءة المطلوبتين، فضلا عن ان بعضا منهم كان جاهلا بشؤون التعليم لاسيما الاتراك منهم، وليس ادل على ذلك من وصف بعض الشعراء لدوائر المعارف حينما انشد احدهم قائلا:-

الجهل اجمعه بدا نرة المعارف مستدير
اعضاؤها ورئيسها في الجهل ليس لهم نظير
وافي النذير بعزلهم يا حبذا ذاك النذير
لما اتى ارخت لا رجعت ولا رجع الحمير⁽²⁾

فضلا عن ذلك، فان اغلب الشخصيات المحلية - من الوجهاء ورجال الدين - المنتسبون لتلك المجالس لم تكن لهم اي علاقة بشؤون التعليم، مما اوجد فجوة واسعة بين النظام التعليمي والمؤسسات المشرفة عليه⁽³⁾، كما ان نظارة المعارف العمومية هي الاخرى كانت تستبدل مدراء مجالس المعارف في الولايات بين الحين والآخر ودون ان تاتي بالافضل منهم، الا مر الذي اكده الشاعر معروف عبد الغني الرصافي عندما استقبل احد مدراء مجالس المعارف الجدد قائلا:-

معارف بغداد قد جاءها مدير من الطيش في مسح
حمار ولكنه ناطق صبي ولكنه ملتحي
فيا ايها العلم ارتحل ويا ايها الجهل فيها اسلح⁽⁴⁾.

اما في ولاية الموصل فقد تشكل مجالس للمعارف فيها عام 1890، على غرار ما تشكل في ولاية بغداد⁽⁵⁾، الا ان الذي لوحظ في ذلك ان مجلس معارف الموصل ضم مجلسين، الاول اختص في شؤون التعليم الابتدائي وكان برئاسة الوالي نفسه وعضوية سبعة اعضاء اربعة منهم من وجهاء الولاية، اما المجلس الثاني فكان برئاسة مدير المعارف وعضوية خمسة اشخاص ثلاثة منهم من وجهاء الموصل واثنان من مدراء المدارس، اما مجلس معارف البصرة والذي تشكل في العام ذاته، فقد ضم ستة اعضاء جميعهم من وجهاء

(1) بيات، التعليم في العراق في العهد العثماني (دراسة تاريخية في ضوء السالنامات العثمانية)، ص 88.

(2) الشاعر هو احمد بك الشاوي. للمزيد من التفاصيل ينظر: الهلالي، مصدر سابق، ص 229.

(3) اللامي، مصدر سابق، ص 312.

(4) عبد العزيز سليمان نوار، تاريخ العرب الحديث، ج 1، (القاهرة، الشركة المصرية للطباعة والنشر، 1977) ص 288-289.

(5) نديم، مصدر سابق، ص 87.

الولاية وانيطت رئاسته باحدهم ، كما تشكلت في السناجق التابعة للولايات (هيئة للمعارف)⁽¹⁾ ، التي اقتصرتها مهمتها على تقديم المشورة لادارات المدارس الحكومية في السنجق المرتبط من الناحية الادارية بادارة المعارف في مركز الولاية⁽²⁾، وقد ارتبطت هذه المجالس جميعها بمجلس المعارف الاعلى الذي اشرفت عليه نظارة المعارف العمومية في العاصمة استانبول⁽³⁾، التي اخذت على عاتقها اصدار كتابا سنويا توضح من خلاله ما تم انجازه في السنة الماضية من بناء او فتح مدارس او ازدياد عدد الطلاب وكل ما يختص بالشؤون التعليمية واداراتها⁽⁴⁾، فعلى سبيل المثال لا الحصر نشرت احدي السالنامات العثمانية احصائية بعدد المدارس الرسمية الموجودة في ولاية بغداد عام 1896 باحدى وعشرون مدرسة، ونشرت سالنامة اخرى احصائية بعدد الطلبة الدارسين في المدارس الرسمية واعضاء ادارة المعارف في الولاية ذاتها بخمسة الاف وثلاثمائة وعشرون طالبا من مجموع عدد سكان الولاية الكلي البالغ مائة واثان وتسعون الفا وستة⁽⁵⁾، وبذلك شكلت ما نسبته (1:36) اي انه من بين كل ستة وثلاثون شخصا هنالك شخصا واحدا متعلما، وتعد تلك نسبة ضئيلة جدا ان لم تكن معدومة في مستوى نشر التعليم بين عامة الناس انذاك، وهو مؤشر رسمي على فشل سياسة الدولة العثمانية في ذلك الجانب.

المبحث الثالث

مجالس المعارف في العراق اثناء حكم الاتحاديين (جمعية الاتحاد والترقي العثمانية) 1908 - 1914

يعد انقلاب الاتحاديين في الثالث والعشرين من تموز عام 1908⁽⁶⁾، نقطة مهمة في مسار التحولات السياسية والثقافية في العراق، اذ لقي استجابة كبيرة من المثقفين ورجال الدين وكبار الشعراء، لاسيما بعد ان اعلنوا عن اهدافهم ومناهجهم حيال الشعوب العربية المنضوية تحت سيطرتهم⁽⁷⁾، اذ انتعشت

(1) بيات، التعليم في العراق في العهد العثماني (دراسة تاريخية في ضوء السالنامات العثمانية)، ص 95.

(2) النجار، مصدر سابق، ص 425.

(3) جمال اسد مزعل، نظام التعليم في العراق، (الموصل، د.مط، 1990)، ص 23.

(4) المس بيل، فصول من تاريخ العراق القريب، ترجمة: جعفر خياط، (دم، د.مط، د.ت)، ص 39.

(5) بيات، التعليم في العراق في العهد العثماني (دراسة تاريخية في ضوء السالنامات العثمانية)، ص 48؛ ص 98.

(6) قامت به جمعية الاتحاد والترقي العثمانية ضد السلطان عبد الحميد الثاني انطلاقا من منطقة (سلانيك) بقيادة

نيازي بك، ثم انضم اليه كلا من انور بك وعاطف بك فدخلوا العاصمة استانبول في 23/تموز/1908 وشكلوا وزارة

انقلابية برئاسة كامل باشا وخلعوا السلطان وجاءوا بالسلطان محمد رشاد بديلا عنه. للمزيد من التفاصيل ينظر:-

نادية ياسين عبد، الاتحاديون دراسة تاريخية في جذورهم الاجتماعية وطروحاتهم الفكرية (اواخر القرن التاسع عشر-

1908)، اطروحة دكتوراه منشورة، كلية الاداب، جامعة بغداد، 2006.

(7) جورج انطونيوس، يقظة العرب وتاريخ حركة العرب القومية، ترجمة ناصر الدين الاسد واحسان عباس، ط 4،

بيروت، دار العلم للملايين، 1966، ص 177.

امال الطبقة المثقفة من العراقيين في توسعة النشاطات الثقافية وتوسعة الخدمات التعليمية⁽¹⁾، لاسيما وان الاتحاديين اتخذوا من التعليم وسيلة لنشر افكارهم ومبادئهم⁽²⁾. سعى الاتحاديون الى تشكيل مجالس للمعارف في السناجق التابعة للولايات العراقية الثلاث (الموصل، بغداد، البصرة) وفق ما معمول به في مجالس المعارف المشكلة في العاصمة استانبول⁽³⁾، وتم استحداث وحدات جديدة للاشراف التربوي ووحدي تفتيش، واحدة في ولاية بغداد والثانية في ولاية الموصل، تعملان بشكل مستقل عن مجلسي المعارف المشكلان في الولاياتين⁽⁴⁾، والملاحظ على عمل تلك المجالس الجديدة انه اقتصر على اختيار مدرء المدارس من ذوي الخبرة والمقدرة والكفاءة الادارية، ووضع لوائح قانونية تنظم عملية استيفاء الاجور المدرسية، والسعي للحصول على ايرادات مالية جديدة للمجلس⁽⁵⁾. في عام 1909 اصدرت نظارة المعارف العمومية نظام قبول الطلاب في المدارس⁽⁶⁾، واعلنت حكومة الاتحاديين عزمها على النهوض بمعارف ولاية بغداد وترقيتها، اذ اشارت الى ان والي بغداد كون تحت سيشكل مجلسا لترقية المعارف يكون تحت رئاسته، ويضم منصب رئيسا ثانٍ ا يشغله مفتش معارف الولاية، فضلا عن ضمه عددا من الاعضاء وهم كل من (السيد محي الدين افندي نجل عبد الرحمن افندي نقيب الاشراف، ويوسف افندي عطا، وعبد الله افندي الحيدري، وعبد الكريم افندي مفتش المدارس الابتدائية، واحمد حمدي افندي المعلم الاولفي المدرسة الرشدية في الولاية، ومحمد افندي المعلم الاول في المدرسة الرشدية في كربلاء، وخلوصي افندي المعلم الاول في ابتدائية الكرخ، والسيد نوري افندي المعلم الاول في ابتدائية الحيدر خانة)، واشارت الى ان الهدف من ذلك هو ترقية العلوم والمعارف والاداب بين ابناء العراق⁽⁷⁾، كما طالبت دائرة المعارف المعلمون الذين لا يمتلكون شهادات تؤهلهم للتدريس، بالحضور للدائرة واجراء امتحان خاص من اجل الحصول على الشهادة التي تؤهلهم لممارسة مهنة التدريس⁽⁸⁾. ادرك العراقيون نوايا الاتحاديين الحقيقية وسياستهم الدكتاتورية لاسيما اصرارهم على اتباع سياسة التتريك، وتنصلهم عن الوعود التي قطعوها لهم⁽⁹⁾، فتعالت اصوات العديد من مفكري البلاد

- (1) سفانة هزاع اسماعيل حمودي الطائي، الموصل في سنوات الانتداب البريطاني 1920-1932، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الاداب، جامعة الموصل، 2002، ص 97.
- (2) عبد المنعم الغلامي، اسرار الكفاح الوطني في الموصل 1869-1925، ج 1، (بغداد، مطبعة شفيق، 1958)، ص 22.
- (3) "صدي بابل"، جريدة، السنة الاولى، العدد 46، 18 حزيران 1326 هـ (1910 م)، ص 2.
- (4) حكمت عبد الله البزاز، تقييم التفتيش الابتدائي في العراق، (بغداد، مطبعة الارشاد، 1970)، ص 99.
- (5) احمد، تطور التعليم الوطني في العراق (1869-1932)، ص 51.
- (6) جميل موسى النجار، اتعليم في العراق في العهد العثماني الاخير 1869-1918، (بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 2001، ص 380.
- (7) "صدي بابل"، السنة الثانية، العدد 64، 15 تشرين الاول 1326 هـ (1910 م)، ص 2.
- (8) المصدر نفسه، العدد 60، الاول تشرين الاول 1326 هـ (1910 م)، ص 2.
- (9) جورج لوتسكي، تاريخ الاقطار العربية الحديث، ترجمة: عفيفة البستاني، (موسكو، دار التقدم، 1971)، ص 379.

مطالبين باصلاح اوضاع البلاد عامة والتعليم خاصة⁽¹⁾، مؤكدين على ضرورة اضافة المبالغ التي استحصلت من اموال اميرية عراقية الى حصة معارف العراق، كما طالبوا بصرف المبالغ التي جمعتها الدولة باسم المعارف على معارف كل ولاية جمعت منها مع اضافة ما امكن عليها⁽²⁾.

امام تلك المطالبات اعلنت نظارة المعارف عزمها على اتخاذ خطوات اصلاحية جادة في ميدان المعارف ، وانها ادخلت رسميا في برنامج السنة الدراسية لعام 1911 تدريس مادة اللغة العربية في مدارسها العليا، وعينت لتدريسها اساتذة كفوئين⁽³⁾، ولم تكتف بذلك فقط ، اذ اصدرت قرارا في اوائل عام 1912 بالموافقة على جعل اللغة العربية لغة التدريس في المدارس العراقية بدلا من اللغة التركية ، الا انها سرعان ما تراجعت عن ذلك، اذ لم تدرس باللغة العربية سوى مادة العلوم الاجتماعية فقط⁽⁴⁾، وتعهدت بارسال مدرسين على نفقتها لتدريس الدروس المتبقية باللغة التركية لاسيما مادة التاريخ التركي⁽⁵⁾.

عام 1913 اقر اعلان التعليم الالزامي للمرحلة الابتدائية فقط وفي جميع ارجاء الدولة العثمانية⁽⁶⁾، ومع اندلاع الحرب العالمية الاولى عام 1914، اناطت الحكومة العثمانية بعض المناصب المهمة في مجالس المعارف باهل البلاد ممن وثقت بهم في محاولة منها لكسب سكان الولايات الخاضعة لها لاسيما العراقيون منهم الى جانبها ، فعينت في اواخر العام ذاته (حكمت سليمان)⁽⁷⁾ وكيلا لمدير معارف ولاية بغداد، ثم اصبح عام 1915 مديرا اصالة، ويعد اول مدير عراقي يعين بذلك المنصب⁽⁸⁾، والذي استطاع بجهوده الشخصية تنظيم عمل المعارف وتأمين مواردها المالي بعد عجز الحكومة العثمانية عن تأمينها بسبب اندلاع الحرب العالمية (الاولى)، ودخول الدولة العثمانية طرفا مباشرا فيها في التاسع والعشرين من تشرين الاول عام 1914⁽⁹⁾.

(1) السلطان، مصدر سابق، ص 11.

(2) "صدي بابل"، السنة الثانية، العدد 65، 17 تشرين الاول 1326هـ (1910م)، ص 1.

(3) المصدر نفسه، العدد 67، 31 تشرين الاول 1326هـ (1910م)، ص 3.

(4) سامي عبد مشعب الموسوي، دور المثقفين في الحركة الوطنية في العراق في سنوات الانتداب البريطاني 1920-1932م (دراسة تاريخية)، اطروحة دكتوراه غير منشورة، المعهد العالي للدراسات السياسية والدولية، الجامعة المستنصرية، 2004، ص 19.

(5) الغلامي، مصدر سابق، ص 29.

(6) السلطان، مصدر سابق، ص 11.

(7) ولد في بغداد عام 1889، واكمل دراسته في استانبول، انتسب الى جمعية الاتحاد والترقي ويبدو انه السبب وراء تعيينه ذلك، عين عام 1916 عين نائبا لوالي بغداد، في عام 1922 عين مديرا عاما للبريد، توفي عام 1964. للمزيد من التفاصيل ينظر:- عكاب يوسف الركابي، حكمت سليمان ودوره في السياسة العراقية حتى عام 1963، اطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الاداب، جامعة البصرة، 2005.

(8) دار الكتب والوثائق العراقية، ملفات البلاط الملكي، تصنيف 311/2535، ملاك وزارتي المعارف والصحة، 1914.

(9) خالد محسن اسماعيل، المدرسة المامونية، "امانة العاصمة"، مجلة ، العدد 15، السنة الاولى، اذار، 1978، ص 31.

على الرغم من اندلاع الحرب فان النشاط التعليمي بقي مستمرا حتى دخول القوات البريطانية بغداد في الحادي عشر من اذار عام 1917⁽¹⁾ رغم افتقاره الى الاساليب الحديثة لطرق التعليم والمؤسسات المشرفة على ادارته⁽²⁾.

المبحث الرابع

ميزانية مجالس المعارف في الدولة العثمانية حتى عام 1914

على الرغم من اصدار الدولة العثمانية للمراسيم الاصلاحية لاسيما التعليمية منها في عهد السلطان عبد المجيد الاول والتي الزمت الدولة على تحمل اعباء التعليم⁽³⁾، واعداد الموازنة المالية لنظارة المعارف العمومية تمهيدا لصرفها لمجالس المعارف في الدولة العثمانية والولايات التابعة لها، الا اننا نجد بان تلك الموازنة اقتصرت على مجالس معارف العاصمة العثمانية (استانبول) فقط، لذا بقيت موازنات مجالس معارف الولايات تعاني من العجز المالي، التي تحولت موازنتها لتكون جزءا من موازنات الولايات التابعة لها والتي لم تشكل الا جزءا يسيرا منها⁽⁴⁾.

وعليه اعتمدت الموازنات المالية لتلك المجالس وبشكل كبير على الاموال المستحصلة من الطلبة (اجور الدراسة)، واموال الاوقاف التابعة للمدارس، وواردات بعض الاوقاف التي لم تكن تابعة لجهة معينة، ومن الضرائب المفروضة على المزارعين للمعارف والتي كانت تشكل ما نسبته ثلث من سبع وربع العشر، ومن اضافة ضريبة مقدارها 5% على الاملاك والاراضي والتي كانت تحت مسمى (ضريبة اعانة المعارف)، اذ يقوم مسؤول حسابات المعارف ومسؤول المالية في الولاية باستحصال حصة المعارف من الضرائب⁽⁵⁾.

فضلا عن الاعانات التي كانت تجبها ادارة الولاية من مدنها المختلفة لصالح المعارف⁽⁶⁾، ومن فرض ضريبة ((الويركو))⁽⁷⁾، كما قام بعض الولاة بجمع بعض التبرعات من الاهالي لرفد موازنة المعارف عن طريق

(1) احمد، تطور التعليم الوطني في العراق (1869-1932)، ص58.

(2) رحيم عبد الحسين عباس العامري، اثر المجددين في الحياة السياسية والثقافية في النجف 1945-1963، اطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية، الجامعة المستنصرية، 2006، ص9.

(3) العباسي، مصدر سابق، ص140.

(4) احمد، حركة التربية والتعليم والنشر، ص299.

(5) جنان عيسى الجبوري، مشكلات ادارة المدرسة الثانوية في العراق، (بغداد، مطبعة الارشاد، 1970)، ص62.

(6) النجار، الادارة العثمانية في ولاية بغداد في عهد مدحت باشا الى نهاية الحكم العثماني 1869-1917، ص425.

(7) هي ضريبة سنوية مقطوعة مقدارها (50) قرشا، تفرض على العوائل اكثر من فرضها على المنازل لانها تفرض على كل رجل متزوج، فاذا كان هناك رجلان متزوجان في بيت واحد فان الضريبة تستحصل من احدهما. مقتبس في: اللامي، مصدر سابق، ص312.

اقامة الحفلات بمختلف انواعها⁽¹⁾، ومما يتبرع به الولاة انفسهم والاشخاص الموسورون ماديا من الاهالي لبناء المدارس او لتمشية بعض امورها⁽²⁾، كما كانت تجمع من رسوم (الشريعة)⁽³⁾ التي كانت تفرض على البضائع المنقولة عبر الانهار، فضلا عن الاعانات الاجبارية التي كانت تؤخذ من عامة الناس⁽⁴⁾. ويذكر ان هذه المبالغ كانت كبيرة الى حد ما، وتفيض عن حاجة مجالس المعارف في الولايات العثمانية لاسيما العراقية منها، لكنها لم تصرف في بناء المدارس او تطوير المؤسسة المشرفة على ادارتها، ولم ينفق منها الا الزر البسيطة على تلك الاماكن التعليمية المهمة⁽⁵⁾، فيما خصصت المبالغ المتبقية لبناء المدارس العالية في العاصمة استانبول، ويكفي ان نعلم بان الفائض من واردات المعارف لعام 1905 والبالغ مقداره نصف مليون قرش، ارسل لبناء المدارس في العاصمة ذاتها⁽⁶⁾، الامر الذي اثر سلبا على سير المعارف في ولايات العراق الثلاث، وعليه لم يبتعد عن الحقيقة النائب في مجلس المبعوثان العثماني⁽⁷⁾ سليمان فيضي⁽⁸⁾ عندما انتقد سياسة الحكومة العثمانية بهذا الشأن في احدى جلسات المجلس حينما قال:- ((ان العراق امسى من دون معارف))⁽⁹⁾، كما اسهمت قلة التخصيصات المالية سلبا على تحقيق الاصلاحات التعليمية المعلنة، وعجز مجالس المعارف عن القيام بتلك المهمة الاصلاحية⁽¹⁰⁾.

الخاتمة:

بناءً على ما تم ذكره في تشكيل مجالس المعارف في ولايات العراق الثلاث، نجد ان تلك المجالس لم يكن لها اي صفة مؤثرة في العملية التعليمية، واقتصر دورها على الجانب الاستشاري فقط، كما انها

(1) احمد، تطور التعليم الوطني في العراق (1869-1932)، ص 51.

(2) الهلالي، مصدر سابق، ص 230.

(3) هو المكان المخصص لتنزيل البضائع من لقوارب والسفن البحرية ويكون حدا فاصلا بين الماء واليابسة.

(4) عبد الكريم، مصدر سابق، ص 95.

(5) احمد، حركة التربية والتعليم والنشر، ص 299.

(6) النجار، الادارة العثمانية في ولاية بغداد في عهد مدحت باشا الى نهاية الحكم العثماني 1869-1917، ص 426.

(7) هو مجلس النواب العثماني الذي تشكل وفق الدستور العثماني الذي اصدره السلطان العثماني عبد الحميد الثاني عام 1876، وقد مثل الولايات العراقية فيه عددا من الشخصيات المعروفة انذاك. للمزيد من التفاصيل ينظر: عصمت برهان الدين عبد القادر، دور النواب العرب في مجلس المبعوثان 1908-1914، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الاداب، جامعة الموصل، 1989.

(8) سليمان بن الشيخ داود القصاب، ولد في الموصل عام 1885، واكمل دراسته الاعدادية عام 1895، ثم دخل المدرسة العسكرية في بغداد، وفي عام 1904 اتخذ من البصرة مقرا لسكنائه حيث افتتح فيها اول مدرسة لتدريس اللغة العربية عام 1908، ثم اصدر عددا من الصحف، توفي عام 1951. للمزيد من التفاصيل ينظر: سليمان فيضي، مذكرات سليمان فيضي، تحقيق وتقديم: باسل سليمان فيضي، ط 4، (بغداد، مطبعة الاديبي، 2000).

(9) النصيري، مصدر سابق، ص 156.

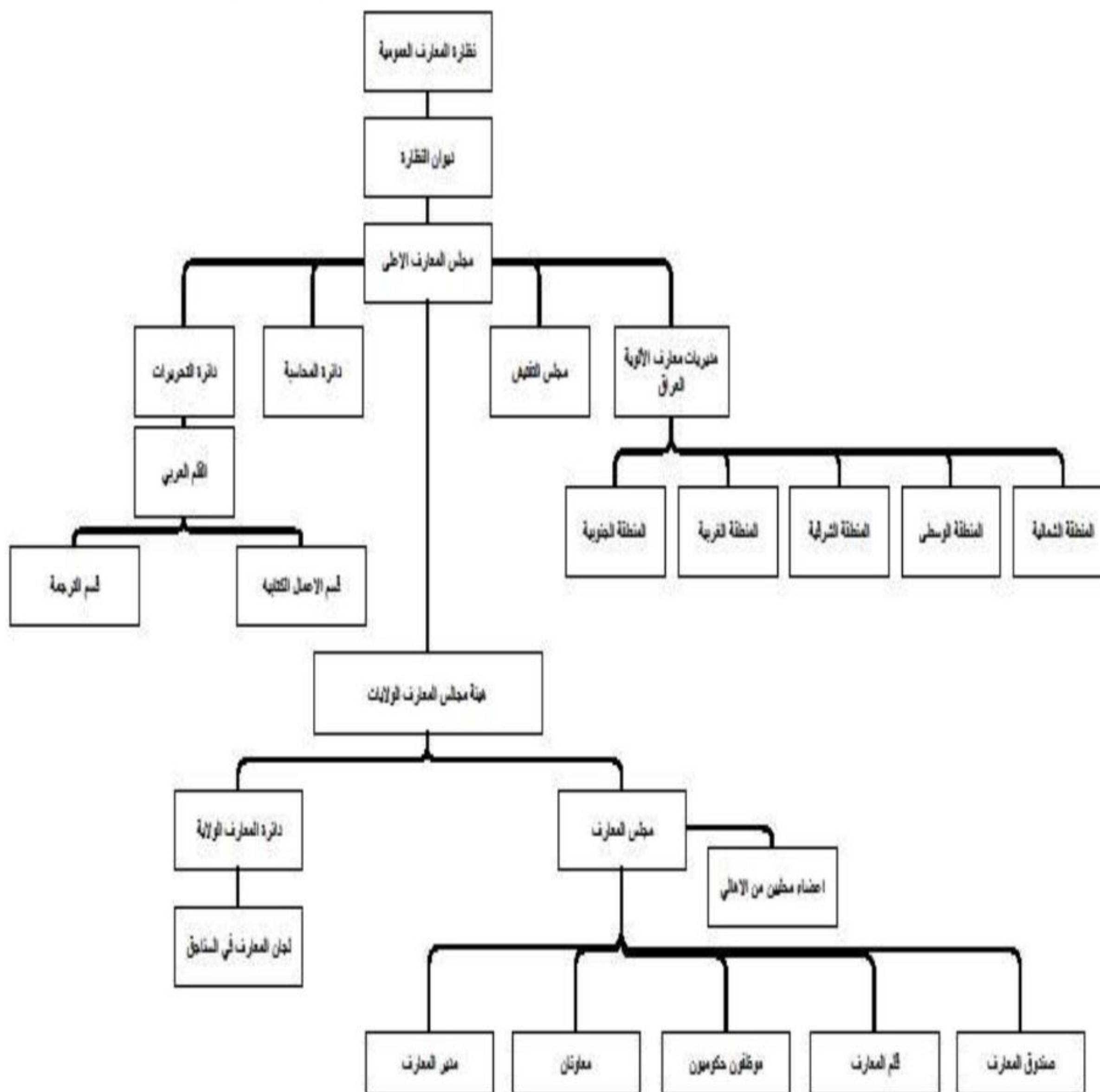
(10) احمد خليف العفيف، التطور الاداري للدولة العراقية في عهد الانتداب البريطاني 1922-1932، (الاردن، دار جرير، 2008)، ص 260.

كانت تابعة مباشرة الى نظارة المعارف العمومية ومركزها العاصمة العثمانية (استانبول)، لذا عملت على تنفيذ تعليمات واوامر تلك النظارة دون ان يكون لها حق الاعتراض او الاقتراح عليها، كم لم يكن لها اي دور في وضع او اختيار المناهج التعليمية للمدارس والتي اقتصرتها مهمتها على النظارة حصرا.

اضف الى ذلك ان تركيبة اعضائها الاعتبارية افتقرت للاسس العلمية الدقيقة، وهذا يؤكد عدم جدية الدولة العثمانية في تحقيق تلك الاصلاحات ، اذ كان واضحا ان الغاية منها هو اعداد بعض الموظفين للعمل على خدمة الدولة العثمانية في ولاياتها، وتهدئة الراي العام العراقي الذي طالما طالب باحداث اصلاحات ادارية في الدولة العثمانية ، كما ان ادولة العثمانية ارادت توجيه رسالة للدول الاوربية توضح فيها على انها تعمل على تحقيق الاصلاحات في مختلف المجالات ومنها المجال التعليمي وفق ما معمول به في تلك الدول على الرغم من كل تلك الماخذ والسلبيات الا ان الحقيقة التاريخية تفرض علينا القول ان مجالس المعارف تلك، شكلت النواة الاولى التي اسهمت في تطور التعليم وبناء العديد من المدارس، واعداد جيل من المثقفين العراقيين الذين اصبح لهم الدور الفاعل في بناء المؤسسات التعليمية فيما بعد، الامر الذي تحقق بعد انتهاء الاحتلال العثماني للعراق عام 1918 اثر اندحار الدولة العثمانية في الحرب العالمية الاولى (1914-1918). وفيما ياتي ندرج مخططا توضيحيا لعمل نظارة المعارف العمومية والتشكيلات التابعة لها في الولايات العراقية في العهد العثماني.



مخطط توضيحي لعمل نظارة المعارف العمومية والتشكيلات التابعة لها في الولايات العراقية في العهد العثماني (1)



(1) المخطط من عمل الباحثين بالاستناد إلى المصادر الآتية :- جميل موسى النجار ، الإدارة العثمانية في ولاية بغداد ، العصر السابق ، ص 421-422 ؛ عنقل فريد جودة الشجيري العصر السابق ، ص 18 ؛ فضل مهدي بيكات ، العصر السابق ، ص 30 ؛ إبراهيم خليل أحمد ، تطور التعليم الوطني في العراق (1869-1932) ، العصر السابق ، ص 41

أهمية التاريخ ومسؤولية المؤرخ في المجتمع**أ.د: علي علام، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، المملكة المغربية****تقديم:**

يحتل التاريخ بين فروع المعرفة الإنسانية مكانا متميزا وتشغل المؤلفات فيه نسبة عالية من الكتب التي تصدر في الشرق والغرب على السواء؛ ومع ذلك فما زالت حقيقة التاريخ، ومكانته بين العلوم، وفائدته موضع شك ونقاش طويل بين المفكرين والمؤرخين عامة.

وما زال البعض يكرر مقولة إن التاريخ يعني بما مضى وانقضى من الأحداث، وما دامت قد مضت فهي غير موجودة، وهي لا تبعث إلى الحياة إلا في ذهن المؤرخ، فالمؤرخون وحدهم في رأي هؤلاء هم الذين يشعرون بوجود التاريخ لأنه صنعهم ومدار حياتهم، أما من عداهم فلا وجود للتاريخ في حسابهم، وهم لا يحسون بالحاجة إلى معرفته⁽¹⁾. ولكن التاريخ ليس كذلك، فهو لا يقتصر على أخبار الماضي، بل هو يدرس التجربة الإنسانية ويسعى إلى فهم الإنسان وطبيعة الحياة على وجه الأرض، إن التاريخ هو إعادة كتابة وإعادة تفسير مستمرتان وبالتالي فهو يعتبر حوارا مستمرا بين الماضي والحاضر، ويعتبر المؤرخ الشخص الوحيد القادر على إقامة هذا الحوار؛ ومن هذا المنطلق نتساءل عن:

- أهمية علم التاريخ؟

- وأين تكمن مسؤولية المؤرخ؟

1- أهمية علم التاريخ:

اختلف الناس في نظرهم للتاريخ، فمنهم من اعتبره أسلوبا روئيا لمجموعة من الأحداث أو فرعا من الدراسات الإنسانية، ومنهم من نظر إليه كأداة ووسيلة من الوسائل لخدمة العلوم الاجتماعية الأخرى، ومنهم من اعتبره منهجا لتفهم أفضل لجميع القضايا والأحكام، "فهو تحليل الدليل الدال على الشاهد الموثوق به في ما يتعلق بماضي البشرية"⁽²⁾.

تكمن أهمية علم التاريخ في فهم قيمة الأحداث وتفاعلها مع الفكر الإنساني أكثر من معرفة الأحداث في حد ذاتها. ولا يحصل الفهم إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار جملة العوامل المتدخلة في صنع الحدث التاريخي (اقتصادية، سياسية، خارجية، داخلية...). لقد أسهم ابن خلدون بشكل كبير في بلورة مفهوم التاريخ وفوائده وغاياته، فكل الذين سبقوه رأوا في التاريخ مجرد رواية لحوادث الماضي، في حين اكتسب التاريخ معه "صبغة علمية" إذ برهن ابن خلدون أن علاقة الإنسان بتاريخه هي علاقة جدلية، "وان التاريخ أداة لفهم تطور الإنسان" يقول ابن

1- فريد بن سليمان، مدخل إلى دراسة التاريخ، مركز النشر الجامعي، تونس، 2000، ص 22-23.

2- عبد الوهاب بن منصور، مسؤولية المؤرخ، مجلة أمل، ع 21/1999، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 1999، ص 5.

خلدون: "...إنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعدتهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال..."⁽¹⁾

فالإنسان هو القوة الدافعة للتاريخ بفضل أعماله ومساعدته وعلومه، فكل التحولات والتطورات التي يعرفها المجتمع هي نتيجة ما يقوم به الإنسان. وبالتالي فالتاريخ في نظر ابن خلدون لا تكرر فيه ولا يعيد نفسه عكس ما كان يردده سابقيه الذين اعتقدوا أن التاريخ يعيد نفسه. يقول ابن خلدون: "...ومن الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرار الأيام... وذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال، وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة، والدول"⁽²⁾.

يجمع المؤرخون القدامى وفي مقدمتهم ابن خلدون على أن من فوائد التاريخ "الاقتداء بأحوال الماضين في أخلاقهم والأنبياء في سيرهم والملوك في دولهم وسياساتهم..."⁽³⁾ وسبقه في ذلك المسعودي (أبو الحسن علي، ت 354هـ) فقال: "ونحن وإن كان عصرنا متأخرا عن عصر من كان قبلنا من المؤلفين وأيامنا بعيدة عن أيامهم فنرجو ألا نقصر عنهم في تصنيف نقصده وغرض نؤمه، وإن كان لهم سبق الابتداء فلنا فضيلة الاقتداء..."⁽⁴⁾.

فالتاريخ يعتبر حقل تجارب ومجال تأمل واعتبار فعنون ابن خلدون كتابه ب "العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، فهو يدرس التجربة الإنسانية أو جوانب منها، فمن اعتنى بالتاريخ ضم إلى عمره أعمارا، وإلى تجاربه تجارب، فإذا اعتبرنا الحياة طريقا يقطعه الإنسان، فلا شك في أن معرفتنا بما قطعناه من الطريق يعيننا على قطع ما بقي منه.

يساهم التاريخ كذلك في تغذية شعور الإنسان واللاشعوره، ذلك أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي هو في حاجة إلى ذاكرة تخلص أعماله وتعينه على بناء شخصيته ووقايتها من

1- ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1967، ص 57.

2- عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، ص 46.

3- عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، ص 12.

4- علي المسعودي، التنبيه والإشراف، المكتبة العصرية، بغداد، 1938، ص 66.

الذوبان⁽¹⁾ وسواء أكانت هذه الذاكرة فردية أو جماعية فهي تميز الإنسان عن بقية الكائنات الأخرى حتى قيل إنه "حيوان تاريخي"² أي كائن لا يستطيع العيش بدون تاريخ ويساهم التاريخ كذلك في إثراء خيال القصاصين الروائيين والسينمائيين الذين ينطلقون من حوادث تاريخية لكتابة قصصهم وإنتاج أفلامهم، بالإضافة إلى إسهامه في تخليد الذاكرة الوطنية والقومية والعالمية في أذهان أفراد المجتمع، فبواسطته تنتقل المعرفة من جيل إلى جيل وتخلد الأحداث وتدون في الذاكرة الفردية والجماعية للأمة.

ليس التاريخ علما وحسب، وإنما هو علم العلوم، ولا غرابة في ذلك في عصر ازدهرت فيه الحركة العلمية حتى صار كل شيء لا يقاس بمقياس العلم ضربا من العبث أو ضربا من الخيال الفني الذي لا يغني ولا يشبع من جهل.

ولعل من أحسن ما قيل عن فوائد التاريخ وغاياته بصفة بليغة ومؤثرة جدا، ما أجاب به المؤرخ الفرنسي مارك بلوخ (Marc Bloch) ابنه عن سؤاله: لما يصلح التاريخ أبتاه؟ فكان جواب بلوخ: "لنفهم"⁽³⁾ أي فهم الإنسان.

"إن التاريخ جزء لا يتجزأ من الحياة، من حيث أن الحياة حركة وطموح، ومن حيث أنها تحمل على الصيانة والتقديس، ومن حيث أنها محنة تدعو إلى الخلاص. وبناء عليه فإن التاريخ ثلاثة أصناف إذا كان يجوز أن نميز بينها، فهو إما تاريخ المآثر، وإما تاريخ التقاليد الموروثة، وإما تاريخ انتقادي"⁽⁴⁾.

"فتاريخ المآثر هو الذي يوقفنا على كبريات المنجزات البشرية وعلى أعمال العظماء من بني آدم. وتاريخ التقاليد هو الذي نربط به الحاضر بالماضي حتى لا ينقطع حبل الحياة. أما التاريخ النقدي فهو الذي يغربل الأعمال البشرية ليستخلص منها الصالح من الطالح والشريف من السخيف"⁽⁵⁾. فالمطلوب من التاريخ أن يساعدنا على فهم آليات التطور والتبدل المستمر للإنسان، أي فهم الحاضر الذي هو امتداد للماضي، ومن هنا تبدأ مسؤولية المؤرخ.

2- مسؤولية المؤرخ في المجتمع:

يسعى المؤرخ ككل العلماء لإظهار الحقيقة ويعتبر في سبيل ذلك جميع الوسائل التي يمكن أن يحصل عليها، كما أنه ينشد كتابة تاريخ حقيقي تتوفر فيه المواصفات العلمية، إلا أن منهجيته في ذلك تختلف عن منهجية العلوم الفيزيائية بل وعن منهجية بعض العلوم

1 - فريد بن سليمان، مرجع سابق، ص. 24.

2 - نفسه، ص. 25.

3 - M. Bloch, Métier d'historien, éd. Colin, Paris, 1967, p72.

4 - ابراهيم بوطالب، الكتابة التاريخية بين الموضوعية والالتزام، مجلة أمل، ع21/1999، ص 100.

5 - ابراهيم بوطالب، نفسه، ص 101.

الاجتماعية مثل الاقتصاد والسوسولوجيا، ذلك أن التاريخ يعنى بما جرى وليس بما يجري. "إن التاريخ يحكي ويعيد بناء ما كان وما صار، إن ما نعيشه اليوم سينتهي غدا للتاريخ، إننا مقتنعون بواقعية العالم الذي يحيط بنا، والذي سيصبح جزء من الماضي الذي سيحاول المؤرخ حكيه أو جعله يحيا من جديد"⁽¹⁾.

فالمؤرخ يحاول إعادة بناء الأحداث التاريخية انطلاقا من مخلفات الذاكرة (التراث الثقافي والبيئي والمعماري والفني والعادات والتقاليد...) ⁽²⁾، فوظيفته الأساسية تكمن في تحديد الأحداث وتبويبها، وهذه الأحداث توفرها الوثائق وما تبقى من الذاكرة الفردية والجماعية للأمة؛ فدور المؤرخ ليس هينا عكس ما يعتقد البعض فالمطلوب منه أن يساعدنا على فهم الماضي وأن يساعدنا على التمييز بين ما هو حدث تاريخي وما هو حدث عادي. وبناء عليه فإن "التاريخ ثلاثة أصناف إذا كان يجوز أن نميز بينها، فهو إما تاريخ المآثر، وإما تاريخ التقاليد الموروثة، وإما تاريخ انتقادي"⁽³⁾.

"فتاريخ المآثر هو الذي يوقفنا على كبريات المنجزات البشرية وعلى أعمال العظماء من بني آدم. وتاريخ التقاليد هو الذي نربط به الحاضر بالماضي حتى لا ينقطع حبل الحياة. أما التاريخ النقدي فهو الذي يغربل الأعمال البشرية ليستخلص منها الصالح من الطالح والشريف من السخيف"⁽⁴⁾.

- "إن كتابة التاريخ ينبغي أن تختلف باختلاف الأحوال، فالمؤرخ لأجل الأغراض الخاصة وللدعاية، له أن يراعي المبدأ الذي ألف لأجله فيرفع ما يشاء ويضع ما يريد، ويذكر ما يرضاه أو يرضيه، ويغفل ما لا يوافق مبادئه ومراده، ويشيد بذكر ما يؤيد رأيه ومذهبه، ويحط من قيمة ما يخالف ذلك..."

"فالتاريخ الموجه الذي يؤلف مثلاللتلاميذ المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية، يجب أن يثبت فيه ما يخدم الأمة ويستعرض أمجادها ومفاخرها. والكتاب الذي يؤلف لمقاومة الدول الغاشمة أو لمحاربة الدول الاستعمارية من شأنه أن يحتوي على تشويه أعمال الظالمين والمعتدين. أما التاريخ الحقيقي الذي يكتب للاعتبار، فينبغي أن يكون كالمرآة أو كالألة المصورة التي تثبت الأشياء كما هي، والمؤرخ الصادق هو الذي يثبت الحوادث كما وقعت ويصف الأشياء والأشخاص بأوصافها الحقيقية بدون مبالغة"⁽⁵⁾.

1 - Raym Aron, Dimensions de la Conscience Historique, Paris, Plon, 1961, P110-112.

يراجع: كتاب "التاريخ" إعداد وترجمة محمد الهلالي وعزيز لزرقي، دار توبقال للنشر، البيضاء، ط1، 2014، ص35.

2 - محمد القبلي، جذور وامتدادات الهوية واللغة والإصلاح بالمغرب الوسيط، دار توبقال للنشر، البيضاء، 2006، ص5.

- عبد الأحد السبتي: التاريخ والذاكرة، أوراش في تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2012، ص126.

3 - ابراهيم بوطالب، الكتابة التاريخية بين الموضوعية والالتزام، مجلة أمل، ع21/1999، ص100.

4 - ابراهيم بوطالب، نفسه، ص101.

5 - نفسه، ص104، نقلا عن محمد داوود.

ولتحقيق هذه الغاية يجب على المؤرخ أولاً القيام بالبحث عن الوثائق والأدلة الضرورية قبل الشروع في الكتابة، فالتاريخ يصنع من الوثائق⁽¹⁾. والوثائق هي الآثار التي خلفتها أفكار السلف و أفعالهم. وبفقدان الوثائق صارت تاريخ عصور طويلة من ماضي الإنسانية مجهولاً، ويذكر بعض المؤرخين أنه لا بديل عنها "وحيث لا وثائق فلا تاريخ"⁽²⁾. فالبحث عنها وجمعها جزء من الأقسام الرئيسية المندرجة في مهمة المؤرخ، وقد شبهها البعض بـ "وقود المحرك".

« L'Histoire se fait avec les documents comme le moteur à explosion fonctionne avec du carburant »⁽³⁾

معظم الوثائق الحديثة تحمل إشارة دقيقة إلى مصدرها: ففي أيامنا هذه نجد أن الكتب ومقالات الصحف والأوراق الرسمية بل والكتابات الخاصة مؤرخة وموقع عليها، وعلى العكس نجد كثيراً من الوثائق القديمة بلا تاريخ ولا إسم مؤلف ولا يعرف مكان صدورها بالدقة⁽⁴⁾ وهناك أصناف متعددة من الوثائق يمكن للمؤرخ الاستعانة بها، نشير إلى البعض منها:

✓ الأرشيف الرسمي أو الحكومي (سجلات الإدارات والمؤسسات الرسمية، معاهدات و اتفاقيات دولية،...) وهي محفوظة عادة بدور الأرشيف الوطنية كالأرشيف الفرنسي بباريس وناط ...

✓ الأرشيف الخاص: وهو موجود في ملك الأفراد والعائلات أو المؤسسات الخاصة وهو غني بوثائق من قبيل: مذكرات، عقود زواج، رسائل شخصية، عقود ملكية،... هي وثائق مختلفة تهتم الحياة الاجتماعية (زواج- طلاق- قسمة إرث- هبة- وصية...) والاقتصادية (بيع- شراء- تكوين شركة- كراء- اقتراض...) وهي قريبة جداً من الواقع المعاش والحياة اليومية يمكن للمؤرخ ان يجد في ثناياها معلومات وإشارات مهمة حول مجموعة من المواضيع.

✓ المؤلفات الأدبية: توفر معلومات عن الأوضاع الاجتماعية (طرق العيش، أنماط الحياة، العادات،...) يكفي أن نذكر بأهمية الشعر الجاهلي في وصف المجتمع العربي قبل الإسلام أو أهمية الشعر الإغريقي (ملحمة هوميروس) في التأريخ للعالم الإغريقي.

✓ البقايا الأثرية: تشكل مجموعة المخلفات الأثرية من عمارة ونقاش ومسكوكات وخزفيات... مصدراً هاماً للمؤرخي العصور القديمة والوسيطة رغم ما تتصف به هذه الآثار من نقائص: فهي لا تمثل إلا قسماً ضئيلاً مما أنتجه الإنسان أو استعمله في تلك

1 - أنجلو وسينوبوس، النقد التاريخي، ترجمة عبد الرحمان بدوي، دار النهضة العربية، القاهرة، 1970، ص. 18.

2 - نفسه، ص. 33.

3 - فريدي سليمان، مرجع سابق، ص. 40.

4 - أنجلو وسينوبوس، النقد التاريخي، مرجع سابق، ص. 75.

الحقب التاريخية البعيدة، ثم أنها كثيرا ما تتعرض أثناء الحفريات للتلف أو التهميش نتيجة عوامل طبيعية أو بشرية. فهي إذن توفر معلومات منقوصة وجب على المؤرخ استكمالها بمصادر أخرى خاصة المكتوبة منها.

✓ الصور الشمسية: إن أهميتها الوثائقية في تزايد مطرد منذ القرن 19 رغم أنها صنف من الوثائق القابلة للتحريف والتزوير. لذا وجب على المؤرخ استعمالها بحذر كبير. لكن أهميتها يقينية ودورها أساسي في بعض الحالات.

✓ المصادر الشفوية: يستغل أيضا مؤرخ الفترة المعاصرة الشهادات الشفوية لشهود عيان عاشوا الأحداث أو كانوا أحد أطرافها. إلا أن بعض المستجوبين يعمدون إلى المبالغة، فعلى المؤرخ استغلال شهادتهم بكثير من الحذر واليقظة. وبما أن مصدر الوثيقة الشفوية هي الذاكرة، على المؤرخ أن يفهم كيفية عملها على أساس أنها عملية إعادة تركيب عناصر أحداث الماضي. ولعل ما تتسم به الشهادات من ذاتية ونزعة المستجوب للدفاع عن نفسه أو المغالاة في تمجيد أعماله، هو ما يفسر عزوف بعض المؤرخين عن استعمال هذا الصنف من المصادر وأحيانا رفضهم لها رفضا قطعيا لأسباب مبدئية أكثر منها لقناعات حقيقية.⁽¹⁾

✓ اللوحات الفنية: توفر أيضا للمؤرخ جملة من المعلومات. نذكر على سبيل المثال أهمية اللوحات الفنية للرسامين الإيطاليين لفهم عصر النهضة الأوروبية. فهذه الأعمال الفنية هي بمثابة النصوص بالنسبة للمختص في تاريخ الفن.

✓ الصحف والجرائد.

✓ المخطوطات وكتب التراجم والنوازل الفقهية.

✓ الوسائل السمعية البصرية: هذا الصنف من الوثائق في تطور مطرد في السنوات الأخيرة بسبب الاستعمال المكثف للراديو والتلفزيون والسينما والفيديو

✓ وبما أن عمل المؤرخ يرتكز على المعلومة فلا مناص له من الاعتماد على ما توفره وسائل الاتصال الحديثة أي الشبكة العنكبوتية (الإنترنت) فهذه الأخيرة أصبحت تقدم خدمات عديدة للباحثين في التاريخ كما في باقي العلوم الأخرى. إذ أصبح بإمكانهم الاتصال بسرعة بالجامعات وبالمؤرخين في مختلف أجزاء العالم، بالإضافة إلى إمكانية الدخول مباشرة وعن بعد إلى مراكز الأرشيفات والمكتبات العالمية وبعض المعالم الأثرية في العالم.

إن الأنترنت أصبح اليوم مصدرا إضافيا لا يمكن الاستغناء عنه، وهو يضاف إلى مجموع المصادر المعتمدة في الأبحاث العلمية.

1- فريد بن سليمان، مرجع سابق، ص. 25.

تتوفر إذن للمؤرخ وثائق متنوعة وعديدة تستوجب منه التعامل معها بحذر وبحس نقدي. وعليه أن يقوم بنقد مصادره: أي التحليل الباطني والخارجي للوثيقة من أجل استخراج كل الدلائل التي تفيد في تقديم ما يعرفنا بالمؤلف وعصره والبلد الذي عاش فيه بالإضافة إلى فحص خط الوثيقة ولغتها ومضمونها ...⁽¹⁾ فالتاريخ لا يتجدد باكتشاف وثائق جديدة بقدر ما يتجدد بنوعية الأسئلة التي يطرحها المؤرخ على الوثائق وتأويله لها.

إن الماضي الذي يقوم المؤرخ بدراسته هو ليس ماضي ميت، ولكنه بمعنى ما، ماضي ما يزال يعيش في الحاضر، فالمؤرخ جزء من الحاضر بينما تنتمي الأحداث والوثائق إلى الماضي⁽²⁾. إن المؤرخ ووقائع التاريخ هما ضروريان بعضهما لبعض؛ فالمؤرخ بلا وقائعه هو بلا جذور وعقيم، والوقائع بلا مؤرخ عديمة الحياة والمعنى⁽³⁾.

ولكي يتمكن المؤرخ من إحياء الماضي وكتابة تاريخ علمي لا يبد له من بعض الشروط والأدوات نوجزها على الشكل التالي:
✓ الجرأة على قول الحقيقة:

"ومن شروط كتابة التاريخ القدرة على قول الصدق. غير أن ذلك القول يرتكز جزئياً على قرب الشاهد من الحدث. والقرب هنا، يستعمل بالمعنيين الجغرافي والزمني. ويبدو أن درجة الاعتماد على شهادة الشاهد تختلف بالنسبة إلى بعده الشخصي عن مسرح الحدث من حيث الزمن والمسافة، وبعد الحدث من حيث الزمن والمسافة بالنسبة إلى تسجيله له.
✓ اعتماد المصادر الموثوقة:

تختلف المصادر حسب نوعيتها ومعطياتها كما تتباين قيمتها العلمية، ومن مسؤولية المؤرخ ضرورة التمييز بين المصادر الأولية والمصادر الأصلية الأخرى من وثائق ومخطوطات، واعتماد الاقتباس بشكل علمي يأخذ بعين الاعتبار متى يمكنه نقل المعلومات باختزال ومتى يدونها وافية. وأن يحترم في كلتا الحالتين الشروط العلمية للاقتباس. وأن يسهر المؤرخ على اعتماد المناهج العلمية في مقابلة المصادر.

وعلى واجهة أخرى، تتجاوز مسؤولية المؤرخ الكتابة التاريخية أي السرد المنظم للأحداث لتشمل معاني ثقافية واسعة، فالمؤرخ هو المسؤول الأول عن التراث الثقافي كأثر عمراني أو كتراث مكتوب، ومن ثمة فهو يساهم بطريقة أو بأخرى في حفظ التراث والتعريف به، ويضمن له الاستمرارية التاريخية، كما يساهم في حفظ معالمه، ومن ثم فمن مسؤوليته الدقة في

1 - أنجلو وسينوبوس، النقد التاريخي، مرجع سابق. 87

2- جفري باراكلو، الاتجاهات العامة في الأبحاث التاريخية، ترجمة صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت،

1984، ص 347.

3 - نفسه.

التفاصيل التي تهم كل معلمة تاريخية، وذلك بوضع بيان مفصل نزيه لا يسمح بالتعريف بها فحسب بل وبترميمها أيضا إذا اقتضى الحال.

✓ البحث عن تفاصيل خاصة بالشاهد أو الدليل:

إن للوثائق بأكملها أهمية، فهي تستخدم في الغالب كمناجم نستخلص منها التاريخ الخام ليس إلا. وكل لقية من ذلك الخاص، على أية حال، قد تنطوي على قطع أخرى من نوعها. وبعبارة أخرى إن الدرجة العامة لموثوقية مؤلف تنحصر أهميتها فقط في إثبات الموثوقية المحتملة لأقواله الخاص به.

ومهما يكن من أمر فإن المؤرخ هو صاحب القضية، وهو المدافع، وهو القاضي وهو هيئة المحلفين معا. غير أنه كقاض لا يبعد أي دليل مهما يكن إذا كان يمت إلى القضية بصلة، فبالنسبة إليه، يكون أي تفصيل للدليل موضع ثقة - حتى ولو أنه يتأتى عن طريق وثيقة تم الحصول عليها بطريقة الغش أو التزوير، أو أنها مبنية على شهادة تستند على السماع، أو أنها تنبع من شاهد له مصلحة - مادامت تستطيع أن تجتاز أربعة فحوص: البحث عن تاريخها الخاص، وضعها في إطارها العام، ومقارنتها مع وثائق مزامنة لها ثم تحليلها والتعليق عليها.

✓ الموضوعية:

ومن مسؤولية المؤرخ ان يكتب في غياب شخصه، بل يعتمد في الكتابة استنطاق المستندات بتحر حيادي وقانوني يجعل الاستنتاجات المحصلة قابلة للمناقشة والنقد.

✓ اعتماد تحليل يقرب من الحقيقة التاريخية:

ولربما يكون من المفيد أن نشير إلى ما نعنيه بالحقيقة هو محاولة تصديق المصدر أو الوثوق به، وهو أيضا ما نستطيع أن نصل إليه من فحص دقيق لأحسن المصادر المتوفرة لدينا، وأن يكون ما وصلنا إليه هو شبيه جدا بما وقع فعلا. وذلك يعني أن المؤرخ يقرر أرجحية الصحة أكثر من تقريره للحقيقة من حيث موضوعيتها. وعلى الرغم من وجود ارتباط عظيم بين الأمرين فهما ليسا بالضرورة صنوين.

وعلى هذا فإن الحقيقة التاريخية يمكن أن توصف على أنها أمر معين مشتق اشتقاقا مباشرا أو غير مباشر من وثائق تاريخية ومعتبر على أنه موثوق به بعد فحص دقيق طبقا لقوانين المنهج التاريخي.

✓ القدرة على التحليل والتأويل:

على المؤرخ، عند تحليله وثيقة من أجل "حقائقها" المفردة، أن يقترب منها وهو يحمل في نفسه سؤالا أو مجموعة من الأسئلة، دون أن يربط نفسه باتجاه معين.

إن وضع الفرد على صورة الاستفهام أحكم من وضعه بطريقة إعلانية وذلك لأنه قبل كل شيء يكون أبعد عن الإلزام قبل أن تفحص كل الأدلة. وكذلك أيضا يمكن أن يساعد بطريقة ما

في حل مشكلة ثبوت صحة المادة نفسها، لأن المواد الثابتة صحتها تنحصر في المواد التي توصل بطريقة مباشرة إلى الإجابة على السؤال أو أحيانا عوض الإجابة تمكن من طرح سؤال أعمق. إن هذه الشروط لكتابة التاريخ أصبحت اليوم تفرض نفسها بكل إلحاح. ولم يعد هناك من عذريمكن للمؤرخ أن يتذرع به في عصر يشهد فيه العالم التطور التقني والمعلوماتي، عصر الأنترنت الذي سقطت فيه كل الحدود المعرفية والثقافية و انفتحت المكتبات ودور الأرشيف بعضها على بعض دون شروط أو قيود وصار المرء فيه ينفذ على الرغم من بعد موقعه الجغرافي، إلى الخزائن النفيسة الحافظة لأهميات الكتب، فأصبح المؤرخ قادرا على سد الثغرات التي قد تخلفها وثائق بلده بالاعتماد على المخزون الأرشيفي لدول أخرى. ووضع هذا التقدم العلمي أمام مسؤولية أخرى أكبر وأقوى. ذلك أن كتابته أصبحت موضع فحص وتجريب من خلال مؤلفات الغير واتسعت مسؤوليته بما فيها من حياد وموضوعية وأمانة. إن من أمانة المؤرخ هو أن يكتب التاريخ وهو في كامل الوعي بأن كتابته ستساهم في الاستمرارية التاريخية وصنع التاريخ. بمعنى أنه إذا كتب بموضوعية فهو يكرس وعيا فكريا بما يحمله ذلك الوعي من حمولات أخرى سياسية أو ديمقراطية أو غيرها، أو قد يكتب دون أمانة فيكون قد شوه الواقعة التاريخية التي تحدث عنها بتزييف كما ساهم بتزييف زمن الكتابة.⁽¹⁾



1 - عبد الوهاب بن منصور، مرجع سابق، صص. 6-7-8

خلاصة:

طبيعي أن التاريخ مخالف للعلوم الدقيقة، لكنه علم من العلوم التي تعنى بتصرفات الإنسان وبتطوره على حد قول المؤرخ الفرنسي مارك بلوخ. فعلم التاريخ علم مصيري لأنه من علوم الحياة، ولذلك لا بد في الكتابة التاريخية من إعمال العقل والعاطفة، فالمؤرخ ملزم بأن يجد لنفسه منزلة بين المنزلتين، فكما أنه لا ينبغي له التحيز، فكذلك يستحيل عليه الحياد، وتلك خصوصية هذا العلم الإنساني. فالتاريخ ليس فقط حفرا في الوثيقة المكتوبة بل أيضا تحقيق، والتحقيق يستلزم النزول إلى الميدان، والثقافة الشعبية ميدان، فكما يقول بول فين: "حتى وأنت تتجول في السوق قد تلتقط إشارات تاريخية"⁽¹⁾. فمهمة المؤرخ لا تقتصر على دراسة الماضي وتحليله وفق مناهج علمية فقط بل هي مسؤولية وواجب في الدفاع عن القضايا الوطنية والقومية والإنسانية، فهو "الحارس الأمين" و"الحامي" للتراث والذاكرة الفردية والجماعية، والمدافع عن قضايا الأمة.



1 - محمد حبيدة، زمن الأتاي، قراءة في كتاب "من الشاي إلى الأتاي، العادة والتاريخ" لعبد الأحد السبتي وعبد الرحمان لخصاصي، مجلة أمل، عدد 21/1999، ص 177.

أهمية الدراسات التاريخية في تحليل ظاهرتي الأزمة والصدمات في الاقتصاد العالمي المعاصر

الأستاذ الدكتور عمار فاضل حمزة / كلية التربية للبنات - جامعة البصرة
الأستاذ المساعد الدكتور خولتة طالب لفتة / كلية الآداب - جامعة البصرة

أهمية الموضوع :

تعد ظاهرتي الأزمة والصدمة الاقتصادية من أهم الظواهر التي تترك تأثيراً على حركة النشاط الاقتصادي في العالم وعلى التطورات السياسية والاجتماعية في مختلف بلدان العالم ، وتلك الظواهر تستغرق عادة فترات زمنية قد تطول أحيانا حتى تتمكن الدول من التخلص من أثارها ، فضلا عن تهديدها لاستقرار السياسي للدول بشكل عام من هنا تبرز أهمية الدراسات التاريخية بصورة ملحة لدى صنّاع القرار الاقتصادي في تقديمها مادة علمية ورؤية تحليلية تساعد على تلافي أثار الأزمات الاقتصادية وتجنب الصدمات المرافقة لها في بعض الأحيان ، لقد ارتبطت أهمية دراسة التاريخ مع نوعية وطبيعة آراء المفكرين الاقتصاديين مما أدى لانقسامهم إلى عدة مجموعات، فترى مجموعة منهم ترى أن لا حاجة للاهتمام بدراسة التاريخ لأنه يحتوي على العديد من الأخطاء، بينما ترى مجموعة أخرى أنه لا يمكن فهم علم الاقتصاد إلا من خلال دراسة تاريخه ، لذلك من الممكن تلخيص أهمية الدراسات التاريخية بالتعرف على طبيعة ارتباط الأفكار الاقتصادية مع العصور القديمة ومعرفة دور الفكر الاقتصادي في بناء وعداد الأنظمة السياسية والاقتصادية للدول والقدرة على المقارنة بين الأفكار الاقتصادية المتنوعة مما يساهم في الوصول إلى أحكام متوازنة. فيما يتعلق بأسباب الأزمات والصدمات الاقتصادية واليات تجاوزها مستقبلا فالتاريخ يعلم درسا وفقا لقول المؤرخ الدكتور هاشم يحيى الملاح

اشكالية الدراسة :

تعالج الدراسة اشكالية معينة وهي أن الأزمات الاقتصادية والمالية وما تتمخض عنه أحيانا من صدمات وهزات اقتصادية عنيفة أضحت من أهم سمات العصر الحديث ، إذ شغلت اهتمام الكتاب والباحثين والاقتصاديين وحتى السياسيين في مختلف الدول ، وتطور الفكر الاقتصادي الذي يتناول تحليل الظاهرة ويبحث في مسبباتها وكيفية معالجتها .

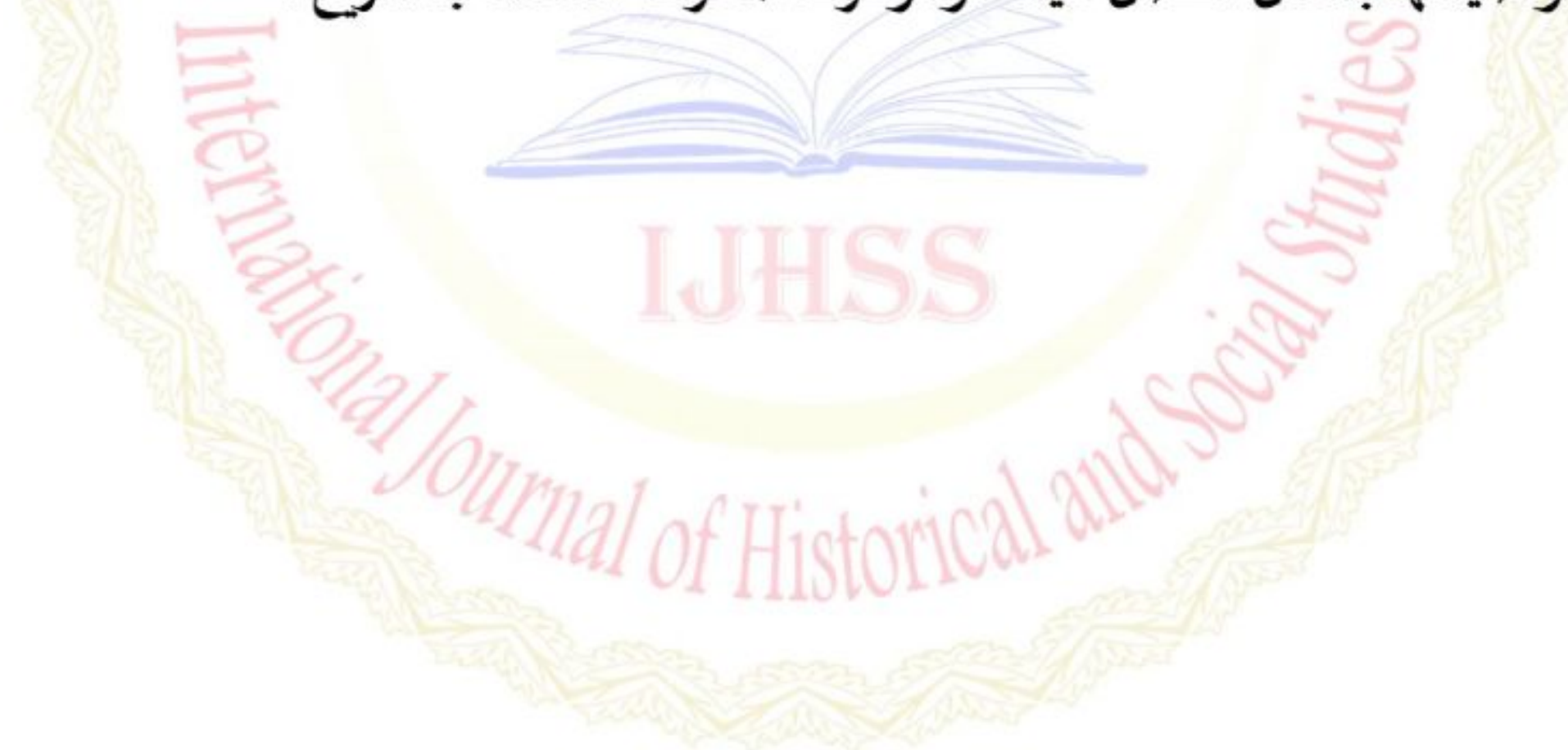
لقد أثارت الأزمات المالية والاقتصادية المتلاحقة في العقود الأخيرة تساؤلات ونقاشات حادة وكشفت إشكاليات عديدة حول نوعية المعلومات وأساليب التعليم الجامعي في أقسام الاقتصاد ، إذ يرى البعض انه لا يجري تدريس التاريخ الاقتصادي والمالي بجدية حتى في أرقى الجامعات العالمية على الرغم من إن دراسة التاريخ تلعب دورا حاسما في عملية التفكير الاقتصادي ، ويوفر فرصة ثرية لأرباب العمل الراغبين بتحفيز أنشطتهم الاقتصادية من خلال استيعاب وفهم التجارب السابقة ، من هنا ظهرت الشكوى من أن الاقتصاديين لا يفهمون حقا الطريقة يعمل بها النظام الاقتصادي والمالي ، وهم غير مهتمين للتفكير حول

السياسات الملائمة لتجنب الكوارث في زمن الأزمات بسبب عدم اكتراثهم بالتاريخ ، والسؤال الذي يطرح نفسه هو هل هناك حقا قصور في الرؤية الأكاديمية لموضوع التاريخ باعتباره أداة هامة لفهم الأزمة والصدمة الاقتصادية أم أن مغزى الظاهرة يحمل بعدا آخر؟

فرضية البحث :

من منطلق الأهمية والإشكالية السابقة يفترض البحث أن معرفة التاريخ الاقتصادي هو أمر ضروري للتفكير في الاقتصاد لأنها تقود العاملين في هذا الحقل إلى معرفة التقلبات الكبرى في الأداء الاقتصادي لكونها حدثت عدة مرات في الماضي ، وأنها ستحدث مرة أخرى في المستقبل. ومع أن الأزمة المالية والاقتصادية قد مرت ولا زالت تمر، لكن التحديات الكبيرة الطويلة الأجل التي تواجه العالم ستبقى حاضرة ، من بين هذه التحديات هو السؤال عن كيفية إنقاذ بلايين البشر من الفقر ، ولكي نفهم اللغز القادم علينا الالتفات إلى السجل التاريخي، فان ما أعطى دفعا للنمو الاقتصادي الحديث هو ولادة التاريخ الاقتصادي في المقام الأول .

هدف الدراسة : تهدف الدراسة إلى مناقشة وتحليل الجدل حول أهمية الدراسات التاريخية ، والتأكيد على أن التاريخ الاقتصادي هو تخصص مفيد ونافع ، لكن المشكلة تظهر في أن القليل من الاقتصاديين الذين يعملون في السوق المالي لديهم معرفة حقيقية بالأحداث التي وقعت في الماضي وعلاقتها المؤثرة والهامة بالشؤون الحالية ، ومن خلال هذا الفهم يمكن فهم الأزمة والرخاء والانسيابية والصدمة في الاقتصاد وتوضيحها بشكل أفضل فيما لو توفرت المعرفة الكاملة بالتاريخ .



The importance of historical studies in analyzing the crisis and shock phenomena in modern world economy

Prof. Dr. Ammar Fadhil Hamza

College of education for girls - Basra University

Assit. Prof. Dr. Khawla Talib Lafta

College of Arts - Basra University

Abstract:

The phenomena of economical crisis and shock considered among the most important phenomena which affect the economical activity, political and social development around world, the countries need a very long time in order to get rid of the consequences of these phenomena, as well as the threats on political stability of the countries. So the importance of historical studies raised as a necessity for economical decision makers in order to introduces a scientific and analytical vision help to hindering the effects of economical crises and to avoiding its implication shocks.

The importance of historical studies was related to the kind and nature of the ideas of the economist thinkers which causes to dividing them to many groups, one group said it is not feasible to studying history because it is include a lot of mistakes, whereas other group said that it cannot understand the economy without studying its history. So we can clarifying the importance of historical studies through identifying the relating the economical ideas to the old eras and understand the role of economical thought in building the political and economical systems of countries, and making comparison among economical ideas which contributes to reach balanced judgments about the causes of economical crises, and the mechanisms for avoiding it, as Dr. Hashim Yahia Almallah said " History teach a lesson".

Research Problem:

This research aims at dealing with a problem that economical and financial crises and its consequences of economical shocks becomes one of the most important nowadays features which obsess the interests of economy writers, researchers and even the politicians in countries.

The economical and financial crises was sparked a sharp questions and discussions and reveals a very important problem related to the kind of information and the university education methods in the departments of economics which did not teach seriously the history of economy and finance even in best ranked universities although its critical role in economical thinking,

providing a very good opportunity for works owners who seeking for developing their economical activities through understanding the previous experiments, here the problem raised that the economist do not really understand how the world economical and financial system is work. So they are not qualified to thinking about the suitable policies to avoiding the disasters in times of crises because they careless about history.

Research hypothesis

The research based on a main hypothesis which is : the understanding of history of economy is necessary for economical thinking because it is leads persons in this field to know the fluctuations in economical performance because it was happened much in the past, and it will be happened next in the future, as the economical and financial crisis passed away , the long term challenges faced the world will stay. Among the challenges is the question how to save a billions of people from the poorness, and in order to understand the next puzzle we have to look back to the history record.

Research objective:

This research aims at discussing and analyzing the dialect about the importance of historical studies, and to assuring that economical history is a useful discipline, but the problem is that there are a few economist who working in financial market have a real knowledge about the true events happened in the past and its influenced relationship with present time, via this understanding we can recognize the difference between crisis and prosperity , shock and flexibility in economy and give best clarification whereas the comprehensive knowledge about the history is provided.

أولاً : الأزمات والصدمات الاقتصادية ، في المصطلح والمفهوم:

1- مفهوم الأزمة الاقتصادية Economic Crisis : تعني اللغوي للأزمة: الأزمة: الشدة والقحط. يقال أصابهم سنة أزمتمهم أزمًا، أي استأصلتهم. وأزم علينا الدهرُ يَزمُ أزمًا، أي اشتدَّ وقلَّ خيرُه. ويقال أيضاً: أزمَ الرجلُ بصاحبه، إذا لزمه. وأزمه أيضاً، أي عضه. وأزمَ عن الشيء، أي أمسك عنه.⁽¹⁾

قال الرازي في مختار الصحاح: أزم عن الشيء أمسك عنه وبابه ضرب، وفي الحديث أن عمر رضي الله عنه سأل الحارث بن كلدة: ما الدواء فقال الأزم، يعني الحمية، وكان طبيب العرب. والمأزم المضيق، وكل طريق ضيق بين جبلين مأزم، وموضع الحرب أيضاً مأزم، ومنه سمي الموضع الذي بين المشعرويين عرفة مأزمين.⁽²⁾

إن الأزمة بمفهومها العام عموماً تعني الانعطاف أو التحول في مسار ما، الأمر الذي يُنتج خلل في النظام أو توقفه عن العمل ، وتعرف الأزمة الاقتصادية على أنها حالة يعاني فيها اقتصاد بلد ما من تباطؤ مفاجئ ناجم عن أزمة مالية ، ومن المرجح أن يعاني الاقتصاد الذي يواجه أزمة من انخفاض الناتج المحلي الإجمالي ، ونقص السيولة وارتفاع أو انخفاض الأسعار بسبب التضخم أو الانكماش الاقتصادي ، كما يمكن للأزمة أن تأخذ شكل الركود أو الكساد الاقتصادي ، وضمن المعنى نفسه عرفت الأزمة بأنها اضطراب فجائي يطرأ على التوازن الاقتصادي في بلد ما أو عدة بلدان، وهي تطلق بصفة خاصة على الاضطراب الناشئ عن اختلال التوازن بين الإنتاج والاستهلاك.⁽³⁾

فالمعنى يصبح خلل فجائي يصيب التوازن الاقتصادي، أو الاختلال بين الإنتاج والاستهلاك، وما يصاحبه من انخفاض غير متوقع في أسعار عدد من الأصول (رأس المال المادي المستخدم في الإنتاج، أصول مالية كالأسهم، وحسابات الادخار)، أو الأصول المالية المتمثلة في العقود المستقبلية للنفط والعملات الأجنبية، إذ يبدأ الانهيار فجأة في أسواق الأسهم، أو انخفاض حاد في قيمة العملة للبلد، أو سوق العقار، ليتمدد لاحقاً إلى بقية القطاعات ذات الصلة المباشرة بالاقتصاد.

2- مفهوم الصدمة الاقتصادية Shock Economic : أما الصدمة فتعني لغة: نازلة أو مُصيبة تفاجئ الإنسان فتقلقه⁽⁴⁾ هي عبارة عن حدث يتم خارج الاقتصاد وينتج عنه تغيير كبير داخل الاقتصاد ، وتعرف الصدمات الاقتصادية بأنها الأحداث التي تؤثر على الاقتصاد أثناء حدوثها خارجة ولا تخضع للمساءلة من خلال الاقتصاد. فهي غير متوقعة ولا يمكن التنبؤ بها وعادةً ما تؤثر بشكل كبير على العرض أو الطلب في جميع الأسواق.⁽⁵⁾

1 سليمان بن احمد بن ايوب الطبراني ، المعجم الكبير ، تحقيق: حمدي عبدالمجيد السلفي ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، 1397 هـ ، ج 1 ، ص 304.

2 محمد بن ابي بكر الرازي ، مختار الصحاح ، بيروت ، 1995 ، ج 1 ، ص 6 .

3 احمد زين الدين ، طبيعة الأزمات الاقتصادية ودوافعها الرئيسة ، عمان ، 2007 ، ص 41

4 مختار الصحاح ، مصدر سابق ، ج 3 ، ص 88

5 إيهاب علي النواب ، الصدمات الاقتصادية والاختلاف في طبيعة الأثر ، شبكة نأ ، 18 / 6 / 2017 ، ينظر موقعه على الانترنت : annabaa.org

في الواقع أن اغلب الصدمات الاقتصادية هي سبب او نتاج الأزمات الاقتصادية وهنا يكمن الترابط بين المفهومين ، فالأزمات الاقتصادية التي يتعرض لها النشاط الاقتصادي في دولة ما من تنتج العديد من الصدمات الاقتصادية التي يمكن تقسيمها إلى نوعين: النوع الأول هو صدمات الطلب (Demand Shocks)، وتتمثل بالتغيرات في السياسة، مثل صدمات السياسة المالية (صدمة الإنفاق الحكومي والخاص ومعدلات الضرائب) ، وصدمة السياسة النقدية (عرض النقود وسعر الفائدة وسعر الصرف)، والنوع الثاني هو صدمات العرض Supply (Shocks) ، أو الإنتاجية التي تؤثر مباشرة في جانب الإنتاج ، وتتمثل أهم صدمات الجانب الحقيقي بالتقدم التكنولوجي كالاختراعات والتغيرات المناخية وحدوث النزاعات واكتشاف مصادر جديدة للطاقة، وبعد ارتفاع وانخفاض الأسعار العالمية للمدخلات المستوردة أو المصدرة من السلع الأولية والوسيطه مثل النفط الخام، من أهم الصدمات التي تحدث في جانب العرض.⁽¹⁾

وتقسم الصدمات إلى محلية أو داخلية وأخرى عالمية أو خارجية، وتنتقل آثار هذه الصدمات من خلال مجموعة من الروابط والقنوات التجارية والمالية سواء بين الدول أو محلياً عبر مختلف القطاعات المحلية في البلد، وفيما يتعلق بتأثير الصدمات الاقتصادية، نجد أن له انعكاسات مختلفة على سوق العمل والتغيرات التي تحدث في التشغيل والأجور، وذلك بسبب الأوضاع المؤسسية السائدة، إذ أن الأجور هي المتغير الأساسي المتلقي لأثر الصدمات الاقتصادية في سوق العمل في حالة مرونة الأجور، بينما تتأثر معدلات التشغيل بشكل أكبر في حالة الدول التي تعاني جمود الأجور، إذ ينخفض العرض الكلي أو الناتج نتيجة الصدمات السالبة، وبالتالي ينخفض الطلب على العمل، الأمر الذي يؤدي إلى انخفاض مستوى التشغيل الكلي وارتفاع البطالة⁽²⁾.

ثانياً: نظرة موجزة إلى الأزمات والصدمات الاقتصادية في التاريخ المعاصر:

من خلال ما يزيد عن أكثر من مائتي عام عرف النظام الرأسمالي نحو ثلاثة وثلاثين أزمة اقتصادية مختلفة، تختلف من حيث مدتها ونوعها وتأثيرها على مستوى النشاط الاقتصادي، والمتتبع لتاريخ الأزمات أو الدورات الاقتصادية في النظام الرأسمالي يلمس بوضوح وقوع اقتصاديات الدول التي تبني هذا النظام بأزمات أو دورات قصيرة جداً، ودورات متوسطة الأجل تتراوح مدتها بين 5 - 10 سنوات، ودورات طويلة الأجل تحدث كل 10 سنوات أو 15 سنة.

حفل تاريخ الاقتصاد العالمي بالعديد من الأزمات الاقتصادية والمالية العالمية، التي كانت لها علامات بارزة في حياة الملايين، أغلبها بصورة سلبية، لكن الملاحظ أن العدد الأكبر من الأزمات الاقتصادية كان من نصيب الاقتصاد الأمريكي ، في عام 1929، وقعت أكبر الأزمات وأشهرها، أزمة الكساد الكبير، بعد أن

(1) جاسم المناعي ، الأزمة الاقتصادية لدول جنوب شرق آسيا وانعكاساتها على اقتصاديات دول مجلس التعاون الخليجي ، ابو ظبي ، 1998 ، ص 46

(2) المصدر نفسه ، ص 47 - 50

شهدت عشرينيات القرن انتعاشاً كبيراً في مجالي صناعة السيارات والإنشاءات، حتى إن شركة فورد كانت تصنع 9000 سيارة يومياً من طراز تي الشهير وقتها، وفي نفس الوقت بلغ الإنفاق على المنازل الجديدة 5 مليارات دولار خلال عام 1925.⁽¹⁾

وبينما كانت أسعار الأسهم تشهد ارتفاعات كبيرة، كانت أسعار المستهلكين في انخفاض، إلا أن مجلس الاحتياط الفيدرالي "البنك المركزي الأمريكي" لم يعبأ وقتها بالأخيرة، ودعاها قلقه من تواصل ارتفاع أسعار الأسهم إلى رفع معدلات الفائدة من 3.5% إلى 5%. لم يؤت رفع معدلات الفائدة ثماره على صعيد أسعار الأسهم، التي استمرت في الارتفاع، ليسجل مؤشر داو جونز الصناعي 381 نقطة، وهو أعلى مستوى له حتى تلك اللحظة، إلا أنه تسبب في انخفاض الإنتاج الصناعي بمعدل سنوي تجاوز 45%.، فقد ضاعفت الأبناء الواردة من لندن، والخاصة بانهيار بورصتها، بعد إلقاء القبض على كلارنس هاتري، رجل الأعمال الكبير الذي حصل على قروض ضخمة مقابل أسهم ادعى ملكيتها، من مشاكل الاقتصاد الأمريكي، وخلال تعاملات يومي 28 و 29 أكتوبر/تشرين الأول، فقد مؤشر داو جونز الصناعي الشهر 25% من قيمته، ووصلت خسائره بعدها بأسبوعين إلى 45%، قبل أن تبدأ البنوك الأميركية في الانهيار، ليفلس 1350 بنكاً خلال عام 1930 وحده، ويوقف البنك الفيدرالي نشاطه الأساسي وقتها، وهو إقراض البنوك التي تحتاج للسيولة، فيصل عدد البنوك المفلسة بحلول عام 1933 إلى 11000 بنك.⁽²⁾

في عام 1961 تعرض الاقتصاد الأمريكي إلى أزمة أخرى عرفت بأزمة بالهبوط السريع لأسواق المال الأميركية إبان حكم الرئيس جون كينيدي، وامتد الانهيار من ديسمبر/ كانون الأول 1961 إلى يونيو/حزيران 1962، وقد حدث بعدما حققت هذه الأسواق نمواً متصاعداً لعقود منذ أزمة 1929، لتأتي مرحلة تصحيح لوضع السوق.⁽³⁾

ثم جاءت الثمانينيات والتسعينيات، لتشهدا عشرات الأزمات الصغيرة، في أميركا اللاتينية وجنوب شرق آسيا "النمو الآسيوية" وأوروبا، إلا أن أغلبها تم احتواؤه، رغم ما سببه من خسائر، ففي عام 1987 ظهرت أزمة خانقة عرفت باسم أزمة الاثنين الأسود، ففي ذلك الموافق 19 أكتوبر/تشرين الأول 1987، تكبدت أسواق المال العالمية خسائر ضخمة، إذ انطلقت موجة الهبوط الشديد من هونغ كونغ وبقية الأسواق الآسيوية، وانتقلت إلى أوروبا ثم الولايات المتحدة، وخسر مؤشر داو جونز الأمريكي 508 نقاط وفقد أكثر من 22% من قيمته.

وفي يوم 27 أكتوبر/تشرين الأول 1997، شهدت البورصات العالمية موجة هبوط حاد ناتجة عن الأزمة الاقتصادية في آسيا، إذ سجل مؤشر داو جونز ثامن أكبر خسارة يومية منذ نشأت البورصة الأميركية عام

(1) اريك راشواي، الكساد الكبير والصفقة الجديدة، ترجمة ضياء وراد، مؤسسة هنداي، القاهرة، 2015، ص 49 - 50

(2) المصدر نفسه، ص 55 - 67

(3) نبيل جعفر عبدالرضا، عدنان فرحان الجوارين، تاريخ الأزمات الاقتصادية في العالم، العين، الإمارات العربية المتحدة،

2015، ص 96

1896، وبلغت نسبة هبوط المؤشر 7.18%، كذلك انخفض مؤشر ناسداك بنسبة 7% وستاندرد أند بورز 6.68%..

وعشية اكتمال الألفية، وخلال الفترة بين 1998 و2002 عصفت بالعالم أزمات اقتصادية كبيرة، في روسيا التي أفلست حكومتها، ثم البرازيل التي فقدت عملتها 35% من قيمتها، قبل أن يضرب العالم المتقدم بصفة خاصة ركود كبير ضاعفت من آثاره فقاعة الإنترنت الناتجة عن تزايد المضاربات على شركات الإنترنت حديثة النشأة، كما برزت العديد من الفضائح المحاسبية في بعض الشركات الأميركية، بالإضافة إلى أحداث 11 سبتمبر/أيلول 2001 في الولايات المتحدة التي تسببت في آثار اقتصادية واسعة طاولت البورصات العالمية، ما أدى إلى تراجعها بنسبة كبيرة، إذ تم تأجيل فتح بورصة نيويورك وغلق بورصة وول ستريت، وتزامن ذلك كله مع أزمة اقتصادية طاحنة في الأرجنتين، طالت بعض بلدان القارة أيضاً، وترتب عليها إنهاء ارتباط العملة الأرجنتينية بالدولار وظهور عملة بديلة، وعجزت الأرجنتين عن سداد ديونها، وارتفعت البطالة وانتشرت المظاهرات وسقطت الحكومات. وفي نهاية 2002، كان أكثر من نصف الأرجنتينيين تحت خط الفقر، بالإضافة إلى ربع آخر من المعوزين، واعتبر سبعة من كل عشرة أطفال من الفقراء.

وتعرضت أسواق المال العالمية للانهياري في أكتوبر/تشرين الأول 2008، بعد تداعي الأسواق الأميركية المتأثرة بأزمة القروض العقارية وشبح الركود الاقتصادي، كم اجتاحت موجة هبوط حادة البورصات العالمية يوم 24 أغسطس/أب 2015، خسرت فيها الأسهم أكثر من ثلاثة تريليونات دولار، وذلك بسبب انهيار سوق الأسهم الصينية ومؤشرات على تباطؤ نمو الاقتصاد الصيني.⁽¹⁾

ويذهب البعض إلى أن الدورات الطويلة الأجل تحدث مرة كل خمسين عاماً أو ستين عاماً، إلا أنه بعد الحرب العالمية الثانية عام 1945 اتسمت الأزمات بسمتين بارزتين:

الأولى: أن هذه الأزمات أصبحت أقل حدة.
الثانية: أنها أصبحت أقصر أمداً من الناحية الزمنية مما كانت عليه قبل الحرب العالمية الثانية. و يعزى السبب في ذلك إلى تمتع الرأسمالية بمقدرة كبرى على مواجهة أزماتها الدورية، لكنها - أي الأزمات - صارت أكثر عمقاً وتأثيراً. ولعل السبب في ذلك يعود إلى العولمة الاقتصادية وما صحبها من تبعات وما ترتب عليها من آثار، فالأزمات التي كانت تحدث في منتصف القرن الماضي كان يمكن التعطيم عليها أو عدم تسليط الضوء عليها بسبب محدودية وسائل الإعلام والاتصال، الأمر الذي اختلف تماماً في العقد الأخير من القرن الماضي والعقد الأول من هذا القرن، لذلك فإن ما قيل في شأن الأزمات الاقتصادية التي سبقت الحرب العالمية الثانية وما تبعها التي شهدها العالم في القرن الماضي قد يتفق في الوسائل والمقدمات مع الأزمات الاقتصادية الحديثة المعاصرة، لكنه يختلف من حيث النتائج معها.⁽²⁾

(1) المصدر نفسه، ص 100 - 110، ص 135 - 158، ص 163 - 168، ص 171.

(2) احمد زين الدين، المصدر السابق، ص 56

غالبا ما كانت الصدمات الاقتصادية مرتبطة بمبدأ يحمل رؤية طموحة للتاريخ الاقتصادي في الخمسين عامًا الماضية، ولصعود أصولية السوق الحرة، فإستراتيجية الصدمة أو عقيدة الصدمة هو أسلوب للتلاعب تستخدمه الحكومات والإعلام لخصخصة التعليم والمنافع العامة التي يملكها الشعب ورفع الرقابة على الأسواق استجابة لسياسات الرأسمالية العالمية، وهي الجزء الأكثر فاعلية في هذا التلاعب ويهدف إلى وضع الناس في حالة صدمة يعاني بعدها الناس من الرهبة وفقد القدرة على الحركة في هذه الحالة يصبحون غير قادرين على التفاعل مع فقدان الحقوق الوحشي الذي قد يتعرضوا له (1)

نشأت عقيدة الصدمة في الخمسينيات من القرن العشرين في مجال الطب النفسي فقد تعاونت وكالة الاستخبارات الأميركية مع الطبيب النفسي الكندي البارز (أيوين كامرون) ومولت أبحاثه عن استخدام الصدمة الكهربائية على أدمغة المرضى النفسيين بهدف تحويل أدمغتهم إلى صفحة بيضاء لإعادة كتابة المعلومات الملائمة عليها. كان كامرون يعتقد أن ثمة عاملين مهمين يتيحان لنا الحفاظ على إدراكنا البيانات الحسية التي ترد لنا باستمرار، والذاكرة، لذلك حاول إلغاء الذاكرة بواسطة الصدمات الكهربائية والمهلوسات، وحاول إلغاء البيانات الحسية بواسطة العزل التام. (2)

تفترض هذه العقيدة انه عندما يطرأ تحسن واضح على الطلب في سلعة معينة، أو تراجع كبير في الإمدادات، فإن تخمة المعروض تتحول فجأة إلى نقص، متسببة في ارتفاع صاروخي للأسعار، وإحداث حالة من الركود الاقتصادي، كما حدث تماماً في أسعار النفط عام 1973، ففي ذلك العام فرضت منظمة "أوبك" حظراً على النفط لدفع الدول الغربية إلى إجبار "إسرائيل" على الانسحاب من الأراضي العربية المحتلة في حرب 1967 جعلت أسعار النفط ترتفع ارتفاعاً شامهاً بلغت أربعة أضعاف في أقل من شهر، وأدى هذا الارتفاع في الأسعار إلى انخفاض النمو الاقتصادي السنوي في الولايات المتحدة من 6% في عام 1973 إلى سالب 0.6 في عام 1974³.

عاودت أسعار النفط الانخفاض مجدداً خلال الثمانينيات وبقيت منخفضة طيلة سنوات هذا العقد، ما تسبب في إلحاق ضرر كبير بقطاع الصناعات النفطية في العالم. وفي أواخر عام 2003، بدأت مؤسسات دولية كبرى في حث شركات النفط العالمية على ممارسة ما أسموه بـ"الانضباط الرأسمالي"، فكانوا يقولون مثلاً: "لا تستثمروا بشكل كبير، لأن النفط سيصل إلى 20 دولاراً للبرميل". لكن في عام 2004،

(1) جيهان السيد احمد، اثر الصدمات الاقتصادية الكلية في سوق العمل، مجلة بحوث اقتصادية عربية، عدد 71، 2015، ص 23 - 24

(2) نسيم بن يحيى، طبيعة الصدمات الاقتصادية (صدمة العرض، صدمات الطلب) وسبل علاجها، مجلة الاقتصاد والتنمية، الجزائر، عدد 5، 2015، ص 166 - 168

(3) محمد صالح سلمان الكبيسي، عبد الحميد عبد الهادي حميد اللامي، دراسة تحليلية لصدمة أسعار النفط الخام في السوق العالمية، الأسباب والنتائج، مجلة العلوم الاقتصادية والإدارية، عدد 104، 2018، ص 260 - 261

بدأت الأسعار صعودها المكوي مدعومة بنمو اقتصادي هائل في الصين وارتفاعاً في الطلب العالمي حتى وصل سعره او ائل عام 2014 الى 160 دولار للبرميل الواحد.⁽¹⁾ اما التراجع في أسعار النفط والمستمر منذ صيف عام 2014 كان حاداً ومؤملاً، حيث أظهرت بيانات حديثة تراجع قيمة الأموال المستثمرة في تطوير حقول نفط جديدة. علاوة على أن أغلب التقارير الدولية تشير إلى ارتفاع كبير في عدد الاستثمارات الملغاة في هذا القطاع وصلت قيمتها إلى مئات المليارات من الدولارات في الفترة بين عامي 2016 و2020².

بالنسبة للدول المنتجة، وكثير منها يعتمد بشكل مفرط على عائدات النفط، فإن انخفاض الأسعار أسهم في إضعاف اقتصادياتها وتقليص موازنتها، وتسبب في حالة من عدم الاستقرار السياسي في بعض من هذه الدول، فعندما تكون تلك الدول في حالة عداء أو خصام مع الولايات المتحدة، مثل روسيا وإيران والعراق وفنزويلا، فإن النفط الرخيص قد يكون سبباً آخر للاحتفال بالنسبة للأميركيين، بالنظر إلى أن انخفاض أسعار النفط، خلال مطلع عقد التسعينيات، قد تسبب في انهيار "إمبراطورية" كاملة، والمتمثلة في الاتحاد السوفييتي السابق.

ورغم تعامل روسيا بشكل جيد نسبياً، في الوقت الراهن، مع أزمة تقلص عوائدها النفطية من خلال سماحها بانخفاض الروبل، إلا أن بقاء سعر النفط عند مستويات أقل من الخمسين دولاراً للبرميل لعدة سنوات سيزيد من الضغوط على المالية.⁽³⁾

وكان تراجع أسعار النفط خلال عقد الثمانينيات واحداً من أسباب كثيرة وراء اتخاذ الرئيس العراقي الراحل، صدام حسين، قراره بغزو الكويت، فقد كان صدام قد أنهى، للتو، حرباً طويلة مع إيران استمرت ثماني سنوات جعلته مديناً للكويت ولدول الخليج الأخرى بحوالي 35 مليار دولار. وحتى اليوم، فإن نحو 91% من عائدات الخزينة العراقية هي من عائدات النفط، وعندما ينخفض سعر النفط عن أكثر من 100 دولار للبرميل ليستقر دون مستوى الخمسين دولاراً، فإن الحكومة العراقية لحق بها ضرر شديد⁽⁴⁾ ولعلنا نستذكر، في هذا الصدد قيام صدام قبل أسبوع من غزوه الكويت، باستدعاء سفيرة الولايات المتحدة في العراق آنذاك، أبريل غلاسي للشكوى من قيام الكويت بضخ كميات كبيرة من النفط للتسبب في تراجع سعر النفط العالمي. فقد سعى صدام من وراء غزوه الكويت إلى شطب جزء كبير من الديون، وتأمين إيرادات جديدة، وتحويل العراق إلى دولة نفطية مماثلة ومنافسة للسعودية⁽⁵⁾.

(1) المصدر نفسه، ص 262 - 266

(2) المصدر نفسه، ص 269 - 270

(3) جيهان السيد احمد، المصدر السابق، ص 33

(4) محمد حسنين هيكل، حرب الخليج: اوام القوة والنصر، القاهرة، 1994، ص 229 - 233

(5) المصدر نفسه، ص 251.

وفي مطلع التسعينيات تسبب تراجع أسعار النفط في خنق الاقتصاد الفنزويلي خلال تلك الفترة وانكماش الاقتصاد الفنزويلي بشكل حاد في البداية، ثم أصابه جمود اقتصادي طيلة عشر سنوات متتالية ، ومهد انهيار أسعار النفط في عام 1998 الطريق لانتخاب الرئيس الفنزويلي السابق، هوغو شافيز، الذي استفاد أيضاً من ارتفاع طويل الأجل لأسعار النفط التي أعقبت انتخابه في عام 1999 ، وهي ذات الظروف التي جلبت الرئيس الروسي، فلاديمير بوتين، إلى السلطة بعد عام واحد فقط.⁽¹⁾

وبالمثل، تعرضت نيجيريا لضربة موجعة من جراء انهيار أسعار النفط. وقد يكون الوضع أكثر تعقيداً بالنسبة للولايات المتحدة، في ضوء استيرادها نحو ربع النفط الذي تستهلكه اليوم، انخفاضاً من 60% في عام 2005، وذلك قبل اكتشاف تقنية استخراج النفط من الصخر الزيتي. فهذه التقنية أسهمت بجزء كبير في نمو الوظائف في الولايات المتحدة، خلال العقد الأخير، والذي تحقق بالتزامن مع التوسع في صناعة الصخر الزيتي، تحديداً، التي تواجه اليوم خطر استيراد النفط بأسعار أقل.⁽²⁾

ثالثاً: الأزمة والصدمة: الطبيعة التاريخية والخصائص

لقد اتسمت المدة بعد عام 1945 بتعدد الآراء والشروحات النظرية المفسرة للصدمة والأزمات الاقتصادية التي أصابت النظام الرأسمالي والتي تمثلت بنظرية دورة الأعمال ، والتفسيرات التي أكدت على انخفاض الأرباح ، ونظرية قصور الطلب الفعلي (Keynes) وآراء مدرسة اقتصاديات جانب العرض ، وآراء مدرسة التوقعات العقلانية ، وآراء المدرسة المؤسسية ، والنظرية النقدية التي فسرت الأزمات الاقتصادية بإرجاعها إلى التوسع والانكماش في النقود والائتمان النقدي ، وسنبحث في هذا المحور آراء بعض هذه النظريات المفسرة لأزمات النظام الرأسمالي ومنها:

أ. نظرية الاقتصادي (فريش Frisch-R)

ميز فريش بين دووافع آليات انتشار الأزمات الاقتصادية ، إذ أكد أن الدوافع تعد الأسباب الخارجية للأزمة ، أما آليات انتشار الأزمات فهي دائماً الأسباب الداخلية التي تزيد وتخفض من عمق أو الأزمة الاقتصادية ، وأن الدوافع المتمثلة بالأسباب الخارجية للأزمات التي تعرض لها النظام الاقتصادي الرأسمالي للمدة منذ الحرب العالمية الثانية وحتى الآن هي معروفة ، أما آليات نشر وتعميق الأزمة الاقتصادية داخلياً ، تتمثل بأزمة الائتمان ، التي تلاحظ قبل كل ركود اقتصادي والمتجه مساراً مسرعاً لتفاقم الأزمة ، فتتميز كل مدة توسع بزيادة طلب الاعتمادات بشكل كبير والمخصصة لتمويل زيادة الاستهلاك والاستثمار والتي تتوسع مع توسع التوقعات التضخمية وهنا لا يتطابق عرض الائتمان مع الطلب عليه لتدخل السلطات الحكومية للإقلال من السيولة المصرفية فيصبح الائتمان (التسليف)

(1) إيهاب علي النواب ، مصدر سابق

(2) محمد صالح سلمان الكبسي ، عبد الحميد عبد الهادي حميد اللامي ، مصدر سابق ، ص 266

مقنناً ويزداد سعر الفائدة وتبدأ ردة الفعل عند قطاع الأعمال والأفراد بتخفيض الإنفاق الاستهلاكي ويضع قطاع الأعمال خطط جديدة لتخفيض سرعة نشاطه الإنتاجي فيقل الطلب على العمالة وينخفض الخزين السلعي ومن ثم ينخفض الانتاج ليظهر الركود وبذلك يقول Frisch أن انخفاض مدة التسليف هو الأداة الفعالة داخلياً لنشر الأزمة. (1)

وهناك نظرية أخرى مفسرة لازمات النظام الرأسمالي مرتبطة بالنظرية أعلاه هي نظرية تراجع معدلات الأرباح حيث بين بعض الاقتصاديين إن تراجع الأرباح كانت السبب الرئيس للازمات الاقتصادية التي حدثت بعد الحرب العالمية الثانية ، ويؤكدون إن تراجع معدلات الأرباح خلال هذه المدة ، والذي دفع إلى تحديد عامل الفاعلية للنظام الإنتاجي كان عامل أساس لحدوث الأزمات ، بينما الصدمات الخارجية (كارتفاع أسعار النفط الخام) مجرد شرارات لنشوب الأزمة. (2)

ب. نظرية كينزي :

أما أنصار المدرسة الكينزية فقد فسروا أسباب الأزمات الاقتصادية التي تعرض لها النظام الرأسمالي في المدد الزمنية المختلفة إلى هبوط الطلب الكلي عن العرض الكلي وحددوا سبب ذلك بارتفاع أسعار النفط الخام في عام 1973 والتي تسببت بزيادة كلفة الإنتاج المتوقعة من قبل المنظمين ومن ثم الأرباح المتوقعة ، مما أدى إلى رفع سعر العرض الكلي لكل مستوى للاستخدام ، وبسبب بقاء منحني الطلب الكلي على حاله لم تتوقع المشروعات زيادة في الإيرادات فيحدث الركود الاقتصادي إلى أن تنمو الإيرادات المتوقعة بسبب الاستثمارات الجديدة. (3)

ج) نظرية اقتصاديات جانب العرض : أما تحليل مدرسة اقتصاديات جانب العرض لازمات النظام الرأسمالي فإنها كانت ترى إن الرأسمالية كنظام اجتماعي لا تنطوي على آليات داخلية تعرضها لازمات إفراط الإنتاج بحكم إيمانهم الشديد بقانون J.B.say (العرض يخلق الطلب) ، وبناءً عليه توجد دائماً مساواة بين العرض الكلي والطلب الكلي ، وان عناصر الخلل التي تظهر بين العرض الكلي والطلب الكلي تنشأ من جراء التدخل الحكومي في النشاط الاقتصادي ومن تقييد حرية الأفراد والمشروعات .

د) رؤية المدرسة المؤسسية : أما المدرسة المؤسسية Institutional School التي تعد احد روافد الفكر الاقتصادي الرأسمالي المعاصر والناقد لواقع الرأسمالية ، فإنها تنطلق من دراسة وتحليل المؤسسات والتنظيمات التي يتكون منها هيكل المجتمع الرأسمالي في محاولة لتشخيص مشكلات الرأسمالية من خلال التركيز على سلوكيات هذه المؤسسات والتنظيمات وعلاقاتها ببعضها البعض ، وقد توصلوا من وراء ذلك إلى نتيجة معينة مفادها إن الأدوات التي تعتمد عليها الدولة في التأثير على النمو الاقتصادي والتوازن العام مثل سياسات الإنفاق العام والسياسات النقدية والمالية لم تعد كافية لمواجهة مشكلات

(1) سعد فتحي احمد، الأزمات الاقتصادية المعاصرة ، عمان ، 2009 ، ص 15

(2) نبيل جعفر عبدالرضا ، عدنان فرحان الجوارين ، المصدر السابق ، ص 53 – 55

(3) المصدر نفسه ، ص 56 – 58

الرأسمالية ، وان ما يجب الاعتماد عليه في هذا الخصوص هو أدوات وسياسات أكثر فاعلية ، تتبناها الدولة وتقوم على التعاون المستمر والشامل بين الأجزاء المختلفة للكيان الاجتماعي وبالذات جهاز الدولة والشركات المساهمة⁽¹⁾.

ه) نظرية النقود : أما نظرية النقود الحديثة التي جاء بها الاقتصادي فريدمان Freidman ، هي آخر نتاج الفكر الاقتصادي النقدي الذي عزي التقلبات في النشاط الاقتصادي ومن ثم عدم الاستقرار والأزمات الاقتصادية إلى التغيرات في كميات النقود التي لا تتناسب مع التغيرات في إنتاج السلع والخدمات ، ويؤكد ع فريدمان ذلك بالقول بأنه لم يحدث قط إن وقعت حادثة تغيرت فيها كمية النقود بشكل كبير لكل وحدة إنتاج دون إن تصطبح معها تغيرات في مستوى الأسعار بشكل كبير أيضاً وفي الاتجاه نفسه ، وان معظم أوضاع الانكماش أو الركود الاقتصادي يسبقها انخفاض في معدلات نمو عرض النقد ، وحالات التوسع الاقتصادي تسبقها تزايد في معدلات نمو عرض النقد⁽²⁾.

و) نظرية المغالاة أو الإفراط في الاستثمار: وطرحها الاقتصادي السويدي Castel الذي يؤكد إن نهاية مرحلة الانتعاش وبداية مرحلة الانهيار تعودان إلى المغالاة في الاستثمار إلى درجة تزيد من عرض رأس المال ويرى (كاسل) إن قوى التطور الاقتصادي طالما إنها لا يمكن إن تأتي منتظمة فان عدم انتظامها سيؤديان إلى توسع كبير في المعدلات المعتدلة للنشاط الاقتصادي ، وتمثل حالات التوسع الكبيرة في مدد من الرواج والانتعاش تنتهي دائما إلى حالة الكساد والانهيار، ويعتقد كاسل إن استمرار التوسع الاقتصادي وثباته في مرحلة الانتعاش سيؤديان إلى اتجاه منحني النشاط الاقتصادي نحو الارتداد إلى مرحلة خطيرة هي الأزمة التي تحدث مصحوبة بخسارة جسيمة وفقدان الثقة وإفلاس الكثير من المؤسسات .

ز) النظرية النقدية : وكانت (النقدية النظرية) من بين أهم النظريات التي فسرت الأزمات الاقتصادية بإرجاعها إلى التوسع والانكماش في النقود والائتمان بل إن الجميع تقريباً يتفقون على إن الجانب النقدي هو السبب المباشر في وقوع الأزمات الاقتصادية .

ح) النظرية السياسية: أما النظرية السياسية اللازمة فإنها تُرجع الأزمات الاقتصادية إلى السياسيين الذين يتلاعبون في السياسات المالية والنقدية لتحقيق مصالح سياسية وانتخابية إذ إن العديد من الأزمات الاقتصادية التي حدثت تمثل انحراف إحدى أو كلتا السياستين عن المسارات التي من شأنها المحافظة على تحقيق الاستقرار المتمثل بالمحافظة على قيمة العملة داخليا وخارجيا⁽³⁾.

ويمكن حصر بعضا من أسباب الصدمات الاقتصادية في الآتي

1) (سعد فتحي احمد ، مصدر سابق ، ص 66 – 67

2) نبيل جعفر عبدالرضا ، عدنان فرحان الجوارين ، المصدر السابق ، ص 59 – 62

3) المصدر نفسه ، ص 62

أولاً: الاعتماد على مورد اقتصادي مغلق التشابك القطاعي، أي لا يملك ترابطات اقتصادية سواء أمامية أو خلفية مع بقية القطاعات الاقتصادية، أو الاعتماد بشكل كبير على قطاع أو مورد معين كما هو الحال في العراق.

ثانياً: الخلل الحاصل في هيكل التجارة الخارجية، أي عدم حصول حالة التوازن سواء على المستوى الكمي أو النوعي في السلع والخدمات المصدرة والمستوردة.

ثالثاً: التشوهات السعرية داخل المنظومة السعرية لقطاعات البلد، وعدم وجود آليات صحيحة وسليمة تعكس قيم وتكاليف السلع والخدمات والصفقات والمبادلات.

رابعاً: الاختلالات في سوق العمل وارتفاع معدلات البطالة، بسبب ضعف الجهاز الإنتاجي وعدم مرونته في استيعاب الفائض من العمالة نتيجة الربعية في البلد وغياب القطاعات الإنتاجية نتيجة الاستيراد المفرط.

خامساً: آليات تنفيذ السياسة المالية والنقدية، إذ قد تكون الوسائل والأدوات المستخدمة في تحديد واستهداف المتغيرات الاقتصادية كالناتج والتضخم والأسعار والاستثمار غير دقيقة ومضبوطة بالشكل الذي ينسجم مع طبيعة هذه المتغيرات في ظل الواقع الراهن، فضلاً عن إمكانية حدوث الأزمات لاعتبارات إستراتيجية لتجنب الكلف الاجتماعية لإحباط توقعات القطاع الخاص وخصوصاً لتوقعات العاملين فيه حول السياسات المالية والنقدية المتخذة.⁽¹⁾

ولعل ما يهمننا هو الصدمات الاقتصادية الخارجية أكثر من الداخلية، وذلك بسبب أن أثارها وانعكاساتها تكون أقوى وأكبر على الاقتصاد المحلي من الصدمات الداخلية، فضلاً عن الوضع الحالي وكنتيجة للانفتاح التجاري العالمي وانعدام القيود والحواجز، جعل استيراد وانتقال الأزمات من الخارج أمرواد الحدوث وطبيعي، وذلك لأن الآثار المترتبة من الصدمات الخارجية تختلف في الدول النامية عنها في الدول المتقدمة، إذ أن قدرة الدول النامية على تحديد أثر الصدمات أكثر صعوبة، إذ تؤثر الصدمات الخارجية في الدول المتقدمة على مستوى الدخل والنشاط الاقتصادي بشكل أكبر من تأثيرها على المتغيرات المالية بحد ذاتها، ذلك لأن القطاع المالي غير مرتبط بالقطاع الخارجي، لذا فإن أي تغير في المتغيرات المالية لا يكون مرتبط بشكل مباشر بالصدمات الخارجية، ولكنه قد يظهر نتيجة لسياسة رد فعل معين من الحكومات.

وفيما تتميز الصدمة الاقتصادية بعنصر المفاجأة والمباغته، والتهديد، الفوضى وضيق الوقت، فإن أهم ما يجمعها بالأزمة الاقتصادية بصورة عامة من مظاهرو تبعات، يمكن للمتابع أن يشخصها بما يأتي:

1- انخفاض معدلات الاستهلاك والإنفاق والادخار والاستثمار، للعلاقة المرتبطة فيما بينها.

2- ارتفاع معدلات البطالة.

1 (نسيمة بن يحيى، مصدر سابق، ص 72-75).

3- انخفاض عام في المبيعات وخاصة العقارية منها.

4- انخفاض في بعض الأسعار.

5- تدهور الدخول والأجور والأرباح.

6- تنامي ظاهرة تصفية المؤسسات وتقليصها.

7- هبوط المؤشر العام في البورصات.⁽¹⁾

وتجدر الإشارة إلى إن معظم الأزمات والصدمات الاقتصادية يوجد لها تفسير في هذه النظرية أو تلك ، وهذا السبب وذلك ، ومن ثم فإن لكل أزمة أو صدمة متغيراتها وظروفها ، ومن ثم فإن إخضاعها لنظرية معينة يرتبط بتحقيق ظروف مماثلة أو قريبة مع الإقرار بأن التطورات المعاصرة في مختلف جوانب الحياة قد تجعل من تشابه الظروف عملية ليست سهلة لكن عملية الاستفادة من التجارب والدروس ليست صعبة .

رابعا : منهج علم التاريخ في تشخيص ظاهري الأزمة والصدمة الاقتصادية والتنبؤ بآثارها إن جوهر النجاح في إدارة الأزمات يكمن في القدرة على التشخيص السليم لأسبابها، وبدون هذا التشخيص الدقيق والسليم فإن الدول والمؤسسات الاقتصادية لن تجد النجاح في إدارة الأزمات والتعامل والتعاطي معها بفاعلية ، وهناك مجموعة من الأسس التي ينبغي مراعاتها لتحقيق التشخيص الدقيق والسليم للأزمات، وأهم هذه الأسس هي المعرفة الكافية والإدراك الصحيح، وتوفير البيانات والمعلومات الكافية واللازمة في الوقت المناسب والمكان المناسب ، والتركيز على معرفة الأسباب الحقيقية للأزمة ، وكذلك التركيز على معرفة العناصر والعوامل التي دعمت الأزمة وساعدت على نموها وتطورها ، وهذا هو جوهر عمل المنهج التاريخي ، فإن تحديد كيفية معالجة الأزمة وتحديد الطرف المسؤول عن التعامل مع الأزمة والتعاطي معها، وتحليل طبيعة البيانات والمعلومات اللازمة لإدارة الأزمة بكفاءة وفاعلية ، ومن ثم بناء السيناريوهات الممكنة للتعامل مع الأزمة وإدارتها ووقف تناميها⁽²⁾ ، هي أهم الشروط والأدوات الواجب توفرها لإنجاح عمل المؤرخ في تشخيص الأزمات والحصول على نتائج ايجابية .

يفترض المنهج التاريخي لتشخيص الأزمات إن الأزمة لا تحدث ولا تنشأ بصورة فجائية، وإنما هي نتيجة لتفاعل مجموعة من الأسباب والعوامل التي تمت قبل وقوع الأزمة ، وأن أية أزمة هي وليدة بيئتها، وهناك عوامل خاصة وعوامل عامة توفر الظروف البيئية التي تساعد على ميلاد الأزمة ونموها في ظل هذه البيئة ، والمنهج التاريخي يشخص الأزمة كما هي الآن، ويصفها ويحللها، ويحدد أبعادها وملامحها ومظاهرها، ويشخص ويصف ويحلل أسبابها وبواعثها ونتائجها وإفرازاتها وانعكاساتها على الدول أو المؤسسات الاقتصادية وعلى بيئتها الداخلية وبيئتها الخارجية ، وينطلق المنهج من فلسفة هي أن كل أزمة هي حالة مستقلة لها خصوصيتها التي تميزها عن الحالات الأخرى.⁽³⁾

(1) احمد زين الدين ، المصدر السابق ، ص 45 ، نسيمه بن يحيى ، المصدر نفسه ، ص 76 – 78

(2) ندى علي ، مناهج تشخيص الأزمات والتنبؤ بآثارها ، منشور على موقع شبكة نبا للمعلومات ، annabaa.org

(3) محمد ابراهيم خيرى الوكيل ، الأزمات المالية العالمية وكيفية علاجها من منظور إسلامي ، مكتبة القانون والاقتصاد ، الرياض ، 1433 هـ ، ص 376

ووفقا لهذا المنهج فإنه يتم تحليل قوى البيئة المختلفة التي ساعدت على نشوء هذه الأزمة ودعمتها وعززت وجودها ، كما يستخدم المقارنة بين الأزمات للاستفادة من الخبرات والتجارب المتعلقة بأزمة ما في إدارة أزمة أخرى ومعالجتها، حيث يمكن عقد هذه المقارنة بين أزمات تمت في الماضي مع أزمات تحدث حاليا في نفس البيئة، وكذلك يمكن عقد هذه المقارنة بين أزمات حدثت في الماضي أو الحاضر في بيئات أخرى مع الأزمة التي تقع حاليا في الدولة او المؤسسة الاقتصادية ، أو من المرتقب أن تحدث في المنظمة. (1)

يتسم هذا المنهج بأنه الأكثر فاعلية في تشخيص وإدارة الأزمات، فهو يحاول أن يتعاطى مع أية أزمة من خلال استخدام مجموعة من المناهج منها (مناهج إدارة الأزمات) والمنهج النظري ، والوصفي ، والهيكلية وغيرها ، فهو يشرح الأزمة كحالة، وكذلك يعمل على تتبع الأزمة بمراحلها التاريخية المتعددة وانعكاسات الماضي عليها، ويدرس الأزمة كذلك بالتركيز على العوامل البيئية المختلفة الداخلية والخارجية. (2)

في الواقع إن أحد المهام الأساسية للمعنيين بالأزمة الاقتصادية هو التنبؤ بأثار الأزمة قبل وقوعها، وتقدير النتائج والأضرار والخسائر المترتبة على وقوعها ، وتتطلب عملية التنبؤ بالأزمة استشارة المتخصصين في المجالات المختلفة ذات العلاقة بأعمال ونشاطات المؤسسة الاقتصادية، مثل مستشارون في مجال الموارد البشرية وفي مجال إدارة الإنتاج والعمليات والإدارة المالية والموازنات التقديرية. وغيرها من الأمور المتعلقة بكافة أوجه النشاط الاقتصادي ، وبقدرتعلق الأمر بالتاريخ فإنه حتى يمكن التنبؤ بنتائج الأزمة وأضرارها بصورة فاعلة، فإنه ينبغي أن تطرح تساؤلات أساسية عديدة وتبحث لها عن إجابات وحلول مقنعة، فهذه العملية تؤدي إلى فاعلية عالية في عملية التنبؤ بنتائج وإضرار الأزمة.

ومن هذه التساؤلات :

- 1- ما مدى التصاعد المحتمل في شدة الأزمة؟ وهناك مجموعة من الأسئلة الفرعية التي تنبثق عن هذا التساؤل أهمها:- ما هي الأحداث التي يتم النظر إليها على أنها شديدة؟ وما هو المدى الذي تصبح الأزمة عنده حادة؟.
- 2- هل تخضع الأزمة لرقابة دقيقة من طرف ما (مثل هيئة تنظيمية أو جهة حكومية أو وسائل الإعلام أو غير ذلك) ومنها تنبثق أسئلة فرعية مثل ما هو مستوى الشفافية الذي تمارسه المنظمة؟ وكيف تتناول وسائل الإعلام الأزمة في المنظمة في أثناء وقوعها وبعد وقوعها؟ .
- 3- إلى أي مدى يحدث تعارض بين الأزمة وبين عمليات المنظمة الاعتيادية؟ وهل يمكن أن تؤدي الأزمة إلى إحداث عجز أو فائض في المنتجات تامة الصنع أو شبه المصنعة؟.
- 4- هل وقعت المنظمة (من خلال هذه الأزمة) ضحية لمؤامرة أطراف خارجية (مثل المنافسين) أو من داخل المنظمة؟

(1) ندى علي ، مصدر سابق

(2) الوكيل ، مصدر سابق ، ص 387 .

وغيرها الكثير مما يتبادر إلى ذهن العاملين على معالجة الأزمة ، وقد يكون تقدير نتائج وأضرار الأزمة في صورة رقم، وهذا الرقم يعبر عن تكاليف الأزمة والتكاليف اللازمة لإعادة الأمور إلى وضعها الطبيعي كما كانت عليه قبل الأزمة .⁽¹⁾

وأخيراً فإن التغيرات الكبيرة التي تواجه المنظمة المعاصرة تتطلب وجود مرصد في هذه المنظمة يكون متخصصاً في رصد الأزمات المحتملة التي قد تنشأ في هذه المنظمة في أية لحظة.

خامساً : جانب من إسهامات الدراسات التاريخية في دراسة الأزمات الاقتصادية :

اهتم المعنيون بدراسة الأزمة الاقتصادية بأحد فروع علم التاريخ تتبع آثار الأزمات وهو علم القياس التاريخي، أو ما يسمى باللغة الانجليزية (Cliometrics) وجعلوه أحد العلوم الحديثة المتفرعة من علم الاقتصاد القياسي، وحاول الاقتصاديون من خلال هذا العلم الربط بين ثلاثة علوم أساسية وهي (الاقتصاد، الرياضيات، والتاريخ)، إذ تم الاستفادة منه في نمذجة البيانات الاقتصادية التاريخية بصورة رياضية ومن ثم تقييمها وفقاً للنظرية الاقتصادية، ونظراً لصعوبة (عدم استحالة) الحصول على بيانات تاريخية واسعة، فإن الكثير من الاقتصاديين لم يلجوا في تفاصيل هذا العلم.⁽²⁾

ان الغرض الأساسي من هذا المجال هو تحليل التاريخ الاقتصادي من خلال تطبيق الأساليب الكمية، فيستخدم الـ (Cliometrics) النظرية الاقتصادية والاقتصاد القياسي لاكتساب نظرة ثاقبة عن الماضي الاقتصادي مع النمذجة والإحصاءات، فبحلول القرن التاسع عشر، أصبحت الحكومات والمواطنين والعلماء منشغلين بجمع الحقائق، لكن ترتيبها كان عادةً غير مخصص وغير منتظم، إذ أصبحت الشمولية والنظام والرغبة في جمع الحقائق العلمية أكثر وضوحاً في القرن العشرين، وكان لكل هذه القوى تأثير على ولادة طريقة أكثر دقة لفحص الماضي الاقتصادي.⁽³⁾

وفي مرحلة ما بين الحربين العالميتين 1914 - 1945 تم تطوير نهج تحليلي كمي للتاريخ الاقتصادي من خلال عمل علماء مثل سيمون كوزنتس في الولايات المتحدة وكولن كلارك في بريطانيا، وتم تحفيز العناصر المميزة لعلم الـ (Cliometrics) عن طريق الأحداث، والتغيرات في الاقتصاد، وتكثيف ما يمكن أن يسمى الدافع الإحصائي في حالات، الركود، والحرب، وتفكك الإمبراطوريات.⁽⁴⁾

وفي الخمسينيات من القرن العشرين، تبنت مجموعة صغيرة من علماء أمريكا الشمالية مقاربة ثورية في استكشاف الماضي الاقتصادي الذي امتد من بريطانيا العظمى وإيرلندا والبر الأوروبي وأستراليا ونيوزيلندا واليابان. إن ما كان يطلق عليه أولاً (التاريخ الاقتصادي الجديد)، ثم علم الـ (Cliometrics)، الذي تم تقديمه كإنجاز كبير من خلال إضفاء الطابع الرسمي (الرياضي) على النظرية الاقتصادية،

(1) كمال محمد الاسطل ، منهج اقتصادي لحل الازمات على مستوى الاقتصاد القومي والوحدة الاقتصادية ، مقال منشور

على موقع الدكتور كمال الاسطل على الانترنت بتاريخ 27 / 12 / 2010 ، ينظر : <http://k-astal.com>

(P12, Claude Diebolt and Michael Hauptert , Handbook of Cliometrics, Springer Heidelberg, 20162

) Ibid , p.15 3

) Ibid , P.P. 22-254

والانتشار السريع لأساليب الاقتصاد القياسي وبواسطة إدخال أجهزة الكمبيوتر في الأوساط يشتمل علم الـ (Cliometrics) على ثلاثة عناصر رئيسية: وهي استخدام الأدلة القابلة للقياس الكمي، استخدام المفاهيم والنماذج النظرية، استخدام الأساليب الإحصائية للتقدير والاستدلال، والعنصر الرابع المهم، توظيف البيانات التاريخية في الحكم على السياسات الاقتصادية التي كانت متبعة في عمق التاريخ الاقتصادي، بغية وضع البحث في السياق المؤسسي والاجتماعي، واختيار الموضوع ذي الأهمية للتاريخ والاقتصاد⁽¹⁾

تم الكشف عن علم الـ (Cliometrics) رسمياً في ويليامزتاون، ماساتشوستس، في خريف عام 1957 في تجمع غير عادي استمر لأربعة أيام برعاية رابطة التاريخ الاقتصادي (Economic History Association) ومؤتمر البحوث في الدخل والثروة (Conference on Research in Income and Wealth)، وتم تصميم معظم البرنامج لعرض الأعمال الحديثة من قبل الاقتصاديين الذين غامروا في عمق التاريخ.⁽²⁾

قدم باحثون شباب في مجموعة الدخل والثروة مساهماتهم في الحسابات القومية التاريخية للولايات المتحدة وكندا، مدفوعة بتقديرات روبرت غالمان (Robert Gallman) للإنتاج السلعي الأمريكي (1839-1899). أما بالنسبة للنظرية الاقتصادية والتاريخ الاقتصادي، فقد ترأسها والت روستو (Walt Rostow)، الذي استعاد ذكريات سنوات دراسته الجامعية في الثلاثينيات في جامعة ييل، حيث كان قد قاده أن يسأل نفسه "لماذا لا يرى ما الذي حدث إذا تم تطبيق آلية النظرية الاقتصادية على التاريخ الاقتصادي الحديث؟" أكد أن "التاريخ الاقتصادي هو مجال أقل إثارة للاهتمام مما يمكن أن يكون."⁽³⁾

قدم القادمون الجدد جون آر ماير (John R. Meyer) وألفريد كونراد (Alfred H. Conrad) ورقتين، الأولى كانت بعنوان "النظرية الاقتصادية والاستدلال الإحصائي والتاريخ الاقتصادي" (1957)، وهي بمثابة بيان لاستخدام النظرية الاقتصادية وأساليب الاقتصاد القياسي لدراسة الأسئلة التاريخية. لقد جادلوا بأن الظروف التاريخية المعينة هي حالات لظواهر أكثر عمومية ومناسبة للتحليل النظري، وأن الأدلة التاريخية الكمية، على الرغم من شحها نسبياً، إلا أنها أكثر وفرة مما يعتقد الكثير من المؤرخين ويمكن تحليلها باستخدام طرق إحصائية، وفي جلسة أخرى قدم كونراد وماير ورقة بعنوان "اقتصاديات العبودية في الجنوب الأمريكي"، والتي تضمنت وجهات نظره المنهجية لدحض مقترح طويل الأمد مفاده أن نظام الرقيق في جنوب الولايات المتحدة قد أصبح محتضراً بحلول خمسينيات القرن التاسع عشر وكان قد تلاشى لو لم تكن هناك حرب أهلية، وأكد كونراد وماير هذه النقطة من خلال إظهار أن الاستعباد، الذي يُنظر إليه كنشاط تجاري، كان على الأقل مجزياً مثل الاستخدامات الأخرى لرأس المال المالي والمادي، لقد أوضح على نطاق أوسع "الطرق التي يمكن بها استخدام النظرية الاقتصادية في ترتيب وتنظيم الحقائق التاريخية".⁽⁴⁾

(1), P.170, David Greasley and Les Oxley, Economics and History, Blackwell Publishing Ltd, 2011

(2) Claude Diebolt and Michael Haupt, OP.Cit, P.28 2

(3) David Greasley and Les Oxley, P.1753

(4) Ibid, P,1804

بدأت "ثورة علم القياس التاريخي" - وهو ما يُعتقد عموماً - عندما التقى المؤرخون الاقتصاديون الأمريكيون والكنديون في ويليامزتاون، ماساتشوستس في خريف عام 1957 تحت رعاية مؤتمر البحث في الدخل والثروة، وكان موضوعهم "اتجاهات الاقتصاد الأمريكي في القرن التاسع عشر"، وهو أيضاً عنوان مجلد المؤتمر الذي نُشر في عام 1960، وكان ذلك الاجتماع أول تحرك منظم لحركة "تحديث" التاريخ الاقتصادي التقليدي من خلال تطبيق أنماط رسمية أكثر من التحليل الاقتصادي وتقديم المزيد من الأساليب الكمية الحديثة للبيانات والمشكلات التاريخية¹.

وفي عام 1960 تقريباً، تم تطوير هذا التخصص وتأسست جمعية الـ (Cliometrics) في عام 1983 وهو العام الذي فاز فيه دوغلاس نورث Douglass North وروبرت فوجل Robert Fogel بجائزة نوبل في الاقتصاد عن عملهما الرائد في مجال الـ (Cliometrics)⁽²⁾.

وهناك مجلتان أكاديميتان تتعاملان مع هذا العلم، هما: (Cliometrica، Economic History Review) and ((Explorations in Economic History)، ومن أمثلة الموضوعات التي تناولت هذا العلم هي (إنتاجية العمل في القرن التاسع عشر في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة، تقنين الائتمان خلال الثورة الصناعية، والعلاقة بين السكان والأجور الحقيقية في التاريخ الإيطالي)⁽³⁾.

كانت السمة المميزة لسلسلة الأعمال التي قام بها المؤرخون الاقتصاديون الجدد هي دمج الحقيقة مع النظرية، فالنظرية الاقتصادية واضحة بالنسبة لهم ولكن الحقائق والبيانات عادةً ما تكون غير متاحة بشكل مريح، وقد بُذلت جهود كبيرة لاستخراجها من المصادر القديمة، سواء كانت منشورة أم لا، والواقع أن شروط استخدام القياس التاريخي تفرض توفر بيانات واسعة تفسر الظواهر الاقتصادية، لذلك بذل العديد من المؤرخين الاقتصاديين الجدد جهوداً كبيرة في الستينيات لتوسيع السجل الكمي لبلدانهم⁽⁴⁾.

وهكذا لقد حول علم القياس التاريخ الاقتصادي من تاريخ سردي إلى منهج رياضي، مما تسبب في الكثير من القلق والنقاش حول التوازن الصحيح بين الاقتصاد والتاريخ، بعدها قطع علم الـ (Cliometrics) خطأ دقيقاً بين كونه "اقتصادي" ضيق للغاية، إلى مجال آخر فهو يقيس الظاهرة الاقتصادية التي لا يمكن تفسيرها، والتاريخية للغاية، وبذلك فإن للدراسات التاريخية تأثير عميق على الاقتصاد، فهي مسؤولة عن تحويل هذا الفرع من المعرفة من سرد أساسي إلى مقارنة رياضية، إذ جمع علم القياس التاريخي هذا التحول بين النظرية والأساليب الكمية وقواعد البيانات الجديدة والمنقحة والتقنيات الحديثة، مما زاد من معرفتنا بعملية النمو الاقتصادي.

) Claude Diebolt and Michael Hauptert , OP.Cit , P.301

) Ibid ,P,33-342

) Ibid ,P.383

) David Greasley and Les Oxley, OP.Cit , p. 1854

الخاتمة :

ان التاريخ يعلم درسا وهذا هو ما تطمح الورقة البحثية إلى التأكيد عليه ، ومن دراستنا لتاريخ الأزمات وأسبابها العامة وظواهرها المشتركة ، تفيدنا الدراسات التاريخية أن أهم أسباب الصدمات والأزمات الاقتصادية في العالم المعاصر والتي يمكن استخلاصها من أقوال علماء غربيين شهدوا بذلك شهادة علمية، ومنهم الذين حصلوا على جائزة نوبل في الاقتصاد مثل موريس آليه الذي قال: "إن النظام الاقتصادي الرأسمالي يقوم على بعض المفاهيم والقواعد التي هي أساس تدميره إذا لم تعالج وتصوب تصويبا عاجلا"، كما تنبأ العديد من رجال الاقتصاد الثقات إلى أن النظام الاقتصادي العالمي الجديد يقوم على مبادئ تقود إلى إفلاسه ، وهي :

أولا: انتشار الفساد الأخلاقي الاقتصادي مثل: الاستغلال والكذب والشائعات المغرضة والغش والتدليس والاحتكار والمعاملات الوهمية، وهذه الموبقات تؤدي إلى الظلم، وهو ما يقود إلى تدمير المظلومين عندما لا يستطيعون تحمله، وبالتالي يقود إلى تدمير المدنيين و حدوث الثورات الاجتماعية عند عدم سداد ديونهم وقروضهم.

ثانيا: من أسباب الأزمات كذلك أن أصبحت المادة هي الطغيان وسلاح الطغاة، والسيطرة على السياسة واتخاذ القرارات السيادية في العالم، وأصبح المال هو معبود الماديين ، وانتشر الجشع والطمع بهدف تحقيق الأرباح السريعة مما يقود دائما الى سرعة الانهيار وتعرض الاقتصاد العالمي إلى أزمات متكررة لن تنتهي .

ثالثا: يقوم النظام المصرفي الربوي على نظام الفائدة أخذا وعطاء، ويعمل في إطار منظومة تجارة الديون شراء وبيعا ووساطة، وكلما ارتفع معدل الفائدة على الودائع كلما ارتفع معدل الفائدة على القروض الممنوحة للأفراد والشركات والمستفيد هو البنوك والمصارف والوسطاء الماليين والعبء والظلم يقع على المقترضين الذين يحصلون على القروض سواء لأغراض الاستهلاك أو لأغراض الإنتاج.

ويرى بعض الاقتصاديين أنه لا تتحقق التنمية الحقيقية والاستخدام الرشيد لعوامل الإنتاج إلا إذا كان سعر الفائدة صفرا، وهذا ما قاله آدم سميث أبو الاقتصاديين (على حد رأيهم)، ويرون أن البديل هو نظام المشاركة في الربح والخسارة لأنه يحقق الاستقرار والأمن، وقالوا كذلك إن نظام الفائدة يقود إلى تركيز الأموال في يد فئة قليلة سوف تسيطر على الثروة.

رابعا: توصلت الدراسة إلى خطورة اعتماد الدول ولاسيما المنتجة للمواد الأولية على مورد اقتصادي وحيد ، فهذا الأمر يعرض اقتصادياتها الربعية إلى العديد من المشكلات والأزمات السعرية كانهخفاض أسعار منتجاتها الذي هو عماد اقتصادياتها مثل النفط ولعل الحالة العراقية ماثلة للجميع .

خامسا ، وأخيرا فان أهم الدروس والعبر المستخلصة من دراسة التاريخ يؤكد خطورة تخلي الدولة عن أدوارها الاقتصادية الهامة في توفير مصادر الدخل القومي وضرورة إسهام الحكومات والمؤسسات الرسمية إلى جانب القطاع الخاص وعدم الإفراط في سياسات الخصخصة في النشاط الاقتصادي حتى لا يقع المستهلك ضحية هذا القطاع الجشع وتكون الدولة هي الحامي الأكبر للمجتمع ويقع على عاتقها حماية المواطنين من الفقر.

الذاكرة الجماعية والتاريخ الثقافي "نموذج الريف المغربي"

د. لحسن أوري والطالبة الباحثة نادية بودرة
جامعية سيدي محمد بن عبد الله
كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس- فاس

مقدمة:

يخضع خطاب المؤرخ وحرفته لتغيرات دائمة، تنعكس في طبيعة المواضيع التي أصبح يعالجها وأشكال المقاربات وأنواع المناهج التي يعتمدها، فمن التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، وصولاً إلى تاريخ الذهنيات والتاريخ المجبري والتاريخ الثقافي، قطع التاريخ قد أشواط كبيرة في تناوله للتجربة الإنسانية من مختلف الجوانب، وكشف عن مسار التحولات الثقافية التي عرفها الإنسان. وسبب ذلك هو انفتاح التاريخ على معارف مساعدة جديدة مثل الأنثروبولوجيا بشكل عام، والأنثروبولوجيا الثقافية بوجه خاص، الأمر الذي قاده إلى استثمار الدراسات والتقارير الإثنوغرافية والأعمال الأنثروبولوجية الرائدة، إلى جانب الروايات الشفهية التي تعد أساس للذاكرة الجماعية، من أجل تكوين فكرة عن البنيات الثقافية للمجتمعات ثم تأويلها وفق سياقات تاريخية مختلفة، ومن هنا بدأ تجاوز التاريخ الحداثي والنخبوي المبني على الوثيقة المكتوبة، مقابل تاريخ يسع كل شرائح المجتمع.

وفي هذا الصدد، أصبحت الذاكرة في صيغها المتعددة، إلى جانب الرواية الشفهية، من المصادر ذات الأولوية بالنسبة للمؤرخين، على أساسهما وجدت الوثيقة المكتوبة والمصادر الإخبارية، وظلت كل واحدة منها ملازمة لعلم التاريخ في مسارات تطويره لمناهج ومقاربات جديدة، إلى أن أحدثت مفهوم الذاكرة الجماعية طفرة على مستوى كتابة التاريخ الثقافي ضمن ما يطلق عليه التاريخ الجديد. وتعتبر الذاكرة الجماعية: الحامل لحلقات مترابطة تفيد التاريخ لروتين الحياة اليومية، ومن شأنها الكشف عن البنيات الثقافية والاجتماعية في شكل نماذج أصلية، باعتبارها آلية من آليات تأريخ المجتمعات الشفهية لتجارها الاجتماعية والثقافية، حيث مكنت المؤرخ من سد فراغات صفحات من ماضي هذه المجتمعات، عبر استثمار دراسة اللغة والجسد والطقوس والأساطير... الخ، من خلال التركيز على أدوار المرأة على، التي تمكنت من الحفاظ على لغة الأم عبر ممارستها اليومية، ومن خلال نقلها لمحتوى الذاكرة الجماعية، وقيمها إلى الأجيال الجديدة، خاصة في مجتمعات التي تعتبر فيها تربية الأطفال مهمة المرأة بمفردها.

لذلك كان تركيزنا في هذه الورقة على أهمية الشعر والوشم عند النساء باعتباره مصدر من مصادر الذاكرة الجماعية المستمرة، التي يمكن أن تساعدنا في كتابة تاريخ ثقافي للمجتمع الريفي، ينطلق من الزمن الراهن إلى الماضي بهدف استرجاع التاريخ اليومي للنساء الريفيات، ومعالجتنا لهذه الإشكالية تنطلق من

أهم الدراسات الاثنوغرافية والأنثروبولوجية التي درست القبائل الريفية، وذلك من خلال ثلاث محاور أساسية:

المحور الأول: دور الذاكرة الجماعية في إنعاش التاريخ الثقافي.

المحور الثاني: مصادر الذاكرة الجماعية في خدمة التاريخ الثقافي.

المحور الثالث: ذاكرة النساء والتاريخ الثقافي للريف من خلال كتابات الإنجليزي كارتلونستيفنس

كون Conn Carleton Stevens والإسباني إميليو بلانكو إيثاكا Emilio Blanco Izaga.

المحور الأول: دور الذاكرة الجماعية في تطعيم التاريخ الثقافي.

تعددت فروع واهتمامات التاريخ مع تأسيس مدرسة الأنال "Annales" بفرنسا من طرف الثنائي مارك بلوك "Marc Bloch" ولوسيان فيبر "Lucien Febvre" سنة 1929، حيث وسعت من دائرة الوثيقة التي أضحت تجمع بين المكتوب والمروي والمنحوت والمرسوم والمنتخيل، متجاوزة النظرة الأحادية التي كانت تفرضها الوثيقة الرسمية للكنيسة والدولة. وفي نفس الوقت تجاوزت مناهج المؤرخ الكلاسيكي وطبيعة تعامله مع الوثيقة. لقد سعى هذا التيار الجديد الذي رسخته إنجازات فيرناند بروديل "Fernand Braudel" والجيل الثالث من مدرسة الأنال الفرنسية، إلى ملامسة جوانب اجتماعية وثقافية وذهنية لم تكن ضمن أولويات المؤرخ الوضعاني، مستثمرة مصادر لم تعد قصدا للتأريخ، وموظفة للذاكرة الجماعية وفق ضوابط ومناهج خاصة، حتى يتمكن المؤرخ من اقتحام تاريخ المجتمعات الشفهية المفتقرة للمصادر المكتوبة.

لقد شكلت الذاكرة الجماعية ورشا مهما للبحث من داخل حقول معرفية متنوعة، تنتمي للعلوم الحقة كما للعلوم الإنسانية، قبل أن تقترن بالتاريخ الجديد. حيث صنف الفلاسفة الكلاسيكيون عدة وظائف للذاكرة، ثم آليات اشتغالها لتصبح مادة خام للتأريخ، مثل التخزين والتشفير، إذ شهبها أفلاطون بلوح الشمع، الذي تنطبع عليه الانطباعات التي يتم استرجاعها بعد ذلك، وهذا التمييز الثلاثي بين التخزين والتشفير والاسترجاع، لازم المؤرخ الباحث عن الصفحات المفقودة في الوثيقة المكتوبة، وبذلك أدرك المنظرون المعاصرون أن الذاكرة تقوم بعملية انتقائية وتأويلية، متجاوزة القدرة على التخزين السلبي للأحداث، تتجاوزته لدمج الأحداث وخلق سلسلة مترابطة من خلالها، حيث اعتبرها الفيلسوف الإيرلندي جاك لويس Jack Lewis قدرة عقلية مجردة غير قابلة للتغيير؛ وذاكرة انتقائية عشوائية؛ ومجموعة من الافتراضات والتصورات المسبقة⁽¹⁾.

يحاول المؤرخ إضفاء طابع العلمية على الذاكرة الجماعية، لإنارة الجوانب الثقافية والاجتماعية، وجعلها تحاور الوثيقة المكتوبة وتتمكن من استقاء شروط المنهج المقارن بغية إخضاعها للتقابل، الأمر

1 كيه فوستر (جوناثان)، الذاكرة، ترجمة مروة عبد السلام، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة-مصر، ط1،

الذي يفرضه تمتع التاريخ والوثائق المكتوبة بمناهج علمية صارمة تجعله أقرب إلى الحقيقة⁽¹⁾، وبفضل التاريخ العلمي تتضح معالم "الوقائع التاريخية" من حيث هي وقائع بنائية، وتتأكد موضوعيتها تماما مثل أية واقعة علمية⁽²⁾. غير أن هذا التوجه المنهجي والوضعي في البحث التاريخي، لم يساير التحولات الاستيمولوجية التي عرفتها العلوم الإنسانية مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، والتي فتحت المجال أمام التأويل ونسبية المعرفة التاريخية، باعتبارها قابلة للتجديد باستمرار، وترفض الانغلاق في قوالب جامدة⁽³⁾.

تم توسيع دائرة مواضيع التاريخ الثقافي وتاريخ الحياة اليومية (الأسرة-الغذاء-اللباس)، عن طريق الانتقال من ذاكرة الحكام العمودية إلى ذاكرة المنتجين والفاعلين، ومن تاريخ الدولة إلى تاريخ الحياة اليومية، ما استدعى تعديد وتنوع الأرشيف (الرواية الشفهية، الطقوس...). وتقوم المعرفة التاريخية الجديدة على شروط علمية مرتبطة بظروف إنتاجها، ما يفسر ظاهرة الدعوة لإعادة كتابة التاريخ، والاهتمام بتاريخ التاريخ؛ الحقل الذي حقق تراكما في البلدان الأنجلوساكسونية. وتعنى هذه المعرفة التاريخية بتنقيح الذاكرة، وتقديم تاريخ يوازي تراجع الذاكرة، ما يجعل التاريخ مساهما بشكل أو بآخر في بناء الذاكرة الجماعية، ومن هنا أصبحت الذاكرة محط اهتمام المؤرخين، وأهم من ساهم في التطوير النظري للموضوع نجد؛ جاك كودي Jacques Goody حول أهمية الأداة الشفهية أو الكتابة، وبول ريكور Paul Ricoeur العلاقة بين الذاكرة والزمن والسرد، وموريس هالبواكس Maurice Halbwachs حول الذاكرة الجماعية والأطر الاجتماعية للذاكرة⁽⁴⁾. إن هذا التاريخ الذي تتوارثه الأجيال، والمليء بالدلالات الثقافية والاجتماعية، لا يفيد تقسيم كرونولوجي تراكمي دقيق، لأنه يهدف إلى تفسير وجداني للأحداث، ولموقف المجتمع من الوقائع التاريخية واليومية. فالمحكي الشعبي والأسطورة والشعر والرقص (...) تحمل تطلعات وآمال المجتمع، والحلم يعكس ما يعيشه المرء خارج الزمان والمكان⁽⁵⁾.

1- بلوخ (مارك)، دفاعا عن التاريخ أو مهنة المؤرخ، ترجمة أحمد الشيخ، المركز العربي الإسلامي للدراسات الغربية، القاهرة، ط.1، 2013، ص.189.

2- الشيخ (أحمد)، "التاريخ والحقيقة لدى مارك بلوخ"، مجلة يتفكرون، ملف الحقيقة والتاريخ، ع.3، السنة 2014، ص.87.

3- العيادي (محمد)، دراسات في المجتمع والتاريخ والدين، تجميع وتقديم محمد الصغير جنجار، مؤسسة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2014، ص.56.

4- السبتي (عبد الأحد)، "بين التاريخ والذاكرة الجماعية تشكيلات ورهانات"، مجلة البحث التاريخي، ع.1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية محمد الخامس، الرباط، 2003، صص.27-29.

5- مدون (عبد الكريم)، "التاريخ الاجتماعي بين الأسطورة والذاكرة الشعبية محاولة قراءة في ذاكرة المجتمع الآسي"، قراءات، ع.1، أكادير، 2005، ص.113. (111-120).

تطرح الذاكرة عدة إشكالات نظرية، تفيد التأريخ للتاريخ الثقافي، تستدعي مسار منهجي طويل ومركب من آليات معقدة، منذ وقوع الحدث وتخزينه، إلى إعادة إنتاج الذكرى وتمثلها واستحضارها وكتابتها وتخليدها في الأماكن والأعياد والشعارات⁽¹⁾. وتتعدد مقاربات دراسة الذاكرة بتعدد الفروع المعرفية، ومن الأشكالات المطروحة في هذا الصدد، صعوبة الفصل بين الذاكرة الفردية والذاكرة الجماعية التي تفيد التأريخ⁽²⁾.

المحور الثاني: مصادر الذاكرة الجماعية في خدمة التاريخ الثقافي

قبل أن تصبح الذاكرة الجماعية رافدا من روافد التاريخ الثقافي، كانت الثقافة المطعم الأساسي للذاكرة، حيث تحتفظ الجماعة بكل أشكال الطقوس والممارسات التي تحمل في طياتها دلالات ثقافية، فبعد أن بدأ الاهتمام الزائد بالذاكرة خلال السبعينات من القرن الماضي بكل أشكالها، وفي مجالات متعددة (علمية-سياسية-اجتماعية-ثقافية...)، بدأت عملية إحياء الأحداث التاريخية وترميم المآثر العمرانية، وطرح إشكالية الذاكرة مقترنة ببناء الهوية عن طريق الموروث الحضاري، ما أفرز ظاهرة المجتمع المهتم بالذاكرة، وطرح باستمرار من طرف جماعات دينية أو إثنية رغبة في إحياء تاريخها عامة وتاريخها الثقافي خاصة، وتوثيق مواقفها من الموت والحياة والجنس⁽³⁾.

ساهمت الدراسات الأنثروبولوجية والسوسيولوجية والسيكولوجية في إغناء مناهج استثمار الذاكرة الجماعية، وتقديم معارف مساعدة من أجل التأريخ لثقافة الجماعات الإنسانية، وإعادة بناء روتين الحياة اليومية (اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا ودينيا وسياسيا...)، ما جعل البحث في هذا المجال أهم انشغالات العلوم التي تعنى بالأنساق الثقافية؛ (أبرزها الأنثروبولوجيا وعلم الأديان المقارن وعلم النفس التاريخي)، وذلك باستثمار ما بثنايا الذاكرة الجماعية، مثل الأمثال الشعبية والحكايات والأساطير المتداولة حول المجال والمعتقد والطقوس، وكل ما علق بالذاكرة من تراث لا مادي وشعبي ورواية شفوية...، وكل ما يفيد ترميم ثغرات الوثيقة التاريخية.

تحمل الذاكرة الجماعية مجموعة من الإشارات التاريخية التي من شأنها إعادة قراءة التاريخ على ضوء الحياة الثقافية وإعادة إنتاجه من جديد، في حلة مستجدة تستوفي شروط التحليل والتأويل، وتحتفظ الذاكرة بمضمونها عبر نقلها إلى الأجيال، الأمر الذي تؤدي فيه المرأة الدور الأساسي داخل المجتمعات الشفهية بالمغرب على وجه العموم والريف المغربي على وجه الخصوص، وذلك راجع لإحداثها فصل واضح بين الجنسين، وجعلها عالم النساء أكثر انغلاقا من عالم الرجال، ما يمنحها القدرة على حفظ

1- نورا (بيير)، أماكن الذاكرة، ترجمة محمد حبيدة، ضمن كتاب: من أجل تاريخ إشكالي لترجمات مختارة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2004، ص.103.

2- الطاهري (عبد العزيز)، الذاكرة والتاريخ المغرب خلال الفترة الاستعمارية 1912-1956، تقديم: جامع بيضا، دار أبي قرقاق، بدعم من وزارة الثقافة، الرباط، 2016، ص.21.

3- Todorov (Tzvetan), *Les abus de la mémoire*, Arléa, Paris, 1995, p.16.-3

لغة الأم، وحسب هنري أتلان "H. Atlan"⁽¹⁾ يعتبر استخدام لغة محكية ثم مكتوبة هو في الواقع توسع هائل لإمكانات التخزين في ذاكرتنا، إذ نتمكن من تجاوز الحدود الفزيائية لجسدنا، لتستودع إما لدى الآخرين وإما في المكتبات، وهذا يعني وجود لغة تخزن المعلومة في ذاكرتنا، قبل التكلم بها أو كتابتها⁽²⁾.

تتوفر الذاكرة الجماعية على عدة مصادر، تتمثل أهمها في الشعر والرقص إلى جانب الحكاية الشعبية والأسطورة والطقوس والأمثال الشعبية، وتعد شكلا من أشكال التعبير السائدة عند نساء الريف المغربي، وأحيانا قليلة لدى رجالها، حيث لاحظ سامويل بيارناي "Samuel Biarnay"، "أن هناك أشعار خاصة بالرجال وأخرى خاصة بالنساء والفتيات"، وهذا التمايز حاضر في مختلف المناسبات الخاصة والعامة من أعياد موسمية، وحفلات الزفاف، والعقيقة أو غيرها، كما يرافق الريفيين خلال أنشطتهم اليومية مثل مواسم الحرث والحصاد، ويعد أداة لنقل القيم وقواعد الحياة للأجيال القادمة⁽³⁾.

لقد شكلت استمرارية وتوارث مصادر الذاكرة الجماعية بين الأجيال أهم أسباب حفظها، لذلك رافق الشعر جميع موضوعات حياة الإنسان الريفي، وكان حاضرا في المسرات وفي التعبير عن المآسي، وارتبط بصعوبة تضاريس المنطقة، وأخذ من تعقد الأحوال الاجتماعية، وعوادي الزمن والحروب والمجاعات، وعكس عادات وتقاليد المنطقة. والشعر الريفي يتميز بالبساطة والعفوية، يجمع بين الأسلوب التقريبي الخطابي ويميل للأسلوب التصويري الرمزي⁽⁴⁾.

شكلت الممارسات المرافقة لطقوس العبور، هي الأخرى جزء لا يتجزأ من ثقافة الريف المغربي، ومصدرا أساسيا من مصادر الذاكرة الريفية، ويعتبر وشم الجسد الذي اكتسى خصوصية واضحة داخل هذا المجال إحدى هذه المصادر الأكثر خصوصية وكثافة في العالم النسائي، إذ حفظ لنا من خلال رموزه وفترات وضعه تاريخا ثقافيا غنيا، لا يمكن فهم التاريخ الاجتماعي للنساء الريفيات دون دراسته.

عُرف الوشم منذ القدم، وله عدة دلالات سميائية تعبيرية وتواصلية، ويدخل ضمن التراث الشعبي الذي يعالج عادة وفق مقارنة استردادية، باعتباره نوع من أنواع التأريخ، ويتميز بحامل استثنائي يتمثل في الجلد الإنساني، وبالتالي فهو بمثابة امتلاك للتاريخ عبر جسد، ويتميز بثلاث وظائف رئيسية؛ الأولى جمالية، والثانية سحرية ووقائية، ثم وظيفة ثالثة تتمثل في حفظ الهوية التاريخية والثقافية عامة والقبلية بشكل خاص. وعلى هذا الأساس ترسخت ذاكرة الوشم في المجتمعات القبلية المغربية، واستمرت عبر مراحل التاريخ المغربي رغم تحريمه شرعيا، فأصبح بذلك من العادات والرواسب التي قاومت الثقافات الأخرى، ولم تتمكن فتاوى العلماء والفقهاء من محوها⁽⁵⁾.

1- Atlan (Henri), « Les trouble de la mémoire », Etude psychiatrique, vol II, n°9, 1956, p.21.

2- لوغوف (جاك)، التاريخ والذاكرة، ترجمة جمال شحيد، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط.2017، ص.103.

3- Biarnay (Samuel), Etude sur les Dialectes Berbères du Rif, 1Ed., Leroux, Paris, 1917, p.334.

4- علاش (صباح)، "التراث الثقافي بالريف"، ضمن ندوة: التراث الأمازيغي ركيزة للتنمية بالمغرب، تنسيق أحمد بوضليب-

عزيز بن طالب-محمد أيتحمزة، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، 2017، ص. 62 (57-68).

5- Blanco Izaga(Emilio), El Tatuaje, centro de estudios marroquíes, Imperio Ceuta,1939, p.17.

المحور الثالث: ذاكرة النساء والتاريخ الثقافي للريف من خلال كتابات الإنجليزي كارتلونستيفنس كون Conn Carleton Stevens والإسباني إميليو بلانكو إيثاكا Emilio Blanco Izaga.

مثلت ذاكرة الجسد جزءا من الذاكرة الجماعية التي حفظت تاريخ المجتمعات الشفهية، ويعد الريف المغربي مجتمعا من ضمن هذه المجتمعات، التي حافظت على الوشم كطقس وتقليد لهما وظائف داخل العالم النسائي، لذلك يسمح توصيف هذه الممارسة من خلال كتابات أنثروبولوجية درست الريف، ببناء جوانب من التاريخ الثقافي للنساء داخل المجتمع الريفي.

وسنحاول أن نستخلص أهم مضامين التاريخ الثقافي الموجودة بين خطوط رموز الوشم الريفي، بالاعتماد على كتابات أنثروبولوجية وإثنوغرافية رائدة؛ تعود الأولى لكارلتون ستيفنس كون Conn Carleton Stevens⁽¹⁾ والثانية لإميليو بلانكو إيثاكا Emilio Blanco Izaga⁽²⁾. نظرا لأهميتهما العلمية والتاريخية بالإضافة إلى دقة المنهج الأنثروبولوجي الحاضر عند كليهما، وقوة الملاحظة التي تمتعت بها كل دراسة على حدى، وارتكازها على الذاكرة الجماعية بالريف الأوسط؛ حيث عاش الإنجليزي ستيفنس كون باعتباره مختصا في الأنثروبولوجية الطبيعية، مع زوجته في قبيلة كزناية بالريف المغربي خلال العشرينيات من القرن العشرين، أنجز خلالها ثلاث دراسات حول هذه القبيلة، ونقل لنا ذاكرة المنطقة عبر كتاباته، بعد أن تمكن من اختراق مجتمعه المنغلق والرافض للأجنبي بشكل قطعي.

في حين يظل إميليو بلانكو إيثاكا أهم مصدر إثنوغرافي حول قبائل الريف الأوسط التي وقعت تحت السيطرة الإسبانية، أقام بقبيلة أيث عمارث لفترة تجاوزت عقد من الزمن، واستمرت إلى حدود قيام الحرب الأهلية الإسبانية سنة 1936، ووظف الذاكرة الجماعية في كتاباته حول هذه القبيلة التي كانت تفتقد للكتابة.

ظلت دراسات وأبحاث هذين الباحثين حول الريف المغربي تحظى بأولوية بالغة، ومرجعا أساسيا لاستنباط التاريخ الثقافي والاجتماعي لقبائل الريف، من خلال الوقوف عند العادات الممارسة، وعند رواسب التراث الشعبي وحقائق التاريخ السياسي، التي يمكن من خلالها رغم طابعها السردى استجلاء تاريخ شمولى وواقعي بعيدا عن كل المزايدات التي يمكنها أن تشوه الذاكرة والتاريخ في الآن نفسه. وتجدر الإشارة إلى أن بلانكو إيثاكا أشاد بأعمال ستيفنس كون، حيث أدرج العديد من خلاصاته ضمن أعماله،

1- قام بثلاث دراسات أنثروبولوجية حول الريف. اعتمدنا أهمها وهي أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه تخصص الأنثروبولوجية الطبيعية.

- Stevens (Conn Carleton) (Tribes of The Rif, Harvard African Studies, Volume IX, Peabody of Harvard University, Cambridge, 1931).

2- يعتبر مهتم بشؤون وتاريخ الريف قام بمجموعة من الأبحاث حول القانون العرفي الريفي والثقافة الشعبية ارتأينا الاعتماد على ما كتبه حول ظاهرة الوشم بالريف المغربي.

- Blanco Izaga (Emilio), El Tatuajes, centro de estudios marroquíes, Imperio Ceuta, 1939-

خاصة ما يتعلق منها بجانب ذاكرة الجسد ووظيفتها الثقافية، رغم أن لكل منهما منهجه التحليلي ومقارنته الخاصة.

يعد الوشم أهم أوجه الذاكرة الجماعية بالريف، وهو عادة متأصلة في الزمن الطويل، مارسته النساء المتقدمات في السن على جهات متعددة من جسد الفتيات العازبات بالريف الفارات من الغزاة الرومانيين، تعبيرا عن العار الذي لحق بهن، ليتحول بعد ذلك إلى تعبير يحمل معنى العذرية على الأقل داخل قبيلة كزناية، وأخذ معاني أخرى في القبائل الريفية، والأمازيغية بكل من الأطلس والجنوب.⁽¹⁾

اعتبر كارلتون ستيفنس كون من خلال أعماله المبنية على مصادر الذاكرة الجماعية، أن الوشم يشكل طقسا من طقوس العبور، تضعه النساء ضمن الشروط الإلزامية للزواج، ولا يوضع قبله، ويعتبر من المراسيم الأساسية المرافقة لحفل الزفاف، حيث تحضر عجوز إلى البيت العروس، وتكون متمكنة فنيا، وفي حالة القرابة بين واضعة الوشم والعروس (الضحية) يغيب المقابل، كما يحضر والدي الفتاة أثناء العملية⁽²⁾.

تجمع العجوز صبغة سوداء مصنوعة من السخام المكون من الكربون أساسا أو السناج الأسود، وتمزجه مع عصير الفاصوليا، وتجلس لتشتغل بالسكين والإبرة عن طريق وخز الجلد بطريقة سريعة، ويلتئم الجرح في اليوم الأخير من الزفاف، حيث يعتبر من المخجل أن تذهب امرأة لبيت زوجها دون وضع الوشم، كما أنهم المشين أن تضعه فتاة دون زواج⁽³⁾.

تنوع أوشام النساء الريفيات من حيث القيمة الرمزية، فالجديدة تظل رخيصة، والثمينة تكون متوارثة، وبالتالي يمكننا اعتبار الكحل والحناء حكرا على المتزوجات، والوشم على الذقن والجبين يعتبر من متطلبات الزواج⁽⁴⁾. ما جعل كارلتون ستيفنس كون يبلغ خلاصة تركيبية مفادها أن الوشم في الريف يشكل طقسا من طقوس العبور خاصة في قبيلة كزناية، ولها تعبيرات التمرد والتعبير عن العشق بالنسبة للرجال، وأحيانا أخرى تكون ذات ضرورة استشفائية، وبالتالي يكون شق خطوط بسيطة على الجسد من شأنه التأريخ لمجموعة ما، من عدة جوانب ثقافية مرتبطة بالجنس والزواج والعائلة.

وشملت ذاكرة الجسد الذاكرة الجماعية، وارتبطت بالحضارات الإنسانية القديمة. نجد لها عدة دلالات داخل الحضارة الأمازيغية، منذ أن استعمل السكان الأوائل داخل شمال إفريقيا ذاكرة الجسد

1- اعتبر الوشم بالأطلس المتوسط والجنوب الشرقي من المغرب دلالة على بلوغ الفتيات، عكس الريف الذي اعتبر طقس من طقوس العبور ولا تضعه العازبات. أنظر:

- مونتغمري هارت (دفيد)، أيت ورياغر قبيلة من الريف المغربي، ترجمة: محمد أونيا-عبد المجيد عزوزي-عبد الحميد الريس، منشورات صوت الديمقراطيين المغربية بهولندا، ط.1، 2007، ج.1، ص.60.

2 (-Conn Carleton Stevens, Tribes of The Rif, Harvard African Studies, Peabody of Harvard University, 1931, p.80. Cambridge, Volume IX,

-Ibid, p.81.3

4- مونتغمري هارت (دفيد)، أيت ورياغر قبيلة من الريف المغربي...، م.س.، ص.60.

للحفاظ على الحرف المحلي للغة الليبية "تفيناغ"، وصولاً إلى الاعتقاد بالقدرة الاستشفائية والسحرية لتلك الرموز، واعتبارها ذات صبغة جمالية، كما تحمل عدة رسائل تواصلية معبرة لها وظائف اجتماعية ثقافية. تطرح ظاهرة الوشم بالمغرب عامة، وداخل مجال الريف المغربي خاصة، عدة إشكالات منها ما يتعلق بواقع تفاعل الإنسان بالمجال لينتج الفعل الثقافي، إضافة إلى أنها ترصد أهم التعبيرات والدلالات التي تحملها من خلال رموزها، والمستقاة من داخل الواقع المعاش ودورة الحياة اليومية القاسية بالريف المغربي.

يعتبر إيميليو بلانكو إيثاكا المرأة أساس توارث الذاكرة الجماعية، ولها دور في إرساء قواعد الحرف اليدوية والرقص الشعبي، وسعياً منها لتزين الجسد الأنثوي الخالص نفسه - نجد بعض الحالات من الأجساد الرجالية مزينة أيضاً-، بخطوط وأوشام خلفت رصيماً ثقافياً أغنى التاريخ الثقافي بالريف، إذ أكد بلانكو إيثاكا أن التمثيل، يتم في مناطق مختلفة من الجسم، والأوشام الريفية عبارة عن أشكال هندسية بالأساس، مع أجزاء موجهة بتقاط، وشرائح مستقيمة، ومشبكة، عبارة عن معينات وصلبان، تدل من ناحية على الثقافات الدينية السابقة للإسلام، يتم دمجها في مناسبات كثيرة بواسطة محفزات أخرى (شفرة-شوك-بصمات...). نلمح في هذه الرسومات تمثيل تخطيطي للنجوم (الشمس) وأعضاء الجسم (العين)، التي تشير إلى الأصل السحري للوشم، باعتباره علامة وافية⁽¹⁾، الأمر الذي يكشف لنا بنية ثقافية ذات خصوصية، على الرغم من كون الوشم يبدو عنصراً زخرفياً ومجرد علامات مقتصرة على تحديد الانتماء القبلي وإضفاء نوع من الزينة⁽²⁾.

تطرق بلانكو إيثاكا في أعماله الميدانية لجانب الممارسة السحرية في أصل الوشم، وذلك من خلال عمل قصير معنون بـ "Tatuajes" أو "أوشام"، أوضح من خلاله أن الوشم في الريف عبارة عن علامات دائمة على الجسد، تميز كل قبيلة من القبائل التي اعتادت التأشير على نساءها، وتعطيها درجة أو صفة قوة، وللتعرف عليهن في تقلبات المعارك، ويحمل الوشم وجه اكتشاف العادات التي تميز القبائل والعناصر العبرية، حيث أدان الفقهاء الوشم، لأن تطهيرها سيتم بنار الجحيم، وتم تحريمها وتكفير واضعها، وطقوس الوشم يتم تطبيقها فقط من طرف النساء الأمازيغات، في بعض القبائل يضعها الرجال أيضاً على اليد اليمنى، لأن اليسار قدره النجاسة، وتقتصر على علامات بسيطة أغلبها استشفائية، والنساء يضعن الوشم في أعضاء جسمهن مع التفضيل، أهمها الوجه، والذراعين، واليدين، والعنق، والكاحلين، ولكن مع ذلك يمكن وضعه على كل مناطق الجسم، ولكل منها تعبير خاص⁽³⁾.

توقف إيميليو بلانكو إيثاكا أيضاً عند تعقيدات تقنيات وضع هذه الخطوط والأشكال، وتطبيقها على الجلد، وكيفية استعمال عصير النباتات والنسغ الذي يدور عبر الأوعية الموصلة للنباتات، بالموازاة مع ذلك

1.- Khatibi (Abdelkebir), *La Mémoire Tatouée*, médianes Denoël, 2002, p.176.

2.- Blanco Izaga (Emilio), *El Tatuajes...*, op2 cit, p.11.

3.- Romero Moga (Vicente), *La Atlántida Rifeña de Emilio Blanco Izaga la impronta de un militar español* -3 en Marruecos 1927-1945, edición de Vicente Moga Romero, Melilla, 2012, p.199.

قام بجمع الطقوس التي يقمن بها واضعات الوشم، اللائي يقضين عادة ليلة في ضريح معين، من أجل عرض وتقديم قرابين لنواياهم وللعالم الرمزي الذي يمثلونه، كما تعرض لقضية الانخراط مع خرافات وإيماءات وافية ضد نوبات الشر والحماية من الشياطين⁽¹⁾.

سعى التاريخ الثقافي إلى الاعتماد على الوشم باعتباره إثنوغرافيا مرسومة على الجلد، تؤرخ لدوافع وطقوس وضعها والوسائل المستعملة في ذلك، حيث عمد الإنسان الأمازيغي منذ القدم إلى استثمار ما تجود به الطبيعة والمحيط الخاص به، بالإضافة إلى توارث كيفية وضع الوشم عن طريق انتقال الذاكرة الجماعية عبر الأجيال وفق ضوابط الزمن وعبر الانتشار وفق ضوابط المسافة، وشبهه بلانكو الأمر بسفونية لا تنتهي تمتد من أعالي القصببات الأطلسية إلى عمق تواضع الخيمة الصحراوية، وهذه الدوافع تتوازن مع الجدور لتخترق جلد الأجساد النسائية، اللاتي يضعن مذكرة اللون التي تميز الحياة القاسية للقبائل، مذكرة حب الاستقلال وتحقيق قمة الجذب لأرضهن⁽²⁾.

يتميز مكان وضع الوشم بعدة دلالات، إذ يعد الوشم بين الحاجبين رمزا للحماية أو لجلب الحظ، وعلى الخدود يتخذ عادة لإضفاء لمسة من الجمال على المرأة، وعلى الذقن يكون ذو حمولة روحانية وبعد قبلي يحدد الهوية والانتماء، أما وشم الظهر فيحيل على الحمل أو الرغبة فيه نظرا لوظيفته السحرية في تحقيق ذلك، في حين يعد وشم المعصم وراحة اليد بمثابة حماية ووقاية، كما يوضع الوشم على الكاحل لتسهيل قطع المسافات بالنسبة للمغترين⁽³⁾.

خلص إيميليو بلانكو إلى نتائج مفادها أن الوشم الريفي رغم تجدره في عادات وذهنية القبائل الريفية إلا أنه ظل مطاردا من قبل الفقهاء (الطلبة)، وذلك عن طريق تحريمه وتكريس فكرة العقاب المرتبطة به، كما كشف الجانب السحري الحاضر في الوشم وكذا الطقوس السحرية المرافقة له، عن حضور الجانب الميتافيزيقي لدى الإنسان الريفي⁽⁴⁾. بناء على ما سبق، يكتسي الوشم أهمية تاريخية بالغة لها دور في التأريخ لثقافة الجماعات المتقدمة للكتابة، فهو حامل لبنية ثقافية خاصة، ويمكننا من الكشف عن الذهنيات الجماعية وأشكال التفكير ومختلف التمثلات والمواقف والهواجس، كما أن رموزه توضح العلاقة التي جمعت بين مختلف تشكيلات المجتمع الريفي، وبينه وبين الطبيعة والعالم اللامرئي.

.200Ibid, p.-1

.200Romero Moga (Vicente), *La Atlántida Rifeña...*, Op.Cit., p.-2

.201Ibid, p.-3

.203Ibid, p.-4

خاتمة:

أحدث التاريخ الإشكالي ثورة على مستوى اهتمامات المؤرخ الذي أصبح يهتم بدراسة جميع شرائح المجتمع وثقافته حتى في مستوياتها الشعبية والمغلقة، بعد أن اقتصر في السابق على تمجيد الفئات الحاكمة المنتجة للتاريخ بتركيزه على الأحداث السياسية والمعارك العسكرية، غير أن تطور المجتمعات وأشكال تمثلها للتاريخ، قادت في نهاية المطاف إلى توسيع دائرة الوثيقة واستثمار مناهج العلوم الأخرى في إطار عملية التناهج، وبالتالي إفراس أورش تاريخية جديدة تمثلت في التاريخ الجغرافي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي والسيكولوجي.

ولذلك أصبح التاريخ الثقافي يكتسي أهمية واضحة، من خلاله تمكين المؤرخ من كشف أنماط تفكير المجتمعات السابقة ومعتقداتها وتمثلاتها وحساسياتها، كما أصبح بمقدوره إعادة بناء نمط عيشها وشبكة الرموز التي أنتجها عن نفسه وعن الحياة والكون، وفي هذا المضمار يعتبر التراث الشعبي المكون أساسا من الأسطورة والحكاية والشعر والطقوس ورموز الوشم...، أهم مصادر الذاكرة الجماعية التي وجب استثمارها لكشف بنيات دفينية من التاريخ الثقافي للمجتمعات الشفهية، وبالتالي محاولة الانطلاق منها لبناء ونقد ماضي هذه المجتمعات.

كان السبق في هذا الورش المعرفي الفتي والخصب للأبحاث والأنثروبولوجية التي درست المجتمعات الشفهية، ومن ضمنها القبائل المغربية، باستثمارها لمصادر الذاكرة الجماعية، إلى جانب الملاحظات المضمنة في التقارير الإثنوغرافية التي مهدت لاستعمار المغرب. لذلك وجب على الباحثين في التاريخ الثقافي للمغرب، استثمار هذا المنجز وفق نظرة نقدية وشمولية تتجاوز الحدود المعرفية والأحكام المسبقة، وتصبو لإحداث تراكم معرفي في مجال العلاقة بين الذاكرة والتاريخ الثقافي، بهدف إعادة كتابة تاريخ اجتماعي جديد.

إسهامات العرب المسلمين في تقدم العلوم في العصور الوسطى مقارنة تاريخية

الاستاذ المحاضر الدكتور طيطح نصيرة
كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
جامعة عبد الحميد بن باديس. مستغانم. الجزائر

الملخص:

أن دراسة تاريخ العلوم هي دراسة الحضارة، والحضارة هي العلوم المختلفة والفنون والآداب، ودراستها تعني دراسة مستوى تطور الفكر العلمي لدى الشعوب والأمم. ومن خلال المداخلة الموسومة: "إسهامات العرب المسلمين في تقدم العلوم في العصور الوسطى مقارنة تاريخية"، سنرصد أهم الجوانب المضيئة لإسهامات العرب في التقدم العلمي وازدهاره، مما جعلهم يحملون مشعل الحضارة الإنسانية طيلة العصور الوسطى، عندما كان الغرب الأوروبي غارقاً في ظلام الجهل وبقي كذلك إلى أن وصل إليه شعاع علوم الحضارة الإسلامية، بدليل شهادة الكاتبة الكبيرة "زيغريد هونكة" -- SIGRID HUNKE -- الألمانية من خلال كتابها المشهور "شمس العرب - الله- تسطع على الغرب" ومما جاء فيه:

« أن أوروبا تدين للحضارة العربية وأن الدين الذي في عنق أوروبا وسائر القارات الأخرى للعرب كبير جداً وكان يجب على أوروبا أن تعترف بهذا الصنيع منذ زمن بعيد لكن التعصب الديني واختلاف العقائد أعمى عيوننا وترك عليها غشاوة حتى أننا نقرأ ثمانية وتسعين كتاباً من مائة فلا نجد فيها إشارة لفضل العرب وما أسدوه لنا من علم ومعرفة...¹».

إنّ الاستشهاد بهذا الكلام في الواقع يؤسس محور إشكالية المداخلة وهي كالتالي:

- ماهي أهم العوامل المساعدة التي ساهمت بشكل مباشر وغير مباشر في تقدم العرب في ميدان العلوم؟ ماهي أبرز هذه العلوم؟

وهل هناك إمكانية وأساليب في تحويل رصيد التراث العلمي إلى عامل دينامي حقيقي دافع ومحفز لمشاركة العرب في التفاعل الحضاري عالمياً حاضراً ومستقبلاً؟

ونجيب على هذه الإشكالية في ثلاث نقاط، الأولى التعريف بأهم العوامل التي ساعدت في تقدم المسلمين في الميدان العلمي، وكان أبرزها دور روح الإسلام في الحثّ على طلب العلم، التسامح الديني، دور نقل وترجمة الكتب من الإغريقية واللاتينية إلى اللغة العربية، بالإضافة إلى دور سلطة الخلفاء في تشجيع العلماء والإنتاج العلمي، بدليل أن الكتب كانت "تزن بمثقال الذهب" وتمنح كجائزة لأصحابها وبفضلهم ارتقت الحضارة العربية إلى مستوى العصر الذهبي دون غيرها من الحضارات.

¹شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة وتحقيق وتعليق، فؤاد حسنين زكي، مطبعة البعث قسنطينة 1406هـ/1986م، ص أ.

أما العنصر الثاني تناولنا فيه نماذج من العلوم التي تقدم فيها العرب: كالتب، الفيزياء الكيمياء، والصيدلة.

كما أدرجنا فيه بعض التصورات قد تساعد على إزاحة حالة النمطية للشلل والجمود الفكري للعرب

-بحجة التغني والتباهي بالماضي التليد.

-من أجل النهوض والمشاركة في الركب الحضاري العالمي.

- نهدف بهذه الورقة البحثية، فتح آفاق واسع لحفر معرفة الفكر العلمي لدى العرب المسلمين وإبان العصور الوسطى، و ابراز الأسس التي كونت خصائص ومميزات الحضارة العربية الإسلامية، وكذا الكشف عن مدى قدرة العرب المسلمين على استيعاب محصلة علوم الشرق والغرب، وكذا قدرتهم على التجديد والإبداع والعطاء ومن جهة أخرى تأصيل مشاركة العرب في الركب الحضاري والتفاعل معه للاستفادة منه ثم الابداع فيه حاضرا ومستقبلا، لأنهم يحملون في عمقهم جذور مخزون تراث فكري علمي قابل للتفاعل والعطاء عالميا.

ولعلنا بمشاركتنا بهذه المداخلة المتواضعة، نأمل أن نكون قد ساهمنا في تحقيق اهداف هذا الملتقى الدولي العلمية ولو بنسبة قليلة، وكذا تثنين جهود اعضاءه المباركة التي تسعى لصنع وبناء انطلاقا جديدة لحركة نهضة كبيرة في حقول العلم والثقافة لكي تعود شمس العرب من جديد تشرق على عالم الحضارة الإنسانية وهذا بكل تأكيد ليس بمستحيل .

الكلمات المفتاحية: تاريخ العلوم -العرب المسلمون- العصور الوسطى- التراث العلمي - البحث العلمي-المنهج التجريبي- الطب - الصيدلة-الكيمياء-الفيزياء -

Title of the intervention: " Arab Muslims' contributions to scientific progress in the Middle Ages , a historical approach "

Abstract:

The study of the history of science is the study of civilization, and civilization in various sciences, arts and literature, and studying it means the level of development of scientific thought. This intervention investigate: "Arab Muslims' contributions to scientific progress in the Middle Ages using a historical approach." we monitor the luminous aspects of the Arab contribution to scientific progress, of civilization in the Middle Ages, When the European West was in the darkness of ignorance until the ray of Islamic civilization . The great writer " -SIGRID HUNKE - German through her famous book "Shams Al Arab - God - Shining on the West" he says: «...Europe owes Arab civilization and that the debt that is in the neck of Europe and other continents of the Arabs is very large and Europe should have recognized this industry long ago

Far away, but religious fanaticism and differing beliefs our eyes and blurring on it until we read ninety eight books out of a hundred and we do not find in it a reference to the virtues of the Arabs and the knowledge and knowledge that they gave us to us ... ».

The axis of the problematic is: What are the most important contributing factors to the progress of Arabs in the field of science? What are these sciences? . Is there a possibility and methods of scientific heritage into a real dynamic factor that motivates the participation of Arabs in the civilizational interaction, globally, present and future?

The first of the most important factors that helped the progress of Muslims in the scientific field, the most prominent of which was the role of the spirit of Islam in inciting to seek knowledge, religious tolerance, the role of translating books from Greek and Latin into Arabic, and the role of the caliphs - to encourage scientists, that the books were "weighing gold" .

As the third element, we have included some suggestions that might help to displace the stereotypical of paralysis intellectual for the Arabs - on the pretext of mantras the past - to participate in the global civilizational process. .

- In this research paper, we have open a broad horizon into the knowledge of scientific Arab Muslims during the Middle Ages, and highlight the characteristics of Arab Islamic civilization, as well as the ability of Muslim Arabs to absorb the East and West sciences,. the Arabs should participate in civilization and interact with it , because they stock of scientific intellectual heritage that can be interacted globally.

Perhaps with our participation in this intervention, I hope have we contributed to achieving the goals of this international scientific forum, as well as the appreciation of the efforts of its members that create great renaissance movement of science and culture so that the sun of the Arabs will once again shine on the world of human civilization.

Key words: History of Science - Muslim Arabs - Middle Ages - Scientific Heritage - Historical Approach - World Civilization Interaction.

مقدمة:

يشهد العالم العربي الاسلامي اليوم دينامية فعالة من خلال حركة تتجدد الملتقيات والمؤتمرات الدولية التي تعقدتها الجامعات والمراكز الثقافية العلمية الكبرى عالميا، في إطار الدراسات والابحاث التاريخية حول محور بحث إحياء تاريخ " الميراث العلمي العربي الاسلامي " بأبعاده الاستراتيجية والهوية القومية الواسعة، في سبيل الارتقاء وإعادة خلق الذات الحضارية الاسلامية ، والاسهام ايجابيا في بناء الحضارة الانسانية، التي أضحت تتميز اليوم بالتعدد الحضاري المعاصر أو بمعنى آخر عوامة الحضارة. - ومن هنا كانت القيمة الكبرى لإشكالية هذا المؤتمر الدولي الذي جعل من التاريخ حقيبة للعلوم، أو بمعنى آخر- التاريخ الكامل أو الجامع -L'histoire total- Totalitarisme - لأن المدونات التاريخية هي وعاء لكل الخبرات البشرية وكل العلوم السابقة ، فالذي يريد ان يبحث في حضارة أية دولة أو شعب عليه ان يحفر في عمق المصادر التاريخية ، ليتعرف على التطور السياسي أو التطور الاجتماعي أو تطور الإقتصادي ، أو تطور العلوم الطبية او الصيدلية، أو الفيزيائية والكيمياء إلى غير ذلك من الميادين -للاستخلاص نسبة مؤشر مساهمة تلك الشعوب في التطور الحضاري عبر العصور.

ومن خلال المداخلة الموسومة : " إسهامات العرب المسلمين في تقدم العلوم في العصور الوسطى مقارنة تاريخية" ، سنحاول إبراز جزئية من هذا التاريخ الجامع ، ونقصد بذلك "تاريخ العلوم" ، حيث سنرصد أهم الجوانب المضيئة لإسهامات العرب في ميدان منهج البحث العلمي، ونخص بالذكر هنا العلوم التجريبية والتطبيقية ، واثرت ذلك في تقدم العلوم وازدهارها في الحضارة العربية الاسلامية التي أصبحت رائدة فيها إبان العصور الوسطى.

في الواقع إن الباحث في تاريخ العلوم عند العرب المسلمين يجد نفسه أمام مجال واسع ومتشعب من حيث طبيعة المادة المكونة له أو تركيب بنيته ومنهجه، ونقصد هنا موضوع تاريخ العلوم ودور العرب المسلمين في المساهمة في تقدمه وازدهاره، هذا من جهة ،ومن جهة أخرى أنه من المتعذر علينا أن نحيط بكل ما أتى به العرب من جديد في تقدم العلوم إبان الفترة القروسطية، ولو إحاطة إجمالية، ولذلك سنكتفي بعرض نماذج من العلوم التجريبية والتطبيقية ونخص بالذكر هنا، الفيزياء والكيمياء ، والطب والصيدلة .

- الإشكالية :

تثير إشكالية موضوع الورقة البحثية جملة من التساؤلات يمكن طرحها كالتالي:

- ماهي أهم العوامل المساعدة التي ساهمت بشكل مباشر وغير مباشر في تقدم العرب في ميدان العلوم ؟- ماهي مميزات وخصائص مساهمة العرب المسلمين في تقدم منهج البحث العلمي بصفة عامة، والتجريبي بصفة خاصة ؟. ما اثر ذلك على مظاهر الحضارة العربية الاسلامية في العالم القروسطي ؟ - ماهي الآليات والطرائق الناجعة في تحويل رصيد التراث العلمي الإسلامي-الجامد- إلى عامل دينامي حقيقي دافع ومحفز من أجل توظيفه كإنتاج ثقافي قابل للتجديد والتفاعل الحضاري عالميا حاضرا ومستقبلا؟.

-كيف نجعل من إحياء الميراث العلمي صمام أمن ثقافي ونضال حضاري أمام تيارات العولمة والتغريب الجارفة؟.

-أهمية الموضوع:

تكمن أهمية موضوع هذه الورقة البحثية كونه يبين لنا مسار الفكر العلمي للعرب المسلمين من خلال مساهمتهم في تقدم العلوم إبان العصور القروسطية، كما يمثل محصلة مخزون من التجارب والعلوم والمعارف المختلفة المادية واللامادية، التي حققها رجال السلف ولا يمكن للخلف الاستغناء عنها في دينامية حياتهم المتطورة. معنى ذلك أنه لابد من وقفة للتقييم وتقويم، خصوصيات جذور ومقومات الذات الحضارية للعرب المسلمين، ومن هنا تكمن القيمة الكبرى لتاريخ الحضارة الإسلامية بصفة عامة، وتاريخ العلوم بصفة خاصة، فلا شيء يعين حاضر الأمة العربية إلا عن طريق غذاء نسغ الماضي الذي يقوي دفع إعادة خلق الذات والإسهام في ميدان البناء الإيجابي والمتواصل في الحضارة الانسانية.

-الأهداف: يهدف الموضوع إلى:

-فتح أفق واسع لحفر معرفة الفكر العلمي لدى العرب المسلمين إبان العصور الوسطى.
- ابراز الأسس التي كونت خصائص ومميزات الحضارة العربية الإسلامية، وكذا الكشف عن مدى طاقة استيعاب العرب المسلمين لمحصلة علوم الشرق والغرب، من خلال قدرتهم على المساهمة في التجديد والإبداع في ميدان تقدم العلوم التجريبية وكذا التطبيقية.
- تعريف جيل الحاضر بالعلماء الذين ساهموا في وضع الميراث العلمي لكي يكون لهم باعث على الفخر والاعتزاز والثقة بمحيطهم الاجتماعي مما يحفزهم ويشجعهم على استئناف أمجادهم العلمية في الابتكار والعطاء الحضاري عالميا.
-استحضار أمجاد صرح العرب المسلمين الحضارية والعلمية بما تركوه من بصمات دامغة وإرث انساني، تمكن بفضلها الغرب الاوروبي من بناء حضارته ونهضته على اعمدة ذلك الصرح.
-أولا: العوامل المساعدة في تقدم المسلمين في العلوم:

الإسلام دين علم و حضارة، وبذلك فالحضارة الإسلامية تعني تلك المبادئ الإصلاحية التي تضمنتها رسالة نبينا الكريم محمد ﷺ لتنظيم هذا العالم وإصلاحه ونشر مبادئ الإسلام التي تحث على طلب العلم، وقد واصل الخلفاء الذين جاءوا من بعده لينشروها في أوسع أرجاء العالم.

1- دلالات الحث على طلب العلم في رسالة دين الإسلام:

يعتبر الإسلام أول ديانة حثت على طلب العلم، وكرمت العلم والعلماء، ولقد حضت رسالة الإسلام على الأخذ بأسباب الحضارة، وقد مثلت الكتابة* وأدواتها صميم منظومة الحضارة الإسلامية، بدليل آيات القرآن

لكتابة: تعود وفكرتها الأولى إلى النصف الثاني من الألف الرابعة ق م. نشأت في مهد بلاد الرافدين وتحديدًا في مدينة سومر (Sumer) فلقد أظهرت التنقيبات الأثرية الحديثة بأنها كانت أقدم المدن الإقليمية نظرا للتطور الذي عرفته هذه

الكريم التي ذكرتها، ويأتي القلم في مقدمة الأدوات التي يكتب بها، يورد القرآن الكريم لفظ القلم في أول آية أنزلت، يقول جلت قدرته: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5)﴾¹. أما الدواة فهي أم آلات الكتابة، فقد شرفها القرآن و أقسم بها الله، يقول تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1)﴾²، وصفها القرآن الكريم بالنون³، وتحلى بالذهب خاصة إذا كانت لكاتب سلطان أو لوزير⁴. كما كانت تطيب من قبل الكتاب لأنهم يكتبون اسم الله، ورسوله عليه الصلاة والسلام، واسم أمير المؤمنين⁵.

والقلم يستمد من الدواة المداد الذي هو «ركن من أركان الكتابة»⁶. وللخط مكانة في الكتابة، فهو عبارة عن رسوم وأشكال حرفية تدل على الكلمات المسموعة، بذلك احتل المرتبة الثانية في الدلالة اللغوية⁷. ولقد احتلت صناعة الكتابة في الحضارة العربية الإسلامية شأنًا كبيرًا، وارتقت بالإنسان إلى مستويات عالية اختزلت بها مجازات التعبير الثقافي في المجتمعات البشرية التي منحها الهوية والقومية. وقد رفع الله العلماء فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾⁸. وبالتالي إن أهم عامل شجّع ونمى وقوى الحركة العلمية والتفكير العلمي هو الباعث الديني وهو ما حث عليه القرآن والحديث

المدينة في مجال الكتابة والعلم. و خلال الألف الثالثة قبل الميلاد ظهرت الكتابة الهيروغليفية بمصر الفرعونية المتأثرة بالكتابة السومرية. أنولد توينبي: تاريخ البشرية، ترجمة، نقولا زيادة، الأهلية للنشر و التوزيع، بيروت، ط2، 1983. ج1، ص ص 77 83. ثم انتقلت إلى الفينيقيين الذين طوروها و نقلوها إلى العالم عبر سواحل البحر الأبيض المتوسط. دافيد دانجر: متحف الأبجديات، ترجمة: عبد المنعم الصاوي، مجلة اليونسكو، العدد60، سبتمبر 1962، ص8.

Jacques Glassner : Sumer, Comment est née L'écriture, Science et Vie, Hors Série N°219, Juin, France, 2002, pp22-38. Bordas Encyclopédie, Histoire Universelle Le Monde antique, T4, Ed., Paris, 1968, p 32.

• G. Contenan: La civilisation Phénicienne, Ed. Payot, Paris, 1949, p, 21.

1 سورة العلق الآية 4.3.

2 . سورة القلم، الآية :1.

3 . أحمد علي الملا: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية، ط2، دارالفكر للطباعة، والنشر، دمشق، 1401هـ/1981م، ص 112.

4 . الصولي أبو بكر بن محمد بن يحيى بن عبد الله: (ت335هـ/947م)، أدب الكتاب، شرح وتعليق أحمد حسن ليج، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1415هـ/1994م، ص89.

5 . القلقشندی أبو العباس أحمد بن علي: (ت 821هـ/1418 م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مطابع كوستا توماس وشركائه، الطبعة الأميرية، د.ت، ج2، ص، 480.

6 . المصدر نفسه، ج2، ص، 473.

7 . ابن خلدون عبد الرحمن: (ت 808هـ/1405م) المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1413 1993م، ص، 333.

8 . سورة: فاطر، الآية، 28.

الشريف من استكشاف الآفاق والتأمل في النفس قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾¹.

وبينت الأحاديث الشريفة فضل العلم والعلماء، وحث على والسعي في طلب العلم وتحصيله ولو كان في الصين، وجاء في حديث الرسول ﷺ «العلماء ورثة الانبياء». رواه ابو داوود والترمذي .

وقد بلغ تكريم الإسلام للعلماء أنه آثارهم عن المنقطعين للعبادة² وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضل القمر في ليلة البدر على سائر الكواكب» رواه النسائي والترمذي. ومن الدلالات التي تتجلى فيها روح الإصلاح والبذور العلمية في الإسلام، أن الرسول ﷺ، لم يختص بالعلم والتعليم للرجال، بل انه كان يحرص على ان يكون حظ المرأة من ذلك بنفس المستوى لأن المرأة نصف المجتمع وتعليمها بكل تأكيد سيعود بمنافع كثيرة على المجتمع الإسلامي³.⁴ ولقد قام كّل من المسجد والكتاتيب بدور ريادي في تعليم الأطفال القرآن والفرائض والنحو واللغة⁵.

وفي هذا السياق تقول المستشرقة زيغريد هونكة: «...ولا يفوتنا ان نذكر هنا أن أوروبا ما بين القرنين التاسع والثاني عشر الميلاديين كانت مسرحاً للامية، فكان أشرفها يتهربون من تعلم القراءة والكتابة، وكان رهبان الكنائس جلهم أميون، وفي المقابل وفي نفس العصر نجد في قرى ومدن البلاد العربية الآلاف من المدارس التي تضيق بالصبيبة من الجنسين كانوا يتعلمون القراءة والكتابة وتلاوة القرآن... وكان السرفي تأسيس هذه المدارس الرغبة الصادقة في ابداء حسن إسلام أولئك الذين يعتنقونه⁶». إن هذا الاعتراف من قبل المستشرقة الأوروبية لإنصاف للعرب ودليل قاطع على ان أوروبا ابان القرون الوسطى كانت تعيش في ظلام الجهل والامية وأن العرب كانوا محظوظين كونهم نالوا رعاية رسالة الاسلام التي رفعت درجة العلم والعلماء وجعلت العلم نورا والجهل ظلاماً.

2- التسامح الديني ودوره في تفاعل حركة تقدم العلوم في الحضارة الاسلامية:

ارتكز الإسلام على مبادئ سامية وابعاد إنسانية، الأمر الذي جعل الحضارة الإسلامية تتميز وتنفرد في نفس الوقت، بمقومات لا توجد في غيرها من الحضارات التي سبقتها، فرسالة الإسلام التي كلف بنشرها الرسول ﷺ لها أهداف وأبعاد عالمية الأفق، وأكبر دليل على ذلك الآية الكريمة يقول فيها تعالى: ﴿وَمَا

1. سورة: فصلت، الآية. 53.

2. زيغريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، ص 274.

3. سهى بعيون: اسهام العلماء المسلمين في العلوم في الاندلس، ط1، دار المعرفة، بيروت، 1429هـ-2008م، ص 8.

4. أحمد علي الملا، أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية، ص 16.

5. زيغريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، ص 301. آدم ميتز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر

النهضة في الإسلام، نقله إلى العربية، محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار التونسية للنشر، تونس، والمؤسسة الوطنية للكتاب 05

14 هـ/1986م، ص ص 287-288.

6. شمس العرب تسطع على الغرب، ص 297.

أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ¹، تبين هذه الآية مدى سماحة الإسلام من خلال شخصية الرسول ﷺ و مبادئ رسالة الرحمة والمساواة والحرية لكل البشر مهما كانت أجناسهم، كما جاء به النص القرآني في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ. ²﴾. إن المتمعن في معاني هذه الآية المشتقة من دستور القرآن يلاحظ أنها مبادئ سبقت كل المواثيق والمنظمات الدولية لحقوق الإنسان الحديثة المتمثلة في حق الإنسان في الحياة الكريمة ودون تمييز عرقي أو ديني، بأكثر من أربع عشرة قرناً. كما جاء في قوله الله تعالى ﴿ لَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ³﴾، لأنها جعلت للمبادئ الأخلاقية، حجر الزاوية في نظم السياسة والمجتمع⁴. كما تميزت بالرحمة والشفقة على الإنسانية جمعاء وقد تبين ذلك في المواقف الحاسمة اثناء فترات السلم والحرب.

نستشهد ببعض أقوال المفكر غوستاف لوبون (1841-1931م) -Gustave-le-Bon- حيث قال في هذا المعنى: « إن فلاسفة العرب والمسلمين هم أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين...⁵ وما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب⁶»، ويرجع ذلك حسب رأيه أن القرآن لم ينتشر بالسيف بل بالدعوة وحدها وبها اعتنقته الشعوب وجعلته دستوراً لها⁷. كما أن رسالة الإسلام توافق منطق الواقعية ومقتضيات التطور الحضاري الملائمة لمناحي العلم والاكتشافات، التي تنوعت واختلقت بفضل العلماء ذوي الجنسيات المتعددة الذين اضافوا لها روافد علمية جديدة، لأنها بكل بساطة لا تفرق بين الاجناس والألوان البشرية، أو بمعنى آخر لم تضع حدوداً قومية للمشاركة في الحضارة، العربية الإسلامية، وللمقاربة نقول أن مسار الحركة العلمية للحضارة الإسلامية على الرغم من أنها متقدمة على نظرية المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي (1889-1975م) -A.G.Toynbee-

التي تنفي الحدود القومية لدراسة تاريخ الأمم⁸ مع ذلك فإنها تتطابق معها من حيث التقاطع والتكامل من حيث اتصال الحضارات وعدم اهمالها بل بالعكس البناء على انقاضها وفق حركة دائمة.

1. سورة الأنبياء: الآية، 107.

2. سورة: الحجرات، الآية، 13.

3. سورة: الإسراء، الآية، 70.

4. إبراهيم محمد القباني: دور العلماء المسلمين في تطوير العلوم، إدارة النشاطات الثقافية، المملكة العربية السعودية. دت. المرجع السابق، ص 14.

5. حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012، ص 17.

6. المرجع نفسه، ص 25.

7. المرجع نفسه، ص 17.

8. محمد فؤاد شبل: توينبي مبتدع المنهج التاريخي الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975 م، ص 23..

وهو الأمر الذي جعل الحضارة الإسلامية تحظى بإنتاج علمي خصب بمشاركة بالآلاف من العلماء من غير العرب الذين برعوا في ميادين العلوم المختلفة وأضافوا إليها حبوب لقاح جديدة خصبة الحضارة العربية الإسلامية وأينعتها.

3 - دور الخلفاء في تشجيع حركة نقل وترجمة العلوم:

ظهرت الترجمة في عهد الدولة الأموية عملاً جماعياً تبنته رسمياً من حيث التنظيم والانفاق على الذين يشتغلون في سلكه، وقد سائرهم في ذلك خلفاء الدولة العباسية، الذين أعادوا للترجمة أهميتها فرفعوا من شأن المترجمين، فهذا يجمعهم الخليفة هارون الرشيد في مكان واحد سماه "بيت الحكمة" وفوض إدارتها إلى خبير في اللغات كالسريانية واليونانية -الغريقية- والفارسية والعربية، لكي يترأسها ويدير شؤونها. ويعتبر حنين بن إسحاق (194-260 هـ / 810-873 م)*. وفي عهد ابنه الخليفة المأمون أضاف إلى بريق "بيت الحكمة" العلمي والحضاري بريق الذهب فقد كان يمنح جائزة لكل كتاب مترجم مثقاله ذهباً¹.

ويمكن القول إن الجذور الأولى لحركة الترجمة الإسلامية ترجع إلى العصر الأموي، إذ تردد في المصادر أن خالد بن يزيد بن معاوية -الملقب بالحكيم والمتوفي عام (85 هـ / 740 م) إهتم بترجمة عدد من الكتب في الطب وعلم الصنعة (الكيمياء) إلى العربية. ذكر ابن النديم أن خالد بن يزيد بن معاوية كان يسمى "حكيم آل مروان" ووصفه بأنه كان فاضلاً محباً للعلم. خطر بباله الصنعة فأحضر جماعة من الفلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مصر وقد تفصح بالعربية، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربية. وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة...².

لم تشغل سياسة الخلفاء المسلمين عن المشاركة في الحركة العلمية، لقد نافست مجالسهم العلمية مجالس العلماء وكان أشهرهم الخليفة العباسي "المأمون" (800)، فكان مجلسه يزدهر فيه العلماء والفقهاء والفلاسفة والأدباء، وكانت هنالك رسوم -بروتوكولات Protocoles- منها آداب الجلوس والقيام، والتقاليد في الحديث مع الخليفة وكذا اللباس الذي يلتزم بها العلماء الذين يحضون بالدخول والمشاركة في مجلس الخليفة، وكان هذا الأخير يبالغ في إكرامهم³.

كما منح الخلفاء علماء الإسلام في نهاية القرن الرابع الهجري في جملة العظماء وأصحاب الألقاب، "ركن الدين"، وفي كثير من الأحيان يقال للعالم والشيخ الجليل. وشيخ الإسلام وهو على سبيل التكريم⁴.

* من أبرز العلماء المترجمين الذين تولوا رئاسة بيت الحكمة وكان طبيباً بارعاً وقد ترجم من اليونانية إلى السريانية والعربية. يترجم بنفسه ثم يشرف على أعمال المترجمين. كما كان يؤلف ويضع الشروح ويلخص المطولات، وأهم ما نقله إلى العربية من كتب أفلاطون كتاب السياسة -النواميس- ومن أرسطو كتاباً بالمقولات -الأخلاق. نفسه، ص 302.

1. عمر فروخ، تاريخ العلوم عند العرب، دار الملايين، بيروت، 1390 هـ / 1970 م، ص 113.

2 أبو الفرج محمد ابن إسحاق بن أبي يعقوب ابن النديم: الفهرست، تحقيق رضا تجدد، طهران 1971، ص 419.

3. أحمد علي الملا، أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية، ص 51 وما بعدها.

4. آدم ميتز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج 1، ص 311.

والجدير بالإشارة ان الخلفاء كانوا وراء تنظيم وازدهار العديد من المكتبات، فالخليفة المأمون "" كان يرسل البعثات إلى ملك الروم بالقسطنطينية ليستأذن في نقل بعض الكتب القديمة الموجودة في مكتبته، ولقد سمح له الامبراطور البيزنطي بذلك فحمل إلى مكتبة "بيت الحكمة" تعود نشأتها إلى عهد الخليفة هارون الرشيد¹، حيث احتوت على مائة ألف مجلد، وهي من اشهر المؤلفات الإغريقية، شملت الفلسفة، والطب، والتاريخ، والرياضيات، والفلك، والصيدلة. وقد امر المأمون بترجمة هذه الكتب بالغة العربية، وكان بيت الحكمة يشتمل على عدد من المتخصصين في الترجمة².

وقد برز في حب الكتب وجمعها عن طريق البعثات والسفارات الخليفة العباسي المأمون (198-218هـ/814-833م) من خلال السفارات التي بعثها الخليفة العباسي لجلب الكتب "لدار الحكمة"، ولابن صاعد الاندلسي نص يذكر فيه حب الخليفة العباسي للمكتب قائلا: «...ثم أفضت الخلافة إلى الخليفة السابع منهم عبد الله المأمون بن هارون الرشيد... فأقبل على طلب العلم في مواضعه وأستخرجه من معادنه بفضل همته الشريفة وقوة نفسه الفاضلة فراسل ملوك الروم وأتحفهم بالهدايا الخطيرة وسأل صلته بما لديهم من كتب الفلاسفة فبعثوا اليه بما حضرهم من كتب افلاطون وأرسطاطاليس، وأبقراط وجالينوس وأوقليدس وبطليموس وغيرهم من الفلاسفة استجاد لها مهرة المترجمين وكذا فهم احكام ترجمتها فترجمت له على اية ما أمكن ثم حض الناس على قراءتها ورغبتهم في تعليمها فنفتت سوق العلم في زمانه وقامت دولة الحكمة في عصره...»³.

خلال القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) كانت الدولة الأموية بالأندلس تعيش عصرها الذهبي، فقد بلغت من الثراء والازدهار الحضاري درجة كبيرة الأمر الذي جعل الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع (301-348 هـ / 913-959م) Constantin VII، يرسل إلى الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر لدين الله (300-350 هـ / 961م) هدية فاخرة ذكرها المقري قائلًا: «... ودفعوا كتاب ملكهم صاحب القسطنطينية العظمى قسطنطين بن ليون، وهو في رق مصبوغ لونا سماويا مكتوب بالذهب بالخط الاغريقي، وداخل الكتاب مدرجة مصبوغة أيضا مكتوبة بفضة بخط إغريقي أيضا فيها وصف هديته التي ارسل بها وعددها، وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه أربع مثاقيل، على الوجه الواحد صورة المسيح، وعلى

1. Dominique Barthélemy, Michel Sot, et Jean-Pierre Van Steavel : La rencontre des civilisations autour 1 du monde musulman (VII°-XIV° siècles) livre prduit d'un Colloque ; international et interdisciplinaire .Paris-Sorbonne, Abou Dhabi du :9au10 Mars 2011. pp49 . voir aussi. Barthélemy Dominique : L' Islam au carrefour des civilisations médiévales. S. Michel. 1953.

2. احمد علي الملا، أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية، ص ص 57-58.

3. طبقات الامم، ص 48.

* هو الإمبراطور قسطنطين السابع Prophrogenitus Constantin VII (301-348 هـ / 913-959م) المعروف باسم

بورفيروجينيتوس Prophrogenitus - أي المولود في غرفة ارجوانية .

Livre de cérémonies .texte établi et traduit par .Alber VOGGT.3 Edt. Constantin VII Prophrogenitus : Paris. les belles lettres. 2006. p13 ,p36.

الأخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده، وكان الكتاب بداخل درج فضة منقوش عليه غطاء ذهب فيه صورة قسطنطين الملك معمولة من الزجاج الملون البديع، وكان الدرج داخل جعبة ملبسة بالديباج، وكان في ترجمة عنوان الكتاب في سطر منه: قسطنطين ورومانين المؤمنان بالمسيح، الملكان العظيمان ملكا الروم¹. وفي سطر آخر: إلى العظيم الاستحقاق الفخر الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس، أطال الله بقاءه².

لقد كان في مقدمة هدايا -ملك الروم إلى الناصر سفران جليلان من كتب الأقدمين، الأول: كتاب "الحشائش"⁽³⁾ في النباتات (Materia médica) لديسقوريدس* (Dioscorides) اليوناني⁽⁴⁾ وكتب قسطنطين أورمانوس في كتابه إلى الناصر، إن كتاب ديسقوريدس لا تجتنى فائدته، إلا برجل يحسن العبارة باللسان اليوناني، ويعرف أشخاص تلك الأدوية، فإن كان في بلدك من يحسن ذلك، فزت أيها الملك بفائدة الكتاب⁵، «.....». لكن لم يكن يومئذ بقرطية من نصارى الأندلس من يقرأ اللسان الإغريقي

1 . المقري التلمساني أحمد: (ت 1041هـ/1631م)، نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق وضبط محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت. ج 1، ص 352.

2 . المصدر نفسه، ج 1، ص 351-353. بالنتيا أنجيل قنثال: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت. ص 462-463.

3 . ابن جُلجُل: سُلَيْمَانُ بن حَسَّان الأندلسي، أبو داود، (332 . 384 / 943-944م): طبقات الاطباء والحكماء، ألفه سنة 377 / ويلييه / تاريخ الاطباء والفلاسفة، تأليف اسحاق بن حنين ت 298 . تحقيق فؤاد السيد، مؤسسة الرسالة، ط 1405، 2 هـ / 1985م، ص 21-22. ابن ابي أصبيعة، المصدر السابق، ص 493-494. ،خوان فرنيت : فضل الاندلس على ثقافة الغرب ، نقله عن الاسبانية : نهاد رضا . قدم له و وضع حواجيه . اشبيلية للدراسات للتوزيع و النشر ، دمشق طبعة 1990 م ، ص 108.

Nicolat Drocourt. Peeters :Diplomatie sur le Bosphore ((Les Ambassadeurs étrangers dans l'Empire Byzantin des années 640- 1204..TII. , p717 .

*ديسقوريدس، (ح 40-ح 90م) Dioscorides Pedanius - طبيب، كيميائي وعشاب يوناني عاش في القرن الأول الميلادي، كان بعد بقراط وترجم من كتب بقراط الكثير، وهو أعلم من تكلم في الطب وهو العلم في العقاقير المفردة .ابن جلجل، المصدر السابق، ص 21. ابنُ أصبيعة، ص 407-408.

Encyclopaedia universsalis.T1,pp. <https://fr.wikipedia.org/wiki/Dioscoride>

4 . ابنُ أصبيعة، ص 493.خوان فرنيت ، فضل الأندلس على ثقافة الغرب، ص 108.

5. عيون الانباء في طبقات الاطباء ، ص 493-494.

Jakub Sypianski :Les mouvements des érudits et.

des manuscrits entre Byzance et le monde arabe au IX siècle et hypothèse des influences du première renaissance mouvement du traduction Gréco-Arabe au Califat Abbasside sur la

1. «فجواب الناصر أرمانوس قسطنطين السابع - سأله أن يبعث اليه برجل يتكلم بالاغريقي واللطيني ليعلم له عبيدا»²

فبعث براهب كان يسمى نقولا - Nicolás - إلى قرطبة سنة 340هـ³. وقد عين الخليفة الأندلسي مجموعة من الأطباء كانت لهم القدرة على البحث وتفتيش منهم : طبيبه اليهودي المعروف "حسداى بن شبروط الاسرائيلي" و"أحمد النباتي"، و"عبد الرحمن بن اسحق ابن الهيثم"، ومحمد بن سعيد الطبيب و"أبو عبد الله الصقلي"، الذي كان يجيد اليونانية وله إلمام بتركيب العقاقير ويعرف اشخاص الادوية⁴. أما الكتاب الثاني فهو مؤرخ اسباني يدعي باولوس أروسيوس "هروشيئ" - Paulus Orosius - والكتاب يهتم بكتب التواريخ السبعة في الرد على الوثنيين « Historiarum adversum paganos libri septem »، أو - "Historia adversum paganos" -⁵. وهو مكتوب باللاتينية كما جاء في نص الرسالة: «... وأما كتاب هروشيئ، فعندك في بلدك من اللطنيين من يقرأه باللسان اللطيني، وإن كشفتهم عنه نقلوه لك من اللطيني إلى اللسان العربي»⁶.

Byzantine. Mémoire du Mastère 1, sous la direction le professeur, Michel Kaplan, Université, Paris I, Panthéon Sorbonne. Paris, Juin ; 2011. p3.

1. عيون الانباء في طبقات الاطباء ، ص ص 493-494. هذا ولقد سبق و أن تُرجم الكتاب ديسقوريدس - إلى العربية قبل ذلك الوقت بنحو قرن من الزمان في مدينة بغداد على عهد الخليفة "المتوكل" العباسي (232 . 247هـ). غير أن مترجمه "اصطف بن باسيل"، لم يترجم إلى العربية سوى جزء من أسماء الأدوية لعدم معرفته بما يقابل اليونانية فيها. ولهذا ظلت أسماء باقي العقاقير الطبية على صورتها اليونانية بحروف عربية . عبادة عبد الرحمن كحيلية: مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، كتاب التواريخ لباولوس أروسيوس وترجمته الأندلسية، المجلد 23، مدريد 1985-1986 القاهرة، ص 132.
2. حسب المستشرق خوان فرنيت (العبيد) هم الصقالبة الذين كانت لهم مقدرة في تعلم اللغات ، وهذا يدل على انفتاح الاندلس على حضارة الشعوب، فضل الاندلس على ثقافة الغرب ، م ، ص 111.
3. ابن ابي اصبيعة ، عيون الأنباء في طبقات الاطباء، ص 494.
- * من أعيان أطباء الأندلس وفضلاتها، وعنه يقول ابن أبي أصبيعة :وله من الكتب ككتاب الكمال والتمام في الأدوية المسهلة والمقيئة .كتاب افقتصار والايجاد خطأ ابن الجزار .كتاب الاكتاء بالدواء من الخواص الشياء، صنحة مخصوصا للحاجب ابن منصور العامري .كتاب السمائم. المصدر نفسه، ص 493.
4. نفسه، ص 494. خوان فرنيت ، فضل الاندلس على ثقافة الغرب، ص ص 111-112.
5. خوان فرنيت ، لمرجع السابق، ص ص 116-117 . عبادة عبد الرحمن كحيلية: مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، كتاب التواريخ لباولوس أروسيوس وترجمته الأندلسية، المجلد 23، مدريد 1985-1986 القاهرة، ص 120.
6. ابن ابي اصبيعة ،المصدر السابق، ص 494. خوان فرنيت ،المرجع السابق ، ص ص 116-117.

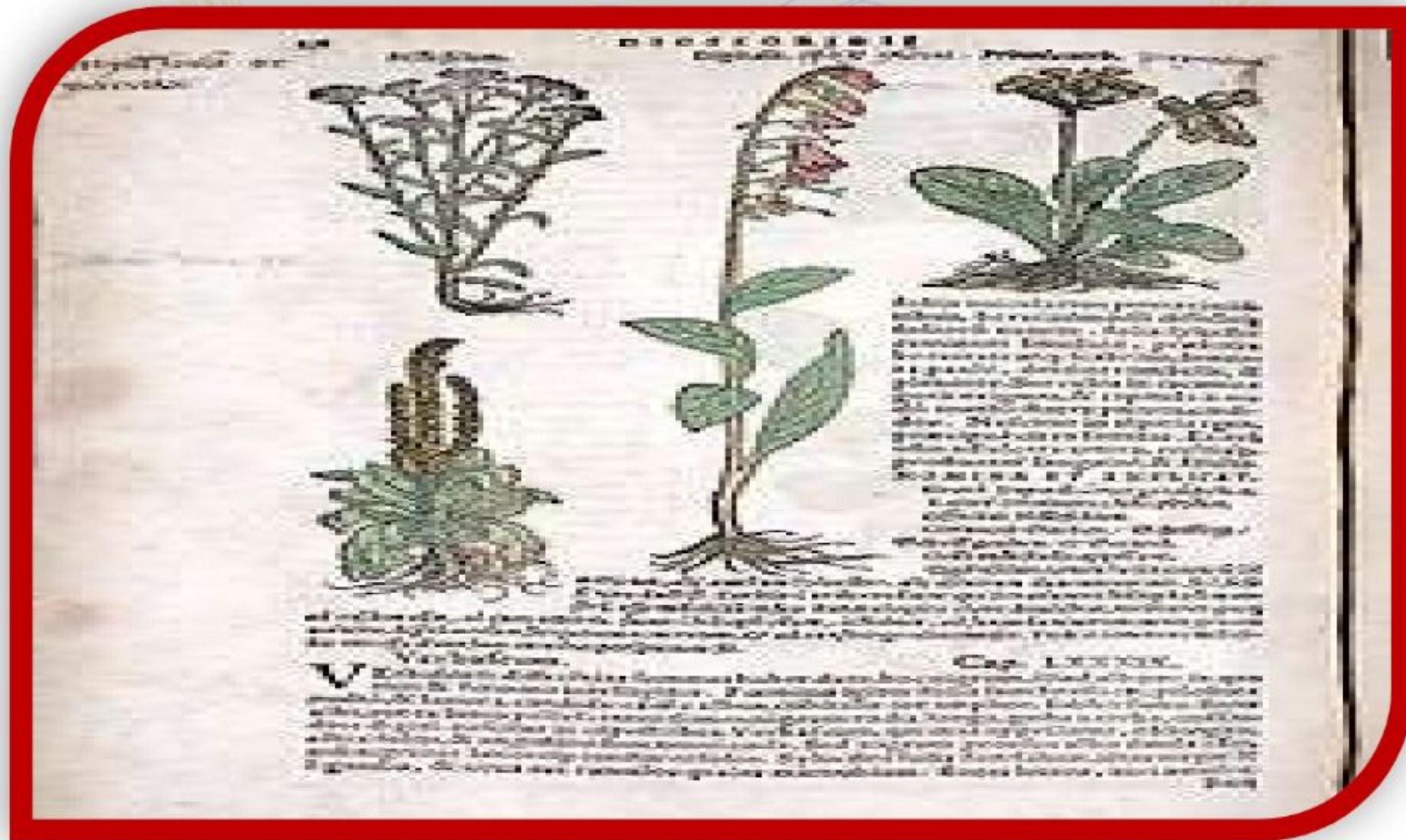
والجدير بالملاحظة ان فائدة كتاب هيروشيش لا تزال آثارها واضحة في الجانب المصدري والمنهجي في العديد من المصادر التاريخية والجغرافية العربية ، فأحمد بن محمد الرازي* الذي يعد أول مؤرخ جغرافي أندلسي اتبع في كتاباته منهجية كتاب هروشيوش والتي تقوم كتالي : مقدمة جغرافية وافية وافية يليها تاريخ عام، ولقد أخذ هروشيوش بدوره منهجية الوصف العام البطلموسي (100 ق م-170 م) - Ptoléméen* لشبه الجزيرة الأيبيرية – الأندلس¹. وكذا كتاب الروض المعطار²، وكتاب العبر للعلامة ابن خلدون الذي اعتبر كتاب هيروشيش من الناحية المصدرية أوثق لذلك يعتمد عليه للتاريخ القديم³.



- * ابن الأبار: كتاب التكملة، ج2، ص155. ويسميه الحميدي بالتاريخي، له كتاب خصصه، لمسالك الأندلس ومراسيها، وأمهاات مدنها . المصدر السابق، ص104. ويقول عنه حسين مؤنس : اول من اثر عنه التأليف في التاريخ مع جانب الجغرافية . الجغرافية والجغرافيون ، ص27 .
- ** بطليموس كلاوديوس-القلوني - Claudius Ptolémus - Claud Ptolémée ، اغريقي الاصل عاش في الاسكندرية من اشهر علماء الفلك والجغرافية في العالم القديم ، صاحب كتاب المجسطي -Almagest- أول من وضع قطر للأرض - ، استعمل الالوان في الخرائط، وضع الكثير من النظريات منها كروية الارض. ابن جلجل ،المصدر السابق ، ص ص 35-38. ابن النديم الفهرست، ص374. وما بعدها .
1. حسين مؤنس، الجغرافية والجغرافيون، ص20، ص32.
2. الحميري، ص51، ص367.
3. العبر، ج2، ص101.



شكل كتاب ديسكوريدس مترجم باللغة العربية. <https://fr.wikipedia.org/wiki/Dioscoride>.



كما عرف عن الحكم الثاني الخليفة الأندلسي المستنصر بالله (350-366 هـ/ 929-976م) بأنه محب للعلم والكتب بصفة خاصة¹. وقد ضمت مكتبة قرطبة في عصره نحو من 400 ألف مجلد، فيها

1 المقري، ج1، ص 369 وما بعدها.

الكثير من مؤلفات المشاركة⁽¹⁾. وتذكر المصادر اللاتينية أنه أرسل سفارة وهو لا يزال بعد وليا للعهد في طلب مجموعة من الكتب من الإمبراطور قسطنطين السابع،⁽²⁾ وقد اجابه بما يلي: «أما بعد فإني قرأت كتابك وفهمت ما وفققتني عليه من جميع الكتب التي للحكماء... ما أسأل الله للأمير أن يقضي له بجميع ذلك وأن يعينه ويبلغه أرفع درجات الحكمة وأن يجعله موضوعا لها ولكتب الحكماء كما بلغه أرفع الدرجات من الشرف...⁽³⁾». والأرجح أن المجموعة تضمنت كتب متنوعة من فلسفة وفلك والطب ورياضيات والتاريخ وجغرافية، كتبها أشهر علماء الإغريق كأفلاطون- وأرسطو Aristotle وإقليدس-Euclide وبطليموس Ptolémée⁽⁴⁾.

ثانيا: نماذج من إسهامات العرب المسلمين في تقدم العلوم التجريبية والتطبيقية :

لم يقف الدين الإسلامي عقبة في سبيل العلم التجريبي الذي تعتبر المادة موضوعا له، ولا يعده مقابلا للإيمان، أو معاديا له، كما اعتبرته أديان أخرى في مراحل معينة من تاريخ الانسانية. قال علي بن ابي طالب: العلم ضالة المؤمن فخذوه ولو من ايدي المشركين. وينطبق هذا اكثر ما ينطبق على العلوم المادية التي لا تخضع لعقائد أصحابها، لأن نتائج تلك العلوم قوانين كونية عامة يتعامل بها المؤمن والكافر ومن هنا لم يجد المسلمون حرجا في اقتباس العلوم التجريبية من الطب والفيزياء والكيمياء وصيدلة وغيرها - فأقدموا على علوم الأوائل يدرسونها ويناقشون ما بها من آراء ويصححون ما قد يجدونه من أخطاء ويضيفون إليها الجديد من المعلومات التي يتصلون إليها بالتجربة والبرهان العلمي.

وأهم العلوم التجريبية والتطبيقية التي تفوق فيها علماء المسلمين وحققوا فيها إنجازات جديدة هي:

1- الطب:

وقد إتجه المسلمون منذ بداية عصر الترجمة في عصر الدولتين الأموية والعباسية إلى ترجمة كتب الطب اليوناني، وأشادوا بما قدمه أبقراط وجالينوس وغيرهما من أطباء اليونان، وأخذوا عنهم كل ما لا يتعارض مع الإسلام ومبادئه التي تستهدف السمو بمهنة الطب. ولم يتنكر الأطباء المسلمون لما قدمه أبقراط اليوناني ولا أدل على ذلك من أنهم شرطوا على كل من رغب في مزاولة مهنة الطب أن يستوعب ما

1. المصدر نفسه، ج1، ص 377.

2. Les :Jakub Sypianski :Diplomatie sur le Bosphore, p717. Nicolat Drocourt. Peeters :

3. حجي عبد الرحمان علي :العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزنطة حتى نهاية القرن الرابع الهجري، منشورات المجمع

الثقافي، أبو ظبي ط1، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2002م ، ص 125.

4. Nicolat Drocourt. Peeters :Diplomatie sur le Bosphore, p715.

Jakub Sypianski :Les mouvements des érudits et des manuscrits

شرطه أبقراط على نفسه من قواعد وشروط، وأن يحلف على احترام هذه الشروط والقواعد¹.

وفي هذا الصدد يعتبر أبو بكر الرازي "Rhazes" (250-320 هـ / 864-932 م) أقدم على تعلم الطب ونبغ فيه حتى سماه العرب جالينوس العرب². فأبو بكر الرازي أول من جرب مرهم الزئبق في القروود. كما استخدم غير القروود في تجارب أخرى سواء في مجال الجراحة أو في العلاج³.

ويكفي ان نذكر أن مؤلفات الرازي بلغت مائتين فما فوقها نصفها في الطب. وكان أكبر مؤلفاته الطبية كتاب "الحاوي" -Continens Rhosis سمي كذلك لأنه حوى كل شيء وهو موسوعة زادت على سبعة عشرة مجلد وهي من الاتساع بحيث لم يكتب مثلها في الطب كاتب واحد قط. وهي تجمع الطب الإغريقي وغيره إلى طب العرب إلى طب الرازي نفسه - لكن لم يبقى منها الا عشرة مجلدات موزعة بين المكتبات. ولقد ترجم كتاب "الحاوي"⁴ في عصر النهضة الأوروبية إلى اللاتينية ترجمه فرج بن سالم الاسرائيلي وعرف بLiber continens سنة 1279 م، ومن ثمة كانت انطلاقة معرفة جديدة بهذا الكتاب فنسخ منه أعداد كبيرة في دور أوروبا لفترة زمنية طويلة. وبظهور المطبعة جوتنبرغ 1492 م طبع كتاب الحاوي لغاية 1542 م⁵.

بالإضافة إلى كتاب "الحاوي"، كان للرازي تأليف كثيرة في أمراض عالجها فرادى. من ذلك كتاب له في الحصى في الكلى والمثانة. ومن أشهر كتبه كتابه في الجدري والحصبة. Variolis et Morbiliis وهو مترجم إلى اللاتينية وأخرجت منه أربعون طبعة بين عام 1498 وعام 1866 م. أي أن آخر طبعة منه كانت خلال القرن التاسع عشر. وفيه وصف دقيق لتشريح أعضاء الجسم Anatomy. وهو أول كتاب في موضوع التشريح، ترجم إلى اللاتينية باسم Nonus Almansoris - وكان من بين الكتب التسعة في مكتبة كلية الطب بباريس سنة 1395 م، وقد ظل المصدر الأول في الطب في أوروبا لغاية القرن السابع عشر الميلادي، يجمع إلى - الطب العلم بالكيمياء وبالفلسفة وبصنوف أخرى من العلوم⁶.

ومن الامثلة اهتمام الرازي بالتجربة الحالات ثلاث وثلاثون - Thirty three clinical observations by Rhazes التي ذكرها الباحث مايرهوف Meyrhof Max في مقالته التي عنوانها: "ثلاث وثلاثون ملاحظة

1. زيغريد هونكة، المرجع السابق، ص 140 وما بعدها، ينظر، أحمد زكي: ابوبكر الرازي. مجلة العربي مصورة شهرية جامعة تصدرها وزارة الإرشاد والأنباء بحكومة الكويت. الكويت. العدد. 86. سنة يناير 1966.، سنص ص 110-113.

2. زيغريد هونكة، المرجع السابق، ص 160. آمال لدرع،: الحركة العلمية، منشورات، جامعة التكوين المتواصل، قسنطينة، 2008-2009. ص 246.

3. زيغريد هونكة، المرجع السابق، ص 158، وما بعدها. محمد سويسي، المرجع السابق، ص 16.

4. المرجع نفسه، ص 202.

5. أحمد زكي، أبو بكر الرازي، صص 110-113.

6. زيغريد هونكة، المرجع السابق، ص 164. محمد عبد الرحمن مرحبا، المرجع في تاريخ العلوم عند العرب، ص 284.

سريرية للرازي¹. والجدير بالإشارة ان الرازي له اعمال في مجال دراسة دقيقة في الامراض التناسلية والتوليد وجراحة العيون التي لاتزال لها قيمتها العلمية على مر العصور. وقد اتبع الرازي في عرض الكلام عن الطب إلى قسمين كبيرين ماهو نظري خاص بالمنهج وقسم خصصه للجانب التطبيقي –التجريبية- والذي يعتبر رائدا في هذا الميدان².

ومن الشواهد الدالة على الروح العلمية وتطبيق منهج البحث التجريبي في الطب صحيفة حفظها لنا موفق الدين عبد اللطيف البغدادي (المتوفى سنة 629هـ/1231م) في كتابه " الافادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بارض مصر" فلقد استفاد البغدادي من وجود جثث الموتى في المجاعات بمصر زمن الحروب الصليبية فقام بتشريحها وتوصل إلى اكتشافات ذات قيمة علمية كبيرة خاصة في المفاصل وكيفية اتصالها وتناسيها وأوضاعها. ومما جاء فيها: «ومن عجيب ما شهدناه ان جماعة ممن ينتمون للطب وصلوا إلى كتاب التشريح لجالينوس فكان يعسر على افهامهم تصور القول عن العيان فاخبرنا ان... ان تل عليه رمم كثيرة... فخرجنا اليه فراينا تلامن رمم له مسافة طويلة يكاد ترابه اقل من الموتى... فشاهدنا من شكل العظام ومفاصلها وكيفية اتصالها وتناسيها واوضاعها ما افادنا علما لا تستفيده من الكتب أما أنها سكنت عنها، أو لا يفي لفظها بالدلالة عليه أو يكون ما شهدناه مخالفا لما قيل فيها. والحس أقوى دليلا من السمع. فان جالينوس، وإن كان في الدرجة العليا من التحري والتحفظ فيما يباشره ويحكيه فان الحس اقوى منه... فمن ذلك عظم الفك السفل فان الكل قد اطبقوا على انه عظامان بمفصل وثيق ولا درز أصلا، واعتبرناه ما شاء الله من المرات من اشخاص كثيرة تزيد على افي جمجمة باصناف من الاعتبارات فلم نجده إلا عظما واحدا من كل وجه...³».

ولقد اشتهر في الطب العربي الإسلامي كذلك العالم أبو علي بن سينا-Avicenna (370-428 هـ /980-1037م): لقب بالمعلم الثاني تشبها له بأرسطو (المعلم الأول). وكان عالما موسوعيا له عدد من المؤلفات في الفلسفة، والطب والهندسة والفلك والموسيقى وغيرها. لكن كتابه "القانون في الطب" عبارة عن موسوعة طبية ضخمة، تناولت شتى الأمراض، وأسبابها وأعراضها وعلاجها، فضلا عن تشريح أعضاء الجسم الإنساني عضوا عضوا، قام الأوروبيون بترجمتها إلى اللاتينية⁴. يعتبره الأوروبيون خير ما أنتجته القريحة الإسلامية. ففي القرن السابع عشر أصبحت عبارة روح ابن سينا Anima Avicenna- من اكبر الألقاب التي يتشرف بحملها الطبي الأوروبيا والطب عامة. وكانت درجة الامتياز التي تمنح للأطباء المتفوقين شعار ابن سينا Avicennista insignis- واصبحت لفظ –الاطباء" ابن سيني Avicennist" يطلق على أتباع

1. Meyrhof Max: Thirty three clinical observations by Rhazes ;Isis , Review, vol23,n°.66.

2. نقلا عن مرجحيا المرجع في تاريخ العلوم .ص284.

3. المرجع نفسه، ص286.

4. زيغريد هونكة ،المرجع السابق، ص ص 187-188.

4. زيغريد هونكة ،المرجع السابق، ص 291.

ابن سينا¹. ومن اهم الاكتشافات العلمية في ميدان الطب اكتشاف الدورة الدموية من قبل ابن النفيس²

كما برز أطباء ضلعوا في الطب سواء في المغرب أو الأندلس منهم أحمد بن إبراهيم بن أبي خال -المعروف بابن الجزائر القيرواني- (ت 369 هـ/980م) له مؤلفات منها في طب الأطفال--Pédiatrie الموسوم "سياسة الصبيان وتديبرهم" وقد سبق غيره في هذا التخصص³. وفي الأندلس برز أبو القاسم (936-1013م) كان جراحا في بلاط قرطبة عهد الحكم الثاني المستنصر بالله وهو المعروف باسم "لتصريف" الجزء الثالث منه الخاص بالتشريح، وقد استعمله الأوروبيون واستدلوا بهزنا طويلا، نظرا لأهميته في فن الجراحة⁴. كما برز أطباء أجلاء منهم أبي مروان عبد الملك بن زهر الأندلسي (ت 1162/557م) مؤسس بيت الأزهر في الطب، حيث تداولت أفرد أسرته مهنة الطب، ومن أهم آثاره كتاب "الإقتصاد في اصلاح في الأنفس والأجساد" استفاد منه كثير الأوروبيون⁵.

2- علم الصيدلة :

ومن العلوم التي ساهم في تقدمها العرب المسلمين حيث كانت لهم فيها بصمة معترف بها عالميا مجال علم الصيدلة - " علم الادوية "- والكلمة من أصل هندي-جندناني- تحريفها صيدلاني- وأصل اشتقاقها من الصندل ،وهو من العطور المعروفة عند العرب، وكان أهل الهند يستعملونه في العلاج لكثير من الأمراض، وكانت الصيدلة في بداية امرها تابعة لعلم الطب⁶. وكان أول من كتب في الصيدلة ابن ماسويه (ت 242هـ/857م) ثم وضع سابور بن سهل (ت 255هـ/870م) كتاب الأفرباذين الكبير في 17 فصلا اصبح مرجع للعرب في علم الصيدلة ، وكانت عملية اكتشاف النباتات الطبية من الطبية المفردة من البراري والبحار⁷.

وتحدثنا المصادر العربية أن فكرة تركيب الدواء إعتمدت قبل كل شيء على مجموعة من الوصفات الرسمية، وهي المعروفة اليوم بمصطلح "فرماكوپين"-Pharmakopin-، ولقد

1.المرجع نفسه،ص224.

2.نفسه، صص 183-180.

3. أحمد بن ابراهيم بن أبي خالد ابن الجزائر القيرواني: سياسة الصبيان وتديبرهم، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، تونس 1968م.

4. زيغريد هونكة، شمس العرب تسطع على العرب، ص206.

5. المرجع نفسه، ص202. محمد عبد الرحمن مرحبا ،المرجع في تاريخ العلوم عند العرب، ص ص 305-307،

ص 387، وما بعدها.

6. محمد عبد الرحمن مرحبا ،المرجع السابق، ص ص 323-325.

7.المرجع نفسه، ص 326.

التزم الصيدلي مراعاتها، وظلت متبعة لغاية القرن السابع عشر، ولقد انتقلت العقاقير والادوية العربية من البندقية الى أوروبا. كما حرص العرب على استقلالية علم الصيدلة عن الطب¹.

ويعتبر أحمد بن البيطار المالقي الاندلسي (1197-1348 م) أشهر علماء القرن السابع للهجري الثالث عشر للميلاد، وأعظم النباتيين والصيدلانيين في الاسلام، فإليه انتهى علم النبات والعقاقير، وقد دون خلاصة علمه وتجاربه التطبيقية في كتابه المشهور الضخم الموسوم "الجامع لمفردات الأدوية والاغذية" ولهذا الكتاب مقدمة ذات قيمة علمية بالغة الأهمية نوجز اهم ما جاء فيها: «الغرض الأول: بهذا الكتاب استيعاب القول في الادوية المفردة والأغذية المستعملة على الدوام والاستمرار عند الاحتياج اليها في الليل أو النهار، مضافا إلى ذلك ذكر ما ينتفع به الناس ... ووصفت فيها عن ثقات المحدثين وعلماء النباتيين... والغرض الثاني: صحة النقل فيما اذكره عن الاقدمين واحرره عن المتأخرين فما صح عندي بالمشاهدة والنظر وثبت لدي بالخبرة لا بالخبر... الغرض الثالث: ترك التكرار... الغرض الرابع: تقريب مأخذه بسب ترتيبه على حروف المعجم ليسهل على الطالب ما طلب من غير مشقة... الغرض الخامس: التنبيه على كل دواء وقع فيه وهم أو غلط لمتقدم أو متأخر... معتمدا على التجربة والمشاهدة...²». تكمن ميزة هذا الكتاب في منهجه العلمي من ذلك قوله: «التنبيه على كل دواء وقع فيه وهم أو غلط لمتقدم أو متأخر، لإعتما د أكثرهم على الصحف والنقل، واعتمادي على التجربة والمشاهدة³». ويأتي بعده في الأهمية كتابه "المغنى في الأدوية المفردة" المعروف "بمفردات ابن البيطار"، وقد دون فيه الأدوية مرتبة حسب علاج أعضاء كل الجسم. وقد ترجمت كتبه الى اللاتينية والفرنسية والألمانية، حيث أصبحت المرجع لعلماء النبات والعقاقير في أوروبا لقرون عديدة⁴.

عرف علم النبات تقدما واسعا في القرن السادس عشر على يد القاسم بن محمد الوزير الغساني، طبيب السلطان المغربي السعدي احمد المنصور. وبقي لنا منه كتاب مخطوط قيم موسوم "حديقة الأزهار في شرح ماهية العشب والعقار" كان أول من صنف النبات من حيث الجنس والنوع والصفات العامة والصنف⁵. كما عرف علم الصيدلة تقدما بارزا ابان العصور القروسطية بفضل التنظيم في وضع صيدليات حسب معايير صارمة تخضع لها صناعة الأدوية ونظافة معاملها⁶.

1. زيغريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، ص ص 236-251.

2. المرجع نفسه، ص ص 239-243. محمد سويسي المرجع السابق، ص 19.

3. محمد عبد الرحمن مرحبا، المرجع في تاريخ العلوم عند العرب، ص 342.

4. المرجع نفسه، ص 343.

5. عبد الرحمن الملا، المرجع السابق، ص 326. محمد سويسي، المرجع السابق، ص 19.

6. زيغريد هونكة، المرجع السابق ص 248.

والجدير بالملاحظة أنه ظهر في أوروبا أول كتاب في تصنيف النبات هو كتاب —Deplantis— وضعه —Andréa الايطالي حوالي 1524 موطبع بفلورنسا سنة 1563 م¹. وبكل تأكيد فان ذلك لم يكن الا بفضل كتاب ابن البيطار في النباتات الطبية وكتب أخرى، وحسب زيغريد هونكة أن الأثر المباشر في أوروبا في الصيدلة ظل قائما لغاية القرن التاسع عشر ففي عام 1758 م أعيد نشر اجزاء من مفردات ابن البيطار، وفي سنة 1830 م استخدمت مراجع عربية للصيدلة والوصفات العلاجية الأوروبية².

3- علم الكيمياء:

اتفق مؤرخو العلوم أن علم الكيمياء علم عربي أصيل وضعه علماء العرب وثبتوا أركانه بتجارهم ونظرياتهم . وعرفها " ابن سينا " : «إنه سلب الجواهر المعدنية خواصها، وإفادتها خواص غيرها، وإفادة بعضها خواص بعض، ليتوصل إلى اتخاذ الذهب والفضة من غيرها من الاجسام³». يضيف عمر فروخ قائلا: « لقد وفق العرب في تحقيق اكتشافات حقيقية علمية في علم الكيمياء، واكتشاف تركيبات كيميائية جديدة، وقد بدلوا مجهودات كبيرة في استحضار خواص الحوامض وصهر المعادن كما فرقوا بين الحوامض والقلويات وراقبوا ازدياد المعادن وزنا، كما طوروا العديد من العمليات الكيميائية⁴». بفضل علماء العرب المسلمين أصبح علم الكيمياء يدرس حسب أسس منهج البحث العلمي كالفرضيات، والملاحظة، وتفسير الظواهر والاستنتاج، الذي يحول الى صيغة القانون عاللي⁵ . وأبرز اختراعاتهم في هذا العلم انهم اخترعوا علم الميزان -او القياسات- Métrologie - ولقد استعمل العرب المكاييل والآلات بهدف الدقة وضبط في نتائج التجارب العلمية. كما وضعوا نظرية تكوين المعادن، وقانون بقاء المادة، ونظرية الإتحاد الكيميائي، وتحويل بعض المعادن الى ذهب، واختلاف درجة غليان السوائل، و تركيب النار اليونانية واستخراجها قوة البارود الدافعة واستعملوا الآلات القاصفة، مما يدل على ان علم الكيمياء علم عربي أصيل ام مفردات مصطلحاته العلمية موجودة في ابحاث وكتب الكيمياء التي ألفها الغرب كغاز—Gas⁶. ويقول برتراند راسل: «أن العرب كانوا أميل إلى التجريب من الأغريق وخاصة في الكيمياء»⁷.

1. المرجع نفسه، ص 20.

2. نفسه ص ص 254-255.

3. محمد عبد الرحمن مرحبا، المرجع في تاريخ العلوم عند العرب، ص 346.

4. تاريخ العلوم عند العرب، ص 241. ابراهيم القباني، دور العلماء المسلمين في تطوير العلوم، ص 19.

5. زيغريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، ص 244 وما بعدها 5.

ابراهيم محمد القباني، المرجع السابق، ص 20.

7. نفسه، ص 18 . ينظر .

ويرجح أن خالد بن يزيد بن معاوية الأموي (13- 85 هـ / 635-740م) الذي تنازل عن العرش وتفرغ للعلم الكيمياء كان يلقب "بحكيم آل مروان"، أول من اهتم بعلم الكيمياء، وأنه اعتمد على مصادر يونانية، غير أنه لم يؤمن بالعمل النظري ما لم يقترن بالتجارب والعمل المخبري¹. ومن العلماء الذين ينسب إليهم هذا علم "أبو الكيمياء جابر بن حيان" (721-813م) ولذا عرفت باسم علم جابر حتى قيل "أن لجابر في الكيمياء ما لأرسطو في المنطق"². ويصعب ذكر جميع المركبات والأحماض التي جاء بها جابر. ولاشك أن جابر بن حيان لم يصل إلى ما وصل إليه إلا بفضل تجاربه المخبرية تماشياً والمنهج التجريبي³. ومنهم كذلك أبو الريحان البيروني (362-442هـ / 973-1050م) رائد التفاعلات الكيميائية، أهم مؤلفاته "التفهيم في صناعة التنجيم"، و"مقاليد الهيئة"⁴، إلى غير ذلك من العلماء ساهموا في معرفة الكثير من أسرار الكيمياء فاستحضروا حامض الطرطير "النطرون" وحامض الكبريتيك، والماء الملكي -Aqua Regia-. كما بدلوا الطرق البدائية في صهر المعادن، وتمكنوا من تحضير المركبات الكيميائية العديدة، مثل الصودا الكاوية، وكربونات البوتاسيوم، وكربونات الصوديوم والزرنيخ، والقلويات، والنشادر ونترات الفضة، ثم استطاعوا التمييز بين الأحماض والقلويات، وعرفوا أن النار تنظفي إذا منع عنها الهواء، وعرفوا طرق التقطير المختلفة⁵.

فيما يلي الجدول الدوري⁶. حيث تم وضع التنصيف الحديث للعناصر الكيميائية، ورموزها، وأعدادها الذرية وكثافتها، اعتماداً على النتائج التي توصل إليها العلماء العرب المسلمين في ميدان علم الكيمياء.

Bertrand Russell : Science et religion ; traduction, ROGER Mantoux ? Colection, Folio essais ; Paris ,1990 .

1. زغريد هونكة، المرجع السابق، ص 289. محمد عبد الرحمن مرحبا، المرجع في تاريخ العلوم عند العرب، ص 349.

2. محمد عبد الرحمن مرحبا، المرجع في تاريخ العلوم، ص 357.

3. المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

4. أفرام البعلبكي، مدخل إلى تاريخ الفكر العربي منهجية في النقد، ط1، دار الحداثة، بيروت، 1984م، ص 221.

5. إبراهيم مجيد القباني، دور العلماء المسلمين في تطوير العلوم، ص 19.

6. يرجع تاريخ الجدول الدوري الحديث إلى عام 1770 صنف لافوازييه 33 عنصر. وفرق بين الفلزات (المعادن) واللافلزات. وفي عام 1828 صنع جدولاً للعناصر وأوزانها الذرية ووضع للعناصر رموزها الكيميائية. وفي عام 1829 وضع دوبرينر ثلاثة جداول بها ثلاثة مجموعات كل مجموعة تضم 3 عناصر متشابهة الخواص. المجموعة الأولى تضم الليثيوم والصوديوم والبوتاسيوم والثانية تضم الكالسيوم والإسترونشيوم والباريوم. والثالثة تضم الكلورين والبرومين واليود. وفي عام 1864 رتب جون نيولاندز (John Newlands) 60 عنصراً حسب الأوزان الذرية ووجد تشابهاً ما بين العنصر الأول والعنصر التاسع والعنصر الثاني والعنصر العاشر إلى آخره من الترتيب. فاقترح قانون اوكتاف the 'Law of Octaves'. وكان ديمتري مندليف - Dmitri Mendeleev عالم كيميائي روسي ولد بمدينة توبوليسك بسيبيريا عام 1834 - عرف بأنه أبو الجدول الدوري للعناصر. وهذا الجدول له أهميته

IA 1 H	IIA 3 Li, 4 Be	عناصر إنتقالية										IIIA 5 B, 6 C, 7 N, 8 O, 9 F, 10 Ne	VIIIA 11 Na, 12 Mg, 13 Al, 14 Si, 15 P, 16 S, 17 Cl, 18 Ar	VIIB 19 K, 20 Ca, 21 Sc, 22 Ti, 23 V, 24 Cr, 25 Mn, 26 Fe, 27 Co, 28 Ni, 29 Cu, 30 Zn	VIIIA 31 Ga, 32 Ge, 33 As, 34 Se, 35 Br, 36 Kr	VIIIA 37 Rb, 38 Sr, 39 Y, 40 Zr, 41 Nb, 42 Mo, 43 Tc, 44 Ru, 45 Rh, 46 Pd, 47 Ag, 48 Cd	VIIIA 49 In, 50 Sn, 51 Sb, 52 Te, 53 I, 54 Xe	VIIIA 55 Cs, 56 Ba, 57 La, 58 Hf, 59 Ta, 60 W, 61 Re, 62 Os, 63 Ir, 64 Pt, 65 Au, 66 Hg	VIIIA 81 Tl, 82 Pb, 83 Bi, 84 Po, 85 At, 86 Rn	VIIIA 87 Fr, 88 Ra, 89 Ac	VIIIA 91 Th, 92 Pa, 93 U, 94 Np, 95 Pu, 96 Am, 97 Cm, 98 Bk, 99 Cf, 100 Fm, 101 Md, 102 No, 103 Lr	VIIIA 104 Rf, 105 Db, 106 Sg, 107 Bh, 108 Hs, 109 Mt, 110 Ds, 111 Rg, 112 Cn, 113 Nh, 114 Fl, 115 Mc, 116 Lv, 117 Ts, 118 Og	VIIIA 119 Uu, 120 Uu, 121 Uu, 122 Uu, 123 Uu, 124 Uu, 125 Uu, 126 Uu, 127 Uu, 128 Uu, 129 Uu, 130 Uu	VIIIA 131 Uu, 132 Uu, 133 Uu, 134 Uu, 135 Uu, 136 Uu, 137 Uu, 138 Uu, 139 Uu, 140 Uu	VIIIA 141 Uu, 142 Uu, 143 Uu, 144 Uu, 145 Uu, 146 Uu, 147 Uu, 148 Uu, 149 Uu, 150 Uu	VIIIA 151 Uu, 152 Uu, 153 Uu, 154 Uu, 155 Uu, 156 Uu, 157 Uu, 158 Uu, 159 Uu, 160 Uu	VIIIA 161 Uu, 162 Uu, 163 Uu, 164 Uu, 165 Uu, 166 Uu, 167 Uu, 168 Uu, 169 Uu, 170 Uu	VIIIA 171 Uu, 172 Uu, 173 Uu, 174 Uu, 175 Uu, 176 Uu, 177 Uu, 178 Uu, 179 Uu, 180 Uu	VIIIA 181 Uu, 182 Uu, 183 Uu, 184 Uu, 185 Uu, 186 Uu, 187 Uu, 188 Uu, 189 Uu, 190 Uu	VIIIA 191 Uu, 192 Uu, 193 Uu, 194 Uu, 195 Uu, 196 Uu, 197 Uu, 198 Uu, 199 Uu, 200 Uu	VIIIA 201 Uu, 202 Uu, 203 Uu, 204 Uu, 205 Uu, 206 Uu, 207 Uu, 208 Uu, 209 Uu, 210 Uu	VIIIA 211 Uu, 212 Uu, 213 Uu, 214 Uu, 215 Uu, 216 Uu, 217 Uu, 218 Uu, 219 Uu, 220 Uu	VIIIA 221 Uu, 222 Uu, 223 Uu, 224 Uu, 225 Uu, 226 Uu, 227 Uu, 228 Uu, 229 Uu, 230 Uu	VIIIA 231 Uu, 232 Uu, 233 Uu, 234 Uu, 235 Uu, 236 Uu, 237 Uu, 238 Uu, 239 Uu, 240 Uu	VIIIA 241 Uu, 242 Uu, 243 Uu, 244 Uu, 245 Uu, 246 Uu, 247 Uu, 248 Uu, 249 Uu, 250 Uu	VIIIA 251 Uu, 252 Uu, 253 Uu, 254 Uu, 255 Uu, 256 Uu, 257 Uu, 258 Uu, 259 Uu, 260 Uu	VIIIA 261 Uu, 262 Uu, 263 Uu, 264 Uu, 265 Uu, 266 Uu, 267 Uu, 268 Uu, 269 Uu, 270 Uu	VIIIA 271 Uu, 272 Uu, 273 Uu, 274 Uu, 275 Uu, 276 Uu, 277 Uu, 278 Uu, 279 Uu, 280 Uu	VIIIA 281 Uu, 282 Uu, 283 Uu, 284 Uu, 285 Uu, 286 Uu, 287 Uu, 288 Uu, 289 Uu, 290 Uu	VIIIA 291 Uu, 292 Uu, 293 Uu, 294 Uu, 295 Uu, 296 Uu, 297 Uu, 298 Uu, 299 Uu, 300 Uu	VIIIA 301 Uu, 302 Uu, 303 Uu, 304 Uu, 305 Uu, 306 Uu, 307 Uu, 308 Uu, 309 Uu, 310 Uu	VIIIA 311 Uu, 312 Uu, 313 Uu, 314 Uu, 315 Uu, 316 Uu, 317 Uu, 318 Uu, 319 Uu, 320 Uu	VIIIA 321 Uu, 322 Uu, 323 Uu, 324 Uu, 325 Uu, 326 Uu, 327 Uu, 328 Uu, 329 Uu, 330 Uu	VIIIA 331 Uu, 332 Uu, 333 Uu, 334 Uu, 335 Uu, 336 Uu, 337 Uu, 338 Uu, 339 Uu, 340 Uu	VIIIA 341 Uu, 342 Uu, 343 Uu, 344 Uu, 345 Uu, 346 Uu, 347 Uu, 348 Uu, 349 Uu, 350 Uu	VIIIA 351 Uu, 352 Uu, 353 Uu, 354 Uu, 355 Uu, 356 Uu, 357 Uu, 358 Uu, 359 Uu, 360 Uu	VIIIA 361 Uu, 362 Uu, 363 Uu, 364 Uu, 365 Uu, 366 Uu, 367 Uu, 368 Uu, 369 Uu, 370 Uu	VIIIA 371 Uu, 372 Uu, 373 Uu, 374 Uu, 375 Uu, 376 Uu, 377 Uu, 378 Uu, 379 Uu, 380 Uu	VIIIA 381 Uu, 382 Uu, 383 Uu, 384 Uu, 385 Uu, 386 Uu, 387 Uu, 388 Uu, 389 Uu, 390 Uu	VIIIA 391 Uu, 392 Uu, 393 Uu, 394 Uu, 395 Uu, 396 Uu, 397 Uu, 398 Uu, 399 Uu, 400 Uu	VIIIA 401 Uu, 402 Uu, 403 Uu, 404 Uu, 405 Uu, 406 Uu, 407 Uu, 408 Uu, 409 Uu, 410 Uu	VIIIA 411 Uu, 412 Uu, 413 Uu, 414 Uu, 415 Uu, 416 Uu, 417 Uu, 418 Uu, 419 Uu, 420 Uu	VIIIA 421 Uu, 422 Uu, 423 Uu, 424 Uu, 425 Uu, 426 Uu, 427 Uu, 428 Uu, 429 Uu, 430 Uu	VIIIA 431 Uu, 432 Uu, 433 Uu, 434 Uu, 435 Uu, 436 Uu, 437 Uu, 438 Uu, 439 Uu, 440 Uu	VIIIA 441 Uu, 442 Uu, 443 Uu, 444 Uu, 445 Uu, 446 Uu, 447 Uu, 448 Uu, 449 Uu, 450 Uu	VIIIA 451 Uu, 452 Uu, 453 Uu, 454 Uu, 455 Uu, 456 Uu, 457 Uu, 458 Uu, 459 Uu, 460 Uu	VIIIA 461 Uu, 462 Uu, 463 Uu, 464 Uu, 465 Uu, 466 Uu, 467 Uu, 468 Uu, 469 Uu, 470 Uu	VIIIA 471 Uu, 472 Uu, 473 Uu, 474 Uu, 475 Uu, 476 Uu, 477 Uu, 478 Uu, 479 Uu, 480 Uu	VIIIA 481 Uu, 482 Uu, 483 Uu, 484 Uu, 485 Uu, 486 Uu, 487 Uu, 488 Uu, 489 Uu, 490 Uu	VIIIA 491 Uu, 492 Uu, 493 Uu, 494 Uu, 495 Uu, 496 Uu, 497 Uu, 498 Uu, 499 Uu, 500 Uu	VIIIA 501 Uu, 502 Uu, 503 Uu, 504 Uu, 505 Uu, 506 Uu, 507 Uu, 508 Uu, 509 Uu, 510 Uu	VIIIA 511 Uu, 512 Uu, 513 Uu, 514 Uu, 515 Uu, 516 Uu, 517 Uu, 518 Uu, 519 Uu, 520 Uu	VIIIA 521 Uu, 522 Uu, 523 Uu, 524 Uu, 525 Uu, 526 Uu, 527 Uu, 528 Uu, 529 Uu, 530 Uu	VIIIA 531 Uu, 532 Uu, 533 Uu, 534 Uu, 535 Uu, 536 Uu, 537 Uu, 538 Uu, 539 Uu, 540 Uu	VIIIA 541 Uu, 542 Uu, 543 Uu, 544 Uu, 545 Uu, 546 Uu, 547 Uu, 548 Uu, 549 Uu, 550 Uu	VIIIA 551 Uu, 552 Uu, 553 Uu, 554 Uu, 555 Uu, 556 Uu, 557 Uu, 558 Uu, 559 Uu, 560 Uu	VIIIA 561 Uu, 562 Uu, 563 Uu, 564 Uu, 565 Uu, 566 Uu, 567 Uu, 568 Uu, 569 Uu, 570 Uu	VIIIA 571 Uu, 572 Uu, 573 Uu, 574 Uu, 575 Uu, 576 Uu, 577 Uu, 578 Uu, 579 Uu, 580 Uu	VIIIA 581 Uu, 582 Uu, 583 Uu, 584 Uu, 585 Uu, 586 Uu, 587 Uu, 588 Uu, 589 Uu, 590 Uu	VIIIA 591 Uu, 592 Uu, 593 Uu, 594 Uu, 595 Uu, 596 Uu, 597 Uu, 598 Uu, 599 Uu, 600 Uu	VIIIA 601 Uu, 602 Uu, 603 Uu, 604 Uu, 605 Uu, 606 Uu, 607 Uu, 608 Uu, 609 Uu, 610 Uu	VIIIA 611 Uu, 612 Uu, 613 Uu, 614 Uu, 615 Uu, 616 Uu, 617 Uu, 618 Uu, 619 Uu, 620 Uu	VIIIA 621 Uu, 622 Uu, 623 Uu, 624 Uu, 625 Uu, 626 Uu, 627 Uu, 628 Uu, 629 Uu, 630 Uu	VIIIA 631 Uu, 632 Uu, 633 Uu, 634 Uu, 635 Uu, 636 Uu, 637 Uu, 638 Uu, 639 Uu, 640 Uu	VIIIA 641 Uu, 642 Uu, 643 Uu, 644 Uu, 645 Uu, 646 Uu, 647 Uu, 648 Uu, 649 Uu, 650 Uu	VIIIA 651 Uu, 652 Uu, 653 Uu, 654 Uu, 655 Uu, 656 Uu, 657 Uu, 658 Uu, 659 Uu, 660 Uu	VIIIA 661 Uu, 662 Uu, 663 Uu, 664 Uu, 665 Uu, 666 Uu, 667 Uu, 668 Uu, 669 Uu, 670 Uu	VIIIA 671 Uu, 672 Uu, 673 Uu, 674 Uu, 675 Uu, 676 Uu, 677 Uu, 678 Uu, 679 Uu, 680 Uu	VIIIA 681 Uu, 682 Uu, 683 Uu, 684 Uu, 685 Uu, 686 Uu, 687 Uu, 688 Uu, 689 Uu, 690 Uu	VIIIA 691 Uu, 692 Uu, 693 Uu, 694 Uu, 695 Uu, 696 Uu, 697 Uu, 698 Uu, 699 Uu, 700 Uu	VIIIA 701 Uu, 702 Uu, 703 Uu, 704 Uu, 705 Uu, 706 Uu, 707 Uu, 708 Uu, 709 Uu, 710 Uu	VIIIA 711 Uu, 712 Uu, 713 Uu, 714 Uu, 715 Uu, 716 Uu, 717 Uu, 718 Uu, 719 Uu, 720 Uu	VIIIA 721 Uu, 722 Uu, 723 Uu, 724 Uu, 725 Uu, 726 Uu, 727 Uu, 728 Uu, 729 Uu, 730 Uu	VIIIA 731 Uu, 732 Uu, 733 Uu, 734 Uu, 735 Uu, 736 Uu, 737 Uu, 738 Uu, 739 Uu, 740 Uu	VIIIA 741 Uu, 742 Uu, 743 Uu, 744 Uu, 745 Uu, 746 Uu, 747 Uu, 748 Uu, 749 Uu, 750 Uu	VIIIA 751 Uu, 752 Uu, 753 Uu, 754 Uu, 755 Uu, 756 Uu, 757 Uu, 758 Uu, 759 Uu, 760 Uu	VIIIA 761 Uu, 762 Uu, 763 Uu, 764 Uu, 765 Uu, 766 Uu, 767 Uu, 768 Uu, 769 Uu, 770 Uu	VIIIA 771 Uu, 772 Uu, 773 Uu, 774 Uu, 775 Uu, 776 Uu, 777 Uu, 778 Uu, 779 Uu, 780 Uu	VIIIA 781 Uu, 782 Uu, 783 Uu, 784 Uu, 785 Uu, 786 Uu, 787 Uu, 788 Uu, 789 Uu, 790 Uu	VIIIA 791 Uu, 792 Uu, 793 Uu, 794 Uu, 795 Uu, 796 Uu, 797 Uu, 798 Uu, 799 Uu, 800 Uu	VIIIA 801 Uu, 802 Uu, 803 Uu, 804 Uu, 805 Uu, 806 Uu, 807 Uu, 808 Uu, 809 Uu, 810 Uu	VIIIA 811 Uu, 812 Uu, 813 Uu, 814 Uu, 815 Uu, 816 Uu, 817 Uu, 818 Uu, 819 Uu, 820 Uu	VIIIA 821 Uu, 822 Uu, 823 Uu, 824 Uu, 825 Uu, 826 Uu, 827 Uu, 828 Uu, 829 Uu, 830 Uu	VIIIA 831 Uu, 832 Uu, 833 Uu, 834 Uu, 835 Uu, 836 Uu, 837 Uu, 838 Uu, 839 Uu, 840 Uu	VIIIA 841 Uu, 842 Uu, 843 Uu, 844 Uu, 845 Uu, 846 Uu, 847 Uu, 848 Uu, 849 Uu, 850 Uu	VIIIA 851 Uu, 852 Uu, 853 Uu, 854 Uu, 855 Uu, 856 Uu, 857 Uu, 858 Uu, 859 Uu, 860 Uu	VIIIA 861 Uu, 862 Uu, 863 Uu, 864 Uu, 865 Uu, 866 Uu, 867 Uu, 868 Uu, 869 Uu, 870 Uu	VIIIA 871 Uu, 872 Uu, 873 Uu, 874 Uu, 875 Uu, 876 Uu, 877 Uu, 878 Uu, 879 Uu, 880 Uu	VIIIA 881 Uu, 882 Uu, 883 Uu, 884 Uu, 885 Uu, 886 Uu, 887 Uu, 888 Uu, 889 Uu, 890 Uu	VIIIA 891 Uu, 892 Uu, 893 Uu, 894 Uu, 895 Uu, 896 Uu, 897 Uu, 898 Uu, 899 Uu, 900 Uu	VIIIA 901 Uu, 902 Uu, 903 Uu, 904 Uu, 905 Uu, 906 Uu, 907 Uu, 908 Uu, 909 Uu, 910 Uu	VIIIA 911 Uu, 912 Uu, 913 Uu, 914 Uu, 915 Uu, 916 Uu, 917 Uu, 918 Uu, 919 Uu, 920 Uu	VIIIA 921 Uu, 922 Uu, 923 Uu, 924 Uu, 925 Uu, 926 Uu, 927 Uu, 928 Uu, 929 Uu, 930 Uu	VIIIA 931 Uu, 932 Uu, 933 Uu, 934 Uu, 935 Uu, 936 Uu, 937 Uu, 938 Uu, 939 Uu, 940 Uu	VIIIA 941 Uu, 942 Uu, 943 Uu, 944 Uu, 945 Uu, 946 Uu, 947 Uu, 948 Uu, 949 Uu, 950 Uu	VIIIA 951 Uu, 952 Uu, 953 Uu, 954 Uu, 955 Uu, 956 Uu, 957 Uu, 958 Uu, 959 Uu, 960 Uu	VIIIA 961 Uu, 962 Uu, 963 Uu, 964 Uu, 965 Uu, 966 Uu, 967 Uu, 968 Uu, 969 Uu, 970 Uu	VIIIA 971 Uu, 972 Uu, 973 Uu, 974 Uu, 975 Uu, 976 Uu, 977 Uu, 978 Uu, 979 Uu, 980 Uu	VIIIA 981 Uu, 982 Uu, 983 Uu, 984 Uu, 985 Uu, 986 Uu, 987 Uu, 988 Uu, 989 Uu, 990 Uu	VIIIA 991 Uu, 992 Uu, 993 Uu, 994 Uu, 995 Uu, 996 Uu, 997 Uu, 998 Uu, 999 Uu, 1000 Uu	VIIIA 1001 Uu, 1002 Uu, 1003 Uu, 1004 Uu, 1005 Uu, 1006 Uu, 1007 Uu, 1008 Uu, 1009 Uu, 1010 Uu	VIIIA 1011 Uu, 1012 Uu, 1013 Uu, 1014 Uu, 1015 Uu, 1016 Uu, 1017 Uu, 1018 Uu, 1019 Uu, 1020 Uu	VIIIA 1021 Uu, 1022 Uu, 1023 Uu, 1024 Uu, 1025 Uu, 1026 Uu, 1027 Uu, 1028 Uu, 1029 Uu, 1030 Uu	VIIIA 1031 Uu, 1032 Uu, 1033 Uu, 1034 Uu, 1035 Uu, 1036 Uu, 1037 Uu, 1038 Uu, 1039 Uu, 1040 Uu	VIIIA 1041 Uu, 1042 Uu, 1043 Uu, 1044 Uu, 1045 Uu, 1046 Uu, 1047 Uu, 1048 Uu, 1049 Uu, 1050 Uu	VIIIA 1051 Uu, 1052 Uu, 1053 Uu, 1054 Uu, 1055 Uu, 1056 Uu, 1057 Uu, 1058 Uu, 1059 Uu, 1060 Uu	VIIIA 1061 Uu, 1062 Uu, 1063 Uu, 1064 Uu, 1065 Uu, 1066 Uu, 1067 Uu, 1068 Uu, 1069 Uu, 1070 Uu	VIIIA 1071 Uu, 1072 Uu, 1073 Uu, 1074 Uu, 1075 Uu, 1076 Uu, 1077 Uu, 1078 Uu, 1079 Uu, 1080 Uu	VIIIA 1081 Uu, 1082 Uu, 1083 Uu, 1084 Uu, 1085 Uu, 1086 Uu, 1087 Uu, 1088 Uu, 1089 Uu, 1090 Uu	VIIIA 1091 Uu, 1092 Uu, 1093 Uu, 1094 Uu, 1095 Uu, 1096 Uu, 1097 Uu, 1098 Uu, 1099 Uu, 1100 Uu	VIIIA 1101 Uu, 1102 Uu, 1103 Uu, 1104 Uu, 1105 Uu, 1106 Uu, 1107 Uu, 1108 Uu, 1109 Uu, 1110 Uu	VIIIA 1111 Uu, 1112 Uu, 1113 Uu, 1114 Uu, 1115 Uu, 1116 Uu, 1117 Uu, 1118 Uu, 1119 Uu, 1120 Uu	VIIIA 1121 Uu, 1122 Uu, 1123 Uu, 1124 Uu, 1125 Uu, 1126 Uu, 1127 Uu, 1128 Uu, 1129 Uu, 1130 Uu	VIIIA 1131 Uu, 1132 Uu, 1133 Uu, 1134 Uu, 1135 Uu, 1136 Uu, 1137 Uu, 1138 Uu, 1139 Uu, 1140 Uu	VIIIA 1141 Uu, 1142 Uu, 1143 Uu, 1144 Uu, 1145 Uu, 1146 Uu, 1147 Uu, 1148 Uu, 1149 Uu, 1150 Uu	VIIIA 1151 Uu, 1152 Uu, 1153 Uu, 1154 Uu, 1155 Uu, 1156 Uu, 1157 Uu, 1158 Uu, 1159 Uu, 1160 Uu	VIIIA 1161 Uu, 1162 Uu, 1163 Uu, 1164 Uu, 1165 Uu, 1166 Uu, 1167 Uu, 1168 Uu, 1169 Uu, 1170 Uu	VIIIA 1171 Uu, 1172 Uu, 1173 Uu, 1174 Uu, 1175 Uu, 1176 Uu, 1177 Uu, 1178 Uu, 1179 Uu, 1180 Uu	VIIIA 1181 Uu, 1182 Uu, 1183 Uu, 1184 Uu, 1185 Uu, 1186 Uu, 1187 Uu, 1188 Uu, 1189 Uu, 1190 Uu	VIIIA 1191 Uu, 1192 Uu, 1193 Uu, 1194 Uu, 1195 Uu, 1196 Uu, 1197 Uu, 1198 Uu, 1199 Uu, 1200 Uu	VIIIA 1201 Uu, 1202 Uu, 1203 Uu, 1204 Uu, 1205 Uu, 1206 Uu, 1207 Uu, 1208 Uu, 1209 Uu, 1210 Uu	VIIIA 1211 Uu, 1212 Uu, 1213 Uu, 1214 Uu, 1215 Uu, 1216 Uu, 1217 Uu, 1218 Uu, 1219 Uu, 1220 Uu	VIIIA 1221 Uu, 1222 Uu, 1223 Uu, 1224 Uu, 1225 Uu, 1226 Uu, 1227 Uu, 1228 Uu, 1229 Uu, 1230 Uu	VIIIA 1231 Uu, 1232 Uu, 1233 Uu, 1234 Uu, 1235 Uu, 1236 Uu, 1237 Uu, 1238 Uu, 1239 Uu, 1240 Uu	VIIIA 1241 Uu, 1242 Uu, 1243 Uu, 1244 Uu, 1245 Uu, 1246 Uu, 1247 Uu, 1248 Uu, 1249 Uu, 1250 Uu	VIIIA 1251 Uu, 1252 Uu, 1253 Uu, 1254 Uu, 1255 Uu, 1256 Uu, 1257 Uu, 1258 Uu, 1259 Uu, 1260 Uu	VIIIA 1261 Uu, 1262 Uu, 1263 Uu, 1264 Uu, 1265 Uu, 1266 Uu, 1267 Uu, 1268 Uu, 1269 Uu, 1270 Uu	VIIIA 1271 Uu, 1272 Uu, 1273 Uu, 1274 Uu, 1275 Uu, 1276 Uu, 1277 Uu, 1278 Uu, 1279 Uu, 1280 Uu	VIIIA 1281 Uu, 1282 Uu, 1283 Uu, 1284 Uu, 1285 Uu, 1286 Uu, 1287 Uu, 1288 Uu, 1289 Uu, 1290 Uu	VIIIA 1291 Uu, 1292 Uu, 1293 Uu, 1294 Uu, 1295 Uu, 1296 Uu, 1297 Uu, 1298 Uu, 1299 Uu, 1300 Uu	VIIIA 1301 Uu, 1302 Uu, 1303 Uu, 1304 Uu, 1305 Uu, 1306 Uu, 1307 Uu, 1308 Uu, 1309 Uu, 1310 Uu	VIIIA 1311 Uu, 1312 Uu, 1313 Uu, 1314 Uu, 1315 Uu, 1316 Uu, 1317 Uu, 1318 Uu, 1319 Uu, 1320 Uu	VIIIA 1321 Uu, 1322 Uu, 1323 Uu, 1324 Uu, 1325 Uu, 1326 Uu, 1327 Uu, 1328 Uu, 1329 Uu, 1330 Uu	VIIIA 1331 Uu, 1332 Uu, 1333 Uu, 1334 Uu, 1335 Uu, 1336 Uu, 1337 Uu, 1338 Uu, 1339 Uu, 1340 Uu	VIIIA 1341 Uu, 1342 Uu, 1343 Uu, 1344 Uu, 1345 Uu, 1346 Uu, 1347 Uu, 1348 Uu, 1349 Uu, 1350 Uu	VIIIA 1351 Uu, 1352 Uu, 1353 Uu, 1354 Uu, 1355 Uu, 1356 Uu, 1357 Uu, 1358 Uu, 1359 Uu, 1360 Uu	VIIIA 1361 Uu, 1362 Uu, 1363 Uu, 1364 Uu, 1365 Uu, 1366 Uu, 1367 Uu, 1368 Uu, 1369 Uu, 1370 Uu	VIIIA 1371 Uu, 1372 Uu, 1373 Uu, 1374 Uu, 1375 Uu, 1376 Uu, 1377 Uu, 1378 Uu, 1379 Uu, 1380 Uu	VIIIA 1381 Uu, 1382 Uu, 1383 Uu, 1384 Uu, 1385 Uu, 1386 Uu, 1387 Uu, 1388 Uu, 1389 Uu, 1390 Uu	VIIIA 1391 Uu, 1392 Uu, 1393 Uu, 1394 Uu, 1395 Uu, 1396 Uu, 1397 Uu, 1398 Uu, 1399 Uu, 1400 Uu	VIIIA 1401 Uu, 1402 Uu, 1403 Uu, 1404 Uu, 1405 Uu, 1406 Uu, 1407 Uu, 1408 Uu, 1409 Uu, 1410 Uu	VIIIA 1411 Uu, 1412 Uu, 1413 Uu, 1414 Uu, 1415 Uu, 1416 Uu, 1417 Uu, 1418 Uu, 1419 Uu, 1420 Uu	VIIIA 1421 Uu, 1422 Uu, 1423 Uu, 1424 Uu, 1425 Uu, 1426 Uu, 1427 Uu, 1428 Uu, 1429 Uu, 1430 Uu	VIIIA 1431 Uu, 1432 Uu, 1433 Uu, 1434 Uu, 1435 Uu, 1436 Uu, 1437 Uu, 1438 Uu, 1439 Uu, 1440 Uu	VIIIA 1441 Uu, 1442 Uu, 1443 Uu, 1444 Uu, 1445 Uu, 1446 Uu, 1447 Uu, 1448 Uu, 1449 Uu, 1450 Uu	VIIIA 1451 Uu, 1452 Uu, 1453 Uu, 1454 Uu, 1455 Uu, 1456 Uu, 1457 Uu, 1458 Uu, 1459 Uu, 1460 Uu	VIIIA 1461 Uu, 1462 Uu, 1463 Uu, 1464 Uu, 1465 Uu, 1466 Uu, 1467 Uu, 1468 Uu, 1469 Uu, 1470 Uu	VIIIA 1471 Uu, 1472 Uu, 1473 Uu, 1474 Uu, 1475 Uu, 1476 Uu, 1477 Uu, 1478 Uu, 1479 Uu, 1480 Uu	VIIIA 1481 Uu, 1482 Uu, 1483 Uu, 1484 Uu, 1485 Uu, 1486 Uu, 1487 Uu, 1488 Uu, 1489 Uu, 1490 Uu	VIIIA 1491 Uu, 1492 Uu, 1493 Uu, 1494 Uu, 1495 Uu, 1496 Uu, 1497 Uu, 1498 Uu, 1499 Uu, 1500 Uu	VIIIA 1501 Uu, 1502 Uu, 1503 Uu, 1504 Uu, 1505 Uu, 1506 Uu, 1507 Uu, 1508 Uu, 1509 Uu, 1510 Uu	VIIIA 1511 Uu, 1512 Uu, 1513 Uu, 1514 Uu, 1515 Uu, 1516 Uu, 1517 Uu, 1518 Uu, 1519 Uu, 1520 Uu	VIIIA 1521 Uu, 1522 Uu, 1523 Uu, 1524 Uu, 1525 Uu,
-----------	-------------------	----------------	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--	---	--	---	--	--	--	---	------------------------------	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	--	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---

وقد اهتم ابن الهيثم بعد تجارب عدة إلى العلاقة بين زاويتي السقوط والانكسار، فبرهن ان النسبة بين زاويتي السقوط والانكسار غير ثابتة بل تتغير، فخالف بذلك نظريات بطليموس التي تقول بأن النسبة بين زاويتي السقوط والانكسار ثابتة¹. ولعل من أشهر علماء المسلمين في علم الفيزياء:

وقد تفوق ابن الهيثم في البصريات والضوء، ألف كتاب "المناظر" الذي عالج فيه تشريح العين، وكيفية الرؤيا، وانكسار الضوء وانعكاسه، وغيرها من البحوث التي أذهلت الأوربيين.

وفي القرن الثاني عشر الميلادي أكد أبو البركات البغدادي -خلافاً لرأي القدماء- ان الفراغ موجود، وحاول أن يفسر فكرة يقارب مدلولها ما نسمي اليوم بالتسارع -ويذكر يوشكفيتش ان البيروني وقف على السرعة الأتية والتسارع والحركة غير المنتظمة².

جدول³، حسابات العالم البيروني مقارنة بالنتائج المتعارف عليها في وقتنا الحاضر

الوزن النوعي المتواضع عليه اليوم	الوزن النوعي بالنسبة إلى الماء	الجسم
19.3	19	الذهب
10.5	10.38	الفضة
8.9	8.68	النحاس
13.595	13.5	الزئبق
7.9	7.92	الحديد
3.9	3.91	اللازورد
2.5	2.50	العقيق

وكما نلاحظ من خلال هذا الجدول يتبن لنا دقة وقيمة هذه الاعداد التي ساهم بها البيروني في هذا المجال العلمي الذي لا يزال إلى وقتنا الحاضر يكتسي اهمية كبيرة في العديد من المجالات العلمية التطبيقية.

ساهم العرب مساهمة كبيرة في تقدم علم المناظرو كان هذا العلم يشمل ما يعرف اليوم بالبصريات -Science Optic- . وفي القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي برز الحسن بن الهيثم (354-430هـ/965-

1. ابراهيم محمد القباني، المرجع k، ص 28.

2 محمد سويسي: لمحة عن تاريخ العلوم عند العرب، مجلة الاصاله، عدد، نشر وزارة الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، 1975، ص 10-11.

3 المرجع نفسه، ص 11.

1039م) في علم المناظر¹، في مظاهرها الهندسية والطبيعية والميزاجية والنفسانية كما يشمل عددا من الظواهر الجوية والفلكية والفزياء العامة. مما نجعله هو في مقدمة كتاب المناظر حيث يعرض علينا طريقته -منهجه- في البحث العلمي فيقول: «ونبتدى في البحث باستقراء الموجودات وتصفح الاحوال المبصرات وتمييز خواص الجزئيات، ونلتقط باستقراء ما يخص البصر في حال الابصار، وما هو مطرد لا يتغير وظاهر لا يشتبه من كيفية الإحساس. ثم نرتقي في البحث والمقاييس على التدرج والترتيب مع انتقاد المقدمات والتحفظ في النتائج، ونجعل غرضنا في جميع ما نستقره ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى، ونتحرى في سائر ما نميزه وننتقده طلب الحق لا الميل مع الآراء...»، ومن الله نستمد المعونة في جميع الأمور². وهو بذلك ومن هنا نلاحظ بان ابن الهيثم هو صاحب النظريات العلمية المعتمدة على التجارب، وقد سبق مجال الابحاث التجريبية العالم الانجليزي روجر بيكون (1292-1214م) — Roger Bacon الذي يجعله الغرب مؤسس البحث التجريبي³

إن مقارنة نص ابن الهيثم في وصفه منهج البحث والتقصي العلمي تجعلنا نكتشف شيها كبيرا بين طبيعة نصح العلمية ونصوص البحث في العلوم التجريبية الغربية الحديثة، كنصوص كلود برنارد⁴. إن مزية مساهمة ابن الهيثم أنه أثبت ظاهرة النور-الضوء- في ذاتها. فالنور كائن طبيعي متميز عن سائر الكائنات قابل للبحث والدراسة، بدليل الإعجاز القرآني كما جاء في قوله جلت قدرته: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ⁵﴾.

فلقد استطاع ابن هيثم ان يجمع بملاحظاته العلمية العديد من المظاهر التي منها توصل إلى القوانين العامة اسست نظرياته في "علم المناظر" ومن هذه النظريات: تفسيره لظاهرتي الانعكاس والانكسار-أو الانعطاف كما يذكرها تفسيراً دقيقاً وهو يشبه النور بحبات الكرة الساقطة على سطح مستو فهي ترجع في الفضاء مكونة مع السطح زاوية مساوية لزاوية السقوط.

ويفسر ذلك بسبب تضخم قرص الشمس قرب الأفق. ويسجل بان الشفق يبدأ وينتهي اذا كونت الشمس تحت زاوية تساوي 19 درجة. وبذلك يكون الغرب قد أخذوا منه قوانين الضابطة لظاهرة الانكسار منهم العالم ديكارت-R. Descartes (1596-1650 م) الذي وضع قانون ظاهرة الانكسار⁶.

1. افرام البعلبكي، المرجع السابق ص 220.

2. محمد سويسي، المرجع السابق، ص 10.

3. زيغريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، ص 109-3.

4. Voire :Claude Bernard :Introduction à l'étude de la médecine expérimentale, Librairie de l'Académie Impériale, Paris ; 1865. pp4-5. pp11-12.

5. سورة: النور، الآية، 35.

6. زيغريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، ص ص 107-110.

وقد يقول قائل ان اقليدس بحث في مظاهر الانعكاس وتناول بطليموس درس الانكسار ونظر ارشميدس في المرايا المحرقة، لكنها كانت كلها عبارة عن مبادرات فيها الكثير من الارتباك والتشتت مما اثر في بنية هيكله العلمي. ومن هنا كان لابن الهيثم قصب السبق في اختراع "علم النور" - Science de la lumière- او كما يسميه ابن الهيثم "علم المناظر" هذا العلم وكما هو معروف فمجال الضوء الذي يعتبر اليوم من أهم وأدق العلوم المستعملة في معظم من الميادين العلمية ان لم نقل جلها. فعالمنا اليوم هو عالم تكاثفت فيه استعمال التكنولوجيا الإلكترونية والأنترنت والبصمة الرقمية والاختراعات المتسارعة المرهونة بكل تأكيد على الضوء والصورة.

من خلال هذا نقول، أن علماء اليونان كان لهم اهتماما كبيرا بالأبحاث النظرية، ولكنهم اخفقوا في العلوم التجريبية وبوجه خاص في الكيمياء، وكانوا يظنون ان علم الكيمياء أداة للسحر، فاعتبر هذا العلم مجرد معتقدات خرافية. وقد اتفق مؤرخوا العلوم ان علم الكيمياء علم عربي أصيل وضعه علماء العرب وثبتوا أركانه بتجاربههم ونظرياتهم وجعلوه علما قائما بذاته بخصوصيات منهجه الاستقرائي والى الملاحظة الحسية والتجربة العلمية.

الخاتمة:

يتضح من دراستنا أنّ موضوع إسهامات العرب المسلمين في تقدم العلوم إبان العصور الوسطى مقارنة تاريخية، الذي سنقوم بتقديمه في هذه الورقة البحثية، هو في الواقع عبارة عن ملمح وجيزو-قطرة من فيض- في مثل هذا البحث الواسع والذي يصعب إحتواؤه من حيث الزمان والمكان وطبيعة المادة، بالرغم من ذلك تمكنا من الوصول إلى أهم النتائج التالية:

1- أن هناك عوامل مساعدة مثلت بالفعل مقومات الحضارة العربية الاسلامية ومرتكزات أسس حجر الزاوية فيها ونخص بالذكر هنا ظهور القرآن الكريم الحدث العظيم الذي يعتبر نقطة تحول في تاريخ الفكر العربي العلمي وتاريخ الحضارة العالمية، فقد مثلت الآيات الكريمة التي جعلت من العلماء ورثة الأنبياء، وأحاديث نبينا محمد ﷺ التي حثت على العلم وطلبه وجعلت من مداد أقلام العلماء خير من دماء في سبيل الله، وهذا في حد ذاته يمثل بحق انقلابا ايجابيا في مفاهيم العرب السياسية والاجتماعية والأخلاقية وكذا العلمية.

- تحقق الانسجام الروحي والمادي لرسالة الإسلام على يد الرسول محمد ﷺ بحيث تشرف بتبليغها في أحسن صورة ومظهر تجلت من خلاله أهداف ومبادئ الوعي الإسلامي الصحيح بدفع المؤمن نحو العلم وأصبح أول المرتكزات المصدرية للفكر والعلم لدى العرب المسلمين ومنه إتجه العرب المسلمون نحو ميادين العلوم منذ مطلع صدر الإسلام. في بيئة ومناخ التسامح الديني كما بينا ذلك من خلال الآيات الكريمة، لأن الإسلام يرتكز على مبادئ المساواة والحرية لكل البشر مهما كان لونه وعقيدته.

- افرز عن تفاعل عامل التسامح الديني العديد من مظاهر التحول الفكري للشعوب التي إنضمت إلى الحضارة الإسلامية بدون إكراه أو إجبار. كما فتح الباب أمام مسلمين للأخذ من الثقافات والحضارات الأخرى بدون حرج.

- نالت الترجمة حظوة كبيرة، فاصبح بذلك نقل الكتب وترجمتها جزءا من سياسة أهداف الدولة، فتكفل الخلفاء برعايتها، وذلك عن طريق استجلاب علوم وثقافات الحضارات القديمة من فارسية، وهندية، ويونانية وعربية، ومن يهودية ونصرانية وإسلام التقت كلها في بغداد، بهدف إكتشاف كل ما هو جديد والمساهمة في بناء صرح العلوم في الدولة الإسلامية. فتحوّلت بغداد وارتقت إلى العصر الذهبي، حيث عرفت حركة الترجمة التطور والإزدهار سواء من حيث التنظيم أو من حيث غزارة الإنتاج وجودته، ولا سيما عهد الخليفة العباسي المأمون الذي بذل مجهودات كبيرة في سبيل إرساء مؤسساتها وكانت " بيت الحكمة" دليل على ذلك فقد تحولت في عهده إلى مركز علمي يجتمع فيه المترجمين والناقلين، وكان يدفع للمترجم وزن الكتاب ذهبيا. ان تكفل الدولة بمكونات ميدان الترجمة ينبثق في الواقع عصر الانفتاح، الاجتماعي والحضاري، والفكري على العالم أخذا وعطاءا. هو عصر الترجمات والمنهجيات الفكرية المتطورة وعصر الموسوعية في التحصيل والتأليف، وفي هذا العصر ولأول مرة عند العرب طرحت بعمق قضية تلازميه العقل والعلم في قالب منهج البحث العلمي في أوسع الميادين والمجالات للعلوم-النقلية- الإنسانية والاجتماعية، وكذا العلوم العقلية-التجريبية والتطبيقية.

-تبين لدينا كيف استفاد العرب المسلمين في عصر الخلافة الأموية بالأندلس من التراث التاريخي المكتوب باللاتينية وكذا الاغريقية، وهذا له أكثر من دلالة على مدى الدور البالغ الأهمية الذي قامت به الدولة الأموية بالأندلس في سبيل تفعيل حركة الترجمة بأبعادها العلمية والثقافية، جسدت قمة ألوان التحوار وأنماط التفاعل تعدد عناصر بناء الحضارة الإسلامية حيث اتسعت باحتوائها مختلف صيغ الثقافات والحضارات في العالم القروسطي.

-كما توصلنا الى أن عملية جمع كتب الحضارات بهدف النقل والترجمة من قبل الخلفاء كان له مزية وفائدة تراثية كبيرة لأن بفضلهم تم إنقاذ علوم حضارات العالمية للعصور الغابرة. وهذا له شأن عظيم .
2- أما العنصر الثاني من هذا البحث الذي خصصناه لنماذج من إسهامات العرب المسلمين في التقدم العلمي في ميدان العلوم التجريبية والتطبيقية، ومن خلاله إتضح أن علم الفيزياء وعلم الكيمياء وعلم الطب وكذا علم الصيدلة، بأنها علوم يرجع الفضل للعرب المسلمين في تطويرها عن طريق التجارب والأبحاث العلمية التطبيقية في ما أخذوه من مادة خام عن الإغريق وشكلوها تشكيلا جديدا.

-ومن أهم النتائج التي توصلنا إليها كذلك، أن أعظم حدث في تاريخ العلوم في العصور القروسطية هو من غير شك أصالة إكتشاف العرب للمنهج البحث العلمي في العلوم التجريبية والتطبيقية، فقد عرفوا العناصر الأساسية لهذا المنهج وهي الفرضيات والاستقراء و التجربة والتحليل والملاحظة والنتائج والقوانين، وعن طريق المنهج التجريبي تم تحويل نمط جزئية حضارية إلى هرم حضاري قمته الحضارة العربية الإسلامية بخصوصيتها الانسانية والعالمية. فالعرب المسلمون إذا هم المخترعون الحقيقيون للأبحاث والوسائل التجريبية والتطبيقية في الميادين العلمية خلال العصور القروسطية، وذلك بشهادة المفكرين المستشرقين المحدثين كما سبق وأن بيناه.

-اتضح لدينا الجهود الجبارة التي قام بها علماء العرب المسلمين في ميدان البحوث التجريبية التي أثمرت وهذا النمط التلازمي في خصوصية الحضارة الاسلامية أخصب "صناعة التاريخ" و اقصد هنا صناعة تاريخ العلوم إبان العصور الوسطى.

-برز العديد من العلماء العرب المسلمين بإسهاماتهم الرائدة في ميادين العلوم التجريبية والتطبيقية تركوا للحضارة الاسلامية والعالمية ميراث علمي حضاري لا يقدر بثمن. فعلى سبيل المثال في العلم الفيزياء نجد العالم الحسن بن الحسن بن الهيثم الذي تفوق في البصريات والضوء-المناظر- وقد اهتدى به الأوروبيين في نهضتهم العلمية. وفي ميدان علم الكيمياء برز العالم جابر بن حيان -ابو الكيمياء- الذي تمكن من تحضير المركبات الكيميائية العديدة ، كما وضع العديد من القوانين في علم الكيمياء، التي تأسس عليها جداول مركبات العناصر الكيميائية الحديثة. وفي ميدان الطب اشتهر الطبيب ابن سينا بكتابه القانون في الطب الذي اضحى مرجعا اسياسيا في مناهج جامعات الطب في بأوروبا، وكذلك كتاب الحاوي لأبي بكر الرازي الطبيب المتمرس في العديد من الأمراض التي اوضحت في عصرنا تخصصات منفصلة وله العديد من كتب الطب أشهرها تداولا وترجمة كتاب "الحاوي" وغيره، الذي كان مرجعا في الجامعات الاوروبية في عصر النهضة وبعدها بزمن . وفي الأندلس مثلت اسرة آل زهر نموذجا فريدا من نوعه في تخصص أفراد العائلة واحدة في الطب، وقد مثل كتاب "الإقتصاد في الاصلاح في الأنفس والأجساد" نموذج كتب الطب العربية التي أستفاد منه كثيرا الأوروبيون لزمن طويل في ميدان العلاج من الامراض.

وفي ميدان علم الصيدلة اشتهر أحمد بن البيطار الأندلسي أعظم الصيدلانيين في الإسلام، وكان كتابه "الجامع لمفردات الأدوية والاغذية" عبارة عن موسوعة في الأدوية والاعشاب الطبية، توسعت الاستفادة منه في أوروبا بعد ترجمته الى اللاتينية لغاية القرن التاسع عشر الميلادي. وفي الأندلس مثلت اسرة آل زهر نموذجا فريدا من نوعه في التخصص أفراد العائلة في الطب، كما كان كتاب "الإقتصاد في الاصلاح في الأنفس والأجساد" استفاد منه كثيرا الأوروبيون لزمن طويل .

*- توصيات: ونحن مدعوون اليوم لإحياء هذا التراث العلمي من جديد والاضافة المستجدة إليه، عن طريق بعث الحياة والفاعلية إلى حياتنا العلمية-الجامدة-والانتقال من مرحلة الجمود والتردد إلى مرحلة الاجتهاد والإبداع ولأجل تحقيق ذلك أقترح بعض التوصيات منها:

1- تأسيس بنك دولي لجمع التراث العلمي العربي الاسلامي. يكون ملتقى لوجستيكي من القادة السياسيين وكبار الموظفين والعلماء وهو محل الشورى الواسعة لحبك الراي العام واتخاذ التدابير لمنطلق كل سياسة ومشروع من أجل تنمية التراث العلمي العربي الاسلامي.

- 2-وضع خارطة طريق لمشروع استعجالي شامل لإنقاذ ما يمكن انقاذه من تراثنا العلمي ، بتحديد الأهداف الإستراتيجية للأمن التراثي الحضاري ببعده القومي محليا و اقليميا ودوليا.
- 3- تكوين جيل من إطارات الشباب " في مجال إحياء التراث العلمي العربي الإسلامي " يقوم على تدريبهم والاشراف عليهم نخبة من كبار الكفاءات من أساتذة ورجال الفكر والتربية في جميع التخصصات العلمية.
- 4-إدراج روائع إنتاج التراث العلمي العربي الإسلامي -من القدامى والمحدثين - ضمن مقررات المواد والمناهج الدراسية وفي جميع مراحل التعليم سيكون له أثر قيم في تغيير الرأي والتواصل .
- 5-جعل اللغة العربية لغة عالمية لأن التراث لا يستطيع أن يقرأ ويفهم إلا إذا كانت قراءته بلغته الأصلية.
- 6-تشجيع الخلق والإبداع لأنهما الوسيلتان للخروج من الحلقة المفرغة التي يختنق فيها المفكر والعالم العربي حسب معطيات حداثة العصر، ومن هنا وجب وضع برامج وملتقيات أو مؤتمرات دراسية لإيجاد الحلول العلمية والمنهجية مبنية على نقد وموضوعية وبصيرة .
- 7-تأصيل المؤتمرات العلمية التي تهتم بتاريخ التراث العلمي على مستوى البحث الأكاديمي ومنح جوائز مادية ومعنوية ودرجات علمية وفخرية وميداليات- التمييز كحافز للتشجيع على البحث المستمر خاصة في مجال التراث العلمي.
- 8-علينا أن نتكاثف جميعا في سبيل استئناف المسيرة الحضارية .وعلى ابناء الجيل الجديد ممثلين في جميع قطاعات المجتمع ان يحافظوا على ما خلفه الأجداد والأباء من تراث علمي وأن يعملوا على تنميته وتطويره. وهذا بدوره يعدّ الانتقال بجيل الحاضر إلى مرحلة التفاعل الايجابي والحياة والذي بدوره يرتقى بجيل الخلف إلى الالتقاء بالسلف في بناء حركية الفكر العلمي، بمؤشراته الحيوية والديمومة المستمرة. لأننا إذا عدنا ثانية إلى الحاضر فان صفحات التاريخ المجيدة تلك تجعلنا أكثر إدراكا لهذا الحاضر.
- ولعل بمشاركتنا بهذه الورقة البحثية نأمل أن نكون قد ساهمنا في تحقيق أهداف هذا الملتقى الدولي العلمي ولو بنسبة قليلة، وكذا تثمين جهود أعضائه المباركة التي تسعى لصنع وبناء إنطلاقة جديدة لحركة نهضة كبيرة في حقول العلم والثقافة، لكي تعود شمس العرب من جديد تشرق على عالم الحضارة الإنسانية . وهذا بكل تأكيد ليس بمستحيل، لأنّ بالعلم فقط نستطيع أن نواصل السير، لكي نعرف منزلتنا في الحضارة ، لأنّ التاريخ الحقيقي لكل شعب، من الشعوب إنما هو تاريخ حضارته. وكل أمة لاحضارة لها لا تاريخ لها.

اثر علم التاريخ وفلسفة التاريخ في صيرورة المدارس التاريخية الحديثة-اوربا انموذجا"

أ.م.د. صباح كريم رباح الفتلاوي- كلية العلوم السياسية - جامعة الكوفة
أ.م.د. بشرى هاشم ناصر الساعدي كلية الآداب - الجامعة المستنصرية
المقدمة

ان النظرة التحليلية المستندة على اساسيات تقييم العلوم العامة قد اوضحت لنا بما لا يقبل الشك ومن خلال الدراسات والاثباتات العلمية بأن التاريخ علم ووعي، علم له أدواته، ووع بالمقاصد والروابط، "هو نظر وتحقيق".. وهذا ما يميز المؤرخ عن الاخباري.. والتاريخ ليس من صنع «البطل» بمفرده، بل هو حركة المجموعات البشرية، فهو تاريخ البشر، تاريخ المجتمعات، والمجتمعات تحركها معادلات الحياة وقواها المتنوعة: عقيدية تختلط فيها الأساطير مع الأديان والمبادئ، واجتماعية تمتزج فيها جميع العناصر الداخلة في تركيبية مجتمع، من ماض زمني، وموروث ثقافي، وجغرافية، واقتصاد. ومن هنا ظهر الى جنب الأخباري والمؤرخ، فيلسوف التاريخ، الذي كرس عنايته بتفسير حركة البشر والكشف عن أسرارها.. وهكذا نفهم التاريخ، فنا" واسع الأطراف، وعلما" عميق الأغوار، يستلزم كسائر العلوم تجردا" وحيادا"، من خلالهما فقط نقرا تاريخ البشر كما هو على صورة أقرب الى حقيقته، بدلا من أن نقرأه من خلال ذات المؤرخ.. وهو مانسميه (فلسفة التاريخ).

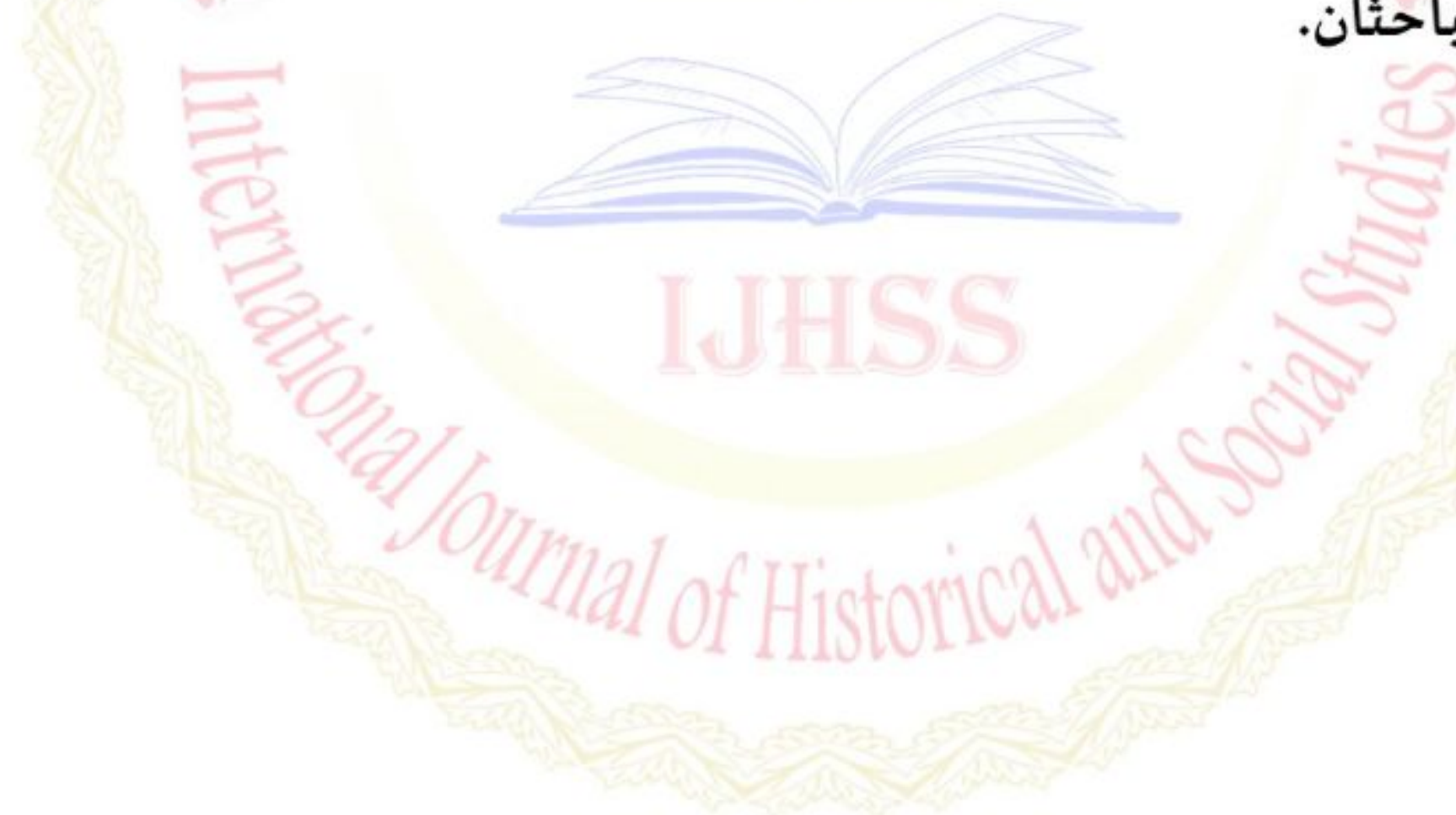
هذا العنصر- الذاتية . الذي ترك أثره بشكل واضح على كتابة التاريخ، حتى صارت تتلون بتلون اتجاهات المؤرخين، الأمر الذي دعا بعض النقاد أن يصفوا الكتابات التاريخية بأنها تعبر عن ذات المؤرخ قبل أن تعبر عن الواقع التاريخي، ولعل هذه هي أبرز إشكاليات كتابة التاريخ، ففرق كبيرين التقرير، وبين التدوين والنقد والمقارنة والتحليل والتفسير. وطبقا" لذلك نمت دراسة تاريخ (التاريخ) ليس بوصفه تاريخا" لأحد العلوم الأنسانية وحسب، وانما لكونه المرأة الأكثر صدقا" في عكس افكار الناس ومشاعرهم تجاه احداث عصرهم وعلاقاته، وان المؤرخ في عصر ما، ليس هو مجرد مسجل لأحداث منفصلة عن ذاته، وانما هو أيضا شاهد على ذلك العصر من داخله، لأنه جزء منه، فدراسة ذاته، بفكره واحاسيسه، عي في الحقيقة السبيل الى التوصل الى روح العصر وطبيعته، وتحليل (انفعال) شاهد العصر هذا، أداة لفهم (الفعل) الماضي نفسه، فالتاريخ والمؤرخ - من هذه الناحية- وجهان متكاملان (لعملية فهم) واحدة.

سعت فلسفة التاريخ لمعرفة الطريقة التي يتعامل بها المؤرخ مع الحدث والكيفية التي يكتبه بها ليشكل المعرفة التاريخية، ويصنع تراكمها لأن مثل هذه الطريقة مهمة لتقدير ابتعاد جهد المؤرخ أو اقترابه من الحدث التاريخي وصيغة نقده وتحليلاته التي تجعلنا نطمئن الى صحة ماشكله لنا من معرفة تاريخية. كما سعت فلسفة التاريخ الى فهم سير التاريخ، أي الوقوف على مجرى التاريخ واتجاهاته، ومن ثم اعطاء فكرة واضحة عن ماهية التاريخ. فهي اذن مع انها بحث في الطرف الآخر الذي هو (التاريخ) الا انها

تحمل أثر (الأنا) (الفلسفة) ، ولأنها ليست (الأنا) ولا الاخرانما هي (فلسفة علم) فهي اذن معنية بالحوار بين الموضوعين للوصول الى هدف الحوار الذي هو تكوين المعرفة بالتاريخ والمعرفة التاريخية ايضا". وهي بلاشك فلسفة علم في حدود واحد من معارف الانسانية وعلومها وهو (علم التاريخ).

ان العلاقة بين علم التاريخ وفلسفة التاريخ استوعبت درجة التطور في العلم ومناهج البحث والتفكير العلمي التي ابدعها تطور البشرية من خلال نشأة المدارس التاريخية الحديثة وصيرورتها بالشكل الذي انتج لنا كم هائل من التحليلات والاستنتاجات التاريخية المهمة وخصوصا في اوربا، وهو ما تسعى الدراسة الموسومة (اثر علم التاريخ وفلسفته في صيرورة المدارس التاريخية - اوربا انموذجا)، لبيانها وتوضيح مديات التأثير الواضحة في تلك الصيرورة التاريخية المهمة من خلال استعراض نشأة فلسفة التاريخ في اوربا وأهم فلاسفتها وصولا الى نشأة المدارس التاريخية وبيان اهم المدارس التاريخية في أوربا الحديثة.

اقتضت منهجية البحث وفق السياقات الاكاديمية تقسيمه الى مقدمة وتمهيد اضافة الى مبحثين كان الاول منهما بعنوان (اثر فلسفة التاريخ في اوربا في نشوء المدارس التاريخية) ، اما الثاني فكان بعنوان (اهم المدارس التاريخية في اوربا الحديثة ونظريات مفكرها)، فضلا عن الخاتمة التي تضمنت اهم الاستنتاجات وثبت بالمصادر المستخدمة في الدراسة. ولا يدعي الباحثان الكمال ... ولكن يحدوهما الأمل في وضع بذرة طيبة لتسهم في لقاء الضوء على بعض الرؤى الفكرية التاريخية الحديثة ومن الله التوفيق..... الباحثان.



التمهيد

التعريف بعلم التاريخ:

ان عملية الولوج في سبر اغوار ماهية مفردة " التاريخ " ، لابد وان تدفعنا الى التعريف بماهية هذه المفردة الشاملة لكل صور الحياة والمحددة لشكلها وصوريتها، ولعل من نافلة القول ان التعريف اللغوي والاصطلاحي يمثل بوابة الفهم الابتدائي لمدلولات هذه المفردة واهميتها.

اولا: لفظه «تاريخ» لغة واصطلاحا: الأصل اللغوي:

يرجع البعض كلمة «تاريخ» إلى أصول غير عربية، فهناك من يراها منقولة من الأصل العبري «ياريح» التي معناها (القمر).. أو من يرح «ومعناها (الشهر).. فيكون معنى التاريخ: تحديد الشهر، أو التوقيت.. ومنهم من أرجعها إلى الأصل الأكدي «أرخو».. بيد أن الراجح عند المحققين والمؤرخين أنها ذات أصل عربي، مأخوذة من «أرخ» و «أرخ» لها تصريفان: الأول: أرخ - يارخ - أروخا: بمعنى حن. والثاني: أرخ - يارخ - أرخا: بمعنى بين الوقت. يقال: أرخ الكتاب - أي بين وقته⁽¹⁾، وارخ الكتاب - بالتشديد - حدد تاريخه⁽²⁾.

في الاصطلاح:

يطلق «التاريخ» تارة على الماضي البشري ذاته.. وتارة على العلم المعني بهذا الموضوع. وهذا الاشتراك في المعنى حاصل حتى في اللغات الأخرى، ف «History» الانكليزية و «Histoire» الفرنسية، ولفظها «استوار» مع مبالغة في تخفيف الراء، كلاهما تدلان على الماضي البشري، وعلى علم التاريخ أيضا. وقد أطلق العرب لفظه « تاريخ » على كتب تراجم الرجال، كما في « تاريخ البخاري» الذي هو تراجم لرواة الحديث فقط. ونحوه « تاريخ الحكماء» لابن القفطي، وهو كتاب في أخبار الحكماء وبعض اهل العلم، ويقال: فلان تاريخ قومه - أي إليه ينتهي شرفهم ورناسهم .
ثانيا: «علم التاريخ».

يعرف علم التاريخ وفق اغلب الآراء للباحثين في التاريخ بانه: علم يبحث فيه عن حوادث البشر في الزمن الماضي". فموضوعه إذن: حوادث البشر في الزمن الماضي. وغايته: المعرفة بتلك الحوادث، وبأزمانها وأماكن وقوعها، وبأسبابها ونتائجها. وعملية البحث التاريخي في حدث من الأحداث تبتدئ بمتابعة العناصر والعوامل التي أسهمت في صناعة الحدث، ودراسة ظروف تجمعها، وطبيعة التفاعل الحاصل بينها، لتنتهي من ذلك إلى نتيجة ذلك التجمع والتفاعل المتمثلة في الحدث التاريخي أو القضية التاريخية في شكلها النهائي..

ومن خلال قراءة الحدث التاريخي يمكننا أن نرى عملية حية متحركة بين العناصر المتشابهة أو المتنافرة التي تؤلف الحدث التاريخي، فتجمع ما تشابهه، وتفرق بين ما تنافر، ثم ترصد النتائج المترتبة على

1 كاراداي، وآخرون، دائرة المعارف الإسلامية (التاريخ)، ت: محمد ثابت أفندي.

2 - المعجم الوسيط مادة (أرخ): عبد السلام هارون، (القاهرة: دم، 1968)، ص 22.

الجمع وعلى التفريق.. وطبقاً لذلك فإن التاريخ لم يعد مجرد سرد الحكايات العهود القديمة، ولون من ألوان التلمي والسمركذلك، ليس هو مجرد ترتيب للحوادث بحسب أزمان وقوعها، فترتيب الحوادث زمنياً لا يزودنا بالفهم الصحيح لها ما لم يجر البحث في علاقة بعضها ببعض، فبين الحوادث في ترتيبها الزمني علاقة الأسباب بالمسببات. اذن يجب علينا أن نكتشف العلاقة بين احداث التاريخ من أجل المعرفة الصحيحة به، من حيث كون بعضها عللاً وبعضها معلولات، ومن هنا فقط يكتسب التاريخ معناه وتتضح حركته وصورته (1). بيد ان هناك عملية أخرى يزاولها المؤرخ والدارس في التاريخ، تمثل الخطوة الاكثر تقدماً: ألا وهي البحث في النتائج ذاتها، والعودة منها إلى مقدماتها وعناصرها للوقوف على درجة التلازم والتوافق بين المقدمات ونتائجها؛ هل هو من نوع الملازمة الضرورية، أم هو ترتيب احتمالي؟ لذلك أصبحت المعرفة بالتاريخ أكثر من مجرد خبرة بأحداث الزمن الماضي وأسبابها، أكثر من المعرفة بطرفي المعادلة التي شكلت الحدث التاريخي في صيغته النهائية وصورته التامة.. ذلك حين أصبحت المعرفة في التاريخ خبرة في نقل التجربة الى الحاضر، والتدخل في عناصر الحدث لتوجيه نتائجه بالوجهة المطلوبة (2).

ان عمل المؤرخ لا يقتصر على تدوين حوادث الزمن الماضي، بل يتوسع ليشمل تفسير هذه الحوادث و آثارها، والبحث عن نقاط الترابط وحلقات الوصل بينها. وهذا النوع من المعرفة بالتاريخ هو أهم وأعلى درجات المعرفة التاريخية.. وليست هي من خصائص الباحث أو الناقد التاريخي وحده، بل ربما يكون احرص الناس إليها هم القادة السياسيون الذين يحسبون أنفسهم معنيين بالتخطيط لمستقبل شعوبهم. وهذه المرتبة من المعرفة التاريخية التي نجدها في حديث الامام علي بن ابي طالب (ع) في وصيته لولده الحسن (ع)، إذ يقول: «إني وإن لم أكن عمراً من عمر من كان قبلي، فقد نظرت في أعمالهم، وفكرت في أخبارهم، وسرت في آثارهم، حتى عدت كأحدهم، بل كأني بما انتهى إلى من أمورهم قد عمرت مع أولهم إلى آخرهم، فعرفت صفو ذلك من كدره، ونفعه من ضرره، فاستخلصت لك من كل أمر نخيله، وتوخيت لك جميله...» (3). من هنا أصبح من الضروري اضافة فقرة أخرى إلى غاية علم التاريخ وهي الاستفادة من تجارب الماضي في التخطيط لسياسة الحاضر، وهذا ما يعرف الثقافة الإسلامية بـ «العبرة». وهي التي نلمسها في مقولة باسكال، وهو يسمي التاريخ «الحرب ضد النسيان» إذ يقول: «بالحرب ضد النسيان تستطيع السلالات المتتابعة أن تجتمع في رجل يتعلم باستمرار» (4). وأوضح إشارة إلى هذه المرتبة من المعرفة بالتاريخ هي التي نلمسها في المقولة التي تتردد كثيراً على ألسن الباحثين، والتي مفادها: "أن المستقبل هو نتاج تفعيل الحاضر مع الماضي". لذلك فان غاية علم التاريخ هي: المعرفة بحوادث البشر في الزمن الماضي، وبأزمانها وأماكن وقوعها وأسبابها ونتائجها، والاعتبار بها.

1 - المعجم الوسيط، مصدر سابق، ص 13.

2 - عيد الحميد، الدكتور صائب، علم التاريخ ومناهج المؤرخين، ط 2، (بيروت: دار ومكتبة البصائر، 2010م)، ص 13.

3 - الامام علي بن ابي طالب (عليه السلام) نهج البلاغة، جمع الشريف الرضي، شرح الشيخ محمد عبده، ج 3، (بيروت- النجف الاشرف: دار الاندلس، 2010م)، ص 423.

4 - قاسم يرنگ / التاريخ ومنهج البحث التاريخي، (بيروت: دار الفكر اللبناني، 1990)، ص 14.

المبحث الاول

نشأة فلسفة التاريخ في أوروبا وتكوين المدارس التاريخية :

المراد بالمدسة التاريخية: وجهة النظر الخاصة في تفسير ونشوء الحضارات ونموها وانهارها. فالسؤال الموجه على هذا الصعيد هو: كيف استطاع الإنسان أن ينتقل بحياته البدائية البسيطة إلى حياة أكثر تقدماً وتعقيداً، تزخر بالوان المد الحضاري؟ أو: ما هي العوامل التي يرجع إليها سير التاريخ ونشوء الحضارات؟

ان الإجابة على هذا السؤال، بتحديد العوامل الأساسية في حركة التاريخ ونشوء الحضارات وتدهورها، هي التي تشكل الصياغة النظرية التي يطلق عليها "مدرسة تاريخية". وهذه الدراسات القائمة على تفسير التاريخ وأحداثه هي التي يطلق عليها أيضاً: "فلسفة التاريخ"، ومن البديهي جداً أن نتصور تعدد الإجابات على ذلك السؤال الرئيس الكبير، وهذا يعني تعدد المدارس التاريخية تبعاً لذلك. قبل أن تظهر المدارس التاريخية الكبرى في أوروبا ظهر كثير من الفلاسفة الذين حاولوا تفسير سير التاريخ، نذكر هنا أهم هؤلاء الفلاسفة، مع بيان موجز الرواية كل منهم في هذا الموضوع:

مكيافيلي (1527 م)⁽¹⁾:

وهو صاحب المبدأ الشهير: "الغاية تبرر الوسيلة"! وقد نظر إلى التاريخ في إطار السياسة المنفصلة عن الأخلاق، وفي هذا الإطار يرى مكيافيلي أن التاريخ سيمجد كل عمل سياسي لا أخلاقي نجح في تحقيق أهدافه، مادامت الغاية تبرر الوسيلة. وتفسير حركة التاريخ ونشوء الحضارات عنده يقوم على عامل واحد، وهو "الدوافع الأنانية للأفراد"، فبفعل الدوافع الأنانية يتحرك الأفراد، وتتشكل المجتمعات وتقوم الحضارات، وبفعل الدوافع ذاتها تنهار الحضارات أيضاً والحضارة إنما تعبر عن البعد الفلسفي للتاريخ لأنها قامت على أساس الدوافع الأنانية للأفراد⁽²⁾. وبالرغم من أن مكيافيلي يركز على سياسة الدولة، فإنه يضع "قوانين" تحرر رؤيته في سير الأحداث التاريخية الكبرى. فالثورات الكبرى منشؤها الاستضعاف والاستعباد: "وهكذا كان من الضروري أن يجد (موسى) شعب إسرائيل عبداً في مصر، يضطهدهم المصريون لتكون لديهم الرغبة في اتباعه للنجاة من العبودية.. وكان من الضروري أيضاً أن يعجز (رومولوس) عن البقاء في ألبا، وأن يتعرض للعراء عند ولادته حتى يتمكن من أن يصبح ملكاً على روما ومؤسساً" لشعب فيها.. وكان من الضروري أن يجد (كورش) الفرس ناقمين على امبراطورية الماديين، وأن

1 - نيكولومكيافيلي: فيلسوف وسياسي ايطالي يلقب بأبو النظرية السياسية الحديثة، ولد في فلورنسا بايطاليا سنة 1469م اشتهر ابا عصر النهضة واصبح الشخصية الرئيسية للتنظير الساسي الواقعي ، له كتاب (الامير) المشهور الذي يجسد النظرية المكيافيلية المشهورة التي تركز على مبدأ الغاية تبرر الوسيلة، توفي في فلورنسا سنة 1527م . للمزيد ينظر: كرانستون، موريس، اعلام الفكر السياسي، ط3، (بيروت: دار النهار، 1991م)، صص 40-47؛ شبكة المعلومات الدولية (الانترنت) نيكولو.مكيافيلي. <https://ar.wikigute.org/wiki/>

2 - الجابري، د. علي حسين فلسفة التاريخ في الفكر العربي المعاصر، ج1، (بغداد: وزارة الثقافة والاعلام، 1990م) ص 236.

يرى هؤلاء ضعفاء صيرهم السلام الطويل مخنثين.. ولم يكن باستطاعة (ثيزيوس) أن يظهر كفاءته لو لم يجد الاثينيين متفرقين متمزقين" (1) ويرى مكيافيلي ان انتصار القادة يخضع غالبا لأمرين، هما: حسن الطالع (الحظ)، والكفاءة الشخصية.. ويريد بحسن الطالع ملاءمة الظروف الخارجية، أما الكفاءة فهي بالإضافة إلى الشجاعة، المقدرة على التقلب والتغير مع الظروف، فإذا كان التعقل ينجح أحيانا، فإن التهور أفضل منه في كثير من الأحيان، والقائد الكفوء هو الذي يعرف متى يعتمد الحكمة ومتى يعتمد التهور.. وفي الجمع بين هذين الأمرين يقول: «وهكذا أتاحت هذه الفرص لهؤلاء الحظ وتمكنوا بفضل مواهبهم العظيمة من الاستفادة منها لتمجيد بلادهم، ومضاعفة طوالعها ومفاخرها» (2)

ويبقى المهم في فلسفة مكيافيلي هو أن الدولة لا بد أن تحافظ على سلطانها وسيادتها، ولها أن تتبع من أجل ذلك أشد الأساليب وحشية، مستندة إلى قاعدة أو (قانون) ثالث يناقض فيه قانونه الأول، إذ يقول: «هناك قاعدة عامة بالنسبة للشعوب، انهم ينتقمون من ظالمهم إذا كانت الأضرار التي لحقتهم من الظلم تافهة، ولكنهم يعجزون عن الانتقام لأنفسهم ممن يلحق بهم أكثر الظلم وأشد الضرر، فخير وسيلة للحاكم هي أن يصب أكبر قدر من الظلم يعجز معه الشعب عن الانتقام» (3). ومن أقواله المشهورة عنه في هذا الاتجاه أيضا: "الغاية تبرر الوسيلة" وأن منطق الدولة يقتضي المحافظة عليها بأي ثمن، وأية وسائل استخدمت لهذه الغاية تعد مشروعة، إن تأسيس دولة من القانون والنظام إنما يكون بوسائل غير قانونية وإن الحاكم من أجل الاحتفاظ بالسلطة في الدولة مضطر أن يتصرف بدون رحمة وبدون إخلاص، وأن يتجرد من الانسانية، بل من تعاليم الدين، فكل شيء مشروع بالنسبة لأخلاق الدولة، لأن كسب السلطة أو الاحتفاظ بها هو الهدف» (4). وممن يساند هذه الافكار من الفلاسفة " نيتشه" الالماني (5)، فهو يرى أن طبيعة التاريخي هكذا، تقتضي سيادة القوي، فإن الحضارات الكبرى في التاريخ قد نشأت عن هذا الطريق لاغير، إذ قامت طائفة من الأرستقراطيين الممتازين على شكل حيوانات مفترسة شقراء تجوب الأرض في آسيا وأوروبا وجزر المحيط الهادي، مغيرة على كل الأراضي التي تعترض سيرها، فارضة إرادتها على كل الشعوب التي تمر بها، هكذا نشأت الحضارات اليونانية والرومانية والجرمانية» (6).

1 - ماكيافيلي، الامير، ترجمة خيرى حماد، ط4، (بغداد: منشورات مكتبة التحرير، 1990)، صص: 81 – 196

2 - كرانستون، موريس، مصدر سابق، صص 40-47،

3 - الامير: المصدر السابق، ص 63 .

4 - عبد الحميد، الدكتور صائب، المصدر السابق، ص 95،

5 - جيرى.ويد، المذاهب الكبرى في التاريخ من كونفوشيوس الى توينبي، ترجمة ذوقان قرقوط، ط2، (بيروت: دار

القلم، 1979م)، صص 190-191

6 - صبحي، احمد محمود، في فلسفة التاريخ، ط2، (بنغازي: منشورات جامعة قار يونس، 1989م)، صص 100 – 101 .

1- جان بودان (1596)⁽¹⁾ :

الذي عرفه بعضهم كمؤسس لفلسفة التاريخ، حاول التوفيق بين ماهو إلهي وماهو مادي في نظام الكون، والانسان بتركيبية المزدوج، من جسد وفكر، وأروح، يمتلك بعض المميزات التي تنظم العالم المادي والعالم الإلهي، وهكذا فالتاريخ يشمل الطبيعة والله معا. ومن ناحية أخرى فإن تطور القانون المدني يكشف وجهها من النظام في التاريخ، لذلك يوجد قانون شامل» للتاريخ وراء القوانين الخاصة لدى مختلف الشعوب، ودراسة وقائع التاريخ تتيح التحقق من وجود هذا القانون الشامل.

إن الألهي بحسب بودان نفسه، يجب أن يعتبر غير قابل للتغير، وكذلك فإن العالم المادي يشكل نظاما راسخا، لذلك فإن المعالجة الكاملة للتاريخ التي تدخل في الاعتبار طبيعة الإنسان المزدوجة يتوجب عليها أن تتضمن علوم الطبيعة كما تتضمن الدين المقارن على حد سواء. فالتاريخ الإنساني ليس محددًا "تحديدًا تامًا" بالظروف المادية والعادات الاجتماعية، ولكنه في بعضه يستند إلى حرية الفرد في الاختيار، فالإنسان يستطيع الصمود في حدود هائلة في وجه القوى الخارجية، ويستطيع أن يحولها لصالحه. كما أن التاريخ ينشأ من ابتداء إلهي، وتكون له نهايته على الصعيد الأرضي. وفي خصوص المسيرة العامة للتاريخ يرى بودان أن التاريخ في تقدم، ولكنه تقدم إجمالي تتخلله حقب من الانحطاط والتراجع⁽²⁾

2- هوبز (1679 هـ)⁽³⁾ :

كان هذا المفكر يؤكد على حقيقة مهمة من وجهة نظره وهي: ان العامل الوحيد في سير التاريخ وقيام الدول او الحضارات هو «الخوف من الموت»... والتاريخ عنده محكوم بالصراع، والصراع هو الذي دفع بني الإنسان إلى تشكيل المجتمعات والدول، دفعا للخطر وحفظا للنفس، بدافع الخوف من الموت، وبذلك

15- جان بودوان: ، من مواليد 1530 في انجيه بفرنسا ، فيلسوف فرنسي (يعتبر صاحب نظرية السيادة ومن فلاسفة المذهب التجاري وهو قانوني وفيلسوف وسياسي فرنسي، عضو برلمان باريس واستاذ القانون في تولوز، واشتهر بنظرية حول السيادة، وكان من انصار التسامح الديني، وكان مستشارا لهنري الرابع ومن المعجبين به، توفي سنة 1591 م ، للمزيد ينظر: يحيى فاضل، الدكتور صدقة، الفكر السياسي الغربي العالمي (دراسة في الاصول والمباديء)، الكتاب الثاني، ط1، (جدة: مكتبة مصباح، 1990)، ص ص 33-38

2 - صاغية، حازم، جان بودان،، (بيروت: دار الفكر، 1980)، ص 9011؛ جيرى، ويد، مصدر سابق، صص 190 - 191

3- هوبز (توماس هوبز) (1679.1588) فيلسوف انكليزي أكمل دراسته بجامعة اكسفورد وفي عام 1608 عمل معلما خاصا لبعض افراد اسرة (كافندش). من الأسر الأنكليزية المعروفة، وبعد قيام الثورة على الملك شارل الأول عام (1646)، عمل (هوبز) معلما لشارل الثاني (Charles 11) (1660.1685) اثناء منفاه في باريس له عدة مؤلفات في الفلسفة والسياسة والبصريات من أشهرها كتابه الموسوم ب(اللويثان) (Leviathan) الذي نشره عام 1651 موضوعا فيه معظم آراءه في السياسة للمزيد من التفاصيل ينظر: الموسوعة الفلسفية المختصرة، ترجمة فؤاد كامل وآخرون، (بغداد، دارالمأمون للطباعة والنشر، 1983)، ص ص 503.505.

قامت الحضارات، والذي يحرك ذلك كله هو الانانية الراسخة في الإنسان؛ ذلك لأن الناس أنانيون بالطبع، وأنهم لا يسعون إلا إلى حفظ بقائهم، وإلى القوة» فهم يسعون أبدا - من أجل ذلك - إلى اكتساب السلطات فوق السلطات: ويقول هوبز: «إنني أضع في الصف الأول الميل العام عند الانسان في الرغبة الأبدية لاكتساب السلطات فوق السلطات، والذي لا يكف إلا بالموت، وليس سبب ذلك على الدوام بتوق إلى سعادة تفوق ما قد شعر به من قبل من سعادة، أو أنه لا يعرف الاكتفاء بسلطة معتدلة، وإنما سبب ذلك هو انه لا يستطيع أن يثبت سلطانه وأن يحلم بالعيش كما يجب دون أن يكتسب مزيدا من السلطان أيضا». أما العقود والمعاهدات التي تقيمها الجماعات الإنسانية أو الأفراد فما هي إلا هدنة بين الأنانيات! وفي هذا السياق تكون الوظيفة الأساسية لأي سلطة سياسية في التاريخ هي حماية رعاياها من أي تدخل في شؤونهم، ومن أي عدوان خارجي آت (1).

3- فيكو (1724م) (2):

قام هذا المفكر بدراسة العلاقة بين السياسة والوعي من خلال متابعته تاريخ القانون، وتطور العقل، وما يتركه من أثر على مسارات تاريخ البشرية، الذي يتحرك بمنطق: "التقدم الدوري، الإلهي، والبطولي والإنساني"، ليقول: أن التاريخ في حقيقته هو تاريخ نشأة الجماعات الإنسانية وتطوير أنظمتها من دون أن ينشأ تعارض بين أفعال الأفراد والمشية الإلهية. وقد اعتمد فيكو، في تفسير الحضارات «نظرية الدورات التاريخية» فثمة تجديد دائم ينتظم حركة الحضارة الثلاثية (بداية - عظمة - نهاية) والتاريخ مرتبط والحضارات لا الأفراد، ومتى اختلت موازين الحضارة وساد التطرف حياة الناس كان الأفول بتحليل داخلي أو غزو أجنبي، يفضي مستقبلا إلى عودة لولبية جديدة للتاريخ، يسوقها قائد بطل منقذ وشعب متحفز يبحث عن التجدد ويدرك حركته (3).

1 - جيرى، ويد، المصدر السابق: 186 - 188

2- جيامباتيستا فيكو: (1668م-1744م) فيلسوف ومؤرخ وقانوني إيطالي، ولد في نابولي لاب بائع كتب وام ابنة صانع عربات في نابولي بإيطاليا، التحق فيكو بسلسلة من المدارس الا انه اكمل دراسته فيما بعد في البيت لاسباب صحية، قدم عام 1725 كتابه الاول (مبادئ علم جديد في الطبيعة المشتركة للامم، ولم ينصف الا في فترة متأخرة من حياته، تآثر به مونتسكيو وكراشي، توفي عام 1744 في نابولي. للمزيد ينظر:

Goetsch, James. Vico's Axioms: the Geometry of the human world: New Haven, Yale University, 1995. p34

3 - جيرى، ويد، المصدر السابق: 191 - 197

4-مونتسكيو (1755 م)⁽¹⁾؛

يعد هذا المفكر من أشهر فلاسفة عصر التنوير، هو، وروسو، وفولتير، الآتين بعده، عده بعضهم «مؤسس فلسفة التاريخ». وقد فسر مونتسكيو حركة التاريخ تفسير جغرافيا، إذ جعل حياة الانسان انعكاسا للظروف الجغرافية، فالتغيرات التاريخية عنده مظاهر مختلفة لجوهر واحد، وابتني هذا المذهب «الجغرافي» على مقدمتين: الأولى: ينسبها إلى علم الأجناس، الذي يقرر أن الإنسان قد انتشر منذ فجر التاريخ البشري انتشارا واسعا في الأرض، فتعرض نتيجة ذلك الانتشار إلى فروق مناخية عظيمة، وهذه الفروق المناخية قد ميزت الجماعات البشرية بخصائص فزيولوجية ونفسية متفاوتة. والمقدمة الثانية: ينسبها إلى علم النفس الاجتماعي، الذي يقضي بوجود صلة وثيقة بين قيمة الخصائص النفسية وبين طبيعة المزاي الفزيولوجية المتفاوتة، لذلك ستختلف أمزجة الناس وطباعهم بحسب اختلاف المناخ، وهذا السر - بحسب هذه النظرية - في الاختلافات الظاهرة في الأنظمة الاجتماعية مجتمع وآخر، كالذي نلاحظه بين أهل الأقاليم الباردة وبين أهل الأقاليم الحارقة فوارق ظاهرة في العادات والتقاليد والأنظمة الاجتماعية، وهذه الفوارق ستعكس بدورها على نظام الحكم وعلى النمط الحضاري

وحتى حين اعترف مونتسكيو بأثر العوامل المعنوية في التاريخ، والتي تشمل التشريعات والقوانين الوضعية والنظم السياسية، فإنه عاد ليؤكد تأثير العوامل الجغرافية على العوامل المعنوية نفسها. وحتى الذين كذلك له نوع ارتباط بالعامل الجغرافي، إذ يرى مونتسكيو أن الإسلام أكثر ملاءمة للشعوب الشرقية، بينما المسيحية تناسب الأوروبيين. ولكن مونتسكيو، رغم تركيزه على العوامل الجغرافية، فإنه يحكم على المجتمعات التي تتغلب عليها تأثيرات العوامل الجغرافية بالجمود والضعف وعدم القدرة على الإبداع والتطور⁽²⁾. وكان ابن سينا (المتوفي حدود سنة 1020 م)⁽³⁾، قد سبق مونتسكيو إلى هذا المذهب

1 (مونتسكيو، شارل دي Montesquieu, Charls de) (1755-1689) ، عالم اجتماع فرنسي ولد في باريس ، مؤلفاته الرئيسية هي " رسائل فارسية " 1721 ، و " تأملات في أسباب عظمة وتدهور الرومان " 1734 ، و " روح القوانين " 1748 ، انتقد الحكم المطلق بشدة ، كان يعتبر الملكية الدستورية افضل اشكال الحكم ، وقد ادخل نظرية فصل السلطات ، وانتقد رجال الدين والكنيسة بشدة ، للمزيد ينظر: م. روزنتال ، ب. يودين ، الموسوعة الفلسفية ، ترجمة سمير كرم ، (بيروت: دار الطليعة ، 2006م) ، ص 12 .؛

JOYCE .M.H.REID: THE CONCISE OXFORD DICTIONARY OF FRANCH LITERATURE: OXFORD UNIVERSITY PRESS .1976.P677.

2 - صبحي ، احمد محمود مصدر سابق ، صص: 86 - 87 ؛ جيرى ، ويد ، مصدر سابق ، صص: 197 - 198 .

3 - ابن سينا: (370-428هـ/980-1037م) ، ولد في افشنة قرب بخارى ودرس في بخارى العلوم الشرعية والعقلية ، عاش في عهد امير بخارى نوح بن منصور ، واشتغل بالتعليم والساسة ، وله كتب تدل على سعة ثقافته ، ومن كتبه الشفاء ، النجاة ، الاشارات والتنبيهات ، تسع رسائل في الحكمة والطبيعات: للمزيد ينظر: غربال ، محمد شفيق الموسوعة الفلسفية الميسرة ، (بيروت،: دار الفكر ، 1980م) ، ص 19 ،

بنحو سبعة قرون، في كتابه (القانون).. واعتمد مونتسكيو (1755م) مذهبه هذا في كتابه (روح القوانين)⁽¹⁾! فثمة تشابه حتى في اسم الكتاب، رغم أن كتاب ابن سينا كان في الطب.
5- روسو (1778 م)⁽²⁾؛

كان يرى أن العامل المحرك للتاريخ هو «الإرادة الحرة».. فتاريخ البشرية عنده عبارة عن ترجمة عملية لتاريخ الإرادة الإنسانية والفعل الحر. لذلك كان يدعو إلى الثورة لأنه يراها أساس التغيير، ويخالف فولتير كان يرى أن التغيير يتحقق عن طريق التوعية⁽³⁾.
6- فولتير (1778 م)⁽⁴⁾؛

لقد هاجم هذا المفكر الفرنسي التاريخ، المدون بأسره، ووصفه بأنه ليس إلا مجموعة من الأباطيل والخدع التي نلعب بها على الأموات، بحيث نحول الماضي ليتناسب مع رغبتنا في المستقبل! وقال: لا ينبغي أن يكتب التاريخ سوى الفلاسفة! واستبدل مصطلح «حكمة التاريخ» بـ «فلسفة التاريخ» وإليه يعود الفضل في استخدام هذا الاصطلاح لأول مرة. وكان فولتير يعتقد بالله، لكنه يعارض التصور الكنائسي المسيحي للتاريخ، وكان في الوقت ذاته يبحث عن طريقة موحدة لينسج حولها كل تاريخ المدنية في أوروبا في خيط واحد، واقتنع أن هذا الخيط هو تاريخ الحضارات، وعزم أن لا يتناول في بحثه التاريخي الملوك، بل الحركات والقوى الجماهير.. وأن لا يتناول الدول، بل الجنس البشري.. وأن لا يتناول الحروب، بل سير وتقدم العقل البشري⁽⁵⁾.

1 - مونتسكيو، روح القوانين، ت. عادل زعيتر بعنوان (روح الشرائع) في ستة أجزاء، (لندن: مؤسسة هندواوي، 2007)، ص 112.

2 - جان جاك روسو: (1712-1778)، فيلسوف وكاتب فرنسي ولد في جنيف له مؤلفات عديدة في الفلسفة والاجتماع، أكد في كتاباته على طيبة الانسان وطالب بالعودة الى الطبيعة مبينا ان الانسان الطبيعي مخلوق ذو غرائز وميول بسيطة، له مؤلفات عديدة منها: (العقد الاجتماعي، أمل، اعترافات)، ساهمت مؤلفاته في توعية الشعب الفرنسي قبيل قيام الثورة الفرنسية، للمزيد ينظر: برهيه، أمل، تاريخ الفلسفة (القرن الثامن عشر) ترجمة جورج طرابيشي، ج 5، (بيروت: دارالطليلة، 1983)، ص ص 191-211.

3 - ول ديورانت، قصة الفلسفة من افلاطون الى ديوي، ترجمة الدكتور فتح الله المشعشع، ط2، (بيروت: مكتبة المعارف، 1972م) صص: 303 - 310، جيرى، ويد، مصدر سابق، صص 201 - 202

4 (فولتير: فرانسو ماري أرويه، ولد في باريس عام 1694، كاتب فرنسي عاش في عصر التنوير وهو كاتب وفيلسوف ذاع صيته بسبب سخريته الظريفة ودفاعه عن الحريات المدنية وبخاصة حرية العقيدة، له العديد من المسرحيات والشعر والروايات والمقالات والاعمال التاريخية والعلمية وأكثر من عشرين الفا من الخطابات، وكذلك أكثر من الفين من الكتب والمنشورات، توفي سنة 1778م، للمزيد ينظر: روزنتال، الموسوعة الفلسفية، مصدر سابق، صص 357-358.

5 - ول ديورانت، مصدر سابق، ص 310.

يقول فولتير عن منهجه في كتابة التاريخ: «لا أريد أن أكتب تاريخاً عن الحروب، ولكن عن المجتمعات.. إن موضوعي هو تاريخ العقل البشري... وسوف لا أقي أهمية على تاريخ اللوردات والأسيا، ولكني أريد أن أعرف حقيقة الخطوات التي خطاها الناس من العصور البربرية إلى المدنية». وجعل عنوان كتابه (أخلاق وروح الشعوب من أيام شارلمان إلى لويس الثالث عشر).⁽¹⁾، وأصبح عمله يعد أول محاولة منظمة لتتبع مجاري الأسباب الطبيعية في تطور العقل الأوربي، ووضع للأوربيين الأساس لعلم التاريخ الحديث، بل كان يتبنى نظرة أمكن وصفها بـ «محاولة أولى في تاريخ عالمي» فقد كان مهتم بالعرب والصينيين وبعض شعوب الهند، وكان يدخل في اعتباره فكر هذه الشعوب وفنها وظروفها الاقتصادية والسياسية. وعلى الرغم من عدم المساواة بين نصيب هذه الشعوب وبين نصيب شعوب أوروبا، إلا أن هذه المحاولة كانت جديرة في وقتها بان يوصف صاحبها بأنه "أول من صاغ المفهوم الحديث التاريخ، الذي هو لوحة للحضارة ولشرحها"، فقد كان فولتير، أيضاً، يجد مغزى التاريخ في العلوم والفنون الجميلة والآداب وفي ألوان الرقة المتناهية في الحياة الاجتماعية وفي الشفقة الطبيعية⁽²⁾. وب(جان جاك روسو) و(فولتير) ومذهبيهما، نختم سلسلة فلاسفة التاريخ هذه لننتقل إلى المدارس التاريخية الأوربية الثلاث الكبرى. لنقف على اثر علم التاريخ وفلسفة التاريخ في افكار هؤلاء الفلاسفة والمؤرخين في صيرورة وقيام تلك المدارس التاريخية الحديثة التي اخذت دورها في دراسة حركة التاريخ.

المبحث الثاني

أهم المدارس التاريخية في أوروبا الحديثة

- 1- المدرسة المثالية.. هيغل (1831 م)⁽³⁾.
- 2- اعتمد هيغل في تفسير سير التاريخ على مبدأ «الجدل» «الديالكتيك»، وكلمة ديالكتيك» مأخوذة من الأصل اليوناني «دياليكو» وهو الحوار الفلسفي الذي يمثل وجهتي نظر مختلفتين تتجادلان حتى تتبين الحقيقة من خلال الجدل، وغالبا ما تكون الحقيقة مزيجا من وجهتي النظر المختلفتين⁽⁴⁾.

1 - عبد الحميد ، الدكتور صائب ، المصدر السابق ، ص 99،

2 - ول ديورانت، مصدر سابق، صص 274-277؛ جيرى، ويد ، مصدر سابق، صص 199-200.

3 - هيغل: جورج فيلهلم فريدريش هيغل: فيلسوف الماني ولد في شتوكارت جنوب المانيا عام 1770م، ويعد من اهم الفلاسفة الالمان ومن مؤسسي المثالية الالمانية في الفلسفة في اواخر القرن الثامن عشر ، توفي في برلين عام 1831م للمزيد ينظر: كرانستون موريس، المصدر السابق ، صص 95-102.

4 - وول ديوارنت، المصدر السابق، صص: 375 – 383؛ الجابري، علي حسين، مصدر سابق، صص 241 – 242؛ خليل، د عماد الدين، التفسير الاسلامي للتاريخ، (بيروت: دار الكتاب الاسلامي، 1988)، صص: 23 – 39؛ البهي، دمحم، الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، (بيروت: دار الفكر، 1976)، صص: 332 – 344؛ أحمد محمود صبحي / المصدر السابق، صص: 205 – 217

هذا هو الديالكتيك: فكرة، ونقيضها، ثم تألف النقيضين. والمجال الذي استخدم فيه هيجل مبدأ الجدل «الديالكتيك» هو: «الفكرة».. فهناك فكرة مطلقة، هي «العقل المطلق»، له وجود ذاتي أزلي.. ومنه تنبثق الطبيعة، وهي تغابره تماما، فهي مقيدة محدودة ومتفرقة.. وبذلك ظهرت الفكرة المطلقة في ما وجوده مقيد محدد، أي في ما هو نقيض للفكرة المتمثلة في العقل المطلق. فالعقل المطلق يمثل القضية «الدعوى» أو «الفرضية».. والطبيعة تمثل نقيضها، أي نقيض الدعوى والفرضية. ولكن الفكرة في الطبيعة تسعى من جديد لتكسب الوحدة الأولى التي يتميز بها العقل المطلق، وهذا السعي يتمثل في القانون والأخلاق والفن والدين والدولة والجماعة والفلسفة.. وقد أطلق عليها هيجل «العقل المجرد». فالعقل المجرد يمثل الجامع للدعوى ونقيضها. هذا الجامع سيتحرك ويتقدم إلى حد الأقصى، ثم يولد نقائضه وأضداده فيصبح بمثابة «دعوى» ويتم الصراع بينه وبين نقائضه حتى يتولد جامع جديد وهذا الجامع يحوي دائما كل ما هو فعال من عناصر الدعوى ونقيضها⁽¹⁾.

إذن فالتاريخ عنده «يتحرك نحو المطلق حركة متصاعدة»، وان كل فكرة اساسية في التاريخ تنمي فكرتها الرئيسية إلى الحد الأقصى، ثم تولد أضدادها ونقائضها، ويستمر الصراع، وتتحد الميادين المتناقضة في وحدة علياء تزيح الدعوى ونقيضها، لكنها في الوقت نفسه تحتفظ بكل عناصرهما الفعالة.. لذا فان حركة التاريخ في تقدم وصعود أبدي، وكل مرحلة تاريخية هي أكثر تقدما ورقيا حضاريا من سابقتها. وحركة التاريخ حركة منطقية، وهو في الغالب سلسلة من الثورات، يستخدم فيها «المطلق» الشعوب اثر الشعوب والعباقرة إثر العباقرة، أدوات في تحقيق النمو والتطور... إن أعظم الرجال ليسوا الخالقين للمستقبل ولكنهم وسطاء في تحقيق هذا المستقبل، وما يقومون به ليس سوى تحقيق لما ترسمه روح العصر. وأن العبقرى لا يضع سوى حجرا في كوم البناء كما يفعل الآخرون. لكن لحسن حظه أنه يجي أخيرا، وعندما يضع حجره يقف البناء على دعائمه⁽²⁾.

الدولة في مفهوم هيجل: نظر هيجل إلى الدولة على أنها صورة العقل المجرد، ولها مطلق الحق ازاء الأفراد، وعلى الأفراد بطريق الإلزام المطلق أن يكونوا أعضاء في الدولة وأن يطيعوها طاعة تامة.. ذلك أن العقل المجرد عنده هو بالنسبة للطبيعة عقل مطلق، فالدولة على هذا الأساس لا تعترف باي سلطة سوى سلطتها، ولا تقرب أي أصول مجردة للخير والشرو والاحتيايل والخدعة. ولذلك وصف هيجل بأنه «فيلسوف مجلس الحكم السري وحكم طبقة إداري الدولة»!.. بيد ان هناك العديد من الانتقادات العلمية الموجهة إلى نظريته هذه، ومنها:

أ- يعتقد هيجل أن كل عهد يأتي يكون أرقى من سابقه، لأن «الموحد» الذي هو نتيجة التوفيق بين العناصر الصحيحة الفعالة من الفرضية ونقيضها، يجب ان يخطو خطى واسعة إلى الأمام، وكل حضارة إذن يجب أن تليها حضارة أرقى منها. لكن هذا أمر ينفيه تاريخ الحضارات، فليس هناك نمو متناسق يتبع نظام لاشنوذ فيه ويمكن نقله من شعب إلى شعب في هذا العالم!، وهنا يقول توينبي: «لقد ارتقى علمنا

1 - عبد الحميد، الدكتور صائب، مصدر سابق، ص 101؛ صبحي، أحمد محمود المصدر نفسه، صص: 209 .

2 - عبد الحميد، الدكتور صائب، المصدر نفسه، ص 102؛ صبحي، احمد محمود، المصدر نفسه، ص 210.

فبلغ درجة لم يسبق له أن بلغها... ومع ذلك فقد انتكسنا في نفس الوقت في الحروب الطبقية والقومية والعنصرية إلى أعماق قد لا يكون سمع بها أحد قبلنا»⁽¹⁾.

ب- ناقض هيجل نظريته في سير (روح العالم) نحو تحقيق الكمال، حين ادعى أن دولة بروسيا كانت قد بلغت الكمال حقا بحيث لم تكن أي ثورة تالية تستطيع أن تأتي بغير المصائب في أعقابها⁽²⁾. وهنا يقول (ول ديورانت): «من غير الطبيعي أن يتحول هذا الفيلسوف الداعي إلى الصراع كوسيلة للنمو والتطور والرقى إلى مؤيد للقناعة والرضى! ولكن الإنسان في سن الستين له الحق في أن يطلب الهدوء! ومع ذلك فإن التناقض في أفكاره كان أعمق بكثير من أن يحقق السلام... وحالف هيجل الحكومة البروسية وربط نفسه بها، وباركها بكونها التعبير الأخير عن المطلق، وتمتع مقابل هذا التأييد والولاء بمركز علمي كأستاذ في الجامعة، وأطلق عليه أعداؤه اسم الفيلسوف الموظف»⁽³⁾. وانقسم أتباعه من بعده إلى يمين ويسار؛ ولقد تطور كارل ماركس بفلسفة التاريخ الهيجلية إلى نظرية صراع الطبقات التي تؤدي حسب الضرورة الهيجلية إلى اشتراكية لامفر منها، فبدلاً من "المطلق" الذي يقرر التاريخ عن طريق "روح العالم" عند هيجل، قدم ماركس "الحركات الجماهيرية" والقوى الاقتصادية كأسباب أساسية لكل تغيير أساسي سواء في عالم الأشياء أو في حياة الفكر"⁽⁴⁾.

2- المدرسة المادية التاريخية.. ماركس⁽⁵⁾، وأنجلز⁽⁶⁾
:اعتمد ماركس و أنجلز مبدأ التناقض «الديالكتيك» نفسه، لكن انطلاقاً من الشيء» لا من «الفكرة» فانتصرا للطبيعة على الدين وعلى العقل. ويقول ماركس هنا: «إن العزة الإلهية والهدف الإلهي

1 - عبد الحميد، الدكتور صائب، المصدر السابق، ص 103.

2 - عويضة، كامل محمد محمد هيجل: (الاعلام من الفلاسفة) (بيروت: دار المعارف، 1967م)، صص 30-38؛ كرانستون، موريس، مصدر سابق، صص 30-38.

3 - ديوارنت، مصدر سابق، صص 381 - 382،

4 - للمزيد عن هذه المدرسة ينظر: ديوارنت، مصدر سابق، صص: 375 - 383؛ الجابري، علي حسين مصدر سابق، صص 241 - 242؛ خليل، عماد الدين، مصدر سابق، صص: 23 - 39؛ البهي، محمد، مصدر سابق، صص 332 - 344؛ صبحي، داحمد محمود، مصدر سابق، صص: 205 - 217.

5 - ماركس: كارل هانريك ماركس، فيلسوف الماني واقتصادي وعالم اجتماع ومؤرخ وصحفي و اشتراكي ثوري ولد في ايار 1818م في المانيا، لعبت افكاره دورا هاما في تأسيس علم الاجتماع وفي تطوير الحركات الاشتراكية، ويعتبر ماركس من اعظم الاقتصاديين في التاريخ، نشر العديد من الكتب خلال حياته اهمها، بيان الحزب الشيوعي ورأس المال، توفي في لندن في اذار 1883م، للمزيد ينظر: شبكة المعلومات الدولية (الانترنت) كارل ماركس. <https://ar.wikigute.org/wiki/>

6 - انجلز: فريدريك انجلز فيلسوف ورجل صناعة الماني ولد في نوفمبر 1820م في روسيا، كان يلقب بأبو النظرية الماركسية الى جانب ماركس، اشتغل بالصناعة وعلم الاجتماع، وكان كاتباً ومنظراً "سياسياً" وفيلسوفاً، من اعماله: بيان الحزب الشيوعي مع كارل ماركس والايولوجية الالمانية توفي في اب 1895م في المانيا، للمزيد ينظر: م. روزنتال، ب. يودين، مصدر سابق، صص 52-53.

هي الكلمة الكبيرة المستعملة اليوم لتشرح حركة التاريخ، والواقع أن هذه الكلمة لا تشرح شيئاً⁽¹⁾. وفي تطبيق هذه المبادئ على التاريخ، قالوا: نبدأ بتقرير المقدمة الأولى للوجود البشري بكامله، وبالتالي للتاريخ البشري بأسره، ألا وهي المقدمة التي تنص على أنه لا بد للبشر من أن يكونوا في مركزهم من العيش، والحياة تشتمل قبل كل شيء على المأكل والمشرب والمسكن والملبس وأشياء عديدة أخرى... فالعمل التاريخي هو إنتاج الوسائط الكفيلة بسد هذه الحاجات.. إنتاج الحياة المادية بالذات.. وبما أن أسلوب الإنتاج هو الذي يحدد نمط حياة الناس في هذا المجتمع أو ذاك، فإن جميع ظواهر الحياة الأخرى تتعلق بأسلوب الإنتاج، وتكون نابعة منه⁽²⁾.

ومع ظهور الإنتاج الفردي ظهر التناقض بين الملكية الاجتماعية والطابع الفردي لعملية الإنتاج، وهذا التناقض يحل عن طريق القضاء على الملكية الاجتماعية وظهور الملكية الخاصة لوسائل ومواد الإنتاج.. وبهذا تم القضاء على النظام البدائي، وساد النظام الاقطاعي كحمية طبيعية. وعندما تنامت قوى الإنتاج وتغيرت تبعاً له علاقات الإنتاج، أصبحت الاقطاعية متناقضة معها، فصار إلغاؤها ضرورة تاريخية، لتحل محلها البرجوازية - الرأسمالية - المتناسبة مع النمط الجديد من قوى الإنتاج وعلاقاته. والسمة الأساسية لزيادة قوى الإنتاج التي نشأت في إطار الرأسمالية هي | تشريك العمل - أي جعله مشتركاً - فحل العمل الاجتماعي محل الإنتاج الفردي⁽³⁾.

غير أن الرأسمالية . عندما تتطور قوى المجتمع المنتجة - ستبدو يوماً فيوماً أقل قدرة على السيطرة عليها.. فتصبح الرأسمالية عائقاً في طريق تطور هذه القوى التي ولدتها هي ذاتها.. ومن هنا فإن إلغاؤها واستبدالها بمجتمع تكون وسائل الإنتاج فيه ملكاً مشتركاً يصبح ضرورة تاريخية | - ثم إن المرحلة الاشتراكية تمهد للمرحلة الأخيرة، وهي الشيوعية، حيث يتحقق مبدأ "من كل حسب طاقته، ولكل حسب حاجته"، لكن الانتقال من مرحلة إلى أخرى لا يتم بفعل التغييرات الكمية الناتجة من الصراع بين الفرضية ونقيضها، بل يتحقق بالثورة التي تأتي بعد سلسلة التغييرات الكم. وهكذا ينقسم تاريخ البشرية الى خمس مراحل، أدوار: (بدائية- إقطاعية - برجوازية - اشتراكية- شيوعية) وفق مسيرة من التطور الحتمي، بفعل الصراع بين علاقات الإنتاج القائمة وبين العلاقات التي تفرضها قوى ووسائله المتطورة، و عن طريق تغييرات كمية تتحول بواسطة العنف والثورة الى تغييرات كيفية. بيد ان نظرية المادية التاريخية ذاتها لم تسلم من النقد، ولعل أهم المؤاخذات التي أخذت عليها هي:

أ- إذا كان أسلوب الإنتاج هو العامل الحاسم في حياة المجتمع، فهذا يعني أن المجتمعات المختلفة حين تواجه نفس النوع من المشاكل المترتبة على الإنتاج وعلاقاته، يجب أن تواجهها بأسلوب واحد.. لكن التاريخ يكذب هذه الفرضية، إذ سجل للمجتمعات استجابات متباينة للمشكلة الواحدة. و افضل أمثلة ذلك ما قدمه التاريخ عن ولايات الاغريق الثلاث بين سنة 733 ق.م و 325 ق.م، إذ كانت وسائل الإنتاج

1 - كارل ماركس / بؤس الفلسفة : 123 - 124 ترجمة اندرية يازجي، (سوريا: دار اليقظة العربية: لبنان: ومكتبة الحياة :، 1977م)، ص 34-

2 - المصدر نفسه، ص 36.

3 - ماركس، كارل، مصدر سابق، ص 36..

عاجزة عن مواجهة الضغط الناجم عن تزايد السكان، فالذي وقع أن كل واحدة من الولايات الثلاث قد واجهت المشكلة وعالجت وسائل الانتاج بأسلوب خاص مختلف عن الاسلوب الذي اعتمدته الأخرى. ف"كورنثوس" توجهت إلى البحر وبسطت نفوذها على جزر زراعية عديدة فوسعت رقعة المملكة، وأنهت أزمته بهذه الطريقة. أما "اسبارطة" فواجهت المشكلة بان شنت الحروب على جيرانها من الإغريق أنفسهم واحتلت قطعاً من أراضيهم، فكان ذلك فاتحة سلسلة من الحروب المستمرة قلبت حياة المجتمع إلى حياة عسكرية لا تشبه في شيء من معالمها حياة المجتمع في الأولى "كورنثوس". وأما "أثينا" فقد سلكت اسلوباً "مختلفاً" جد، إذ خصصت إنتاجها الزراعي للتصدير، وطورت الانتاج لسد الحاجة المحلية، ثم طورت أنظمتها السياسية لاستيعاب الحالة الجديدة. إذن إزاء التحديات المادية حدث «تنوع في ردود الأفعال» كاشف عن أن اسلوب الانتاج ليس هو العامل الوحيد في حركة التاريخ⁽¹⁾.

ب- اعترف انجلز نفسه بالنتيجة المقررة أنفاً، فقال: "إني وماركس نتحمل قسماً من مسؤولية هذا الأمر الذي جعل الشباب يهتمون بالعامل الاقتصادي بأكثر مما هو حقه! أما نحن فكنا مضطرين في مواجهة المخالفين لنا إلى الاصرار على هذا الاصل الذي كانوا يرفضونه، ولذلك لم تكن لنا فرصة ولا مجال للاعتراف بحق سائر العوامل التي كانت شريكة بدورها في العمل⁽²⁾. وانتهى آخرون منهم إلى نقد ذلك الأساس الأول للمادية التاريخية، والإقرار بأن العامل الاقتصادي هو عامل واحد فقط من عوامل تصوير الشكل العام للحضارة"⁽³⁾

ج- ان الحتمية التاريخية التي تفرضها المادية التاريخية تقضي بان يبدأ الانتقال نحو الاشتراكية في دول اوربا الغربية، لكن شيئاً من هذا لم يحصل، بل الذي حصل أن حلت الاشتراكية في المجتمعات الاقطاعية بالقوة!! وحين استولت روسيا على المانيا الشرقية فرضت عليها الفكر الاشتراكي ونظامه فتحولت إلى الاشتراكية، فيما كانت اختها المانية الغربية تقدم صعباً في نظامها البرجوازي،

د- ومن ناحية فلسفية: اعتبر ماركس أن القوانين والأخلاق إنما هي نتاج الحالة الاقتصادية في المجتمع، وليس هناك قانون ثابت ولا أخلاق مطلقة.. لكنه كان في الوقت نفسه يعتبر نظريته المادية التاريخية قانوناً مطلقاً، ولم يلتفت إلى أنه من نتاج الحالة الاقتصادية التي عاشها هو وأصحابه⁽⁴⁾.

1 - خليل، دعماد الدين خليل، المصدر السابق، صص: 52 - 53

2 - المطهري، مرتضى، المجتمع والتاريخ، ص 133.

3 - خليل، دعماد الدين، المصدر السابق، ص: 55.

4 - لغرض التفصيل في نقض المادية التاريخية راجع: محمد باقر الصدر، اقتصادنا، (بيروت: دار التعارف

للمطبوعات، 1982م)؛ محمد باقر الصدر فلسفتنا، (بيروت: دار التعارف للمطبوعات، 1959م)؛ مرتضى المطهري، المجتمع

والتاريخ، نقله للعربية محمد علي أذرشب، ج2، (القاهرة: دار تنوير للنشر والاعلام، 2019م)؛ د. محمد البهي، مصدر سابق؛

محمد قطب مذاهب اسلامية معاصرة، ط9، (القاهرة: دار الشروق، 2001م)؛ خليل، د. عماد الدين مصدر سابق؛

البوطي، محمد سعيد رمضان، نقض اوهام المادية الجدلية، (دمشق: دار الفكر، 1978م).

3- مدرسة التفسير الحضاري.. توينبي 1978 م⁽¹⁾ :

اعتمد أرلوند توينبي. البريطاني الذي عمل طويلا في وزارة الخارجية البريطانية. في دراسته على دراسة المجتمعات البشرية كافة، وليس دراسة أمة بعينها أو عصر بذاته. واعتمد منهج البحث المقارن للحضارات أساسه إلى تفنيد التفسيرات المطروحة سابقة لقيام الحضارات، وبناء تصور جديد؟ وتتلخص دراسة توينبي الواسعة بالاجابة على ثلاثة اسئلة اثارها في مقدمة دراساته التاريخية، وهي: أ: كيف ولماذا تنشأ وتنبعث الحضارات؟ ب: كيف ولماذا تنمو وتتقدم الحضارات؟ ج: كيف ولماذا تنهار الحضارات؟ نشوء الحضارات:

في الإجابة على السؤال الأول «كيف ولماذا تنبعث الحضارات توصل توينبي الى أن ذلك يرجع إلى عامل حقيقي واحد، ألا وهو "الاستجابة لتحدي" صادرا من البيئة المادية، أو عن الوسط البشري، أو عنهما معا.. وهنا يشترط توينبي لهذه التحديات المادية والبشرية مدى " يجب الا تتعداه لأجل ان تكون الاستجابة الخلاقة ممكنة.. وهذا المدى ينحصر بين حدين: فلا يبلغ من القسوة بحيث ينهار الجهد البشري أمامه، كما هو الحال في المناطق القطبية أو الصحراوية الجافة، الذي أدى إلى أن تبقى مجتمعات هذه المناطق عاجزة عن اللحاق بأدنى المستويات الحضارية المنجزة في أجواء أخرى.. ولا يبلغ هذا التحدي حده الآخر المتناهي في الرخاء بحيث لا يثير في الإنسان الدوافع الفعالة في التغيير والحركة، فالرخاء المفرط في البيئة عدو الحضارات اللدود، لذلك ظلت الشراذم البشرية في المناطق الاستوائية الدافقة بالخيرات الطبيعية، بدائية في حياتها⁽²⁾. ولكن هذا لا يقودنا إلى الاقتناع بالأثر الحاسم للعامل الجغرافي كما رآه البعض.. فلا يكون العامل الجغرافي هو الحاسم إلا إذا كانت المجتمعات التي تعيش في بيئات متماثلة على مستويات متقابلة في الوجود الحضاري، وهذا ما يثبت التاريخ عكسه، فمن بين المجتمعات التي تعيش في أحواض الأنهار لم تنشأ حضارات هامة إلا في ثلاثة منها: مصر، والعراق، والسند.. وبقيت المجتمعات الأخرى التي تعيش في مثل هذه البيئة لم تنشأ فيها حضارة حتى استوطنتها في زمن متأخر جدا جماعات، كالأوروبيين المحدثين، عرفت كيف تستجيب استجابة ناجحة لتحدي الطبيعة هناك⁽³⁾.

1 - توينبي: ارنولد جوزف توينبي، مؤرخ بريطاني ولد في لندن ف14 ابريل 1889م، درس اليونانية واللاتينية وتقلد عدة مناصب منها: استاذ الدراسات اليونانية والبيزنطية في جامعة لندن ومدير دائرة الدراسات في وزارة الخارجية البريطانية. من اهم اعماله (موسوعة دراسة التاريخ) وهي في اثني عشر مجلدا. توفي في اكتوبر عام 1975م في لندن: للمزيد ينظر: توينبي - موسوعة المورد، ترجمة منير البعلبكي، (بيروت: دار النهار، 1991)، صص 155-158؛

Marvin (1996). *Arnold Toynbee and the Western Tradition*. American University Studies Ikih، Perry
:hsjh` 5—Philosophy. 169. New York, 1971, p.45-47.

ارنولد، توينبي، الحضارة في التاريخ، ت: احمد عصام الدين، (القاهرة: مطابع الدار القومية، 1961م) صص 23-24. -
: صدق خطاب، فلسفة التاريخ، عالم الفكر، المجلد 5، (الكويت: وزارة الإعلام، 1974، Mankind، J., Mankind 1974، Toynbee, Arnold J., and mother earth, Oxford university press 1976, p.66

3 - أرلوند توينبي، "الوحدة العربية آتية"، ترجمة عمر الديراوي أبو حجلة، (بيروت: دار الآداب، 1968)، ص 178؛

نمو الحضارات:

كان توينبي في إجابته على السؤال الثاني "كيف ولماذا تنمو الحضارات"، قد استنتج من استقراره الطويل لتاريخ الحضارات: أن نمو الحضارة ليس أمراً طبيعياً ملازماً ولادتها، فكثير من المجتمعات نشأت فيها حضارة لكنها عجزت عن النمو. وإنما يتوقف نمو الحضارات على الشرطين الآتين: أولاً: أن تكون الاستجابة للتحدي الطبيعي أو البشري استجابة ناجحة. وثانياً: أن تكون تلك الاستجابة الناجحة قادرة على أن تستثير تحديات جديدة، تتبعها استجابات ناجحة أيضاً، وتستمر صعداً سلسلة من التحديات والاستجابات، فيتكامل النمو "من تحقيق غاية، إلى صراع جديد، ومن حل مشكلة إلى مجابهة أخرى"⁽¹⁾ دور الأفراد في نمو الحضارة: رغم أن توينبي لا يلغي المجتمع، بل يعتبره الصعيد المشترك لمجالات أعمال الأفراد، لكنه يرى أن النمو الحضاري كله لا يكون إلا بواسطة المبدعين من الأفراد، وأن تقدم الأمم يأتي من انقياد الأكثرية لهذه الأقلية الخلاقة. وقد مثل لدور هذه "الشخصيات السامية من العباقرة والمتصوفين أو الرجال الكاملين" بدور "الخميرة في الكتلة البشرية العادية"⁽²⁾ انحطاط الحضارات وسقوطها:

ان السبب الأساسي في تدهور حضارة وسقوطها. عند توينبي هو ضعف الأقلية الخلاقة وعجزها عن النهوض بالاستجابات الناجحة للتحديات المتجددة، وعندما تمر الأقلية القيادية بهذه المرحلة تتحول إلى أقلية سيطرة تحاول الحفاظ بالقوة على مركزها القيادي، الذي لم تعد تستحقه، ونتيجة لهذا وذاك يحدث انفصال الأكثرية عن الأقلية، ويبدأ " زمن الاضطرابات " فينقسم المجتمع انقسامات حادة داخليا ، وتتحرك نحو الانفصال والتمرد تلك الأطراف التي انجذبت قبل في عهد النمو الى اتباع الأقلية الخلاقة، لتقاوم هذه المرة الانضمام الى حضارة أصبحت منهاراً وهكذا يتداعى البناء الحضاري، بعجز الأقلية القيادية، وتمرد الأكثرية ا " البروليتاريا الداخلية"، والانفصال والتمزق في وحدة الكيان الاجتماعي بتمرد " البروليتاريا الخارجية" أيضاً⁽³⁾.

ويناقش توينبي بإسهاب نظريات مطروحة في تفسير انهيار الحضارات، أهمها النظرية القائلة بان ("فقدان السيطرة على البيئة هي قاعدة انهيار الحضارات"، وفقدان السيطرة على البيئة يكون، مرة، بسبب الانهيار الاقتصادي.. فيجيب توينبي على هذا بقوله "يجب التخلي تماماً عن التفسير الاقتصادي لانحطاط المجتمع القديم.. فإن التجريد الاقتصادي للحياة القديمة لم يكن سبب ما ندعوه بانحطاط العالم القديم، إذ يعزى هذا الى ظاهرة أكثر شمولاً، تمثلت في فشل الإدارة، وخراب الطبقة الوسطى"، وليست

1 - ؛ ارنولد توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ترجمة فؤاد محمد شبل، مراجعة محمد شفيق غريال، ج1، (القاهرة: المركز القومي للترجمة: 2011م)، (ف 5 التحدي والاستجابة)، صص 101 : 1-131، (ف 8 – الوسط الذهبي) صص 223.

2- ارنولد توينبي، العالم والغرب، ترجمة: نجدة هاجروسعيد الغز، (بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر، 1960م)، صص 67-68،

3 - Albert Hourani, A Vision of History, *Khayats, Beirut 1961, p65-66.*

الهفوة في الميدان التكنولوجي هي العلة انما هي نتيجة انحطاط في السكان، انحطاط يعزى بدوره الى العوامل الاجتماعية⁽¹⁾. ومرة يكون فقدان السيطرة على البيئة البشرية نتيجة غزو خارجي، وهنا يري توينبي أن هذا ليس هو السبب الأول في انهيار الحضارة، فقد تبين أن أقصى ما يلحقه عدو أجنبي لا يعدو توجيه ضربة قاضية إلى مجتمع ينتحر، يلفظ أنفاسه الأخيرة⁽²⁾، وقفنا فيما تقدم على شرح مختصر لأهم المدارس التاريخية الحديثة في اوربا، وهي المدرسة المثالية لهيجل والمدرسة المادية التاريخية. لماركس وانجلس واخيراً مدرسة التفسير الحضاري لتوينبي، ولاحظنا من خلال بيان اهم الافكار والرؤى التي نادت بها المدارس المذكورة مدى تأثير علم التاريخ وفلسفة التاريخ في صيرورة تلك المدارس التاريخية الامر الذي جعلها تتبوأ مكانتها العلمية في اوربا والعالم من خلال انتشار تلك الافكار والرؤى التي كانت فيما بعد خارطة الطريق في كتابة التاريخ لكل المهتمين بالتاريخ الحديث خاصة والتاريخ العام بصورة عامة.

الخاتمة

مما تقدم تبين لنا الدور المهم لفلسفة التاريخ وعلم التاريخ في صيرورة ونشأة المدارس التاريخية الحديثة في اوربا فقد سعت فلسفة التاريخ لمعرفة الطريقة التي يتعامل بها المؤرخ مع الحدث والكيفية التي يكتبه بها ليشكل المعرفة التاريخية، ويصنع تراكمها لأن مثل هذه الطريقة مهمة لتقدير ابتعاد جهد المؤرخ أو اقترابه من الحدث التاريخي وصيغة نقده وتحليلاته التي تجعلنا نطمئن الى صحة ما شكله لنا من معرفة تاريخية. كما سعت فلسفة التاريخ الى فهم سير التاريخ، أي الوقوف على مجرى التأريخ واتجاهاته، ومن ثم اعطاء فكرة واضحة عن ماهية التاريخ. وهي (فلسفة علم) فهي اذن معنية بالحواريين الموضوعين للوصول الى هدف الحوار الذي هو تكوين المعرفة بالتاريخ والمعرفة التاريخية ايضا". وهي بلاشك فلسفة علم في حدود واحد من معارف الانسانية وعلومها وهو (علم التاريخ). الامر الذي كان له فيما بعد تأثير واضح في نشوء ما يسمى بالمدارس التاريخية.

والمراد بالمدرسة التاريخية: وجهة النظر الخاصة في تفسير ونشوء الحضارات ونموها وانهارها. فالسؤال الموجه على هذا الصعيد هو: كيف استطاع الإنسان أن ينتقل بحياته البدائية البسيطة إلى حياة أكثر تقدماً وتعقيداً، تزخر بالوان المد الحضاري؟ أو: ما هي العوامل التي يرجع إليها سير التاريخ ونشوء الحضارات؟

1 - ، p.87-89 ، 1971, Dell Publishing co. Arnold J., A Study of History, Toynbee :

(، توينبي، مختصر دراسة التاريخ، مصدر سابق، صص 412 1 - 413: وكان المترجم قد التقى توينبي مرتين في طوكيو سنة 1956 م حين كان مستشاراً للسفارة المصرية هناك.

2 :- ارنولد توينبي، مختصر دراسة التاريخ، مصدر سابق، صص 122-123: .: عماد الدين خليل؛ مصدر سابق: 70 - 88 ؛

55. ,Albert Hourani, A Vision of History, Khayats, Beirut 1961, p.

ان الإجابة على هذا السؤال، بتحديد العوامل الأساسية في حركة التاريخ ونشوء الحضارات وتدهورها، هي التي تشكل الصياغة النظرية التي يطلق عليها "مدرسة تاريخية". وهذه الدراسات القائمة على تفسير التاريخ وأحداثه هي التي يطلق عليها أيضا: "فلسفة التاريخ"، ومن البديهي جدا أن نتصور تعدد الإجابات على ذلك السؤال الرئيس الكبير، وهذا يعني تعدد المدارس التاريخية تبعا لذلك. قبل أن تظهر المدارس التاريخية الكبرى في أوروبا ظهر كثير من الفلاسفة الذين حاولوا تفسير سير التاريخ، نذكر هنا أهم هؤلاء الفلاسفة، مع بيان موجز الرواية كل منهم في هذا الموضوع: فكان المفكر الايطالي مكيا فيلي وهو صاحب المبدأ الشهير: "الغاية تبرر الوسيلة"! وقد نظر الى التاريخ في إطار السياسة المنفصلة عن الأخلاق، وكذلك المفكر الفرنسي جان بودان: الذي عرفه بعضهم كمؤسس لفلسفة التاريخ، حاول التوفيق بين ماهو إلهي وماهو مادي في نظام الكون، والانسان بتركيبه المزدوج، من جسد وفكر، وأروح، يمتلك بعض المميزات التي تنظم العالم المادي والعالم الإلهي، وهكذا فالتاريخ يشمل الطبيعة والله معا. ثم المفكر الانكليزي هوبز الذي كان يؤكد على حقيقة مهمة من وجهة نظره وهي: ان العامل الوحيد في سير التاريخ وقيام الدول او الحضارات هو «الخوف من الموت»... والتاريخ عنده محكوم بالصراع، والصراع هو الذي دفع بني الإنسان إلى تشكيل المجتمعات والدول، دفعا للخطر وحفظا للنفس، بدافع الخوف من الموت، وبذلك قامت الحضارات، وبعده الفيلسوف الايطالي فيكو الذي قام بدراسة العلاقة بين السياسة والوعي من خلال متابعته تاريخ القانون، وتطور العقل، وما يتركه من أثر على مسارات تاريخ البشرية، الذي يتحرك بمنطق: "التقدم الدوري، الإلهي، والبطولي والإنساني"، ليقول: أن التاريخ في حقيقته هو تاريخ نشأة الجماعات الإنسانية وتطوير أنظمتها من دون أن ينشأ تعارض بين أفعال الأفراد والمشئنة الإلهية. وثم المفكر الفرنسي مونتسكيو الذي يعد من أشهر فلاسفة عصر التنوير، هو، وروسو، وفولتير، الآتين بعده، عده بعضهم «مؤسس فلسفة التاريخ». وقد فسّر مونتسكيو حركة التاريخ تفسير جغرافيا، إذ جعل حياة الانسان انعكاسا للظروف الجغرافية، فالتغيرات التاريخية عنده مظاهر مختلفة لجوهر واحد، وكذلك جاء زميليه المفكرين الفرنسيين: روسو الذي كان يرى أن العامل المحرك للتاريخ هو «الإرادة الحرة».. فتاريخ البشرية

عنده عبارة عن ترجمة عملية لتاريخ الإرادة الإنسانية والفعل الحر. لذلك كان يدعو إلى الثورة لأنه يراها أساس التغيير، ويخالف فولتير كان يرى أن التغيير يتحقق عن طريق التوعية، وفولتير الذي هاجم التاريخ، المدون بأسره، ووصفه بأنه ليس إلا مجموعة من الأباطيل والخدع التي نلعب بها على الأموات، بحيث نحول الماضي ليتناسب مع رغبتنا في المستقبل! وقال: لا ينبغي أن يكتب التاريخ سوى الفلاسفة! واستبدل مصطلح «حكمة التاريخ» ب «فلسفة التاريخ» وإليه يعود الفضل في استخدام هذا الاصطلاح



لأول مرة. وكان فولتير يعتقد بالله، لكنه يعارض التصور الكنائسي المسيحي للتاريخ. وب(جان جاك روسو) و(فولتير) ومذهبهما، ختمنا سلسلة فلاسفة التاريخ وانتقلنا إلى المدارس التاريخية الأوروبية الثلاث الكبرى كي نقف على اثر علم التاريخ وفلسفة التاريخ في افكار هؤلاء الفلاسفة والمؤرخين في صيرورة وقيام تلك المدارس التاريخية الحديثة التي اخذت دورها في دراسة حركة التاريخ في اوربا، وهي المدرسة المثالية لهيجل والمدرسة المادية التاريخية. لماركس وانجلس واخيراً مدرسة التفسير الحضاري لتوينبي، ولاحظنا من خلال بيان اهم الافكار والرؤى التي نادى بها المدارس المذكورة مدى تأثير علم التاريخ وفلسفة التاريخ في صيرورة تلك المدارس



مساهمة في قراءة الظواهر التاريخية لضبط بعض قوانين زوال الحضارات والدول.

ذ. عبد المجيد النوري
الأكاديمية الجهوية لمهن
التربية والتكوين طنجة تطوان الحسيمة.

مقدمة

يعتبر علم التاريخ أساس العلوم الإنسانية، بل وحقبتها الكبرى. ذلك، كونه سجل تدوين السلوك البشري بمختلف أنماطه، فعلا وتفكيراً وإحساساً، وأبعاده الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية وغيرها. وعليه، بدهي أن يتداخل هذا العلم مع علوم أخرى، ويتفاعل معها، مثل علم الاقتصاد، والسوسولوجيا، والسوسولوجيا الاقتصادية، وعلم السياسة، وغيرها. وهي علوم مساعدة، بل وضرورية للمؤرخ أثناء قراءة ومحاولة فهم وتحليل الظواهر التاريخية رمتها، خصوصاً الاقتصادية، والسوسيو اقتصادية منها، في علاقتها بالسياسة وطرق تدير الحكام للشأن العام، تحديداً في مجال الاقتصاد. سيما ما يتعلق منه بقضايا النقود والأسعار، باعتبارهما جوهر البنية الاقتصادية، وما يرتبط بها من اضطراب أو توازن في الحالة الاجتماعية، وكذلك الحال الوضعية السياسية.

ولما كان موضوع المؤتمر يهتم بدراسة موضوع التاريخ وعلاقته بمختلف العلوم الأخرى، ستعنى هذه الورقة بمحاولة تفكيك بعض مظاهر العلاقة القائمة بين علم التاريخ، وبين علم الاقتصاد، في ضوء تفكيك العلاقة القائمة بين فساد أمر السياسة والنقود، وبين انهيار قيمتها الشرائية، وما يترتب عن ذلك من أزمات اقتصادية واجتماعية وسياسية، تؤذن بدمار البلدان وخرابها، واضطراب الأحوال وانفجارها، وربما انهيار الدوال والحضارات وزوالها. ولكي تحقق هذه المساهمة مقاصدها ضمن هذا الملتقى العلمي الهادف سنحاول مقارنة القضايا الآتية:

. مفهوم التاريخ والاقتصاد محاولة في ضبط المصطلح.

. التاريخ حقيبة العلوم، الفوائد والعبر على مر الأزمان.

. أهمية علم الاقتصاد في التحليل التاريخ ومعالجة الظواهر

. النقود والأسعار في الفكر الاقتصادي، وعلاقتها بالبنية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

. زوال الحضارات والدول الظواهر التاريخية ولغة الاقتصاد.

1. مفهوم التاريخ والاقتصاد محاولة في ضبط المصطلح.

معلوم أن المصطلحات مفاتيح العلوم، وأن علم التاريخ حقيبتها الأساس، لذلك تعنى هذه الورقة منذ بدايتها بمحاولة تركيب مقارنة عامة. ما دام المقام لا يسمح بدراسة مفصلة. لمصطلحي "التاريخ"

و"الاقتصاد". ذلك؛ لضبط العلاقة التي تجمع بينهما، وتبيان كيفية استثمارها في قراءة وتحليل الظواهر التاريخية لاستخلاص العبر منها. بله ضبط السنن والضوابط الخفية المتحكمة فيها، وفي تكرارها. غاية ذلك، معرفة، بل إمكان التنبؤ، بما يحل بالناس من أزمات ومحن، قصد تفاديها، أو السيطرة عليها بعد وقوعها، واقتراح سبل لعلاجها. ولا يحصل هذا إلا للخبراء من أهل التاريخ وغيرهم، الذين يجمعون في تكوينهم بين علوم شتى، وفي مقدمتها بالنسبة للمؤرخ، علم الاقتصاد الذي يهتم بجزء كبير وأساس من النشاط الإنساني، ويعتمد لغة الإحصاءات والأرقام. فما المقصود بعلمي التاريخ والاقتصاد؟

1. مفهوم التاريخ

معلوم أن التاريخ من أهم ميادين المعرفة التي اهتم بها العرب وتدارسوها وألفوا فيها منذ القدم¹. وقد تناولوه في مرحلة معينة بمعنى الأخبار². وهي حسب أحد الدارسين³، مجموع الأقوال الدالة على أحوال ماضية يحفظها حافظ. والتاريخ في اللغة تعريف الوقت، يقال أرخت الكتاب وورخته، أي بينت وقت كتابته. والتورخ مثله، يقال أرخت وورخت، وقيل اشتقاقه من الإرخ يعني بفتح الهمزة وكسرها وهو صغار الأنثى من بقر الوحش، لأنه شيء حدث كما يحدث الولد⁴. وقيل هو قلب التأخير. وقيل: هو بمعنى الغاية، يقال فلان تاريخ قومه أي ينتهي إليه شرفهم. فمعنى قولهم فعلت في تاريخ كذا فعلت في وقت الشيء الذي ينتهي إليه. وقيل وهو ليس بعربي، فإنه مصدر المؤرخ، وهو معرب ماه روز⁵. وهو مصطلح فارسي، ماه القمر وروز اليوم، وكان الليل والنهار طرفه⁶. ويرى البعض عكس ذلك، على أساس أن الأصمعي فرق بين اللغتين فقال بنو تميم يقولون ورخت الكتاب تورخا، وقيس تقول أرخته تأريخا. وهذا يؤيد كونه عربياً⁷.

1 صالح أحمد العلي، تقديم، كتاب، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ، لمحمد بن عبد الرحمان السخاوي، ترجمة، صالح أحمد العلي، ط، 1، مؤسسة الرسالة، 1986، ص. 7.

2. شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام، ج، 1، ط، 3، دار العلم للملايين، 1983، ص. 49.

3. عبد الله العروي، مفهوم التاريخ، الألفاظ والمذاهب، المفاهيم والأصول، ط، 4، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2005، ص. 34.

4. محمد بن عبد الرحمان السخاوي، الإعلان بالتوبيخ ... م س، ص. 16.

5. أبو علي أحمد مسكويه، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تحقيق، سيد كسروي حسن، ج، 1، ط، 1، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 2003، ص. 11.

6. السخاوي، مصدر سابق، ص. 17.

قال الطبري ما حاصله أن في قوله تعالى " وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا"، الإرشاد للتوصل به إلى العلم بأوقات فروضهم التي فرضها عليهم في ساعات الليل والنهار والشهور والسنين الصلوات والزكوات والحج والصيام وغير ذلك. (السخاوي، الإعلان بالتوبيخ ... م س، ص. 34)

7. السخاوي، الإعلان بالتوبيخ، ص. 15.

ويرى أحد الدارسين¹ أن كلمة تاريخ التي تحمل في العربية منذ زمن بعيد معاني متعددة ، منها سير الزمن والأحداث، وتاريخ الرجال، وعملية التدوين التاريخي، تحديد زمن الواقعة أو الحادث باليوم والشهر والسنة، قد بدأت مسيرتها بمعنى التقويم والتوقيت، ثم كسبت معنى آخر هو تسجيل الأحداث على أساس الزمن. وكان يقوم مقامها في معنى هذه العملية التاريخية، كلمة خبر، وأخبار وأخباري، ثم بدأت كلمة تاريخ تحل بالتدريج محل كلمة خبر وأخذت تطلق على عملية التدوين التاريخي وعلى حفظ الأخبار بشكل متسلسل متصل الزمن والموضوع.

لذلك يعرف في اصطلاح المنجمين وغيرهم، كونه تعيين يوم ظهر فيه أمر شائع من ملة أو دولة أو حدث فيه هائل كزلزلة أو طوفان ينسب إليه، أي إلى ذلك اليوم ما يراد تعيين وقته في مستأنف الزمن أو في متقدمه². إنه التعريف بالوقت الذي تضبط به الأحوال، من مولد الرواة والأئمة ووفاة وصحة وعقل وبدن ورحلة وحج وضبط وتوثيق، وما أشبه هذا مما مرجعه الفحص عن أحوالهم في ابتدائهم وحالهم واستقبالهم، ويلتحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع الجليلة. قال تعالى في القرآن المجيد: "يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج"³. والحاصل أنه فن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت بل عما كان في العالم⁴. ولذلك جدير به أن يكون موضوعه الإنسان والزمان، ومسائله أحوالهما المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للإنسان وفي الزمان⁵.

فغير ذي شك، أنه يوقفنا، كما قال ابن خلدون⁶، على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياساتهم. حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا. ويقتضي التعامل مع التاريخ والرجوع إلى ما ماضي من الأخبار والأحداث استعمال "النظر والبصيرة في الأخبار، حتى لا يقع الباحث في ببداء الوهم والغلط، ولا سيما في إحصاء العدد من الأموال والعساكر، ولا بد من ردها إلى الأصول، وعرضها على القواعد، حسب ابن خلدون⁷. وعلى منوال هذا الأخير، تنبه مسكويه أيضا إلى آفة الأخبار الزائفة التي لا ترجى منها فائدة⁸. سيما وأن صلة التاريخ وثيقة بالاتجاهات الفكرية وبالتطورات العامة، يتأثر بها ولا يخلو بدوره من أثرها، وهذا يوضح تباين الاتجاهات في تعريف التاريخ

1. شاکر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ص. 50. 51.

2. مسكويه، تجارب الأمم، ص. 11.

3. سورة البقرة، آية، 189.

4. السخاوي، الإعلان بالتوبيخ لمن، ص. 18. 19.

5. السخاوي، الإعلان بالتوبيخ، ص. 17.

6. عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، ج، 1، حقق نصوصه، وخرج أحاديثه، وعلق عليه، عبد الله محمد الدرويش، ط، 1،

2004م، ص. 92.

7. عبد الرحمان بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج، 1، ص. 92.

8. مسكويه، تجارب الأمم، ص. 60.

وبالتالي في تحديد دوره. فهناك من يراه البحث عن الحقائق وتدوينها، وهناك من يعتبره ربط الحقائق وتفسيرها. فالمؤرخ يختار المادة الأولية، ثم يكسبها مفهومها التاريخي¹.

وإذ نساير رأي هذا الفريق الأخير. ذلك؛ كون التاريخ من جملة العلوم "التي وضع أكثرها لطلب المعاش وصالح أمر الحياة الدنيا"². فإننا نعرفه من منظورنا بكونه علم استرجاع ماضي الإنسان، وما عرض له فيه من الأحوال، بقصد التأمل والنظر، لاستخلاص العبر، وتقديم الآراء والأفكار، بهدف تحقيق الرخاء والرفاه في زمن الاستقرار، ثم اقتراح الحلول خلال الأزمات والمحن، حسب مقتضيات الظروف والأحوال، سيما بعد معرفة قوانين تكرار واقعات العمران البشري، وتشابه أحداثه في الشدة والرخاء. ومن ثم، نزي الرأي القائل: "إنه تاريخ البشر للبشر وبالبشر، وهو مجال الحرية البشرية، إذ الوعي بالقدرة على الترجيح والاختيار ملازم للملاحظة والاستنباط"³. فماذا عن علم الاقتصاد؟

2. مفهوم علم الاقتصاد

مصطلح الاقتصاد مشتقة من لفظ إغريقي قديم معناه: تدير أمور البيت⁽⁴⁾، بحيث يشترك القادرون في إنتاج الطيبات، والقيام بالخدمات، ويشترك جميع أفرادها في التمتع بما يحوزون، ثم توسع الناس في مدلول البيت، فصار يقصد به الجماعة التي تحكمها دولة واحدة. وهو مشتق من فعل اقتصد، وفي الدلالة اللغوية القصد في الشيء، خلاف الإفراط، وهو ما بين الإسراف والتقتير، يقال قصد الطريق قصداً أي استقام، وقصد في الأمر توسط، لم يفرط، وقصد في الحكم: عدل ولم يمل ناحية، وفي النفقة: لم يسرف ولم يقتر، وفي مشيه اعتدل فيه، واقتصد في أمره توسط وهو معنى قصد، أي لم يفرط ولم يفرط، واقتصد في النفقة لم يسرف ولم يقتر.⁵

أما في الاصطلاح، فمفهوم الاقتصاد يأخذ معاني متعددة عرفه أدام سميث، بالعلم الذي يبحث في طبيعة الثروة وكل ما يتصل بها⁶. ويتناول في الأساس أنماط العمل التي تتبع عند توزيع الموارد النادرة بين

1. عبد العزيز الدوري، أوراق في التاريخ والحضارة، ج 1، أوراق في التاريخ، ط 1، دار الغرب الإسلامي، 2007، ص. 100.

101

2. رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء، المجلد الأول القسم الرياضي، مكتب الإعلام الإسلامي، جمادى الأولى، 1405، ص.

267. 266

3. عبد الله العروي، مفهوم التاريخ... م س، صص. 34. 39.

- Alain Rey, Le Robert Micro, dictionnaire d'apprentissage de la langue française, nouvelle édition, 1998, P. 4

429.

5. موقع الباحث العربي على الرابط: <http://www.baheth.info/all.jsp?term=>

محمد الخالدي، اقتصادنا مفاهيم إسلامية مستنيرة، ج 5، عالم الكتب الحديث، 2005.

6. محمد حركات، الاقتصاد السياسي لتدبير الشأن العام، تقديم، عبد الحميد عواد، ط 2، 2000، ص. 165.

مختلف وجوه استعمالها، حسب هيوج اتكن¹. ويعرفه ميلتون فردمان M. Friedman بالعلم الذي يبحث في الطرق التي تمكن المجتمع من حل مشاكله الاقتصادية. ويتفق الاقتصادي الفرنسي ريمون باره R. Barre إلى حد كبير مع تعريف فردمان حينما يكتب أن علم الاقتصاد يدرس تسيير الموارد النادرة وأشكال تحويل هذه الموارد عند للماركسيين²، فالإقتصاد السياسي هو العلم الذي يدرس العلاقات الاجتماعية التي تتولد بين الناس في مسلسل إنتاج وتوزيع وتبادل واستهلاك المواد الضرورية واللازمة لإشباع حاجات المجتمع³.

وكل شيء ماديا كان أو معنويا، ويخضع إلى المبادلة التجارية، يصطلح عليه أنه نافع ويعتبر موضوع المادة الاقتصادية. بهذا يصبح علم الاقتصاد هو علم المبادلة التجارية، أو كما فضل بعضهم، علم الأسعار. أو علم المبادلات بواسطة النقود⁴. وحسب سامويلسون، فالإقتصاد يبحث في الكيفية التي يتصرف بها الإنسان والمجتمع، باستخدامه للنقود أو بدونها، قصد تخصيص موارد إنتاجية نادرة إلى إنتاج محدد زمنيا⁵ للإقتصاد، يدرك أن المقصود هو علم الاقتصاد وليس النظام الاقتصادي⁶، ويمكن تعريف هذا الأخير. النظام الاقتصادي. بكونه التطبيق العملي للقواعد التي تحكم سلوك الفرد والدولة والمجتمع إزاء التصرف بالثروة الاقتصادية، إنه يعكس العلاقات الاقتصادية بين الأفراد، ويحدد المكانة التي يحتلونها بالنسبة لامتلاك الثروة وإنتاجها وتوزيعها⁷.

وبناء عليه، يمكن القول أن علم الاقتصاد... هو العلم الذي يدرس الحياة المادية للإنسان، ويحاول تحليل الأنشطة المتعلقة بالإنتاج والتبادل والتوزيع...، أي أنه يهتم بتلك الأنشطة الإنسانية الهادفة إلى تحقيق الحد الأدنى للمعيشة ثم الازدهار الاقتصادي والرفاه الاجتماعي للإنسان. وهذا المفهوم الأخير هو الذي سننعمده في محاولة تفسيرنا لعلاقة علم التاريخ بالإقتصاد، ولتحديد أهمية هذا الأخير في تحليل الأحداث، وقراءة الظواهر التاريخية لضبط بعض قوانين زوال الحضارات والدول. ذلك؛ كونه يعني

1. هيوج اتكن، دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية، ترجمة، الدكتور محمود زايد، تقديم، قسطنطين زريق، ط، 2، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1982، ص. 74.
2. محمد حركات، مرجع سابق، ص. 166.
3. لجبوس محمد، الإقتصاد السياسي، أساسيات علم الإقتصاد والمشكلة الاقتصادية، دار السلام، الرباط، ط1، 2001، ص. 16.
4. نفسه.
5. محمد حركات، الإقتصاد السياسي... م س، ص. 12.
6. محمد الخالدي، إقتصادنا... م س، ص. 24.
7. عبد الله عاصم، ملامح النظام الاقتصادي في الإسلام، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 15، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1410-1989، ص. 35.

بدراسة سلوك الفرد والدولة والمجتمع إزاء التصرف بالثروة الاقتصادية، وهي من المواضيع الأساس لعلم التاريخ الذي يهتم بمختلف أنماط و أبعاد السلوك البشري.

١١. التاريخ حقيبة العلوم، الفوائد والعبر على مر الأزمان.

1. أهمية علم التاريخ، واستخلاص العبر.

يعتبر علم التاريخ من أجل العلوم قدرا وأشرفها عندا العقلاء مكانة وخطرا¹. ويكفيه شرفا، ذكر كثير من أخبار الأمم الماضين في القرآن الكريم². إضافة إلى اهتمامه بمختلف أنماط الفعل البشري وأبعاده، سواء تعلق الأمر بالأفراد والجماعات، أو الدول والحضارات، ناهيك عما يحويه من المواعظ والإنذار، بالرحيل إلى الآخرة عن هذه الدار، والاطلاع على مكارم الأخلاق ليقتدي بها، واستعلام مذام الفعال ليرغب عنها أولو النهى³. ومن ثم، يتضح أن استخلاص العبر يعتبر من أهم فوائد علم التاريخ، لأنه مجال البحث والنظر والاستنباط والمقارنة لاستخلاص العبر. ولذلك يعتبر حقيبة العلوم كلها. قال تعالى "فاعتبروا يا أولي الأبصار"⁴، ونعتبر فساد النقود وغلاء الأسعار، الذي يزعج بالبلدان في المحن والفتن، بسبب سوء التدبير، وفساد الحكام، وما يواكبه من خراب الحضارات والدول، وربما زوالهما، من أسوء مذام الأفعال.

لذلك فمن أجل فوائد التاريخ، كون من طالع أخبار الماضين وحوادث المتقدمين، فكأنه عاصرهم، وإذا علمها فكأنه حاضرهم، ومنها أن الملوك ومن إليهم الأمر والنهي إذا وقفوا على ما فيها من سيرة أهل الجور والعدوان، ورأوا مدونة في الكتب يتناقلها الناس، فيرونها خلف عن سلف، ونظروا إلى ما أعقبها من سوء الذكر وقبح الأحداث، وخراب البلاد وهلاك العباد وذهاب الأموال وفساد الأحوال، استقبحوها، وأعرضوا عنها، واطرحوها. فإذا رأوا سيرة الولاة العارفين وحسنها وما يتبعهم من الذكر الجميل بعد ذهابهم، وأن بلادهم وممالكهم عمرت، وأموالهم درت استحسنا ذلك، ورغبوا فيه، وثابروا عليه، وتركوا ما ينافيه⁵.

ولولم يكن من فوائده غير وعظه بأن الدهر لا يبقى على حاله ولا يلزم من أخلاقه الاستحالة، لكان كافيا ولغرض المتأمل شافيا، فكيف وفوائده لا تحصي وفرائده لا تستقصى والناظر فيه جامع بين عبرة

1. تقي أحمد الدين المقرئ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقرئية، تحقيق، محمد زينهم

ومديحة الشرقاوي، ج، 1، مكتبة، مدبولي، القاهرة، 1998م، ص 5

2. السخاوي، الإعلان بالتوبيخ ص. 36

3. المقرئ، المواعظ والاعتبار، ج، 1، ص 5

4. سورة الحشر، أية، 2

5. السخاوي، الإعلان بالتوبيخ، ص. 47

تسلّمها عبره¹. والحقيقة أنه لا أجب للاعتبار من استطلاع الأخبار... ، ومعرفة الأجناس والقبائل، من أهم ما يعنى به ويدخر². وصدق يزيد بن محمد الكندي³ إذ قال:

ولقد رأيت من الحوادث عبرة والدهر ذو عبر لمن يتدبر

إننا ندرس التاريخ لا لأنه يوسع أفق معلوماتنا وينمي إدراكاتنا ويضاعف اختباراتنا فحسب، بل لأنه يفي برغباتنا الطموحة التواقفة إلى معرفة حوادث الماضي، فنستطيع أن نربط الماضي بالحاضر، ونتبع أصل عاداتنا ومؤسساتنا وطرق معيشتنا ونوع حكوماتنا، وكيفية ارتقاءها⁴، أو انحطاطها. وهكذا يمكننا الاستفادة من دراسة التاريخ بكيفية أفضل، بل لا مثيل لها. ذلك؛ بمحاولة استخلاص القوانين المتحكمة في تشابه الأحداث واقعات العمران البشري إلى حد القول بتكرارها، أي القوانين والضوابط الخفية المتحكمة في تكرار الظواهر التاريخية، إذ من بين سمات الظاهرة التكرار. وهذا رهان ورقة هذا العمل، على أمل ضبط بعض قوانين ظاهرة زوال الحضارات والدول.

2. ضبط قوانين تكرار واقعات العمران البشري والظواهر التاريخية

أكد المؤرخون القدامى في غير ما مقال على تشابه الأحداث والأفعال وواقعات العمران، إلى حد القول بالتكرار. كذكر "أسباب مبادئ الدول وقبالها، ثم سبب انقراضها"⁵، وتسلسل العساكر وانقلاباتها، واختلاف النقود وانهايار قيمتها، وتغير القيم وانحطاطها، والمحن والفتن وتكرار أشباهها، و"ذهاب الأموال وفساد الأحوال"⁶ وغيرها. ولذلك، جدير بالقول أن التاريخ البشري، تاريخ الظواهر أكثر منه تاريخ الأحداث الفردية التي لا تستقصى. ولذلك، فإننا نرنو، تماما ندعو إلى إعادة النظر في طريقة التعامل مع قراءة التاريخ، سيما العربي الإسلامي منه، من خلال الاهتمام بالظواهر لاستخلاص القوانين المتحكمة فيها وفي تكرار مثلها، وانتظار حدوث أشباهها. ولذلك عرفنا التاريخ في انسجام مع أهدافنا وقناعتنا، بكونه علم استرجاع ماضي الإنسان، وما عرض له فيه من الأحوال، بقصد التأمل والنظر، لاستخلاص العبر، وتقديم الآراء والأفكار، بهدف تحقيق الرخاء والرفاه في زمن الاستقرار، ثم اقتراح الحلول خلال الأزمات والمحن،

1. السخاوي، الإعلان بالتوبيخ ص. 45

2. أبوراس الناصر المعسكري، زهر الشماريخ في علم التاريخ، دراسة وتحقيق، تنسيق، بن عمر حمدادو، مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، ص. 26 في الحاسوب فقط

3. علي بن محمد بن حبيب الماوردي، الأمثال والحكم، تحقيق ودراسة المستشار الدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد، الطبعة الأولى، دار الوطن للنشر، الرياض المملكة العربية السعودية، 1420 هـ / 1999 م، ص. 135

4. جفري برون، تاريخ أوروبا الحديث، ترجمة علي المرزوقي، الطبعة العربية الأولى، الأهلية للنشر والتوزيع، 2006 م. ص 7.6

5. السخاوي، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ، ص. 32. 33

6. السخاوي، الإعلان بالتوبيخ، ص. 47

حسب مقتضيات الظروف والأحوال، سيما بعد معرفة قوانين تكرار واقعات العمران البشري، وتشابه أحداثه في الشدة والرخاء. وتلك أجل الفوائد التي نود لفت الانتباه من جديد إليها، وتطوير الاهتمام بها، بعد فائدة استخلاص العبر.

ويكفي من الدلالة على صحة ما قاله المؤرخون القدامى، بخصوص الأمور التي يتكرر مثلها، ما ورد ذكره في كتاب تجارب الأمم، إذ قال صاحبه: " وإني تصفحت أخبار الأمم، وسير الملوك، وقرأت أخبار البلدان، وكتب التواريخ، وجدت فيها ما تستفاد منه تجربة في أمور لا تزال يتكرر مثلها وينتظر حدوث شبيهها وشكلها: كذكر مبادئ الدول، ونشء الممالك، وذكر دخول الخلل فيها بعد ذلك، وتلافي من تلافاه وتداركه إلى أن عاد إلى أحسن حال، وإغفال من أغفله واطّرحه إلى أن تؤدي إلى الاضمحلال والزوال، وذكر ما يتصل بذلك من السياسات في عمارة البلدان، وجمع كلم الرعيّة، وإصلاح نيّات الجند، والحروب ومكايد الرجال، وما تمّ منها على العدو، وما رجع على صاحبه، وذكر الأسباب التي تقدّم بها قوم عند السلطان، والأحوال التي تأخر لها آخرون، وما كان منها محمود الأوائل مذموم العواقب، وما كان بضدّ ذلك، وما استمرّ أوله وآخره على سنن واحد، وذكر سياسات الوزراء، وأصحاب الجيوش، ومن أسند إليه حرب وسياسة، أو تدير أو إيالة، فوفى بذلك وتأتى له ، أو كان بخلاف ذلك"¹. "وما يتصل بذلك من الأحوال التي يتكرر مثلها وأشباهاها أبدا في العالم"².

وهذا النص يؤكد فيما نزعم، أن التاريخ البشري، تاريخ ظواهر تحكمها قوانين وسنن. وهي خلاصة بديهية قال بها، حسب أحد الدارسين، جل المؤرخين القدامى، الذين جعلوا من التاريخ مدرسة أخلاق وسياسة. وهو في رأيه، مجال الاستنباط، إذ المؤرخ يحمل في ذهنه كل الأخبار عن الماضي المحفوظ، فيستطيع أن يقارن بينها ويستخلص منها قوانين وعبراً³. ونسايره الرأي في ذلك، لأن التاريخ بقدر ما هو مصدر للمعرفة، بقدر ما يتحرك وفق قوانين نوعية⁴، تجعل من أمور كثيرة من أحداثه ووقائعه تتكرر. "فلا يحدث أمر إلا وقد تقدم هو أو نظيره"⁵. ويستطيع الخبير، الذي يطالع التاريخ، ويهتم بظواهره، معرفة وضبط قانونه أو قوانينه، لأن واقعات العمران. الظواهر الاجتماعية. في نظرا بن خلدون ثابتة، وتعقيها في بطون التاريخ بالملاحظة والدراسة والمقارنة، يمكن الباحث من الكشف عما يحكمها من قوانين⁶. لذلك سنحاول في هذه الورقة ضبط بعض أسباب المحن والفتن التي تؤدي إلى اضمحلال الحضارات

1. مسكويه، تجارب الأمم ، ص. 59.

2. السخاوي، الإعلان بالتوبيخ ، ص. 32. 33.

3. عبد الله العروي، مفهوم التاريخ... م س، ص. 39.

4. خالص جلبي، المصحف الشحروري، (6)، جريدة الأخبار، العدد، 2185، الخميس، 2 يناير، 2020، ص. 13.

5. السخاوي، الإعلان بالتوبيخ ، ص. 47.

6. عبد الله محمد الدرويش، تقديم كتاب، المقدمة لعبد الرحمان بن خلدون ، ج، 1، ص. 61.

والدول، على أمل التنبؤ بها، أو التحكم فيها والسيطرة عليها بعد وقوعها. فالأمور كلها. وجلها. إذا عرفت أسبابها سهل على الخبير صلاحها¹.

وأصاب المقريري الرأي لما وصف العارفين بأسباب الأزمت ومصالحوها بالخبراء. ومن هنا تتجلى أكبر فوائد علم التاريخ، وأهمية المؤرخ، بل خبراء علم التاريخ، وإلى جانبهم خبراء باقي العلوم الإنسانية والاجتماعية في المجتمعات البشرية، وفي مقدمتهم خبراء علم الاقتصاد. هؤلاء الذين يستطيعون "اقتناص شوارد المعارف والعلوم"²، ومعرفة أسباب ما نزل بالناس من المحن، ثم يعرفونهم كيف الخلاص مما حل بهم من جليل الفتن³. ويتأتى لهم ذلك بسبب اجتهادهم وحذقهم المعرفي من خلال اهتمامهم بعلم التاريخ، والعلوم المساعدة له، مثل علم الاقتصاد، من أجل فهم الظواهر التاريخية وضبط قوانين تكرارها واقعات العمران. على أساس أن "أمور الدنيا متشابهة، وأحوالها متناسبة"⁴، "والماضي أشبه بالآتي من الماء بالماء"⁵، ومن أسهر عين فكرته بلغ كنهه أمنيته⁶. وصدق من قال⁷:

تبين أدبار الأمور إذا مضت وتقبل أشباها عليك صدورها

والحال، أن من "طالع أخبار الماضي، صار جميع ما يحفظه من الضرب كأنه تجارب له، وكأنه قد عاش ذلك الزمان كله، وباشر تلك الأحوال بنفسه، واستقبل أموره استقبال الخبر، وعرفها قبل وقوعها، فجعلها نصب عينه وقبالة لحظه؛ فأعد لها أقرانها وقابلها بأشكالها"⁸. وبذلك يعرف أسباب صلاحها، وسبل التحكم فيها والسيطرة عليها بعد استفحالها. وهذه غاية كبرى تشد إليها الرحال، وتنشدها سائر الأمم والأجيال، سيما لمواجهة المحن وتفادي زوال الحضارات والدول. "وشتان بين من كان بهذه الصورة و

1. إغائة الأمة، ص. 16

2. المقريري، المواعظ والاعتبار، ج، 1، ص 5

3. المقريري، إغائة الأمة بكشف الغمة أو تاريخ المجاعات في مصر، قدم له وشرحه، صلاح الدين الهواري، ط، 1، شركة أبناء الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، 2008، ص. 15

4. مسكويه، تجارب الأمم، ص. 59. 60

5. ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج، 1، ص. 93

6. علي بن محمد بن حبيب الماوردي، الأمثال والحكم، ص. 154،

7. علي بن محمد بن حبيب الماوردي، الأمثال والحكم، ص. 138

8. مسكويه، تجارب الأمم، ص. 59. 60

بين من كان غرا غمرا لا يتبين الأمر إلا بعد وقوعه ولا يلاحظه إلا بعين الغريب منه، يحيره كل خطب و يستقبله ويدهشه كل أمر يتجدد له"¹.

والقصد من كل ذلك، كما قال المقرئزي² هو "سداد الأمور وصالح الجمهور". ويتحمل أهل الدولة والحكم مسؤولية كبرى في ذلك، وفي ما يحل بالناس من غلاء ومحن، وجيل الفتن، التي يمكن أن يعقها زوال الحضارات والدول. وإذا ألهم أهل السياسة والتدبير رشدا، فأول من تجب عليهم العناية بهم، هم أهل العلم، لأنها ترجع في أمر معاشها ومعادها إلى آرائهم السديدة، وأفكارهم الرشيدة. ولم تزل والأمم الراقية في سالف الدهور إلى وقتنا الحاضر تعنى بشأن علمائها³

أهمية علم الاقتصاد في التحليل التاريخي ومعالجة الظواهر

يعتبر علم التاريخ أساس العلوم الإنسانية، بل وحقبتها الكبرى. ذلك، كونه سجل تدوين السلوك البشري بمختلف أنماطه، فعلا وتفكيرا وإحساسا، وأبعاده الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية وغيرها. وعليه، بدهي أن يتداخل هذا العلم مع علوم أخرى، ويتفاعل معها، مثل علم الاقتصاد، والسوسولوجيا، والسوسولوجيا الاقتصادية، وعلم السياسة، وغيرها، باعتبارها من العلوم المساعدة، بل الضرورية لفهم الظواهر التاريخية القديمة والمعاصرة رمتها، خصوصا الاقتصادية، والاقتصادية الاجتماعية منها، في علاقتها بالسياسة وطرق تدبير الحكام للشأن العام، تحديدا في مجال الاقتصاد. سيما ما يتعلق منه بقضايا النقود والأسعار، باعتبارهما جوهر البنية الاقتصادية، وما يرتبط بها من اضطراب أو توازن في الحالة الاجتماعية، وكذلك الحال الوضعية السياسية.

وغير ذي شك أن التاريخ البشري المعاصر، عرف في القرن الأخير، تطورات اقتصادية واجتماعية وسياسية وفكرية وقيمة... كبيرة. وقد أفضى هذا التطور إلى تزايد الاهتمام بالماضي والرجوع إليه، لإعادة دراسته، سيما ما يتعلق منه بظواهر المحن وزوال الحضارات والدول. ذلك؛ قصد فهم الحاضر، ورسم خطط المستقبل، فما أشبه أمس باليوم، لأن أمور الدنيا متشابهة، وأحوالها متناسبة. والماضي أشبه بالآتي من الماء بالماء، كما سلف ذكره، وكما سيحدث في مقبل السنين والأيام بإذن الله.

هكذا، اتسع نطاق التأريخ حتى غدا يشمل مظاهر الحياة الماضية بأجمعها، خصوصا بعدما تبين للمؤرخين في الآونة الأخيرة أن الأحداث السياسية والوقائع الحربية، ليست شيئا سوى وجهها من وجوه

1. مسكويه، تجارب الأمم، ص. 59. 60.

2. إغائة الأمة، ص. 16.

3. أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج، 14، دار الكتب السلطانية، المطبعة الأميرية، القاهرة،

1338هـ/ 1919م. ص. 3.

الحياة الماضية، ولا تكون في كثير من الأحيان أهم هذه الوجوه. ومن ثم فلا بد للمؤرخ أن يعنى بالأحداث الاقتصادية والاجتماعية والعقلية والخلقية وغيرها من مظاهر الحياة الإنسانية ليأتي فهمه للماضي شاملاً ومتزناً¹. سيما إذا كان ممن يرغبون في محاولة ضبط قوانين تكرار واقعات العمران، ليفطن إليها قبل وقوعها، ويتعامل معها تعامل الخبراء بعد حدوثها، فيعرف أسباب علاجها والسيطرة عليها.

ولا يحصل هذا إلا للخبراء من أهل التاريخ وغيرهم، الذين يجمعون في تكوينهم بين علوم شتى، وفي مقدمتها بالنسبة للمؤرخ، علم الاقتصاد الذي يهتم بجزء كبير وأساس من النشاط الإنساني، خصوصاً ما يرتبط منه بقضايا العملة والأسعار والضرائب والتجارة والدخل والخرج وما يرتبط بذلك من رخاء ورفاه أو محن وفتن يمكن أن تزول بسببها الحضارات والدول. وهي قضايا كبرى يشترك في تناولها والاهتمام بها أساساً علم الاقتصاد مع غيره من العلوم وفي مقدمتها علم التاريخ الذي يعنى بكل أنماط الفعل الاجتماعي البشري، وفي مقدمتها اختلاف النقود، وتدليسها، وانهيأ قيمتها بكثرة ضربها²، وما يواكب ذلك من غلاء للأسعار، يساهم في اندلاع الفتن وخراب البلدان، وزال الحضارات والدول.

ويكفي الرجوع إلى كتابات الماوردي وابن رشد وابن خلدون وغيرهم من أهل الفقه والتاريخ والنوازل ليجد الباحث من الإشارات ما يؤكد صدق ذلك. ويبدو الأمر أكثر وضوحاً مع المحتسب، موسوعي التكوين والتفكير، تلميذ ابن خلدون، تقي الدين المقرئزي سيما في كتابيه "السلوك لمعرفة دول الملوك"، وكتاب "إغاثة الأمة بكشف الغمة"، وكذلك الحال مع محمد بن محمد بن خليل الأسدي في كتابه "التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار..."، باعتباره من كبار دعاة الإصلاح الاقتصادي في عصره، وقد هاله ما كانت عليه الأوضاع في مصر من فساد وانهيأ³. وقد عالج هذين المؤرخان برؤية تاريخية اقتصادية اجتماعية علمية، ظاهرة محن المجتمع المصري خلال القرن التاسع الهجري.

. هذا العصر الذي تميز بتراجع الإنتاج، وارتفاع الأسعار ووحدة التفاوت في الدخل، وكثرة المجاعات والوفيات، وهروب السكان والأيدي العاملة⁴، بسبب ما حل بالنظام النقدي من فوضى واختلال وما حل بالنظام المالي من سوء وفساد. فقد أدى ضرب الفلوس إلى انهيأ قيمة النقود، وارتفاع المستوى العام للأسعار، بارتفاع حجم الكتلة النقدية المتداولة وسوء تدير الحكام⁵. والحال أن الأسدي وقرناؤه. أمثال

1. قسطنطين زريق، تقديم كتاب، دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية، لهيوج اتكن، ص.

2. انظر، المقرئزي، إغاثة الأمة.

3. شوقي أحمد دنيا، "قراءة اقتصادية في كتاب التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار فيما يجب من حسن التدبر والتصرف والاختيار لمحمد بن محمد بن خليل الأسدي"، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد الخامس، المحرم

1412هـ / يوليو 1991م، ص. 203. ص. 199

4. شوقي أحمد دنيا، "قراءة اقتصادية في كتاب التيسير والاعتبار ... ثم س، ص. 203.

5. المقرئزي، إغاثة الأمة، ص. 72.

المقريزي والدلجي . اعتبروا العامل النقدي أهم خرق وقع في ثوب النظام المصري، بل وأخطر عامل ساهم في استفحال مشكلة اقتصاده آنذاك¹. ونحسبه كذلك في زمننا هذا، وفي غيره من الأزمنة. وعليه، فلأمندوحة أن يعتبر هذا العلم من العلوم الأساس المساعدة، بل والضرورية لعلم التاريخ، وعمل المؤرخ الذي يجب أن يكون على دراية بعلم الاقتصاد ولغته. ومعلوم أن المشكلة الأساس في هذا العلم هي القيمة²، كما أن النقد وسيلة تبادلها وقياسها. لذلك ترتبط نظريته أيضا بمفهوم القيمة، وقد جرت العادة على تفريعها إلى نظريات الإنتاج، والتوزيع، والتوظيف، والأسعار والمبادلة³. وما من خطر أشد وطئا على دولة من الدول، أكبر من تغير قيمة النقود، وفسادها وانهيارها، إذ يختل به أمر المعاش، والمعاملات، والأعمال، فيحصل الكساد. التضخم، وتعم البلوى والفتن، وتتجه الحضارات والدول نحو الخراب والدمار، وربما الانهيار أو الزوال، في تطور تاريخي درامي تحكمه قواعد وسنن، يمكن استخلاص بعضها في ضوء تناول علاقة التاريخ بالاقتصاد.

والحال أن ابن خلدون، ربط بين تطور المجتمعات من البداوة حتى الترف الحضاري من جهة، وبين قيام الدول وقوتها وضعفها وانهارها من جهة أخرى. وبذلك يعتبره البعض أول من حاول رسم قوانين لتطور المجتمعات البشرية، كونه يقدم قوانين لنشوء المجتمع والدولة وانحلالها⁴، بل وجعل عدو الحضارة الحقيقي يكمن في حياة البذخ والترف المؤدي إلى الانهيار⁵. ولم يتطرق إلى قيمة الأشياء قبل أن يشير إلى أهمية النقود⁶

وفي مقدمته أشار إلى قضايا اقتصادية عديدة منها ما يتعلق الضرائب والأسعار ووجوه المعاش والمعاملات، إضافة إلى إشارات عابرة حول النقود. بيد أن المقريزي كان أكثر منه عمقا في هذا المجال، سيما ما يتعلق منه بعلاقة ارتفاع حجم الكتلة النقدية المتداولة بالمستوى العام للأسعار، وما يرتبط بذلك من خراب ودمار، وكذلك الحال زوال الحضارات والدول. تماما مثلما حدث بالمجتمع المصري خلال القرن

1. شوقي أحمد دنيا، مرجع سابق، ص. 212.

2- هيوج اتكن، دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية، ص. 74.

3- هيوج اتكن، دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية، ترجمة، الدكتور محمود زايد، تقديم، قسطنطين زريق، ط، 2، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1982، ص. 84. 74.

4. عبد العزيز الدوري، أوراق في التاريخ والحضارة، ج، 1، ص. 104 . 105

5. محمود اسماعيل، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، مكتبة الفلاح، الكويت للنشر والتوزيع، ط، 2، 1410 هـ / 1990، ص. 271

6. محمد المرغدي، والمعطي سهيل، مقدمات علم الاقتصاد، الكتاب الأول، ط، 1، مطبعة دار النشر المغربية، 1992،

التاسع الهجري، بسبب سوء تدبير الحكام¹. وهو ما أكده الأسدي إذ قال: " إن النقود من الأسباب الضرورية للمعاش وجر المنافع... وإذا اكره الناس على التعامل بالنقود الفاسدة، توقفت الأحوال، وضاعت الأموال، وكثرت الأقوال، وتغيرت الأسعار، وحصل التنازع لوقوع الاضطراب.. وعندما يتم ضرب النقود وتعديلها على الترتيب الحسن المعتدل الأركان، تزول الخطايا التي من موجباتها تسلط الغلاء والجلاء والتشرد عن الأوطان وخراب البلدان"².

والحال، أن إخوان الصفاء صنّفوا العلوم قبل المقريزي وابن خلدون إلى ثلاثة أنواع³، أحدها العلوم الرياضية، وسموها بعلم "الأداب"، التي وضع أكثرها لطلب المعاش وصلاح أمر الحياة الدنيا، ومن فروعها، علم الحساب المعاملات، وعلم الحرف والصنائع، والبيع والشراء والتجارات والحرف والنسل. وكلها علوم ترتبط كما هو واضح بالاقتصاد، وتعتمد قراءتها على الإحصاءات والأرقام، ومنها، علم "السير والأخبار"، وهو مغزى علم التاريخ. وفي ضوء ذلك تتجلى علاقة علم التاريخ بالاقتصاد، بل وأهميته في دراسة تاريخ الحضارات والدول، لضبط أسباب مجنها وغلاء أسعارها، وما يرافقه من خراب ودمار يفضي إلى الفناء والزوال. ويصل الأمر إلى ذلك بعدما تعاني المجتمعات من آفات القتل والقتال والتشريد والنزوح والتهجير القسريين، ورذائل الاغتصاب و انحطاط الأخلاق والقيم... كل ذلك يحدث في زمن الغلاء والمحن واغتصاب قيم الأعمال، واختلاط المال الحرام بالمال الحلال، بسبب فساد أمر النقود والمعاش والمعاملات، بفساد السياسة وسوء تدبير الزعماء والحكام.

ويمكن ضبط وتفسير هذا النموذج من نماذج واقعات العمران البشري المزرية، باعتماد منهج الإحصاء والتكميم بتوظيف المعطيات الرقمية المتاحة، إلى جانب النصوص التاريخية، خصوصاً ما يتعلق منها بمستويات الأسعار وقيمة النقود، ومقدار الدخل والخرج والقدرة على الإنفاق، وكمية المبادلات في علاقتها بامتداد أو تراجع مجال الدولة، وأجور القضاة وكبار الموظفين والجند، وغيرهم من أهل الخصاصة والضعف والعاله من الخلق، الذين يكثر فيهم الجوع المرض ويفنى معظمهم بالجوع⁴، في زمن المحن والمجاعات والأوبئة والفتن، بسبب فساد النقود وغلاء الأسعار وضعف القدرة على الإنفاق. والراجح أن الفئات القليلة شديدة الجشع على مر التاريخ البشري، يؤثر فيها اهتزاز الأسعار في السوق أكثر بكثير مما تحرك مشاعرها تشنجات طفل يموت جوعاً⁵.

1. إغاثة الأمة، ص. 16.

2. الأسدي، التيسير والاعتبار، صص. 118. 120. 123.

3. رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء، المجلد الأول القسم الرياضي، ص. 266. 267.

4. الأسدي، التيسير والاعتبار، صص. 118. 120. 123.

5. فرانسيس مورتاييه، وجوزيف كوليتز، صناعة الجوع (خرافة الندرة)، ترجمة أحمد حسان، مراجعة فؤاد زكريا، سلسلة

عالم المعرفة، عدد، 64، جمادى الآخرة. رجب، 1403 هـ / أبريل. نيسان، 1983 م. ص. 6.

وعلى الرغم من أن القدامى أقحموا أعدادا هائلة من الأرقام والإحصاءات في مؤلفاتهم، فإنهم لم يقووا على الربط فيما بينها ربطا مفيدا¹. وعليه، إذا كان هيوج اتكن يرى أن ثلاثة ميادين خاصة من ميادين البحث الاقتصادي هي التي تهم المؤرخ بصورة خاصة وهي: تحليل دورة العمل، التقدم الاقتصادي، وتنظيم العمل، فإننا نرى أن المؤرخ يجب عليه ألا يهمل في دراسته أي حدث تاريخي ما دام يهتم بدراسة الفعل البشري بمختلف أنماطه و أبعاده في الغابر والحاضر. ولا شك أن الأخذ بالتكميم وإتقان أسلوبه وقواعده سيساهم من دون شك في تقويم الذاكرة التاريخية الجماعية عن طريق مساءلة النصوص من جديد، وإعادة النظر في المتون، وتقويم القراءة، وخلخلة البناء التاريخي التدرسي القائم على الانصياع للمتناول، المكرس لأسلوب التذكرة والتقليد وصناعة الأفكار التي تسبق الدرس... كما يساعد على الانفلات من هيمنة التواريخ الرسمية التي جبلت على رصد أخبار الحروب وتفاصيل الأسر الحاكمة، والتأريخ للأحداث والوقائع الأكثر شهرة²

وقد سبق القول أن موضوع التاريخ هو الإنسان والزمان، ومسائله أحوالهما المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للإنسان وفي الزمان³. وفي ضوء ذلك، يتبين أن هذا العمل، الذي هو عمل المؤرخ، ليس بالهين، إذ يلزم أن نتبين أنه من المستحيل على الباحث في حقل التاريخ أن يفهم أنماط سلوك الناس ويحيط بوقائعهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية من دون الإلمام والتزود بالقدر الكافي من المعارف المتمحورة حول سكولوجية الإنسان، والجوانب المركبة للتغيير الاجتماعي، وقوانين النظم، والأنثروبولوجيا، والذهنيات والألسنية، والاقتصاد السياسي، والاجتماعي السياسي، وسوسيولوجيا المعرفة، وتكثيف العمل المنهجي التاريخي المنظم⁴.

وتعتبر قضايا المال والأسعار والنقود والضرائب من أساسيات وضروريات العمران البشري واهتمامات الحكومات والدول. ولعل ما قام به القاضي أبو يوسف حين كتب كتاب الخراج وقدمه للرشيد، يعد وثيقة هامة في هذا الصدد. إذ حاول تقديم أساليب وسبل توفق بين مصالح الدولة ومصالح الرعية⁵. والحال أن الهدف الأسمى من دراسة علم الاقتصاد هو التسليح ببعض وسائل الفهم والإدراك والتحليل لمواجهة مشاكل الواقع والعمل على إيجاد حلول مناسبة لها. إنه علم يساعد على إدراك

1. محمد تضرغوت، التاريخ الكمي بين حدود النظرية وإمكان التوظيف في مجال التاريخ الإسلامي، ضمن مرجع، نحو تحديث دراسة التاريخ الإسلامي مقاربات منهجية، ط، 1، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2004 ص.

2. محمد تضرغوت، التاريخ الكمي بين حدود النظرية وإمكان التوظيف في مجال التاريخ الإسلامي، ص. 53

3. السخاوي، الإعلان بالتوبيخ 1986، ص. 17

4. محمد تضرغوت، التاريخ الكمي بين حدود النظرية وإمكان التوظيف في مجال التاريخ الإسلامي، 2004 ص.

5. محمود إسماعيل، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص. 75

القوانين التي تحكم الأشياء والعمل على توجيهها وفقا لمتطلبات المجتمع¹. ويظهر أن الإحصاء، ومنطوق الأرقام، واستخدام المنهج المقارن، وغيره من المقاربات المنهجية المفيدة، قد يتيح إمكان فهم أفضل وأوسع للظواهر التاريخية المقاسة بأساسياتها وتجلياتها، بل والابتعاد عن الخلط بين التاريخ وبين مقتضيات الواقع الحقيقي والتصور المسبق المأدلج الموهوم².

والحال أن الأبحاث الدراسات الإحصائية والديموغرافية التي دارت مواضيعها بالأساس على تناول قضايا الاقتصاد وتأثيراته على الأسعار، والأجور ووضع السكان، قد حققت بفضل روادها خدمة كبرى للبحث الاجتماعي الاقتصادي في أوروبا وخارجها، بل امتد تأثير هذه المدرسة في الولايات المتحدة التي تبني أنصارها هذا التاريخ الجديد³. ومن هنا تتجلى أيضا علاقة التاريخ بعلم الاقتصاد وأهميته لتطوير عمل المؤرخ الذي يهدف إلى دراسة التاريخ دراسة علمية ترقى به إلى مستوى الخبير الذي يعنى بدراسة الظواهر قصد ضبط قوانين تكرارها، لمعرفة قبل وقوعها، أو التمكن من علاجها والسيطرة عليها بعد ذلك. سيما ظواهر المحن وزوال الحضارات والدول في علاقتها بفساد النقود وغلاء الأسعار.

النقود والأسعار في الفكر الاقتصادي، وعلاقتها بالبنية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

"يعتبر موضوع دور النقود وإدارتها، من أهم مواضيع التاريخ الاقتصادي، لذلك تحتل مكانة كبرى في المناقشات والسياسات الاقتصادية الحديثة"⁴. ومعلوم أن الحديث عن موضوع النقود هو ذاته الحديث عن الأسعار. ذلك كونهما وجهان لأطروحة اقتصادية واحدة. ومن ثم، حظيا بعناية كبرى في الشرع والفكر الاقتصادي الإسلاميين، ثم الفكر الاقتصادي الغربي الحديث والمعاصر فيما بعد. فالعملة أحد أسباب ما به قوام الحياة وانتظام العمران⁵، وغلاء الأسعار، سيما بسبب انهيار قيمة النقود وفساد أمرها، يهدد المجتمعات بالانفجار، ويساهم في اضطراب الأحوال واندلاع الفتن، بعد فساد أمر المعاش والمعاملات. وهكذا اتجهت العديد من المجتمعات والحضارات والدول نحو الخراب والدمار والزوال، وينتظر حدوث ذلك في مقبل السنين والأيام.

1. محمد المرغدي، والمعطي سهيل، مقدمات علم الاقتصاد... م س، ص. 40

2. محمد تضرغوت، التاريخ الكمي بين حدود النظرية وإمكان التوظيف في مجال التاريخ الإسلامي، ص. 35

3. محمد تضرغوت، التاريخ الكمي بين حدود النظرية وإمكان التوظيف ... م س، ص.

4. جون كينيث جالبريث، تاريخ الفكر الاقتصادي الماضي صورة الحاضر،، ترجمة أحمد فؤاد بلبع، تقديم إسماعيل صبري

عبد الله، عالم المعرفة، 261، سبتمبر / أيلول، 2000 ص. 159

5. الراغب الأصفهاني، الذريعة إلى مكارم الشريعة، تحقيق ودراسة، أبو اليزيد أبو زيد العجمي، ط، 1، دار السلام للطباعة

والنشر والتوزيع والترجمة، جمهورية مصر العربية، القاهرة، 1428هـ / 2007، ص. 273

ولا جرم، أن الإسلام جاء بقضايا اقتصادية كبرى، ذات الصلة بموضوع الأسعار والعملية. إذ نهى عن الاحتكار والربا، والتطفيف وكتز الذهب والفضة، كما حث على العمل وإخراج الزكاة ورواج الأموال وحسن تديرها. وهكذا يتبين أنه اهتم بشؤون المال، فطرح مبادئ عامة بصدد. كما حدد أحكاما ثابتة في كثير من الأحيان. والتزم الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه الأحكام حين وضع دستور المدينة. كما اجتهد في تفسير المبادئ العامة وأصبحت اجتهاداته سنة التزم بها الخلفاء الراشدون. واجتهد الفقهاء حول تفصيلات أمور المال وجبايته حسب مقتضيات الحال.¹ تماما مثلما قدموا آراء في موضوع العملة، تتعلق بسكها من الذهب والفضة، وحمايتها من الغش والتزوير، كونها أداة الأثمان²، ودفع عوض قيم الأعمال³، لتحقيق العدل في المبادلات، والحفاظ على توازنات الأسعار، قصد صلاح المعاش والمعاملات وحفظ الحضارات والدول من الخراب والدمار والزوال.

ويعد انهيار القيمة الشرائية للعملة؛ أي غلاء الأسعار، من أخطر العوامل التي تهدد استقرار الاقتصاد والمجتمعات والدول. لذلك كانت الدولة تتولى، خصوصا في العالم الإسلامي، مهمة ضبط توازناتها، والحفاظ على استقرار قيمتها، بآليات وأجهزة متعددة؛ مثل خطة الحسبة وغيرها. ولم تتوان عن توظيف إمكاناتها السياسية والأمنية، "لزعج ومحاسبة المخربين والعابثين بالنقود"⁴، حفاظا على قيمتها الشرائية من الانهيار. وهذا شيء لا تتساهل الدولة فيه، وإلا قضت على نفسها بالانحلال والزوال⁵. لما فيه من إفساد للسكة، الذي تعم به البلوى. التضخم، وهي متمول الناس كافة⁶. ولم توجد قط ممارسة اقتصادية أديننت عالميا مثلما أديننت ممارسة غش العملة بإدخال معدن أدنى قيمة في صناعتها. وقد أصبحت عبارة "بخس قيمة العملات" مرادفة للفساد. كما أصبحت ممارسته في الإمبراطورية الرومانية في قرون لاحقة مثالا للانحلال الأخلاقي الذي انتهى إلى الاضمحلال والسقوط⁷

ولا غرابة في ذلك إذا سلمنا أن العملة تشكل اللبنة الأساس في البنية الاقتصادية الاجتماعية، بل وأساس استقرارها، واستقرار الأوضاع السياسية معها. ذلك أن معاش الناس ومعاملاتهم، وكذلك الحال،

1. محمود اسماعيل، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص. 75.

2. المقرئزي، إغائة الأمة 2008، ص. 49.

3. الراغب الأصفهاني، الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص. 273.

4. محمد جلوب الفرخان، "الفكر الاقتصادي في كتابات الماوردي"، مجلة الاجتهاد، ع، 34-35، دار الاجتهاد، بيروت، السنة التاسعة، شتاء وربيع العام 1417هـ / 1997، ص. 177.

5. محمد عابد الجابري، نحن والتراث، قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، ط، 5، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1986م، ص. 295.

6. ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج، 2، ص. 334.

7. جون كينيث جالبريث، تاريخ الفكر الاقتصادي الماضي صورة الحاضر، ص. 160.

تعاقباتهم، وعلاقاتهم الاجتماعية والسياسية، مرتبط بهذه الوسيلة التي يحصل بها التمدن والاجتماع، إذ هي أداة البيوع، وسائر أنواع المعاوضات الشرعية، والجوامك السلطانية، والمصالح الضرورية، وبها تتعين المراتب والوظائف في غالب الأماكن والبقاع، وبها عموم النفع وظهور آثار التسخير على كل النوع البشري.¹

وعليه، بدهي أن تتأثر عناصر البنية السالفة الذكر، سلباً أو إيجاباً، كلما تغير عنصر النقد في هذا الاتجاه أو ذاك. والحال أن صلاح الملك من صلاحه واستجادته، وفساده من فساده والتجوز فيه²، أي بكثرة ضربه، وإهمال إصلاحه، وسكته على مقادير مختلفة في الأشكال والأوزان والمقادير، وغشه...، والمغشوش مخلوط بغيره، فاسد التركيب والترتيب، مختل النظام متغير الكيفية، مغير الماهية، ناقص القيمة³. ولا بد أن يترتب عن هذا الغش والنقص في القيمة، غلاء في الأسعار، وربما اضطراب في الأحوال، بل وفقدان الثقة في العملة ذاتها.

وبقدر ما تتأثر النقود بما هو نفسي... وسياسي⁴، حتى قيل إن من تقصير السياسة فساد النقود⁵، وإن الوضع الاقتصادي دالة في نوعية الأداء السياسي والاجتماعي⁶، فإنها تؤثر أيضاً في الاقتصاد والمجتمع والدولة. إذ في فساد النقود دخول الخلل في المعاش والنقصان في الأموال والمعاملات، واعتماد التطفيف المنهي عنه في الموازين اعتماداً على تفاوت القيم، وربما تعدى ذلك للمكايل في سائر الأنواع والأصناف⁷. وبهذا الخلل الاقتصادي، تختل الأحوال الاجتماعية والسياسية، إذ تكثر العالة من الخلق في العمران، وتهدد الدول بالانهيار والزوال.

والحال أن الناس إذا أكرهوا على التعامل بالنقود الفاسدة، توقفت الأحوال، وضاعت الأموال، وكثرت الأقوال، وتغيرت الأسعار، وحصل التنزع لوقوع الاضطراب⁸. تأسيساً على ذلك، نزع ما من خطر أشد وطناً على دولة من الدول، أو حضارة من الحضارات، من فساد أمر النقود، وكثرة ضربها من دون

1. محمد بم محمد بن خليل الأسدي، التيسير والاعتبار، ص. 115.

2- ابن الأزرقي، بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق وتعليق الدكتور علي سامي النشار، سلسلة كتب التراث، 45، ج، 1، بغداد منشورات وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية، 1977، ص. 267.

3. محمد بم محمد بن خليل الأسدي، التيسير والاعتبار، ص. 117.

. رفيق يونس، الإسلام والنقود، ط، 3، دار المكتبي للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، دمشق، 1431هـ / 2010، ص. 140.

4. رفيق يونس، الإسلام والنقود، ص. 33.

5. محمد بم محمد بن خليل الأسدي، التيسير والاعتبار، ص. 115.

6. شوقي أحمد دنيا، "قراءة اقتصادية في كتاب التيسير والاعتبار... م س، ص. 202.

7. محمد بم محمد بن خليل الأسدي، التيسير والاعتبار، ص. 115.

8. محمد بم محمد بن خليل الأسدي، التيسير والاعتبار، ص. 118.

حسيب ولا رقيب، تغلوه به الأسعار، وتندلع الفتن، وتخرّب البلدان، وربما تزول الحضارات والدول. ومن البراهين الدالة على ذلك، أنه عندما يتم ضرب النقود وتعديلها على الترتيب الحسن المعتدل الأركان، تزول الخطايا التي من موجباتها تسلط الغلاء والجلء والتشرد عن الأوطان وخراب البلدان، وربما استمر الغلاء، وعظم البلاء، وطمع الأعداء في كل قطر ومكان¹.

هكذا، يبدو أن فساد أمر النقود وما يواكبه من غلاء للأسعار، ومحن وفتن وتغيرات في القيم في زمن الحروب والمجاعات والكوارث والأوبئة واستحداث الضرائب...، يعتبر من بين الضوابط الخفية والقوانين المتحكمة في تكرار واقعات زوال الحضارات والدول، وحدث أشبهها في المستقبل. واعتبر ذلك، كما سنبين لاحقاً، بما وقع للفرس والروم والعرب في الماضي، وينتظر أن يحدث للغرب الرأسمالي في المستقبل. تماماً مثلما يحدث في أواخر الحضارات والدول. شأن ما وقع بالمجتمع المصري خلال القرن التاسع الهجري، "لضعف الأمر، ولنقص الحكم، وفساد السياسة، وسوء التدبير"². وحينئذ يعظم البلاء، ويطمع الأعداء في كل قطر ومكان. وربما آل الحال إلى سفك الدماء وكثرة الخصام، وعدم قبول الحق ولا تنفيذ الأحكام، لكثرة الدخيل والغش والحرام"³.

وكل هذا الذي وصفه الأسدي، ويمكن العثور عليه عند من يسير على مهيعه، مثل ابن خلدون والمقريزي وول ديورانت وتوينبي وغيرهم.. ما هو إلا مظهر من مظاهر انحطاط القيم التي تختلف من زمن إلى زمن في سائر البلدان، والتي تصاحب فساد النقود وغلاء الأسعار في أواخر الحضارات والدول. (هنا ربما يدمج نص أثر العملة على مر الأزمنة في الجانب المنهجي) "ويضيف قائلاً ومن العجب العجيب، أن مثل هذه الأحوال ظاهرة للخاص والعام، ومضى عليها عدة من السنين والأيام، وفي كل يوم يحصل التنزع في الأوزان واختلاف الموازين والخصام، وفي اختلاف الكمية والقيمة فيما بينا الذهب والفضة، ويرفع ذلك إلى الحكام، ولم يبد مثل هذه النصيحة أحد من الأنام للسلطان"⁴.

وحول باقي الأحوال والقيم، المرافقة لخراب ودمار البلدان، وذهاب بهجة أيامها، وزوال أنظمة حكمها وحضارتها. تماماً مثلما حصل بمصر خلال القرن التاسع الهجري يمكن الرجوع إلى كتابي "إغاثة الأمة" للمقريزي، وكذلك الحال، كتاب "التيسير والاعتبار" للأسدي.. هذا العصر الذي تميز بالغلاء والجوع ونقص الثمرات والأموال والخوف والآلام والطواعين وشدة البلاء ومصائب الحوادث من كثرة المظالم، وتفاقم الحروب والفتن وتحكم الغفلة واستحكام المفسد⁵، وعلى رأسها فساد النقود. وهو ما اعتبره

1. محمد بم محمد بن خليل الأسدي، التيسير والاعتبار، ص. 123. 124.

2. محمد بم محمد بن خليل الأسدي، التيسير والاعتبار، ص. 114. 115.

3. محمد بم محمد بن خليل الأسدي، التيسير والاعتبار، ص. 123.

4. محمد بم محمد بن خليل الأسدي، التيسير والاعتبار، ص. 123. 124.

5. محمد بم محمد بن خليل الأسدي، التيسير والاعتبار، ص. 114. 115.

المقريزي والأسدي من أعظم الأسباب في حدوث هذه الحوادث وهذا الغلاء الموجود. وكذلك نعتبره في زمننا هذا، وفي غيره من الأزمان.

هكذا، يمكن فهم مقاصد تحذير علماء الإسلام من ضرب النقود المغشوشة، كونه من جملة الفساد في الأرض، لما فيه من غلاء الأسعار وانقطاع الأجلاب وغير ذلك من المفاسد، أي الأزمات الاقتصادية والمالية والنقدية، التي تهدد المجتمعات بالانفجار، والنظم الحاكمة والحضارات بالزوال. وهذا خير دليل على سبقهم التاريخي قبل الغرب، إلى فهم أهمية، بل ضرورة، الحفاظ على القيمة الشرائية للنقود، ومدى خطورة انهيارها بالأساس، على الأسعار والاقتصاد والمجتمع والدولة، والحال أن العملة المعاصرة ليست بالمعدنية ولا تخضع لقاعدة الذهب، لذلك تحكم فسادها وانهيار قيمتها القواعد المطلقة، ومتغيرات الزمن والأحوال، التي تجعل منها سبب خراب المجتمعات وزوال الدول والحضارات في الحاضر والمستقبل.

وإنه لمن المشرف جدا أن يهتم المقريزي والأسدي وقرناؤهما بالمسألة النقدية هذا الاهتمام البارز، في وقت كانت فيه أوروبا لا تعرف من أمر الاقتصاد، ناهيك عن أمر النقود، إلا النزر اليسير، وأن يعتبر العامل النقدي أهم خرق وقع في ثوب النظام المصري، وأنه أهم وأخطر عامل ساهم في استفحال مشكلة الاقتصاد في عصورهم¹. وبالرجوع إلى المؤلفات السالفة الذكر، يجد القارئ معلومات اقتصادية هامة على مستوى الفكر والواقع²، بل وأكثرها له أهمية اقتصادية معاصرة. تماما مثلما يمكنه، إن استطاع إلى ذلك سبيل، أن يستلهم بعض القواعد والضوابط المنهجية، إن لم نقل معادلات، يمكن اعتمادها والاستئناس بها في إعادة قراءة وتحليل التاريخ البشري عامة، وتاريخ العالم الإسلامي على وجه الخصوص، قراءة علمية شمولية، قائمة على مناهج ونظريات متعددة، فدقة نتائج البحوث وقيمتها تتوقف على مناهج البحث المستخدمة³.

فمعلوم بين أهل الاقتصاد أن كل انهيار في القيمة الشرائية للنقود، أو زيادة في حجم الكتلة النقدية المتداولة منها، من دون أن يواكب ذلك زيادة حقيقية، في حجم السلع والخدمات، ينتج عنه ارتفاع مباشر في الأسعار⁴، يحتمل أن تطول آثاره، بشكل سلبي، مختلف مكونات البنية الاقتصادية والاجتماعية، من مستوى المعيشة، وحجم الاستهلاك، والإنتاج، والتشغيل، ومعلوم الدخل، وحركة أسواق المبادلات، وسرعة رواج العملة. وربما تنشأ عنه حالة من حالات التضخم. الأمر الذي يهدد المجتمع بالانفجار، ونظام الحكم بعدم الاستقرار، وربما الدمار والاضمحلال.

1. شوقي أحمد دنيا، قراءة اقتصادية في كتاب التيسير...م س، ص. 212

2. شوقي أحمد دنيا، قراءة اقتصادية في كتاب التيسير والاعتبار...م س، ص. 200. 201

3. لخضر محمد بولطيف، فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي، 510هـ-668هـ/1116-1269 م، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط، 1، 2009م، ص. 23.

4. زينب عوض الله، وأسامة محمد الفولي، أساسيات الاقتصاد النقدي والمصري، منشورات الجلي الحقوقية، الإسكندرية، 2002، ص. 30.

عملية، اعتبر المقريري الجهل بأمور النقود، وكثرة ضرب الفلوس، إلى جانب الإجراءات المتخذة على مستوى نظام الصرف، من أسباب ذهاب بهجة الدنيا وزوال زينتها، وإتلاف الأموال وفساد زخرفها¹. وفي ذلك دلالة كبرى على انهيار الاقتصاد والمعاملات، وضياح رؤوس الأموال، وتراجع الإنتاج، وربما كساد الأسواق، وارتفاع نسبة العالة من الخلق، تبعاً لهذه الأزمة الاقتصادية الخانقة. وبدهي أن ينجم عن هذا الوضع تراجع في حجم الاستهلاك، وتدن مستويات المعيشة وغلائها، بتدني القدرة الشرائية، ومعلوم الدخل. وبذلك تتراجع حركة الأسواق والمبادلات، وسرعة تداول النقود. ويبدو أن هذا أكبر دليل على تزايد الكتلة النقدية نسبياً، أكثر من تزايد الدخل القومي.

هكذا، يمكن القول إن المقريري كان له سبق قبل علماء الغرب²، في فهم هذه العلاقة التي تجمع بين تراجع سرعة رواج النقود، وبين تزايد الكتلة النقدية. فقد أشار في مواطن مختلفة إلى كثرة ضرب الفلوس³، وفسادها⁴، مع اختلاف النقود⁵ (= انهيار القيمة الشرائية للنقود)، فارتفعت أسعار جميع المبيعات⁶ (= غلاء المعيشة + انهيار القدرة الشرائية + تراجع حجم الاستهلاك..)، وتوقفت الأحوال⁷، وأتلفت رؤوس الأموال، وكسدت الأسواق، (= أزمة اقتصادية + تراجع سرعة تداول النقود). وصارت الكافة إلى القلة، وشملت الفاقة والذلة الجمهور⁸، ولحقهم الخصاصة، وسوء الأحوال (أزمة اجتماعية)، وفي معظم أهل الخصاصة والمسكنة جوعاً⁹ (أزمة ديموغرافية)، فعمت البلوى والفساد¹⁰، أي التضخم، وآل أمر الناس إلى الزوال، وأشرف الإقليم على الدمار والاضمحلال¹¹ أزمة سياسية (= احتمال الإطاحة بالنظام الحاكم + الحضارة). ويمكن تلخيص ما تقدم بواسطة المعادلة التالية:

1. المقريري، إغاثة الأمة، ص. 72.

2. بيار برجيه، العملة ودورها في الاقتصاد العالمي، ترجمة، علي مقلد، ط، 1، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، 1970، ص. 234

3. المقريري، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق، محمد عبد القادر عطا، ج، 2، ط، 1، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1418هـ/1997، ص. 391.

4. المقريري، السلوك، ج. 6، م، س، ص. 111.

5. المقريري، إغاثة الأمة، المقريري، ص. 70.

6. المقريري، السلوك، ج. 6، م. س، ص. 172.

7. المقريري، السلوك، ج. 2، م. س، ص. 391.

8. إغاثة الأمة، ص. 72.

9. إغاثة الأمة، ص. 71.

10. المقريري، السلوك، ج. 6، ص. 172.

11. المقريري، إغاثة الأمة، ص. 74.

ارتفاع حجم الكتلة النقدية، بفعل كثرة ضرب الفلوس، وفسادها، مع اختلاف النقود	= غلاء أسعار	= انهيار قيمة النقود	= انهيار الأوضاع الاقتصادية + اختلال الأحوال الاجتماعية = احتمال اضمحلال الحضارة والدول .
--	--------------	----------------------	---

يتضح من خلال ما تقدم، أن المقرزي والأسدي كان لهما سبق تاريخي في معالجة قضايا النقود، في علاقتهما بمستوى الأسعار، وبكافة البنيات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وأنهما كانا، حقا، صاحبي نظرية نقدية دقيقة، واضحة الرؤية، ومتينة الأسس والمرتكزات. وبحكم الروابط التي تجمع بين الأزمات النقدية، وتضخم الاقتصاد، وبين اندلاع الفتن والثورات، وفرض ضرائب جديدة، وغيرها من الأحداث، والإجراءات السهلة المتخذة، ولو كان ذلك على حساب مصالح الشعوب، وحقوقها، وأرزاقها، للتحكم في العجز والأزمة، خصوصا في فترات الحروب والكوارث والمجاعات، التي تساهم بدورها في غلاء الأسعار واستفحال البلوى والأزمات، يمكن إعادة تركيب المعادلة على النحو الآتي:

انهيار عملة + مجاعة + حرب.... = غلاء الأسعار = انهيار قطاعات اقتصادية + إمكان الزيادة في الضرائب، أو فرض جديدة، وربما غير الشرعية منها = فتن + ثورات اجتماعية = احتمال الإطاحة بالنظام الحاكم.

وإذ تساهم عوامل الغلاء المذكورة، في انهيار قيمة العملة، فإنه يمكن اختزال المعادلة وفق الصيغة الآتية:

انهيار عملة = غلاء الأسعار = انهيار قطاعات اقتصادية + إمكان الزيادة في الضرائب، أو فرض جديدة، وربما غير الشرعية منها = فتن + ثورات اجتماعية = احتمال الإطاحة بالنظام الحاكم.

وفي ضوء ذلك، يمكن استخلاص مجموعة من القواعد والعلاقات التي تجمع بين مكونات المعادلة، وإذ لا يسمح المقام بحصرها كلها، نذكر منها على سبيل المثال ما يأتي:

غلاء الأسعار = فتن + ثورات اجتماعية = احتمال الإطاحة بالنظام الحاكم. والعكس بالعكس.

ونظن، أنه بقدر ما تضيفي هذه المعادلة، والقواعد المشتقة منها، الشرعية والمصدقية على سلامة مقترح نظري وضعناه لإبراز أهم الروابط التي تجمع بين عناصر البنية الاقتصادية الاجتماعية، وكذا تأثيراتها المتبادلة، في علاقتها بالنقود، وحجم الكتلة المتداولة منها¹، بقدر ما نعتقد أنه يمكن اتخاذها قاعدة ومنهجاً، يمكن أن يهتدي به كل باحث في الماضي البشري عموماً، وفي التاريخ الإسلامي على وجه الخصوص، لتحليل الأحداث، وتناول الوقائع التاريخية ومعالجتها بطريقة علمية قائمة على مراعاة

1. حول هذا المقترح انظر، عبد المجيد النوري، العملة وتأثيراتها السياسية في تاريخ الغرب الإسلامي من مطلع القرن الخامس إلى أواخر القرن السابع الهجريين 407 هـ / 674 هـ / 1017 م. 1275 م، بحث لنيل دكتوراه وطنية، جامعة مولاي إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، 2013. 2014 م. ص 27

مختلف التداخلات والتأثيرات القائمة والمتبادلة فيما بين قطاع النقود والأسعار، وبين باقي مكونات المنظومة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية من جهة، وما يتبع ذلك من ازدهار ورفاه واستقرار، أو زوال للحضارات والدول من جهة أخرى. فإلى أي حد تعطي ظاهرة زوال الحضارات والدول الشرعية لهذه المعادلة والاستنتاجات النظرية؟

زوال الحضارات والدول الظواهر التاريخية ولغة الاقتصاد.

يعتبر موضوع زوال الحضارات والدول من بين المواضيع التي استأثرت باهتمام بعض المؤرخين والمفكرين من قبيل ابن خلدون وول ديورانت وتوينبي وغيرهم. وغير ذي شك أن هذه الظاهرة جد معقدة، وهي حسب أحد المهتمين بها¹، مثل اندلاع الأمراض والأوبئة، ولا يمكن حصرها في عنصر واحد. تماما مثلما أن المشاكل الاقتصادية أصبحت اليوم معقدة، بسبب تداخل الظواهر الاقتصادية بعضها ببعض. فظاهرة الأسعار تتداخل مع ظاهرة الأجور. وهذه الأخيرة تتداخل مع ظاهرة الاستثمار والانتاج التي ترتبط بظاهرة الاستهلاك والتي ترتبط بدورها مع ظاهرة الحاجيات وهكذا². وقد أشرنا سابقا إلى أهمية علم الاقتصاد في قراءة تاريخ المجتمعات البشرية، سيما ما يتعلق منه بما يتكرر من واقعات العمران مثل ظاهرة زوال الحضارات والدول، باستثمار الأرقام واعتماد مناهج التكميم والإحصاء.

فلا مندوحة، أن الأخذ بالتكميم وإتقان أسلوبه وقواعده سيساهم من دون شك في تقويم الذاكرة التاريخية الجماعية عن طريق مساءلة النصوص من جديد، وإعادة النظر في المتون، وتقويم القراءة... كما يساعد على الانفلات من هيمنة التواريخ الرسمية التي جبلت على رصد أخبار الحروب وتفصيل الأسر الحاكمة، والتأريخ للأحداث والوقائع الأكثر شهرة³. تماما مثلما أن استخدام الإحصاء، ومنطوق الأرقام، والمنهج المقارن، وغيره من المقاربات المنهجية المفيدة، قد يتيح إمكان فهم أفضل وأوسع للظواهر التاريخية⁴. سيما ما يتعلق منها بزوال الحضارات والدول. هذه الظاهرة التي حددنا سببها الأصلي، بدلائل تاريخية عملية، في فساد العملة وغلاء الأسعار، بفساد السياسة وسوء تدبير الحكام، باعتباره أصل الداء والبلاء. فما من خطر أشد وطئا على دولة من الدول، أو حضارة من الحضارات، من فساد أمر النقود، ترتفع به الأسعار، وتندلع المحن والفتن، وتتعرض البلدان للخراب والدمار، فتزول الحضارات والدول، في سياق تاريخي درامي، تحكمه قواعد وسنن، يمكن ضبط بعضها أثناء مطالعة أخبار الماضي البشري، قصد فهم الحاضر، ومحاولة رسم معالم المستقبل، من خلال تركيز الاهتمام على ما يتكرر من الأحداث، مع اعتماد لغة ومناهج الاقتصاد، وغيره من العلوم المساعدة على فهم ظواهر العمران، وتفسير القوانين المتحكمة فيها.

1. خالص جلبي، التراث وتجديد التفكير الديني، جريدة الأخبار، عدد، 2219، الثلاثاء، 11، فبراير، 2020. ص. 8.

2. محمد المرغدي، والمعطي سهيل، مقدمات علم الاقتصاد، الكتاب الأول، ط، 1، مطبعة دار النشر المغربية، 1992، ص.

38.37

3. محمد تضرغوت، التاريخ الكمي بين حدود النظرية وإمكان التوظيف في مجال التاريخ الإسلامي، ص. 53.

4. محمد تضرغوت، التاريخ الكمي بين حدود النظرية وإمكان التوظيف في مجال التاريخ الإسلامي، ص. 35.

وحسبك، أن أحد القدماء قال: "رأيت هذا الضرب من الأحداث إذا عُرف له مثال مما تقدم وتجربة لمن سلف، فاتخذ إماما يقتدى به، تمسك بما سعد به قوم. فإن أمور الدنيا متشابهة، وأحوالها متناسبة، وحذر مما ابتلى به قوم"¹. ومن أخطر ما يجب أن يحذر منه عندنا، ظاهرة زوال الحضارات والدول، على أساس أن أسوأ ما يبتلى به الناس من عظيم المحن، وجليل الفتن، وما يرافقها من البلاء والغلاء، وتوابع ذلك من القتل والتشريد، والنزوح والتهجير، إضافة إلى الخوف وغياب الأمن، مما يساهم في استفحال انحطاط القيم، المرافق لزوال الحضارات والدول. إذ يمكن أن يحدث استعمال القوة مع ترهل قبضة الدولة، اغتصاب الأموال والأعراض. وأصل هذا البلاء فساد النقود وغلاء الأسعار بفساد السياسة وسوء تدبير الحكام، كما سلف بالدليل ذكره، وسيأتي بإذن الله بيانه وتوضيحه.

1. نماذج من زوال الحضارات بسبب فساد النقود وغلاء الأسعار

يعرف ابن خلدون الحضارة بكونها تفتن في الترف وإحكام الصنائع، المستعملة في وجوهها ومذاهبها من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية، وسائر عوائد المنزل وأحواله². وهي عند ول ديورانت، نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، وتتألف من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون. وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا أمن الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافع التطوع وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها³. إنها إنجازات الإنسان المادية والفكرية والروحية عبر الزمن وفي إطار المكان، من خلال الصراع الأزلي بين الإنسان والطبيعة⁴.

وقد سبق القول أن زوال الحضارات والدول ظاهرة معقدة مثل تعقد المشاكل الاقتصادية في زمننا هذا، وعليه، إذا كان ابن خلدون يرى أن الترف العدو الحقيقي للحضارة⁵، إضافة إلى ما يرافق ذلك من ترهل للعصبية، وفساد السياسة، وانحطاط القيم أواخر الحضارات والدول⁶، فقد سايره الرأي ول

1. أبو علي أحمد مسكويه، تجارب الأمم، ج، 1، 60.59.

2. عبد الرحمان بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج، 1، حقق نصوصه، وخرج أحاديثه، وعلق عليه، عبد الله محمد الدرويش، ط، 1، 2004 م. ص. 338.

3. ول ديورانت، قصة الحضارة، نشأة الحضارة، تقديم محي الدين صابر وزكزي نجيب محمود، المجلد الأول، ج، 1، بيروت، تونس، من دون، ص 4.

4. محمود اسماعيل، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، مكتبة الفلاح، الكويت للنشر والتوزيع، ط، 2، 1410 هـ / 1990، ص. 12.

5. ابن خلدون، المقدمة، ج، 2، 49.

6. ورد عند ابن خلدون بخصوص انحطاط القيم أواخر الدول ما يلي: "يكثُر منهم الفسق والشر والسفسفة، والتحليل على تحصيل المعاش من وجهه ومن غير وجهه... فتجدهم أجرياء على الكذب والمقامرة والغش والخلابة والسرقة والفجور في الإيمان والرياء في البياعات، ثم تجدهم، لكثورة الشهوات والملذذ الناشئة عن الترف. أبصر بطرق الفسق ومذاهبه،

ديورانت في جزء كبير من ذلك¹، كونه تأثره، بل وجعل الحضارة مشروطة بطائفة من العوامل، تستحث خطاها أو تعوق مسراها، وهي العوامل الجيولوجية، والجغرافية، والعوامل الاقتصادية، والنفسية الدقيقة، فإذا انعدمت هذه العوامل، بل ربما لو انعدم واحد منها، لجاز للمدنية أن يتقوض أساسها.

بيد أننا نرى أن أعظم سبب وراء زوال الحضارات والدول، خلافا لهؤلاء، هو فساد النقود وغلاء الأسعار، وما يرافقه ذلك من محن وفتن وخراب ودمار، يفضي إلى الاضمحلال والزوال، بسبب فساد السياسة وسوء تدبير الزعماء والحكام. ويرافق هذا السبب الرئيس، توابع أخرى، يأتي في مقدمتها، كما ذكر ذلك سابقا، ابن خلدون والمقريزي ومحمد بن محمد بن خليل الأسدي، وغيرهم من المعاصرين المهتمين بشأن بموضوع الحضارات والدول، أمثال ديورانت وتوينبي، انحطاط القيم، إلى جانب الكوارث والمجاعات والأوبئة، واستحداث الضرائب، بل واستفحالها². وكلها عوامل تساهم في غلاء الأسعار، أي انهيار القيمة الشرائية للنقود، سبب المحن والفتن. وتساهم الحروب في استفحال هذا الغلاء وعظيم البلاء حتى يصل أقصى منتهاه. تماما مثلما تعجل بزوال الحضارات والدول. ذلك أنه إذا غلب على الدولة من مركزها، فلا ينفعها بقاء الأطراف والنطاق، بل تضمحل لوقتها. واعتبر ذلك بما حدث للفرس لما دخل المسلمون المدائن³، وللعرب لما دخل هولاء بغداد⁴، في زمن فساد النقود وغلاء الأسعار، وما رافقه من مجاعات وأوبئة وانحطاط قيم، مثل الزنا واللواط، كما سيأتي بيانه.

وقد أشرنا سابقا بما يفي بغرض البيان، حسب ما يسمح به المقام، أنه في فساد النقود، باعتبارها أحد أسباب ما به قوام الحياة، وانتظام العمران، ودفع عوض قيم الأعمال، فساد وجوه المعاش والمعاملات. وبذلك تحصل الأزمات المالية والنقدية، وترتفع الأسعار التي ترهق أهل الضعف والخصاصة والدخل المحدود، فيتراجع الاستهلاك والقدرة على الإنفاق، ويتبع ذلك تراجع الإنتاج، وتزايد العالة من الخلق، مع العجز عن دفع الضرائب، فيتراجع الدخل مع ارتفاع الخرج، فيحصل العجز، ويعتل النظام، وتختل الأحوال، وتكثر الفتن، ومن ثم، تمرض الدولة والحضارة ما سماه ابن خلدون المرض الطبيعي الذي

والمجاهرة به وبدواعيه، واطراح الحشمة في الخوض فيه، حتى بين الأقارب وذوي الأرحام والمحارم الذين تقتضي البدواة الحياء منهم في الاقذاع بذلك" (المقدمة، ج، 2، ص. 48)

1. ول ديورانت، قصة الحضارة، نشأة الحضارة، تقديم محي الدين صابر وزكطي نجيب محمود، المجلد الأول، ج، 1، بيروت، تونس، من دون، ص 4 وما بعدها

2. ابن خلدون، المقدمة، ج، 2، 47. 48

3. عبد الرحمان بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج، 1، حقق نصوصه، وخرج أحاديثه، وعلق عليه، عبد الله محمد الدرويش، ط، 1، 2004 م. ص. 322. 323

4. تقي الدين المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق، محمد عبد القادر عطا، ج، 1، منشورات محمد علي بيضون، ط، 1، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1418. 1997 م، ص. 499

إذا نزل بها لا يرتفع¹. إنه السرطان الذي لا يرجى منه شفاء، فيذهب ببهجة الدنيا وزينتها، ويخرب البلدان ويدمر عمرانها، ويمهلك الحضارات والدول ويزيل وجودها، سيما في زمن الفساد والاستبداد والحروب الداخلية والخارجية والتطبيع مع انحطاط وعدمية الأخلاق والقيم. مثل... الفسق والمجاهرة به وبدواعيه، واطراح الحشمة في الخوض فيه، حتى بين الأقارب وذوي الأرحام والمحارم، والمكروالخدیعة والسفسفة، والتحيل على تحصيل المعاش من وجهه ومن غير وجهه، والجرأة على الكذب والغش والفجور في الإيمان والرباء في البياعات وغيرها. وإذا فسد الإنسان في قدرته ثم في أخلاقه ودينه، فقد فسدت إنسانيته وصار مسخا على الحقيقة. وإذا كثرت ذلك في المدينة أو الأمة تأذن الله بخرابها وانقراضها².

أ. زوال حضارة الفرس

وانظر ذلك بما حدث للفرس الذين كان عند فساد أمورهم فسدت نقودهم، فجاء الإسلام ونقودهم من العين والورق غير خالصة، إلا أنها كانت تقوم في المعاملات مقام الخالصة، وكان غشها بينهم عفوا لعدم تأثيره بينهم إلى أن ضربت الدراهم الإسلامية فتميز المغشوش من الخالص³. وقد سبق أنه بفساد العملة يفسد المعاش والمعاملات وتندلع المحن والفت المؤذن بخراب البلدان وزوال الحضارات والدول. وهو عين ما حصل لأمور الفرس بفساد نقودهم. ومعلوم أن النقود الأجنبية ظلت تروج في العالم الإسلامي، فكانت الدنانير ترد رومية والدراهم ترد كسروية وحميرية قليلة، فأمر عبد الملك بن مروان الحجاج أن يضرب الدراهم بالعراق فضررها سنة 74هـ، وقيل آخر سنة 75هـ، ثم أمر بضررها في النواحي سنة 76هـ، وقيل إن الحجاج خلصها تخلصا⁴.

1. عبد الرحمان بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج، 1، حقق نصوصه، وخرج أحاديثه، وعلق عليه، عبد الله محمد

الدرويش، ط، 1، 2004م. ص. 344

2. ابن خلدون، المقدمة، ج، 2، 48. 49

3 أبو الحسن علي بن محمد البصري الماوردي، الأحكام السلطانية، تحقيق، أحمد جاد، دار الحديث للنشر والتوزيع،

القاهرة، 1427هـ / 2006م. ص. 237

4 أبو الحسن علي بن محمد البصري الماوردي، الأحكام السلطانية، تحقيق، أحمد جاد، دار الحديث للنشر والتوزيع،

القاهرة، 1427هـ / 2006م. ص. 237

هكذا، جرى تعريبها العملة¹، والحرص على تجويدها، بل والتشدد في ذلك². وهذا ما يبرز أهميتها وأهمية الحفاظ على قيمتها الشرائية من الانهيار، لما فيه من حفظ للحضارات والدول من الاضمحلال والزوال. ولذلك لا يستبعد أن يكون قرر عبد الملك بن مروان بتعريب العملة وسكها تحت رقابة الدولة ورعايتها بدار الإسلام، نابع من خوفه على ملك بني أمية من الانهيار والزوال، بسبب أزمة اقتصادية ومالية يمكن أن يسببها سحب العملة الفارسية والرومية من الديار والأسواق الإسلامية، أو إغراقها بعملة زائفة، تحدث ما أحدثته عملة الفرس لأهلها بعد غشها وتدليسها. والبين أن هذا العمل الشنيع ينجم عنه غلاء واضح في الأسعار، واضطراب في الأحوال يتبعها خراب ودمار. سيما زمن استفحال الضرائب وانحطاط القيم والحروب التي تساهم في استفحال الغلاء والبلاء وتعجل بزوال الدول.

ذلك؛ كونها تساهم في تقلص مجال الدولة، وبتقلصه، تتراجع كمية المبادلات، فترتفع الأسعار، وتندلع الفتن، وتلج الدولة إذا لم تسيطر على محنها وفتنها، إلى مرحلة الهرم. ومن علاماته تناقصها من جهة الأطراف³. ورغم ذلك يمكنها أن تستمر ما دام مركزها محفوظا. ومعلوم أنه لا يمكن أن يزول إلا بفتن داخلية أو هجوم خارجي. ولذلك اعتبرنا الحروب من أخطر العوامل المساعدة على استفحال المحن والفتن التي تزيل الدول والحضارات، بسبب فساد أمر النقود وغلاء الأسعار. ذلك، أنه إذا غلب على الدولة من مركزها، فلا ينفعها بقاء الأطراف والنطاق، بل تضحك لوقتها، لأن المركز كالقلب الذي تنبعث من الروح، فإذا غلب على القلب وملك انهزم جميع الأطراف. وانظر هذا في الدولة الفارسية، كان مركزها المدائن، فلما غلب المسلمون على المدائن انقرض أمر الفرس أجمع⁴.

والأمة إذا غلبت، وصارت في ملك غيرها، أسرع إليها الفناء. سبب ذلك والله أعلم ما يحصل في النفوس من التكاثر إذا ملك أمرها عليها، وصارت بالاستعباد آلة لسواها، وعالة عليهم، فيقصر الأمل ويضعف التناسل، والاعتماد إنما هو عن جدة الأمل... وهو ما وقع للفرس بعدما فسدت أمورهم بفساد نقودهم

1. محمود اسماعيل، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، مكتبة الفلاح، الكويت للنشر والتوزيع، ط، 2، 1410 هـ / 1990، ص. 79

2 أبو الحسن علي بن محمد البصري الماوردي، الأحكام السلطانية، تحقيق، أحمد جاد، دار الحديث للنشر والتوزيع، القاهرة، 1427 هـ / 2006 م. ص. 238

3. عبد الرحمان بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج، 1، حقق نصوصه، وخرج أحاديثه، وعلق عليه، عبد الله محمد الدرويش، ط، 1، 2004 م. ص. 322

4. عبد الرحمان بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج، 1، حقق نصوصه، وخرج أحاديثه، وعلق عليه، عبد الله محمد الدرويش، ط، 1، 2004 م. ص. 322. 323

وغلاء أسعارهم. ذلك، أنه لما تحصلوا في ملكة العرب وقبضة القهر، لم يكن بقاؤهم إلا قليلا، ودثروا كأن لم يكونوا. ولا تحسبن أن ذلك لظلم نزل بهم أو عدوان شملهم، فملكة الإسلام في العدل ما علمت، وإنما هي طبيعة الإنسان إذا غلب على أمره، وصار آلة لغيره. والحال أنهم كانوا قد ملؤا العالم كثرة¹. وكانت الدولة الفارسية حين بلغت أعظم اتساعها في أيام دارا تشمل عشرين ولاية أو إمارات، ولم يسجل التاريخ قبل هذه الإمبراطورية أن حكومة واحدة حكمت مثل هذه الرقعة الواسعة من البلاد. ولم تكن بلاد الفرس في تلك الأيام، وهي البلاد التي قدر لها أن تحكم هذه الأربعمائة مليوناً من الأنفس مدى مائتي عام، هي بعينها البلاد المعروفة الآن باسم بلاد فارس، والتي يسميها بلاد إيران، بل كانت هي الإقليم الأصغر المصاحب للخليج الفارسي مباشرة من جهة الشرق².

ويكاد اضمحلال فارس أن يكون في جملته وتفصيله صورة معجلة من سقوط روما، ذلك أن قواها الطبيعية المادية والأدبية قد تصدعت على أثر الهزائم التي منيت بها³. والحال أن الطبقة السياسية كانت تعيش في على و وقع الانحلال و انحطاط القيم وهو من توابع محن الحضارات والدول بسبب فساد النقود وغلاء الأسعار. فقد أهمل الأباطرة شؤون الحرب، وانغمسوا في الشهوات، وتردت الأمة في مهاوي الجمود والفساد. واقترب عنف الأباطرة وإهمالهم بفساد أخلاق الشعب وانحلالهم⁴. وقد سبق الإشارة إلى بعض مظاهر هذا الانحلال الذي يرافقه خراب الحضارات والدول عند كل من ابن خلدون ومحمد بن محمد بن خليل الأسدي.

ويبدو أن ول ديورانت ركز في مسألة انهيار الدول والحضارات على قضايا انحطاط القيم وفساد السياسة والأخلاق، والانشغال باللهو وملذات الأكل والجنس، أكثر من عنايته بفساد أمر النقود وغلاء الأسعار وما يرافقه من محن وفتن. وهو أمر ما اعتمد ابن خلدون الذي جعل من الترف العدو الحقيقي للحضارة من قبله، فأخذ ديورانت عنه وأصل عليه جزء كبيراً من طروحاته. ولا مشاحة في كون ذلك من مميزات وعلامات مراحل الانهيار، لكن ليس لا نعتبره السبب الأعظم كما نزع فيما يحل بالحضارات والدول من محن تفضي بها إلى الانهيار والزوال، بل من توابعه. والراجح أن كلا الرجلين لم يهتم كثيراً بدور

1. عبد الرحمان بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج، 1، حقق نصوصه، وخرج أحاديثه، وعلق عليه، عبد الله محمد الدرويش، ط، 1، 2004م. ص. 284

2. ول ديورانت، قصة الحضارة، الشرق الأدنى، ترجمة، محمد بدران، المجلد الأول، ج، 2، بيروت، تونس، من دون، ص. 409

3. ول ديورانت، قصة الحضارة، الشرق الأدنى، ترجمة، محمد بدران، المجلد الأول، ج، 2، بيروت، تونس، من دون، ص. 454

4. ول ديورانت، قصة الحضارة، الشرق الأدنى، ترجمة، محمد بدران، المجلد الأول، ج، 2، بيروت، تونس، من دون، ص. 454

النقود في المحن والخراب الذي يصيب الحضارات والدول. والحقيقة أن ابن خلدون لم تكن لديه رؤية، ما بالك بنظرية عميقة في الموضوع، سيما ما يتعلق منه بتغير القيمة الشرائية للنقود في علاقتها بحجم الكتلة النقدية المتداولة، تماما كان الأمر مع تلميذه المقرئ¹.

يقول ديورانت وحل بالفرس ما حل بالميديين قبلهم...، وأصبح أكبر ما تهتم به الطبقات الأرستقراطية بملء بطونها بلذيذ المأكول والمشرب... وعُصت بيوت الأثرياء بالخدم الفاسدين المفسدين، وأصبح السُّكر الرذيلة الشائعة بين كل الطبقات². وكل هذا من توابع الترف، ومن ثم، يتبينه أن العدو الحقيقي للحضارة. وضرب خشيارشاي الأول أسوأ الأمثال لشعبه في الفسق والفجور... وبعد أن قضى هذا الملك عشرين عاماً في غمرة الدسائس الشهوانية، والتراخي والإهمال في شئون الحكم، اغتاله أرتيان أحد رجال حاشيته³. وليس في التاريخ كله ما يماثل المجازر المروعة والدم المراق اللذين تطالعا بهما سجلات الفرس الملكية إلا سجلات رومة بعد تيبريوس. وعندما يستفحل الظلم والفساد والاستبداد و انحطاط الأخلاق والقيم عند العامة والخاصة، سيما رجال الدولة والحكام، في زمن الغلاء وفساد النقود والمحن، لا بد أن يقضي ما يتبع ذلك من خراب ودمار إلى زوال الحضارات والدول، كما بين بخصوص الفرس حسب ما سمح به المقام.

ب. الحضارة العربية الإسلامية.

أما الحضارة العربية الإسلامية، فقد اختلف الدارسون من القدامى والمحدثين في تفسير تدهورها. والحال أن عمرها امتد خمسة قرون من عام 700 إلى عام 1200، إذ تزعمت العالم كله في القوة، والنظام، وبسطت الملك، وجميع الطباع والأخلاق، وفي ارتفاع مستوى الحياة، وفي التشريع الإنساني الرحيم، والتسامح الديني، والآداب، والبحث العلمي، والعلوم، والطب، والفلسفة⁴. ويرى محمود إسماعيل أن ابن خلدون، الذي جعل من الترف العدو الحقيقي للحضارة، توصل إلى حقيقة مهمة عجز عن الوقوف عليها الكثيرون من المحدثين. إذ ذهب إلى أن الطبقة الوسطى مسؤولة عن تدهور الحضارة العربية الإسلامية. لذلك، رد هذا الدارس على بعض التفسيرات التي اعتبرها خاطئة في تفسيرها لانهايار الحضارة العربية الإسلامية، سواء القائلة منها بأهمية العامل السياسي، أو العامل الديني، أو الأخطار الخارجية، بل قال من الخطأ التعويل على عامل العصبية. وهكذا لم يبق حسب رأيه سوى العامل الاجتماعي، باعتباره

1. لمزيد من التفاصيل بخصوص هذا الرأي انظر أطروحتنا في الفصلين الخاصين بالعملة في فكر ابن خلدون والمقرئ

2. ول ديورانت، قصة الحضارة، الشرق الأدنى، ترجمة، محمد بدران، المجلد الأول، ج، 2، بيروت، تونس، من دون، ص.454

3. ول ديورانت، قصة الحضارة، الشرق الأدنى، ترجمة، محمد بدران، المجلد الأول، ج، 2، بيروت، تونس، من دون، ص.455

4. ول ديورانت، قصة الحضارة، عصر الإيمان، ترجمة، محمد بدران، المجلد الرابع، ج، 13، بيروت، تونس، من دون، ص.

حجر الزاوية في تفسير أزمة الحضارة العربية الإسلامية، علما أن الأحوال الاقتصادية لعبت دورا أساس في صياغة الواقع الاجتماعي¹. وهكذا يربا أن انهيار الحضارة العربية الإسلامية يرجع الأمر إلى هزال البورجوازية وعدم قيامها بدورها التاريخي، لجملة من الأسباب، منها ارتباط مصالحها بمصالح الدولة، مما أفضى في نهاية المطاف إلى سيادة نمط الإقطاع العسكري².

وبقدر ما نوافقه الرأي على دور الأحوال الاقتصادية في صياغة الواقع الاجتماعي، بقدر من نرى أن ما وقع للعرب، هو نسخة محاكية تقريبا لما وقع للفرس مع اختلاف المكان والزمن والإنسان لأن أمور الدنيا متشابهة، وأحوالها متناسبة، وسيرورة التاريخ البشري تحكمها قوانين وسنن، ومن يغفل عنها، فإنها خلقه لا تخطئه، سنة الله في الخلق والكون. وحسبك أن سنة 656هـ، وفيها دخل هولاء كوف بغداد، كانت سنة غلاء ومحن، وارتفاع الأسعار يعني خلافا في عملية التبادل القائم على تداول النقود³. ويمكن الوقوف على ما طال أمر النقود من فساد في جل أصقاع العالم الإسلامي خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين بالرجوع إلى ما كتبه بعض القدامى وعلى رأسهم المقريزي. وفي السنة المذكورة كثر الوباء ببلاد الشام، فكان يموت من حلب في كل يوم ألف ومائتا إنسان. وفيها وقع الغلاء بسائر البلاد، وارتفعت الأسعار بدمشق وحلب وأرض مصر⁴. وهكذا يتضح أن السبب الأعظم فيما حل بحضارة العرب من محن وفتن وخراب ودمار، مما أفضى بها إلى الاضمحلال والزوال، هو فساد النقود وانهيار قيمتها، وما رافقه من غلاء ساهمت فيه باقي عوامل استفحال مرض السرطان الذي ينتشر أواخر الحضارات والدول، مثل الزيادة في الضرائب والكوارث والمجاعات والأوبئة، في ظل انحطاط الأخلاق والقيم.

إنه الهرم الذي إذا نزل بالدولة لا يرتفع، لأنه من الأمراض المزمنة التي لا يمكن دواؤها ولا ارتفاعها، لما أنه طبيعي⁵. ويحتاج هذا الرأي الخلدوني إلى تأمل وإعادة نظر. ذلك، كون تلميذه المقريزي يخالفه الرأي، إذ يقول إن الأمور إذا عرف سببها، سهل على الخبير إصلاحها. وقد كان هذا المؤرخ المحتسل، أدق وأعمق

1. محمود اسماعيل، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، مكتبة الفلاح، الكويت للنشر والتوزيع، ط، 2، 1410 هـ / 1990، ص. 271. 272.

2. محمود اسماعيل، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، مكتبة الفلاح، الكويت للنشر والتوزيع، ط، 2، 1410 هـ / 1990، ص. 274. 275.

3. محمد المرغدي، والمعطي سهيل، مقدمات علم الاقتصاد، الكتاب الأول، ط، 1، مطبعة دار النشر المغربية، 1992، ص 96.

4. تقي الدين المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق، محمد عبد القادر عطا، ج، 1، منشورات محمد علي بيضون، ط، 1، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1418. 1997 م، ص. 499.

5. عبد الرحمان بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج، 1، حقق نصوصه، وخرج أحاديثه، وعلق عليه، عبد الله محمد الدرويش، ط، 1، 2004 م. ص. 486.

بكثير من أستاذه ابن خلدون في فهم قضايا النقود، سيما علاقة حجم الكتلة النقدية المتداولة منها بالمستوى العام للأسعار، وما ينجم عن ذلك محن والفتن، تتلف رؤوس الأموال فيحصل كساد في الأسواق، وتراجع القدرة على الانفاق، فتعم البلوى والفساد، ويؤل أمر الناس إلى الزوال والدول والحضارات إلى الاضمحلال، كما حدث في زمنه للمجتمع المصري .

ومن مظاهر اختلال أمر النقود وانهايار قيمتها ببعض أصقاع العالم الإسلامي، قبل الاجتياح المغولي لبغداد، ضرب الفلوس بالقاهرة ومصر، سنة 622هـ، وصارت من جملة النقود... ثم أبطلت المعاملة بها في سنة 630، ثم عادت. وفيها ضربت مستديرة، وأمر السلطان أن يتعامل بالدرهم المصرية العتق، وحصل للناس ضرر عظيم بسبب ذلك¹. وفي سنة 622هـ، مات أبو العباس أحمد الملقب بالناصر لدين الله وكان قبيح السيرة في الرعية...²، ولم يطلق في طول مرضه شيئاً كان أحدثه من الرسوم الجائرة، فخرّب في أيامه العراق، وتفرق أهله في البلاد، وأخذ أملاكهم وأموالهم³. " وكان ظالماً عسوفاً، وكان يحب جمع المال، ويباشر الأمور بنفسه، مع سفكه للدماء، وفعله للأشياء المتضادة، فيغتصب الأموال ويتصدق، وشغف برمي الطير بالبندق، ولبس سراويلات الفتوة، وحمل أهل الأمصار على ذلك... وفي خلافته خرب التتر بلاد المشرق حتى وصلوا إلى همذان، وكان هو السبب في ذلك، فإنه كتب إليهم بالعبور إلى البلاد، خوفاً من السلطان علاء الدين محمد بن خوارزم شاه لما هم بالاستيلاء على بغداد، وأن يجعلها دار ملكه⁴. وانظر إلى أين وصل الأمر بالأمة في زمن فساد العملة والغلاء⁵، والاستعانة بالأعداء. "إنها الطامة الكبرى التي يصغر عنها كل ذنب عظيم"⁶، لما فيها من الرذالة وانحطاط القيم.

1. شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج، 29، تحقيق مصطفى فواز وحكمت كشلي فواز، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ص. 85. 86.
2. محمود مقديش، نزهة الأنظار في عجائب التوتريخ والأخبار، تحقيق، علي الزواري ومحمد محفوظ، المجلد الأول، ط، 1، دار الغرب الإسلامي، 1988م. ص. 276. 277.
3. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، راجعه وصححه، الدكتور محمد يوسف الدقاق، المجلد العاشر، ط، 4، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 2003، ص. 452. 453.
4. تقي الدين المقرئ، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق، مح(مد عبد القادر عطا، ج، 1، منشورات محمد علي بيضون، ط، 1، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1418. 1997م، ص. 341.
5. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، راجعه وصححه، الدكتور محمد يوسف الدقاق، المجلد العاشر، ط، 4، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 2003، ص. 457. 458. 465.
6. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، راجعه وصححه، الدكتور محمد يوسف الدقاق، المجلد العاشر، ط، 4، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 2003، ص. 452. 453.

وهكذا، جاء، حسب خالص جلي، طوفان بأجوج ومأجوج بعد ذلك ليعدم ولده المستعصم وأحفاده وحفيداته. وحتى يمكن فهم هذه الظاهرة المروعة أكثر من تاريخنا؛ وهو يهوي تحت السيف المغولي، فإن التاريخ ينقل لنا قصصاً لا تكاد تصدق، سواء من مستوى القيادة، أو مستوى الأمة، منها هذا الذي ذكر عن مراسلة السلطان العباسي الناصر لدين الله لجنكيزخان يدعو لغزو بلاد خوارزم، أو في نفس حكايات جلال الدين . الذي كان مغرماً بطواشي له . خادم خصي .، فعندما مات فقد عقله وامتنع عن الطعام والشراب، وأنكر موته، وحمل تابوته على رقاب قواد الجيش. أو في استعدادات الخليفة العباسي لمجابهة الحصار المغولي وهو مضطجع لجارية تلعب بين يديه وتضحكه، والنبال المغولية تتساقط على دار الخلافة كزخ المطر، ثم يصحو الخليفة حينما تقتل هذه المحظية بين يديه بسهم جاءها من بعض الشبابيك!، ويعقب ابن كثير على الحادثة بين الحقيقة والأسطورة فيقول أن السهم كان مكتوباً عليه: . إذا أراد الله إنفاذ قضائه أذهب من ذوي العقول عقولهم! . أو في قصة التتري الذي أمسك مسلماً ليذبحه، فلما أضجعه للذبح، استدرك أن سيفه قد سقط منه، فأمره بالبقاء حيث هو، ثم غاب الجندي التتري سوية وعاد وهو لا يكاد يصدق، فالمسلم مازال ينتظر الذبح لأن غريزة التمسك بالحياة قد تلاشت، فأمة من هذا النوع لا يحتفظ بها التاريخ، ولا يوفرها الجنس البشري بل يمشي القانون الإلهي¹.

وقد لعب الغزو الخارجي دوراً كبيراً في القضاء على الحضارة العربية الإسلامية. ففي المشرق استباح المغول بغداد وأحرقوا كتبها، وفي المغرب راح الأمراء المسيحيون يستعيدون إسبانيا قطعة قطعة حتى أنهم الوجود العربي هناك بسقوط غرناطة. وفي كلتا الحالتين كانت الآفاق قد أظلمت ولم تعد الظروف مجنّدة لازدهار العلم والفلسفة. لقد هجرتنا الروح . بتعبير هيجل . بل ماتت فينا². وقد سبق القول أن الحروب من أخطر العوامل المساعدة على استفحال المحن والفتنوغلاء الأسعار، وتعجل بزوال الحضارات والدول. ذلك؛ كونها تساهم في تقلص مجال الدولة، وبتقلصه، تتراجع كمية المبادلات، فترتفع الأسعار، وتندلع الفتن، وتلج الدولة إذا لم تسيطر على محنها وفتنها، إلى مرحلة الهرم. ومن علاماته تناقصها من جهة الأطراف³، بسبب الحروب والفتن وكان المغول يضعون الأسرى في مقدمة جيوشهم ويخبرونهم بين قتال مواطنيهم من أمامهم أو قتلهم من خلفهم. وفتحت مرو خيانة وأحرقت عن آخرها، ودمرت في اللهب مكتبتها التي كانت مفخرة الإسلام، وسمح لأهلها بأن يخرجوا من أبوابها يحملون معهم كنوزهم، ولكنهم لم يخرجوا على هذا النحو إلا ليقتلوا وينهبوا فرادى⁴.

1. خالص جلي، كيف تسقط الحضارات (1)، جريدة الأخبار، 6، مايو 2016 <http://www.alakhbar.press.ma>

2..هاشم صالح، الانسداد التاريخي، لماذا فشل مشروع التنوير في العالم العربي؟ دار الساق، الطبعة الإلكترونية 2011، ص. 127

3. عبد الرحمان بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج، 1، حقق نصوصه، وخرج أحاديثه، وعلق عليه، عبد الله محمد الدرويش، ط، 1، 2004م. ص. 322

4. ول ديورانت، قصة الحضارة، عصر الإيمان، ترجمة، محمد بدران، المجلد الرابع، ج، 13، بيروت، تونس، من دون، ص. 378

وصدق ابن خلدون الرأي إذ قال: "إذا كان الملك قاهرا باطشا بالعقوبات، منقبا عن عورات الناس وتعديد ذنوبهم، شملهم الخوف والذل، ولاذوا منه بالكذب والمكر والخديعة فتخلقوا بها، وفسدت بصائرهم وأخلاقهم، وربما خذلوه في مواطن الحرب والمدافعات، ففسدت الحماية بفساد النيات وربما أجمعوا على قتله لذلك، فتفسد الدولة ويخرب السياج"¹. وقد مات الخليفة العباسي المستعصم بالله مقتولا، بعدما أتلّف عساكر بغداد لنهيمته في جمع المال فدهي الإسلام وأهله بليته وإسناده الأمر إلى وزيره ابن العلقمي، فإنه قطع أرزاق الأجناد، واستجر التتار حتى كان ما كان². وقد قيل من عوامل ذهاب الملك غش الوزير، وسوء التدبير، وخبث النية، وظلم الرعية³. وهو ما فعله ابن العلقمي مع المستعصم العباسي.

ولم يلق الغازون بعدئذ مقاومة فعاثوا في أذربيجان، وبلاد النهرين، والكرج، وأرمينية (1234). واتهم المغول الخليفة المستعصم بأنه يتستر على العصاة، ويمنع ما وعد به من مساعدة على الحشاشين،⁴ وفي سنة 656هـ تحرك خاقان التتار لأخذ بغداد من يد المستعصم، وسبب ذلك أن وزيره العلقمي كان رافضيا سببا للشيخين، مستوليا على المستعصم عدوا له ولأهل السنة، يو افقهم في الظاهر وينافقه في الباطن، وكان قصد بتدبيره إزالة خلافة بني العباس وجعل الخلافة في الشيعة... فجعل يسعى في توقيف أمراءها وتعمير ديارها وذلك بمكاتبة هولاءكو خان آخر السلاطين المغولية⁵. وتكرر الرذائل مثلما تتكرر الظواهر. وفي السنة المذكورة ملك هولاءكو بغداد، وانقرضت دولة بني العباس منها. وصار الناس بغير خليفة إلى سنة 659هـ، وقتل الناس ببغداد وتمزقوا في الأقطار، وخرب التتار الجوامع والمساجد والمشاهد⁶.

وفي سنة 656هـ وقع الغلاء بسائر البلاد، وارتفعت الأسعار بدمشق وحلب وأرض مصر، وأبيع المكوك القمح بمائة درهم، الشعير بستين درهما، والبطيخة الخضراء بثلاثين درهما، وبقية الأسعار من هذه

1. عبد الرحمان بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج، 1، حقق نصوصه، وخرج أحاديثه، وعلق عليه، عبد الله محمد الدرويش، ط، 1، 2004م. ص. 362
2. تقي الدين المقرئزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق، محمد عبد القادر عطا، ج، 1، منشورات محمد علي بيضون، ط، 1، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1418. 1997م، ص. 501
3. شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج، 6، تحقيق علي بوملحم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، 1424هـ / 2004م، ص. 18
4. ول ديورانت، قصة الحضارة، عصر الإيمان، ترجمة، محمد بدران، المجلد الرابع، ج، 13، بيروت، تونس، من دون، ص. 379
5. محمود مقديش، نزهة الأنظار في عجائب التوتريخ والأخبار، تحقيق، علي الزواري ومحمد محفوظ، المجلد الأول، ط، 1، دار الغرب الإسلامي، 1988م. ص. 279
6. تقي الدين المقرئزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق، محمد عبد القادر عطا، ج، 1، منشورات محمد علي بيضون، ط، 1، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1418. 1997م، ص. 499

النسبة¹. وهذا ما يؤكد أن السبب الأعظم في خراب الحضارة العربية، هو فساد النقود وما واكبه من غلاء ومحن، بسبب فساد السياسة وسوء تدبير الحكام. وقد رافق هذا السبب الأعظم أسباب أخرى مساعدة على اضمحلال دولة بني العباس منها الضرائب التي تكثرت أواخر الدول ثم الكوارث والأوبئة التي تساهم بدورها في غلاء الأسعار، إضافة إلى انحطاط القيم. برهان ذلك، أنه في سنة 656هـ التي قتل فيها الخليفة المعتصم، كثرت الوباء ببلاد الشام، فكان يموت من حلب في كل يوم ألف ومائتا إنسان. ومات من أهل دمشق خلق كثير، وبلغ الرطل التمر هندي ستين درهماً². وبمهلكه انقضت دولة بني العباس من بغداد³.

ويعلق وول ديورانت على أسباب وتوابع هذا الاجتياح المغولي الذي عجل بزوال دولة بني العباس، ومعها حضارة العرب بقوله: "لما ارتد تيار فتوحهم. المغول. الدموي خلف وراءه اقتصاداً مضطرباً، وقنوات للري مطمورة، ومدارس ودوراً للكتب رماداً تذروه الرياح، وحكومات منقسمة على نفسها، معدمة، ضعيفة، لا تقوى على حكم البلاد، وسكاناً هلك نصفهم، وتحطمت نفوسهم. واجتمع الانغماس الأبيقوري في الملذات، والهزال الجسدي والعقلي، وخور العزيمة والعجز الحربي، والانقسام الديني والالتجاء إلى المراسم الغامضة الخفية، والفساد السياسي والفوضى الشاملة، اجتمعت هذه العوامل كلها وانتلفت لتحطيم كل شيء في الدولة قبل الغزو الخارجي"⁴. وتحتاج مسألة العامل الداخلي والخارجي في علاقتها بزوال الدول والحضارات إلى سجال وتأمل ونظر، وهو ما لا يتسع له المقام الآن، وسنجدله بإذن الله من أغراض البحث في المستقبل.

والراجع أنه لا حضارة من الحضارات عانت في التاريخ كله من التدمير الفجائي ما عانتها الحضارة الإسلامية على أيدي المغول⁵. وإذا ركز البعض على الترف وفساد الأخلاق والقيم في سقوط هذه الحضارة، فإننا نرجع سببها الأعظم إلى ما أصابها من خلال في تدبير أمر النقود والحفاظ على توازنات الأسعار، وفساد النقود دخلها الخلل في المعاش والنقصان في الأموال والمعاملات، فتوالت عليها المحن والغلاء والفتن، فاتجهت نحو الخراب والدمار والزوال. لا سيما وقد طمعت واستطالت الأعداء، وحصل الإنذار

1. تقي الدين المقرئ، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق، محمد عبد القادر عطا، ج، 1، منشورات محمد علي بيضون، ط، 1، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1418. 1997م، ص. 499
2. تقي الدين المقرئ، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق، محمد عبد القادر عطا، ج، 1، منشورات محمد علي بيضون، ط، 1، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1418. 1997م، ص. 499
3. تقي الدين المقرئ، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق، محمد عبد القادر عطا، ج، 1، منشورات محمد علي بيضون، ط، 1، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1418. 1997م، ص. 499
4. ول ديورانت، قصة الحضارة، عصر الإيمان، ترجمة، محمد بدران، المجلد الرابع، ج، 13، بيروت، تونس، من دون، ص. 381
5. ول ديورانت، قصة الحضارة، عصر الإيمان، ترجمة، محمد بدران، المجلد الرابع، ج، 13، بيروت، تونس، من دون، ص. 380

والإرجاف، وتفاقت الحروب والفتن في الأطراف، وخرجت الأعداء وأهل الكفر على السواحل، وأثروا آثارا في بعض القرى والمنازل، ولم يجدوا على ظهر البحر من المسلمين من يقابلهم ولا يقاتل، وإنما ذلك لضعف الأمر، ولنقص الحكم، وفساد السياسة، وسوء التدبير، وظهور أسباب الأذى عن تعمد لكثرة الإهمال، وعدم التفقد ووجود التقصير"¹. ولا يخرج هذا الكلام للأسدي الذي عاش في القرن التاسع الهجري عما حدث ل دولة بني العباس خلال سقوطها في القرن السابع الهجري. وهكذا لا نبالغ إذا قلنا ما نعيشه اليوم من تغير لقيمة النقود هو نفسه ما حدث منذ اليونان والرومان، وما يحدث مع العرب والغرب وغيرهم اليوم. ما يعني أن القضايا المنهجية المرتبطة بتغير قيمة العملة وانعكاساتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية... متعالية عن الزمن والمكان. وفي هذا السياق يرى أحد الدارسين، نعتقد أن ما نقله عن ديورانت من صور لمعالم تطور النقد ومراحله، يوضح أن ما نواجه اليوم ليس بدعًا من عصرنا ولا من طورنا الحضاري، وإنما هو تكرار لما عرفته البشرية منذ أخذت تتعامل بالنقد على اختلاف أنواعه وإن اختلفت أشكاله اختلافًا شكليًا، واختلفت كذلك بعض ظواهره ومظاهره². وفي ضوء ذلك نتساءل عن مستقبل حضارة الغرب الرأسمالي في المستقبل.

ج. مستقبل الحضارة الغربية.

بات واضحًا أن واقعات العمران. الظواهر التاريخية. تتكرر أمثالها بين زمن وزمن، رغم تغير عامل المكان والإنسان. وعليه، فما وقع للفرس والعرب وغيرهم في الماضي، لا بد من وقوعه للغرب الرأسمالي في المستقبل. ذلك؛ كون " الماضي أشبه بالآتي من الماء بالماء"³. ومن ثم، يتبين أن سيرورة التاريخ تحكمها ضوابط وسنن، ومن غفل عنها فإنها لا تخطئه، بل ويدفع فاتورة جهله بذلك مضاعفة الثمن. والعاقل يعرف أنه لم يخلد في هذا الوجود إنسان ولا أمة من الأمم. وليس من طبيعة الأشياء أن تبقى الأمم التي تختلف لغاتها وأديانها وأخلاقها وتقاليدها متحدة متماسكة زمنًا طويلًا. ذلك أن هذه الوحدة لا تقوم على أساس متماسك يحفظها من التصدع، ولا بد من الالتجاء إلى القوة مرة بعد مرة للاحتفاظ بهذه الرابطة المصطنعة⁴

1. محمد بن محمد بن خليل الأسدي، التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار فيما يجب من من حسن التدبير والتصرف والاختيار، تحقيق، عبد القادر أحمد طليمات، دار الفكر العربي، من دون، ص. 114. 115.

2. محمد الحاج الناصر، المعاملات الإسلامية وتغير العملة قيمة وعينا، ص. (2 / 9930) على الارتباط التالي:

<https://iefpedia.com/arab/?p=7421>

3. عبد الرحمان بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج، 1، حقق نصوصه، وخرج أحاديثه، وعلق عليه، عبد الله محمد الدرويش، ط، 1، 2004 م. ص. 93.

4. ول ديورانت، قصة الحضارة، الشرق الأدنى، ترجمة، محمد بدران، المجلد الأول، ج، 2، بيروت، تونس، من دون، ص.

وانظر ذلك في حال الغرب الرأسمالي اليوم، وغير ذي شك أننا نعيش في زمن تبدلت فيه الأوضاع والأحوال والقيم، والعلاقات بين الدول، وأن ميزان القوة بدأ يتزحزح للقوى الأكثر حيوية وفعالية وتطلعا إلى المستقبل، بحيوية وروح الأمل. زمن تعصف فيه الأزمات المالية والنقدية وما يواكبها من غلاء للأسعار ومحن وفتن، بالقوة الاقتصادية والسيطرة المالية والتجارية.. لبعض الدول. كما بدأت تنذر بتفكك العلاقات الاقتصادية والسياسية للقوى الرأسمالية التي ما تزال متحكمة في الحضارة الرأسمالية. والحال أن العالم المحيط بنا تحول إلى غابة عالمية¹، اجتاحتها كوارث طبيعية متعددة، وأوبئة جديدة فتاكة وغير معهودة. تماما مثلما استفحل فيها الظلم والطغيان، وبلغ مداه بالاعتداء على الضعفاء في كل أنحاء العالم. قال تعالى: " ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون"². وقال جل علاه: "وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين"³.

ولا جرم، أن الكوارث والأوبئة والزيادة في الضرائب تعتبر من بين العوامل المساعدة على استفحال الغلاء، كما أنها من أكبر علامات زمن المحن والفتن، الناتجة عن فساد أمر النقود، بفساد السياسة وسوء التدبير الحكام. سيما وأن الحضارة الغربية الرأسمالية تمتاز اليوم بتعدد علاقاتها وأزماتها الاقتصادية، في زمن المضاربات الوهمية، والمعاملات الربائية، وتدبير كثير من وجوه المعاش والأحوال الاجتماعية، بالقروض الفائدة وغيرها. . والحال، أنها تعاني في الوقت الحالي من أزمات اقتصادية ونقدية قوية، آخر نماذجها الأزمة المالية المعاصرة منذ سنة 2008، التي ما تزال تداعياتها الاجتماعية والسياسية في استفحال، وربما تتطور، إن لم تتم السيطرة عليها، إلى بؤادر الانهيار. وقد بدأ الكلام عن ترهل الغرب في ظل بؤادر تفكك علاقاته السياسية والاقتصادية في زمن بروز قوى اقتصادية وحروب إقليمية وعلاقات دولية وتغيرات نقدية وقيمية جديدة.

وهذا ما ينبئ أن هذه الحضارة مقبلة في مستقبل السنين والأيام على محن وفتن لا قبل لها بها، ولا قدرة على التحكم فيها، لتفكك أوصالها، وعجز عقولها عن اقتراح أسباب علاجها، وإن حصل، فلا يتم لجملة أسباب، الأخذ بها. وهكذا ستتجه على غرار سابقتها من حضارة الفرس والعرب نحو الخراب والدمار، وفق قوانين وسنن، أساسها فساد النقود وغلاء الأسعار، ثم الإسراف في الترف و انحطاط القيم. قال تعالى وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا، وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح، وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا"⁴ .

1. خالص جلبي، التراث وتجديد التفكير الديني، جريدة الأخبار، عدد، 2219، الثلاثاء، 11، فبراير، 2020.

2. سورة إبراهيم، آية، 42.

3. سورة الانبياء، آية، 11.

4. سورة الاسراء، آية، 16، 17.

وقد ظهر في الزمن ما يدل على المقدمات الكبرى لاستفحال الطغيان، ثم فساد السياسية وسوء تدبير أهلها. ولا يخفى على أهل العلم ما فيه من عدمية الأخلاق وانحطاط القيم، إذ التطبيع مع المثلية وتقنينها، وحرية استعمال الجسد وحمائيتها، وتبدل الثقافة والقيم، وهي أفعال لها دلالتها في توجهات المجتمعات وسيورتها التاريخية والحضارية. لتصل في نهاية المطاف إلى مرحلة الكوارث والأوبئة واندلاع الحروب واشتعالها، وقد لاحت بوادرها. وكل هذا يصب في خانة واحدة هي تعميق الأزمة واستفحالها واكمال قانون يحكمها، انهيار قيمة النقود وفساد أمرها حتى لا تقوم بأبسط وظائفها، ذلك بسبب فساد السياسة والتدبير، وما يرافقه من غلاء ومحن تنذر بزوال الحضارات والدول المسيطرة متوهمة القوة، وبظهور أخرى منافسة لها وتطمح في غزوها والسيطرة عليها لما تنهار مناعتها. فيكون مآلها الأولى الفناء والزوال سنة الله في خلقه وفي إقبال الحضارات والدول وذهابها.

ويصاحب هذا الطور من أطوار الحضارات والدول، نمط من القيم والأخلاق يخص زمانه ومكانه. تماما مثلما كان لزمن زوال الفرس والروم والعرب وغيرهم أخلاقه وقيمه. وحسبك في انتشار المثلية، وحرية استعمال الجسد، وطرق الأكل واللباس من العلامات ما يدل على نمط قيم الحضارة الغربية الرأسمالية المعاصرة، لضبط مراحل تطورها وزمن انهيارها، بضوابط زوال الحضارات والدول. والحال أن الإمبراطوريات بطبيعة تكوينها سريعة الانحلال، وإن الذين يرثونها تعوزهم جهود الذين ينشئونها، وذلك في الوقت الذي تهب فيه الشعوب الخاضعة لسلطانها وتستجمع قواها لتتناضل في سبيل ما فقدته من حريتها¹.

وكثيرة هي الشعوب التي سلبت حريتها الاقتصادية والسياسية والفكرية الدينية والقيمية في الأقاليم السبع للكرة الأرضية. ومعلوم أن العملات المعاصرة ليس بالمعدنية، ولا تخضع لقاعدة الذهب. ولذلك فانها تقيمتها الشرائية تحكمه ضوابط معاصرة جديدة، مثل العلاقات الاقتصادية والنقدية في علاقتها بحجم الاستهلاك والانتاج والقدرة على الانفاق وغيرها، إضافة إلى القوانين المطلقة القديمة، مثل التدليس والتزوير وطبيعة الحركة والعلاقات الاقتصادية الوطنية والدولية، وارتفاع حجم الكتلة النقدية المتداولة بسبب ضرب العملة بطرق لا طبيعية ولا قانونية وغيرها.

ولذلك، لا نوافق في الوقت الحالي ما ذهب إليه توينبي، كون كل حضارة باقية في الوقت الحاضر، تنهار فعلا وأنها في طريق التحلل، خلا الحضارة الغربية². فالراجح أنها في طور الانهيار، وأعراض المرض الطبيعي بدأت تظهر على جسدها. ويبدو الأمر غريبا، لكنه كذلك كان عند من عايشوا سقوط الفرس والروم والعرب. وروح الإبداع والعطاء العلمي، سيما من قبل الأقلية المفكرة والمبدعة التي يعتبرها توينبي وغيره دليلا على استمرار هذه الحضارة في الوقت الحاضر في إطار عامل التحدي والاستجابة، لا نراه مقياسا

1. ول ديورانت، قصة الحضارة، الشرق الأدنى، ترجمة، محمد بدران، المجلد الأول، ج، 2، بيروت، تونس، من دون، ص. 456

2. أرلوند توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ج، 1، ترجمة فؤاد محمد شبل، مراجعة، محمد شفيق غربال، المركز القومي

للترجمة، القاهرة، 2011، ص. 411

قطعيًا دقيقًا إذا ما اختل ضبط إطاره الزمني وسببه الرئيس. ذلك؛ أن هذا العطاء والإبداع والقدرة على التحدي والاستجابة في رأينا المتواضع، لا يختفي فجأة، ولا في سنة أسنوات قليلة معدودة من ناحية، كما أنه وهذا هو الأهم والأساس، إلا بعد حصول الأزمات والمحن المالية والنقدية بسبب سوء التدبير السياسي، في أواخر الحضارات والدول، فينتقل وضع القيم والأخلاق وسائر الأفعال من حال إلى حال، وتصعب السيطرة على هذه الأزمات والمحن، بل ويحصل العجز عن ذلك حتى ولو جاد العقل البشري من قبل بعض أفراد النخبة المفكرة، بطرق وأسباب علاجها، كما فعل المقرئزي زمن محن المجتمع المصري. والراجح أن أزمة الحضارة العربية الإسلامية كانت أزمة واقع وتاريخي، قبل أن تكون أزمة فكر¹. ويساهم في تكريس هذا العجز الفتن الداخلية والضغط والحروب الخارجية، كما حصل للعرب وربما للفرس وغيرهم في الماضي، لما فسدت أمورهم بفساد نقودهم، وتلحفهم، بل استبد بهم الخوف والخمول.

. وبنفس القانون والمنطق الذي أوهنت به الثورات والحروب المتكررة حيوية فارس الصغيرة، ذلك أن الحروب قد قضت على زهرة شبابها القوي حتى لم يبق من أبنائها إلا كل حذر محتاط²، ستضعف الحروب المعاصرة قلب الحضارة الغربية اليوم، وتمرضه. وعندما يعتل القلب ترهل الأطراف، وعندما يتوقف عن النبض، يموت الجسد. ومركز الحضارات والدول كالقلب الذي تنبعث من الروح، فإذا غلب على القلب وملك انهزم جميع الأطراف. تماما كما حدث للدولة الفارسية، لما غلب المسلمون على المدائن انقرض أمر الفرس أجمع³. وكما سيحدث للحضارة الغربية عندما يغلب على مركزها عقول القوى الصاعدة الراغبة في التحرر والسيطرة، بتقنياتها وإمكاناتها الجديدة.

ويصاحب هذا الواقع المتأزم اقتصاديا والمضطرب سياسيا، والمتسم بالصراعات والحروب وسفك الدماء، علامات انحطاط القيم، والكوارث والأوبئة، وترهل السلطة والجند، وتغير ما بأنفس الناس، في ظل علاقات بيع وشراء داخلية وخارجية، وطرق وحجم استهلاك، وإنتاج، ومعلوم دخل، وقدرة على الإنفاق، معقدة وتصعب السيطرة عليها في ظل متغيرات عدد الناس وتطلعاتهم وأذواقهم وباقي عوائدهم... فتتعدد الأزمة وتصعب السيطرة عليها، بتعدد أسبابها وتابعاتها وامتداداتها الاقتصادية والاجتماعية والنفسية والقيمية. وهذا هو الذي يؤدي كما لاحظ ذلك ابن خلدون وتوينبي وغيرهم إلى تغير القيم في أواخر الحضارات والدول، أي بعد الترف والرفاه ورسوخ الحضارة.

1. محمود اسماعيل، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، مكتبة الفلاح، الكويت للنشر والتوزيع، ط، 2، 1410 هـ / 1990، ص. 271. 272.

2. ول ديورانت، قصة الحضارة، الشرق الأدنى، ترجمة، محمد بدران، المجلد الأول، ج، 2، بيروت، تونس، من دون، ص. 456

3. عبد الرحمان بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج، 1، حقق نصوصه، وخرج أحاديثه، وعلق عليه، عبد الله محمد الدرويش، ط، 1، 2004 م. ص. 322. 323.

2. زوال الدول بين فساد النقود وبين غلاء الأسعار.

أما ما يخص زوال الدول فيمكن الوقوف على العديد من حالاتها من خلال الرجوع إلى كتب الحوليات وغيرها من المصادر والمراجع التاريخية، سيما ذات الصلة بسقوط الحضارات والدول مثل كتاب "تاريخ البشرية"، لأرلوند تويني أو "قصة الحضارة"، لول ديورانت¹. وسنكتفي هنا باعطاء إشارات عابرة حول بعض الدول التي حكمت المغرب خلال العصر الوسيط، وزال حكمها، بسبب فساد أمر نقودها بفساد سياستها وسوء تدبير حكماها.

واعتبر ذلك بما وقع لدولة زناتة والمرابطين والموحدين وغيرهم، هؤلاء الذين فسد أمر نقودهم في آخر عهدهم جميعا، مما أدى إلى غلاء الأسعار، سبب المحن والفتن التي أدت إلى خراب ودمار هذه الدول. سيما وقد ساهمت عوامل متعددة في استفحال هذا الغلاء والمحن، مثل الكوارث والمجاعات والأوبئة واستحداث الضرائب وغيرها. ومن الطبيعي أن تتدهور جراء ذلك أحوال الفئات الاجتماعية، خصوصا المستضعفة، بفعل المحن والشطط الضريبي المساهمان في غلاء الأسعار وتدني مستويات الأجور وقيمة العملة والمعيشة، وبالتالي اندلاع الثورات الاجتماعية المطالبة بالتغيير أو الإصلاح السياسي².

وكفى من الدلالة على صحة ما تقدم، ما حدث أواخر أيام المغراويين وبني يفرن من حكام زناتة، الذين كانت أيامهم بالمغرب نحو مائة سنة (362هـ إلى 462هـ)³، وهي فترة عانى فيها المغرب من الصراع وغياب الوحدة السياسية، فوصفها البعض بعصر الطوائف بالمغرب⁴. وسبب هذه الفتن التي عاشها المغرب، والتي أدت إلى خرابه وزوال حكم دولة زناتة، الغلاء المفرط⁵، لجملة من الأسباب منها فساد النقود. إضافة إلى الجور الضريبي من قبل الحكام الذين تناولوا على أموال الرعايا، ومن لم يو افقهم في شيء من ذلك أو صدهم عنه قتلوه⁶. وهكذا عمت البلوى والفساد، بفساد النقود والغلاء والجور والاستبداد فاتجه نظام الحكم إلى الزوال. وحسبك أن ابن الأثير ووصف هذه الدولة بكونها ردية مذمومة سيئة السيرة، لا سياسة

1. حول سقوط دولة المدينين وبعض أسباب ذلك، انظر، ول ديورانت، قصة الحضارة، الشرق الأدنى، ترجمة، محمد بدران،

المجلد الأول، ج، 2، بيروت، تونس، من دون، ص. 401

2. عبد المجيد النوري، العملة وتأثيراتها السياسية...م، ص، 85

3. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص. 143.

4. أحمد عزاوي، مختصر تاريخ المغرب الإسلامي، ج2، عصر الدول الكبرى، ص. 16.

5. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص. 142. 143.

6. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص، 144.

ولا ديانة¹. ذلك؛ أن حكامها كانوا حريصين على المداخيل المالية أكثر من حرصهم على توحيد البلاد². وهذا من جنس الخسة والنذالة في السياسة³.

والعدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها، ومن ثم، تنقبض أيديهم عن السعي في ذلك. فتكسدت أسواق العمران، وبيدعر الناس في الأفاق من غير تلك الإيالة في طلب الرزق، فيخف ساكن القطر، وتخلو دياره، وتخرّب أمصاره، ويختل باختلاله حال الدولة والسلطان⁴. ولما بلغ الفساد والجور والاستبداد مداه في زمن الجوع الشديد، والغلاء المفرط، خرج على حكام دولة زناتة الثوار، فضعف شأنهم، ونقص ملكهم، واختل حالهم باختلال أمر نقودهم، فكثرت الحروب والفتن، مع استفحال الظلم وقلة المؤن، فاضطرب الوضع الاجتماعي، وقصد المعارضون كرسي الملك فانتزعوه منهم، لما سلط الله عليهم المرابطين، فأزالوا ملكهم وشتتوا جمعهم وقتلوه وأخرجوهم عن بلاد المغرب بأسره⁵.

هكذا، كانت نهاية دولة هؤلاء على يد زعماء الحركة المرابطية الصاعدة، في ظل الأزمة النقدية التي ذهبت بملك دولة زناتة، وما اكبها من غلاء فاحش في الأسعار، وانهار للأوضاع المادية والاقتصادية، واضطراب للأحوال الاجتماعية والسياسية. وكذلك الحال وقع لدولة المرابطين والموحدين وغيرهم من بعدهم. فظاهرة زوال الحضارات والدول تحكمها قوانين وسنن، أعظمها فساد النقود وغلاء الأسعار.

ونختم ورقة العمل بكلام مقتضب حول زوال دلة الموحدين. فالمعلوم أن ضعف قوة الموحدين ساعد على صنع النقود الفاسدة⁶. تماما مثلما ضرب الثوار عملة خاصة بهم⁷. وبذلك عادت البلاد إلى تعدد العملات واختلافها⁸. وطبيعي أن يؤدي ذلك، سيما مع الفساد والتزوير، في ظل تراجع الإنتاج⁹، وغياب الرقابة الرسمية للدولة، إلى ارتفاع حجم الكتلة النقدية المتداولة منها، وبالتالي غلاء الأسعار وانهار قيمة النقود وفساد أمرها.

1. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8... م.س، ص. 330.

2. أحمد عزايوي، مختصر تاريخ الغرب الإسلامي، ج2... م.س، ص. 16.

3. ابن رشد، الضروري في السياسة... م.س، ص. 172.

4. ابن خلدون، ج، 1، ص. 477.

5. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص. 141 وما بعدها.

6. Ahmed Khanbaubi, les premiers sultans, mérinides, histoire politique et sociale, Edition, L'harmattan, .

paris, 1987, p. 126.

7. محمد رأفت النبراوي، النقود الإسلامية منذ بداية القرن السادس وحتى نهاية القرن التاسع الهجري، 1، مكتبة زهرا

الشرق، 2000، ص. 304.

8. شعبان عبد الرحيم، المسكوكات المرينية... م.س، ص. 17.

9. أحمد عزايوي، م.س، ص. 66.

وحسبك، أن غلاء الأسعار امتد على مدى زمني طويل من سنة 614هـ إلى 637هـ¹، واستمر في الزيادة حتى تنهى الحال في مزيد السعر إلى ما لا نهاية².

هكذا اندلعت المحن والفتن، فتراجع مجال الدولة وتقلص ظلها، وهو من أسباب غلاء الأسعار، وانقسمت الدولة إلى وقد جاء هذا التطور التاريخي للمعارضة المرينية، في ظل واقع اتسم بتزوير العملة³، وتدليسها، مما تسبب في ارتفاع حجم الكتلة النقدية المتداولة منها. كما اتسم بامتناع الناس عن أداء الضرائب⁴، وباستحداث غير الشرعية منها⁵، إضافة إلى انتشار بعض المجاعات⁶ والكوارث وكثرة الحروب، وارتفاع تكاليفها، وبتعثر التجارة، وتراجع كمية المبادلات، بتراجع مجال الدولة، وانعدام الأمن في الطرقات⁷.

وغير ذي شك، أن الأسباب المذكورة أعلاه، ساهمت بدورها في تعميق أزمة الغلاء، والمحن والعجز في ميزانية الدولة. التضخم، فعمت البلوى، ودخلت النظام الحاكم في دائرة الحرج، إذ أصابه المرض الطبيعي، بل قل السرطان الذي لا يرجى منه شفاء، فاتجه نحو الخراب والدمار ثم الزوال.

عملية، وصف بعض المؤرخين وعلى رأسهم ابن عذاري جزء من هذا الواقع الموحد المزمري، الذي يجسد بشكل أوضح نموذج من نماذج زوال الحضارات والدول، في زمن اعتكف فيه الحكام على اللعب واللهو والخمور، فأهملوا شؤون الرعية، وفوضوا الأمر للأقارب والأشياخ والوزراء، فتحاسدوا فيما بينهم على الرياسة... وجاروا في الأحكام⁸، بل ووصل إلى السلطة صبية لم يبلغوا الحلم، ولم تكن لهم تجربة ولا خبرة، سيما في مجال النقود والأسعار، فقادوا البلاد والعباد نحو المحن والخراب والدمار.

1. ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق، محمد إبراهيم الكتاني، محمد زنيبر، محمد بن تاويت،

عبد القادر زمامة، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1985، ج4، ص. 266.

. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص. 49.

2. ابن عذاري، م.س، ص. 266-267.

3. انظر، عبد المجيد النوري، م.س، صص. 72-73.

4. محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين، ط، 3، منشورات كلية الآداب الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار

البيضاء، 1420/2000، ص. 11.

5. ابن القطان، نظم الجمان... م.س، ص. 18.

6. ابن عذاري، م.س، ص. 266.

7. ابن أبي زرع، الذخيرة السنوية، ص. 36.

8. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص. 368.

وكان من نتائج هذا الفساد السياسي وسوء تدير الحكام، أن كانت ثلاثيات القرن السابع الهجري، فترة ثورات وفتن. ففي سنة 630هـ خلت بلاد المغرب (أزمة اقتصادية = تراجع الانتاج + كساد الأسواق..)، وكثرت فيها الجوع (أزمة اجتماعية = تراجع الاستهلاك والقدرة الشرائية + غلاء المعيشة)، والوباء¹ (أزمة ديموغرافية)، وبلغ ثمن الشعير، وهو من مواد القوت اليومي، سبعة دراهم للمد²، فاشتدت الفتنة³. واستمر الغلاء والوباء المفرط إلى غاية 640هـ وفيها هرب أكثر أهل البلاد⁴، كما حصل بمصر خلال القرن التاسع الهجري. والحال أن الدرهم الفضة كان يصرف بنصف درهم سنة 632هـ⁵.

وبدهي أن يواكب هذا الانهيار في قيمة العملة، وسعر الصرف، ارتفاع أسعار جميع المبيعات، وأن ينعكس هذا الغلاء متعدد الأسباب، على معلوم الدخل والأجور والقدرة على الإنفاق، في ظل انعدام الأمن وأزمة الإنتاج. والحال، "أن الناس ترمقوا من فيتور الزيتون والنانج، وما يدرون حامضا هو أم حلوا، من سوء ما حل بهم"⁶، بسبب المحن، وانعدام الأقوات، والغلاء الذي كان يعصف بالبلاد. وقيل أنه "لم يبق بأسواق أحد المدن خلال السنة المذكورة ما ينطلق عليه اسم شيء بوجه من الوجوه، وأغلقت الحوانيت"⁷ (أزمة اقتصادية = تراجع الانتاج + كساد الأسواق..). وانعكس هذا الواقع الاقتصادي المزري، على الأحوال الاجتماعية "فلم يبق من يلبس ثوبا يساوي عشرة دراهم... وإذا ظهر في السوق بعد أيام كثيرة شيء من خبز الشعير يحشر الناس عليه... وما يصل إليه إلا الكفاة الذين لهم تجلد على الاقتحام وصبره"⁸. وهكذا أصبحت القوة عاملا حاسما في الحصول على القوت اليومي، وهو الواقع الذي يمكن وصفه بالصراع الاجتماعي حول خبز الشعير، أو بحرب الشعير، أو ثورة الجياع وغضبهم. ولا يعدم الذي يتوصل إليه أن يجتمع عليه العشرون وأكثر من الضعفاء والمساكين حتى ينتزعوه منه قهرا، حسب صاحب البيان.

ولا يكاد يخالف هذا الواقع المغربي، ما قاله المقرئ والأسدي، بخصوص المجتمع المصري خلال القرن التاسع الهجري في شيء. تماما مثلما لا يخالف ما حدث عند زوال حضارة الفرس والعرب والروم، لولا الإيمان بالخصوصية، وفردية الأحداث التاريخية⁹، في ظل تشابه الظواهر الاجتماعية، وسيرورة

1. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص. 361.

2. الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق، إحسان عباس، ط، 2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984، ص، 605

3. ابن خلدون، العبر، ج... م.س 7، ص. 345

4. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص. 336.

5. ابن عذاري، البيان المغرب... م.س، ص. 325.

6. ابن عذاري، البيان المغرب... م.س، ص. 325.

7. نفسه، ص. 325.

8. نفسه، ص. 325.

9. هيجو اتكن، م.س، ص. 11.10.

التواريخ العالمية، بناء على ضوابط وقوانين خفية تتحكم في تكرار مثل هذه الظواهر التاريخية، رغم اختلاف الزمن والمكان، وينتظر أن يحدث مثلها في المستقبل.

فإذا شملت الفاقة والذلة الجمهور المصري خلال القرن التاسع الهجري، مع سوء الأحوال، حتى فني معظم أهل الخصاصة والمسكنة جوعا، بسبب كثرة ضرب الفلوس، وفسادها، واختلاف النقود، وارتفاع أسعار جميع المبيعات. فكذا وقع بالمغرب، زمن الرشيد، للأسباب عينها. وحسبك أن الناس كانوا يقتاتون من خبز كان يعمل من تابودا التي تنبت في الصحاري وفي الأنهار والسواقي، إضافة إلى عصائد تصنع من نوار الخروب. وإذا فني معظم أهل الخصاصة والمسكنة بمصر جوعا للأسباب المذكورة، فقد هلكت بالمغرب زمن الرشيد أمم لا تحصى للأسباب ذاتها. وكان يدفن في الحفرة الواحدة، المائة من الناس¹، (أزمة ديموغرافية = ارتفاع نسبة الوفيات + تراجع الإنتاج، وتدمير قوى الإنتاج)، قال أمر الناس على غرار ما حدث بمصر وغيرها، إلى الزوال، وأشرف المجتمع المغربي على الدمار، والنظام الموحد الحاكم على الاضمحلال. "فتغيرت الصورة الجميلة وتنكرت الدنيا باستيلاء المجاعة بالمغرب"²، وزال حكم دولة الموحدين بالمغرب. كما ذهبت بهجة الدنيا وزالت زينتها بمصر وضمحل إقليمها.

ولما كان هاجس هذه المحاولة مرتبطا بمحاولة تفكيك بعض مظاهر العلاقة القائمة فيما بين علم التاريخ وعلم الاقتصاد، في ضوء تفكيك العلاقة القائمة بين فساد أمر النقود، بفساد السياسة، وبين انهيار قيمتها الشرائية، وما يترتب عن ذلك من أزمات اقتصادية واجتماعية وسياسية، تؤذن بدمار البلدان وخرابها، واضطراب الأحوال وانفجارها، وربما انهيار الدول والحضارات وزوالها، فقد أسفر البحث عن جملة من النتائج، منها ما يلي:

خلاصة القول، يتضح مما سبق، أن علم التاريخ يعتبر أساس العلوم الإنسانية، بل وحقبتها الكبرى. ذلك؛ كونه يهتم بدراسة مختلف أنماط الفعل الاجتماعي البشري وأبعاده. سيما ما له بإقبال الحضارات والدول وازدهارها، أو بانهارها وزوالها، في علاقة ذلك بأمور السياسة والاقتصاد، خصوصا ما يتعلق منه بقضايا النقود والأسعار، وما يرتبط بها من رخاء وازدهار ورفاه أحوال، أو غلاء ومحن وفتن تخرب البلدان، وتزيل الحضارات والدول. لذلك، اعتبرنا علم الاقتصاد من أولى العلوم المساعدة لعلم التاريخ، بل والضرورية لعمل المؤرخ خلال رجوعه للماضي البشري، لدراسته الظواهر التاريخية، على أمل ضبط بعض القوانين المتحركة في تشابهها وتكرار أمثالها، خاصة ظواهر زوال الحضارات والدول، بهدف التنبؤ بها، أو السيطرة عليها، ومعرفة أسباب علاجها. وهذه أشرف فوائد التاريخ، حسب ما يبدو، وأجلها قدرا، إذ تساعد خبراء أهل التاريخ، وباقي المعارف، على معرفة أسباب تحقيق الرخاء والازدهار والرفاه، تماما مثلما تمكنهم من معرفة زمن المحن والغلاء والفتن التي تذهب بالحضارات والدول، وأعظم هذه الأسباب، كما نزع، فساد أمر النقود وغلاء الأسعار، بسبب سوء تدبير الحكام، وأخلاق العباد، والله تعالى أعلم. وتبقى هذه المحاولة المتواضعة ورشا علميا مفتوحا لمزيد من البحث والنظري المستقبل. والله ولي التوفيق.

1. ابن عذاري، م س، ص. 325..

2. نفسه، ص. 325.

الهوية والثوابت الوطنية نموذجا**الاستاذ المحاضر الدكتور مليكة عالم / جامعة الجيلالي بونعامة / خميس****مليانة / الجزائر**

Dr : Alem Malika

University/djillali bounaama / khemis miliana /Algeria

TITLE : The role of national history in preserving the cultural and civilizational heritage of
Algeria

National identity and constants as a model

الملخص :

تهدف الدراسة الى التعريف بإحدى النماذج التاريخية الرائدة في العالم العربي والإسلامي وهو النموذج الجزائري الذي أسهمت فيه المؤسسات الدينية كالكتاب والزوايا وكذا كتابات مؤرخيها في مواجهة القوة الاستعمارية بالقلم عن طريق النضال السلمي والكتابة للدفاع والحفاظ على ثوابت الأمة ومقوماتها الوطنية، مستغلة بذلك مآثر أسلافهم وتراثهم الثقافي والحضاري فيما تعلق بمسائل اللغة والدين والثقافة والأعراف وهو ما يمثل المعنى الحقيقي للهوية الوطنية العربية والإسلامية للجزائر حسب تلك الدراسات التاريخية

وللوقوف على أهمية الموضوع محل الدراسة والذي تتمحور اشكاليته الرئيسية حول مدى إسهام التاريخ الوطني من خلال نماذج لبعض الكتابات التاريخية الجزائرية في الدفاع عن الهوية الجزائرية والحفاظ على مقومات الأمة وثوابتها من أنواع وأساليب الزيف والتحريف الاستعمارية و سياسات الإدارة الفرنسية التغريبية ؟

summary :

The study aims to introduce one of the leading historical models in the Arab and Islamic world, which is the Algerian model in which religious institutions such as writers and angles, as well as the writings of its historians, confront the colonial power of the pen through a peaceful struggle and writing to defend and preserve the nation's constants and national ingredients, taking advantage of the exploits of their predecessors and their cultural and civilizational heritage. With regard to issues of language, religion, culture and customs which represents the true meaning of the Arab and Islamic national identity of Algeria according to those historical studies.

And to find out the importance of the subject under study, whose main problems revolve around the extent of the contribution of national history through models of some historical Algerian writings in defending the Algerian identity and preserving the elements of the nation and its constants of methods and methods of falsehood, colonial distortion and the policies of the French administration alienation?

مقدمة:

أنطلق في بحثي هذا من أقوال وشواهد لبعض المؤرخين الجزائريين ممن كان لهم الفضل الكبير في الدفاع عن الإرث التاريخي الثقافي والحضاري للأمة الجزائرية ، رغم الواقع المر الذي كانت تعيشه الجزائر في ظل الاحتلال الفرنسي وسيطرة الإدارة الاستعمارية على التراث والإرث المادي والمعنوي للجزائر أرضا وشعبا خلال حقبة وصفت بالمظلمة من تاريخ الجزائر مدة قارب القرن ونصف القرن (1830 الى 1962) .

ولعل هذه الحقبة الطويلة في ظل السياسات القمعية والوحشية للسلطة الاستعمارية الفرنسية قد أفقدت الشعب الى درجة ما فكرته أو قناعته بالتححرر من سيطرة الاحتلال وقيوده ، ومهما يكن من أمر فإن الجهاد الحقيقي ان لم يكن ينجح بالسلاح فقد ينجح أحيانا بالقلم.

وفي تعريف للتاريخ بصفة عامة والتاريخ الوطني خاصة حسب ما ورد عن المؤرخ الأستاذ أبو القاسم سعد الله في حديث له عن التاريخ أنه (التاريخ) يرتبط ارتباطا وثيقا بالأدب وأن كثيرا من المؤرخين بدأوا أدباء، لأن الأدب كفيل بشحن الفكر وصقل القلم وتوسيع دائرة المعرفة، أما التاريخ حسبه فيعرف بالفهم ويهدئ الانفعال، فيصبح ما هو حقيقة عند الأديب أسطورة عند المؤرخ وعليه فإن الباحث الموضوعي يستمد طاقته الضوئية كما وصفها من نور الحكمة والبصيرة.

وعليه فإن إحياء الذكريات والاحتفاء بها دون فائدة إذا ما أدركنا ظهرنا للقيم الحضارية أو أن نعجب بأفكار وآراء البعض دون أن نطبقها في حياتنا الحاضرة ، وهي دعوة حسبه للتأمل في حاضر البلاد وعلاقتنا مع التاريخ.

فمن هذا الدافع ونظرا لأهمية التاريخ ودوره في تمكين وتوطيد العلاقة بين الوطن والذات وما يرتبط بها من قيم ومبادئ وأسس لبناء الشخصية والهوية الوطنية بما تحويه من لسان وعقيدة و انتماء حضاري فكري وثقافي وأعراف وأعراف.....تميز المجتمع الجزائري عن الفرنسي ، شحذت همم هؤلاء الأدباء والمؤرخون للدفاع عن تراث أجدادهم وايصاله للأجيال ، إذ يرى أحدهم "أن الأمم الكبيرة هي التي تنتج مؤرخين كبار".

ولعلنا من خلال هذا القول ندرك أن الظروف التي مرت بها الجزائر طيلة عقود ان لم نقل قرون أدت إلى صقل مواهب تلك الفئة العظيمة من الكتاب والمؤرخين الذين اهتموا بالكتابة التاريخية التي تهدف إلى تربية النشء وتكوينه تكوينا سياسيا وثقافيا يجعله دوما متمسكا بأصوله غيورا على الحضارة التي ينتمي

إليها ومن أمثال هؤلاء نذكر على سبيل المثال لا الحصر كل من الشيخ توفيق المدني¹ ومبارك الميلي² وعبد الرحمان الجيلالي³ ممن كتبوا لصالح تاريخ الجزائر العام وهو ما كان يقتضي ذلك. انه لمن المسلم به أن تاريخ بلد ما لا يعتبر تاريخا بالمعنى الذي نفهمه إلا إذا كتب بأقلام أبنائه لسبب بسيط هو أن هؤلاء أدري من أي كان بمشاكل بلدهم وبتطورات التاريخ التي مر بها عبر العصور، فضلا عن معرفتهم الدقيقة لزمان ومكان وقوع الحادثة التاريخية والظروف الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية وما يترتب عنها من نتائج. وإذا أخذنا بهذا المبدأ فإلى أي حد ساهمت الكتابات التاريخية الجزائرية في الحفاظ على مقومات الوطن وشعبه وثوابته الوطنية وكذا ثقافته المجتمعية؟

1/ أهمية الكتابات التاريخية الوطنية ودورها في الحفاظ على الهوية الوطنية ومكانة التاريخ في المجتمع الجزائري:

تختلف مصادر التاريخ الوطني ما بين ما الارث المادي وأخرلا مادي إضافة إلى ما يتمثل في المخطوط وكذا الشهادة الحية ، إذ يحتوي الأرشيف الوطني الجزائري على رصيد تاريخي هام خاصة ما يتمثل في سلسلة المحاكم الشرعية التي تشكل في حد ذاتها رصيذا تراثيا وطنيا ومصدرا تاريخيا هاما حيث تتضمن هذه الوثائق المجالات المختلفة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية وكذا المعاملات المختلفة التي كانت تتم داخل المجتمع الجزائري⁴ ، والتي تعبر في طياتها عن جذور الفكر التاريخي والإرث الثقافي والحضاري للجزائر وهو ما تم اعتماده كمصدر أساسي في كتابة تاريخ الجزائر ، وما يتعلق به كذلك من قيم أو مقومات للشخصية الوطنية أو ما يجمع المؤرخون أو الدارسون على تسميته بالثوابت أو رموز السيادة الوطنية للجزائريين.

كما احتلت فكرة كتابة تاريخ الجزائر منذ الاستقلال حيزا كبيرا في اهتمامات الدولة الجزائرية الرسمية وغير الرسمية، و عليه فقد أخذت عملية التدوين اهتماما بالغاً لدى فئة المؤرخين والدارسين والمهتمين بالعملية إضافة إلى بعض من صنعوا تلك الأحداث على غرار المجاهدين مثلا (1954-1962) ممن

1- محمد توفيق المدني ، كتاب "هذه هي الجزائر" و"كتاب الجزائر" الذي ألفه سنة 1350 هـ / 1931 ردا على الاحتفالات الاستعمارية بالذكرى المئوية للاحتلال .

2 - مبارك الميلي ، كتاب تاريخ الجزائر في القديم والحديث الجزائر: 1364هـ / 1929 م

3 - كتاب "تاريخ الجزائر العام" لصاحبه الشيخ عبد الرحمان الجيلالي الذي يتضمن خمس أجزاء تشتمل على تاريخ الجزائر في جميع أطواره وحركاته السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية والأدبية والفنية والاقتصادية والعمرانية.....، وكانت عنايته أكثر بتاريخ الجزائر الإسلامي وحضارته لتعريف الشباب المسلم الجزائري بتاريخ وطنه ودعوته الى الاعتزاز بهويته ليدافع عنها ويتمسك بعروبيتها.

4 - رابح كنتور، أهمية الأرشيف المحلي، المحاكم الشرعية نموذجا في كتابة تاريخ الجزائر من القرن 16 م إلى القرن 20 م، ص

شاركوا في ثورة التحرير الوطنية ، فيما عرف بعملية التأريخ التي تشترك فيها الأطراف المختصة و غير المختصة في تشكيله ويغلب عليه طابع الذاتية ، إلا أنه يختلف في طابعه عن التاريخ لأنه يقوم بتفسير الحدث ، ويكون باحتراف من المختصين لأن الأمر يتطلب منهجا وتقنيات لا تتوفر إلا في الباحثين الكفاء و قد يغلب عليه الطابع الموضوعي .

وعلى هذا الأساس كانت عملية التدوين تتمحور أساسا حول كيفية التعامل مع الأرشيف في تفسير الأحداث التاريخية قصد تكوين استراتيجية هادفة لكتابة تاريخ الجزائر ضمن قواعد علمية أكاديمية من خلال كتابات أبنائها ، لأن الشعوب التي تعتمد على ما كتبه الآخر عن تاريخها شعوب خاملة على حد وصف أحدهم¹.

أما الشق الثاني من البحث فيتركز حول مسألة الهوية أو القيم والثوابت الوطنية الجزائرية في اهتمامات المؤرخين والكتاب الجزائريين خلال فترة الاستعمار مما كان له الدور الفعال في الحفاظ على ثقافة المجتمع الجزائري وتراثها الحضاري الذي يمثل أهم مقوم لهوية الأمة الجزائرية وشخصيتها الوطنية. وقبل الحديث عن موضوع الهوية في الكتابات التاريخية الجزائرية نتطرق إلى التعريف بالهوية والثوابت وما تحمله من معاني ومفاهيم للوقوف على حقيقتها التاريخية.

2/ ماهية ومفهوم الهوية والقيم والثوابت الوطنية لغويا وإصلاحيا:

تعد مسائل الهوية والانتماء الفكري الثقافي والحضاري وكذا القيم والثوابت الوطنية أهم القضايا التي شغلت الرأي العام العربي والأجنبي على حد سواء ، وذلك فيما تعلق بمبدأ القومية التي دفعت الشعوب من أجلها ضريبة الدم وانعدام الأمن والسلام وهددت عن طريقها أوطانهم ، حيث يرتبط مفهوم الهوية إلى حد كبير بمصطلح القومية ، وهو الانتماء إلى الأمة الواحدة والشخصية والكيان والسيادة والاستقلال ، وتطرح مسألة الهوية بمختلف تفصيلاتها المرتبطة بالأمة من لغة ودين وثقافة وتاريخ...² ، وإن كان من الصعب تقديم تعريف محدد للهوية لاختلاف نظرة الباحثين حول هذا الموضوع.

الأن مصطلح الهوية في عمومها يدل على الكيان أو الوجود لشخص ما أو شعب أو أمة ، كما أنها تتوقف على مقومات ومواصفات وخصائص معينة تمكن من إدارة صاحب الهوية بعينه ، وتنقسم إلى فردية وأخرى وطنية.

فالوطنية إذن وهي موضوع بحثنا هذا فهي مصطلح ارتبط أساسا بتمييز القوميات ابان القرن 19 م نسبة إلى الوطن أو الأمة، فهي مجموعة من الخصائص والملامح والمعايير التي تميز الأمة عن سائر الأمم أو الشعب عن غيره من الشعوب.³

1 - حميدة عميراي، التاريخ الوطني الجزائري في مفهوم التاريخ والتأريخ، جامعة الأمير عبد القادر، الندوة العلمية الدولية حول "كتابة التاريخ الوطني"، أكتوبر 2010، ص 25

2 - رضوان السيد، مفاهيم الجماعات في الإسلام، بيروت، دار المنتخب العربي، 1993، ص، ص 36-37

3 - أحمد بن نعمان، الهوية الوطنية، الحقائق والمغالطات، د، ط، الأمة، برج الكيفان، الجزائر، د، ت.

كما تمثل القيم والثوابت الوطنية المرتبطة بالهوية أهم مقوم للأمة الواحدة والتي تضم مجموعة من القيم والمبادئ التي توارثتها الأجيال وضحت من أجلها.

وقد اختلف اللغويون وكذا الباحثون حول تحديد مفهوم خاص بالقيم، إلا أن الكثير منهم أجمعوا على أن المفهوم اللغوي لكلمة قيمة وهي جمع قيم هي مادة تتعلق بعدة معان تدور في غالبيتها حول قيمة الشيء أو مقداره أو ما معناه التقويم والاعتدال والاستقامة وعدم الميل والثبات والتحكم في الأمور ومن ذلك قوله تعالى: " ذلك الدين القيم"¹ أي الثابت الذي لا يتغير والمستقيم الذي لا اعوجاج فيه.²

أما مقومات الهوية فتتمثل في اللغة والدين أساسا إضافة إلى التاريخ المشترك والثقافة المشتركة.³ حيث يقول الشيخ عبد الحميد ابن باديس في هذا الصدد حول الهوية "لا يتوقف تكوين الأمة على اتحاد دمها ولكنه يتوقف على اتحاد قلوبها وأرواحها وعقولها اتحادا يظهر في وحدة اللسان وأدابه واشتراك الآلام والأمال".

وعليه فإن القيم أو الثوابت هي مجموعة من القواعد والمبادئ التي تقوم عليها الحياة الإنسانية

4. وأن قيمة الشيء هي قدره وقيمة المتاع ثمنه وقيمة الانسان هي استقامته وثباته على الأمر.⁵ كما تشمل كذلك القيم الأخلاقية كالعقل والثقافة والابداع والقيم الجمالية كالجمال والحسن ... ، وقيم

منطقية كالصواب والتميز بين الخطأ والصواب والحق والباطل بالإضافة إلى قيم أخرى سياسية، اقتصادية واجتماعية وأعلىها درجة هي القيم الروحية والإنسانية.⁶ ومن هذا المنطلق ووفقا لهذه التعابير والمصطلحات يمكن لنا تحديد أهم القيم والثوابت الوطنية التي ترتبط بالهوية والشخصية الجزائرية ودور المؤسسات والمنظمات والهيئات والأحزاب في الدفاع عن مكانة القيم والثوابت الوطنية في المجتمع الجزائري ابان فترة الاحتلال ومدى نجاح الجزائريين في المحافظة على مقومات الأمة والوطن الجزائري.

1 - سورة الروم، الآية 30.

2 - محمد عبد الفتاح الخطيب، قيم الإسلام الحضارية نحو إنسانية جديدة، كتاب الأمة ع 139 ط1، دار الكتب القطرية، الدوحة - د، سبتمبر 2010، ص 19

3 - جمال قنان: قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، المؤسسة الوطنية للنشر، الجزائر، 1994، ص 106.

4 - شوقي ضيف، معجم الوسيط معجم اللغة العربية، ط4، 2004 ص 769 للتوسع أكثر أنظر ابن المنصور، لسان العرب المجلد الخامس ط1، 1997، دار المعارف القاهرة ص 1783.

5- ابن منظور مرجع سابق، ص 1783

6 - رياض بودلاعة، القيم الديمقراطية في الثورة التحريرية الجزائرية 1954-1962، رسالة ماجستير، التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة قسنطينة، 2005، ص 200.

3/ مكانة القيم والثوابت الوطنية في المجتمع الجزائري ابان العهد الاستعماري من خلال التاريخ الوطني: أجمع الباحثون والمؤرخون و الدارسون في الشأن الجزائري أن القيم الروحية والأخلاقية والدينية تمثل أسمى مظاهر القوة في المجتمع الجزائري باعتباره مجتمعا محافظا لا يندفع بسرعة إلى تغيير تقاليده و عاداته الموروثة جريا وراء المستحدث من الأمور، ولعل هذه الخاصية هي التي جعلته يحتفظ بكيانه بما فيه من تراث ثقافي وديني ولغوي وحضاري أثناء فترة الاحتلال الطويلة رغم ما تعرض له من حرب وقمع وتشريد من خلال سياسات فرنسا الاستعمارية الرامية إلى اذابته في الكيان الفرنسي العام.¹

وكما أن اللغة العربية هي جزء من هذا الكيان وأحد مقوماته فقد كان الدفاع عنها هو جزء من مقاومة الجزائريين للاستعمار عن طريق تشجيع التعليم بها فيما سمي بالتعليم العربي الحر الذي لعبت الزوايا والكتاتيب فيها دورا هاما في الحفاظ عليها من الاندثار والمسح الاستعماري لما لها من قيمة حضارية وتاريخية مهمة في المجتمع الجزائري، حيث كانت هذه المؤسسات تجمع بين العبادة والتعليم والتوجيه والإصلاح في آن واحد، فكانت بمثابة عمل الجمعيات الثقافية والخيرية من تربية للشباب والوعظ والإرشاد للكبار، و بث الروح الدينية الصحيحة في النفوس وكفالة الأيتام وإيواء المساكين، وضيافة المسافرين وأبناء السبيل²، فاستطاعت بذلك أن تحقق مكانة لها في نفوس الجزائريين، باهتمامها بشؤون المجتمع ومالها من دور في تربية النشء عن طريق التعليم وتحفيظ القرآن الكريم ونشره بين الأجيال المتعاقبة وإرثه الثقافي والحضاري الذي ساعد على حماية مرتكزات المجتمع الجزائري وثوابته. فكانت هذه المؤسسات تمثل حصنا منيعا للغة والثقافة العربية والإسلامية، كما عملت على نشر الإسلام الصحيح بين أوساط الشعب والتقريب بين طبقاته المختلفة بين الأغنياء والفقراء والعلماء والأميين فانصهروا في بوتقة واحدة، كما كان لها الفضل في التوفيق والإصلاح بين الجزائريين ونبذ الخلافات وفض النزاعات والخصومات بينهم.

التي كانت تقوم بها هذه المؤسسات في المجال العلمي، وانما تعداه إلى المجالات المتعددة والخاصة بشؤون الأمة والتكفل بقضايا الجزائريين كما سبق الإشارة إليه، ولا نستغرب حين نقول أن مكانة الزوايا والكتاتيب في المنظور الفرنسي كان كبيرا، وذلك لأن هذه المؤسسات بما فيها الزاوية أو الكتاب تمثل بالنسبة لهم (الفرنسيين) بمثابة مدرسة حربية لما تلعبه من دور روحي وديني وتعليمي³، يهدد أمن فرنسا في الجزائر، وأن تخريج دفعة من المتعلمين بها يعتبر بمثابة فرقة من الجيش أو أخطر منها.⁴

1- رابح تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس، رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر، ط5 2001، Edition ANEP، ص 42.

2- يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، الجزء الأول، ثورات القرن 19 م، ط2، منشورات المتحف الوطني للمجاهد 1996 ص 134.

3- محمد الطاهر العدواني، الزاوية تفود المقاومة وتشارك في حرب التحرير، أعمال الملتقى الوطني الأول والثاني، منشورات وزارة المجاهدين، الجزائر 2007 ص 69.

4- جمال قنان، التعليم الأهلي في الجزائر في عهد الاستعمار 1830 - 1944، مركز الدراسات التاريخية.... 2007 ص 13

ومن خلال ذلك يتبين لنا مدى أهمية هذه المؤسسات في تقويض دعائم المشروع التغريبي الفرنسي ، وأن جوهر الصراع بين الجزائر وفرنسا لم يكن صراعا عسكريا أو اقتصاديا بحتا بل تعداه إلى الصراع الجوهرى بين الغرب الصليبي والإسلام والمسلمين للقضاء على مقومات الشعوب الإسلامية ، فكانت الجزائر إحدى تلك الأقطار التي وجهت لها سهام الغرب الصليبي ، في إطار مشروع فرنسا الإدماجي الهادف إلى القضاء على مقومات الشخصية الجزائرية لما تحمله هذه المقومات من دلالات حول السيادة الوطنية وما يرتبط بها من تاريخ، وثقافة وأسس ومبادئ...

كما أن وجود فرنسا في الجزائر على حد زعم أحد مؤسسيها أنها جاءت إلى الجزائر لتقديم الأنوار للحضارة التقليدية (الجزائرية) واستبدالها بطابع الثقافة والحضارة الأوروبية الغربية¹.
4 / الهوية الوطنية الجزائرية في المشروع التغريبي الاستعماري الفرنسي من خلال الكتابات التاريخية الفرنسية:

ترى الكثير من الكتابات التاريخية الفرنسية أن وجود فرنسا في الجزائر كان لتقديم الأنوار لحضارة تقليدية يقصد بها الحضارة الجزائرية، واستبدالها بطابع الثقافة والحضارة الأوروبية الغربية². ومنه فقد ارتكزت جهود معظم المؤرخين إلى جانب جهود السلطة العسكرية إلى التركيز على المجال التاريخي والثقافي للجزائر في اعداد المشاريع الادماجية على الصعيد الثقافي لمحو الملامح المميزة للمجتمع الجزائري ، وتبعاً لذلك وجهت سهامهم لضرب الثقافة العربية الاسلامية التي تمثل في نظر الاستعمار القوة المحركة الرئيسية المضادة للمشروع الاستعماري الهادف إلى محو الشخصية الجزائرية ، وان الضراوة التي ميزت سعي المستعمر لتحطيم مقومات الشعب الجزائري بشكل مباشر نابعة من نفس الإرادة التي عمل بها لتفكيك المجتمع وتحويل الجزائر إلى مقاطعة فرنسية .

كما هدفت محاولة المسخ الفرنسية الثقافية كذلك إلى خنق اللغة العربية وتشويه الإسلام، عن طريق التعليم الفرنسي الذي يهدف بالدرجة الأولى إلى محاربة الهوية الجزائرية... ، وكذلك لأن تعليم الثقافة الفرنسية لم يستعمل إليه الجزائريين ، ولم تستطع فرنسا بكل جهودها وجميع أساليبها من خلاله استمالتهم ، لوعيمهم بأن السياسة التعليمية الفرنسية لم تكن تهدف إلى تثقيفهم ، لأن التعليم حسب الأطروحة الفرنسية كان يفضي أساساً إلى نشر الثقافة الفرنسية في الأوساط الجزائرية وتحطيم الثوابت الوطنية، ذلك المشروع الذي عارضه المعمرون بشدة ، وفي نظرهم أن تعليم الجزائريين يشكل خطراً على الاستعمار الاستيطاني ويهدد أمنهم³.

وأسهمت الصحافة الاستعمارية على غرار جريدة (المبشر) ، في كتابة تاريخ الجزائر من وجهة النظر الاستعمارية ، حيث أن اقتران الصحافة بالتاريخ بدأ مع أواخر القرن 19 م إلا أنها كرست كتاباتها لخدمة

1- شارل روبر آجرون ، تاريخ الجزائر المعاصرة من انتفاضة 1871 إلى اندلاع حرب التحرير 1954 ، المجلد الثاني ص 245.

2- آجرون ، مرجع سابق ، ص 245

3- آجرون مرجع سابق ، ص 395.

مصالح الاحتلال من عسكريين ومعمرين ، كما تعد ضربا من ضروب العنصرية الفرنسية بدفاعها عن المبادئ الفرنسية ومحاربة عروبة الجزائر واصلها¹.

5/ نماذج من الكتابات التاريخية الجزائرية للدفاع عن الهوية الوطنية الجزائرية وثوابتها:

أ / الهوية الوطنية الجزائرية في كتابات العلماء المسلمين الجزائريين :

أولت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من خلال مشروعها النهضوي الإصلاحية إلى محاولة التوفيق بين فئات الشعب الجزائري لرأب أي صدع من شأنه إضعاف الأمة الجزائرية الواحدة وتسخير جهودها لمحاربة ومواجهة سهام العدو المادية والمعنوية من سياسات وقوانين وسلوكيات هدفت في مجملها إلى ضرب أسس الأمة وركائزها من خلال بعث وحياء القيم الروحية والمعنوية للمجتمع الجزائري بما تحمله من تاريخ ولغة ودين وأعراف وطنية وبالتالي حماية مصير الأمة وسيورتها.

حيث كان للجمعية من خلال نشاط وكتابات علمائها وشيوخها وخريجي مدارسها وكذا اعلامها الصحفي دور في نهضة الروح الوطنية فكانت بمثابة مدارس للوطنية وأغلب عناوينها هي الإسلام والجزائر، مساهمة منها لزرع الروح الوطنية في النشء² الجديد، وإحداث حركية ثقافية وفكرية كان لها الفضل في إيقاف عجلة التدمير للقيم الفكرية والعقائدية للمجتمع الجزائري المسلم ، من خلال عمليات التجهيل تارة وتأثير الثقافة الفرنسية التغريبية تارة أخرى³.

ب/ الهوية والثوابت الوطنية من خلال كتاب "تاريخ الجزائر العام" لعبد الرحمان الجيلالي:

يعتبر دراسة التاريخ أعظم درس لتتبع أحوال الماضي لخدمة المستقبل ولرصد مآثر الماضي وتجنب أخطائهم وسقطاتهم والافتداء بهم، لأن التاريخ يعيد نفسه كما قيل. اذ يرى الشيخ العلامة عبد الرحمان الجيلالي ، أن التاريخ وحده هو الذي يعطينا فكرة واحدة عن سير المدنية والثقافة التي مر بها الوطن خلال العصور وله دور فاعل في سيورة العملية الثقافية وتنمية الأفكار وتوسيعها.

حيث ركز في كتاباته عن تاريخ الجزائر خاصة في العصور الإسلامية حسبه في ذلك الاسهام في

توعية الشباب الجزائري المسلم، ودعوته إلى تمجيد تاريخه الذي يصفه باللامع والعظيم، والثقة

1 - للمزيد عد الى زهير احدادن ، " مساهمة الصحافة في كتابة التاريخ " ، مجلة التاريخ ، المركز الوطني للدراسات التاريخية والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 ، صص 85-96 .

2 - كمال خليل، المدارس الشرعية الثلاث في الجزائر التأسيس و التطور، 1850 – 1951 ، قسم التاريخ ، جامعة منتوري ، قسنطينة ، ماجستير التاريخ ، المجتمع المغربي الحديث والمعاصر ، ص 33.

3 - أبو القاسم سعد الله " تدارس الثقافة العربية في المغرب العربي 1930-1954 مجلة الثقافة العدد 79 الجزائر جانفي – فيفري 1984 ص 07

للمزيد أنظر: أحمد بن نعمان " وضع اللغة العربية من محنتها الكولونيالية إلى اشراقه الثورة التحريرية، مجلة اللغة العربية، المجلس الأعلى للغة العربية دار الأمة، الجزائر 2005 ، ص 235.

بمستقبله الزاهر النير، مع نفخ روح¹ القومية فيه ، واعداده لوصل حاضره بماضيه ، وحتى تتكامل فيه أركان الحياة الأربعة وهي المحافظة على شخصيته وميزته وتقديس أسلافه الأمجاد، والتمسك بدينه والعمل على الإشادة بوطنه.....².

ويعتقد في ذلك أنه خلص تاريخ وطنه الماجد من أن يبقى مكتوبا عرضا ، ضمن تاريخ الأمم والشعوب الأقطار المستعمرة عوضا أن يكون فصلا ملحقا بكتاب ، ويقصد بذلك كتابات المؤرخين المستعمرين³.

كما يرى أبو القاسم سعد الله من خلال تقديمه لكتاب عبد الرحمان الجيلالي حول تاريخ الجزائر أن أهمية التاريخ بالنسبة للجزائريين لم يكن يخلوا من الروح الدينية ، إذ كان للاستعمار الفرنسي مبررات مرجعية تخفي أسبابا اقتصادية وسياسية وتاريخية واستراتيجية أفرزتها التحولات الكبرى التي جاءت بها الثورات الثقافية. ويصف أبو القاسم سعد الله الأوضاع العامة للجزائر خلال الاحتلال أنها كانت تعيش كسوقا ثقافيا وانحطاطا اجتماعيا على غرار معظم المناطق العربية والإسلامية⁴.

وأن التاريخ في الخمسينيات كان يكتبه الثوار وليس المؤرخين، فالتقارير والمحاضر أو الرسائل والبيانات الرسمية والتعليمات والصحف اذ تدل كلها على أن ميدان التاريخ قد تحول إلى ساحة الجبال والبراري أو الشوارع الضيقة في المدن الأهلية وليس إلى قاعات الجامعة ولا مكتتبها ومختبراتها⁵.

ج/ - الهوية الجزائرية من خلال كتابات محمد توفيق المدني حول الجزائر " هذه هي الجزائر " و" كتاب الجزائر " أنموذجا:

يلح توفيق المدني من خلال كتابيه " على ضرورة تذكير الأجيال بطبيعة الاستعمار الفرنسي الذي احتل الجزائر منذ 1830 إلى غاية ثورة التحرير الوطني، وأن فرنسا التي تدعي أنها ورثية ثورة 1789 وورثته بيان حقوق الانسان والمواطن، قد قامت بعمل شنيع لا نظير له في تاريخ البشرية وبلغت حد تجريد الأمة بكاملها من صفة " الشعب " تحت دعوى أن الجزائريين ما كانوا من الأيام شعبا، وأنهم ما كان لهم وجود إلا كجماعات بشرية متفرقة خاضعة لنظام الاندجينا. وأنه لم تجرؤ أي دولة استعمارية أن تبلغ من الأعمال التي تندرج في مسميات العنصرية والاسترقاق ما بلغته فرنسا التي كانت ترمي إلى طمس شخصية الجزائري ، أن تمحو ذاكرته أن له وطننا وأن له ثقافة وأن له تاريخا⁶.

2 - عبد الرحمان الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، الجزء الأول ، دار الأمة ، 2007 ، طبعة 2014 ص 26

3 - نفسه ، ص 27 .

4 - أبو القاسم سعد الله في تقديمه لكتاب تاريخ الجزائر العام ، مرجع سابق ، ص 2

5 - عبد الرحمان الجيلالي ، مرجع سابق ، ص 16 .

6 - أحمد توفيق المدني ، هذه هي الجزائر ، مرجع سابق ، المجلد 8 ، ص 6.

ويرى المدني أن العالم والعالم العربي بالأخص لا يعرف عن هذا الشعب ولا عن بلاده الشيء الكثير ، فالاستعمار الفرنسي أقام بين العالم وبين الجزائر التي يصفها بالثمينه الطيبة من أرض العروبة والإسلام جدارا حديديا ، أرادته أبديا وأراده الله مؤقتا .

حيث تعمد الاستعمار محق معالمه وطمس تاريخه ومحو جنسيته وإعدام شخصيته كي لا يذكر ذلك في عالم العروبة ولا ضمن بلاد الإسلام ولا بين صفوف الأمم الحرة .

إلا أنه ورغم وسائل البطش والقوة العسكرية الرهيبة تجاه الجزائريين المناضلين ومن أجل ذلك وحسبه كانت كتاباته حول الجزائر لتقدمها للجزائريين والعالم العربي بوجه خاص والعالم بوجه عام لتقويض دعائم الاحتلال ومد جسور الأخوة الصادقة وتمتين أواصر الأخوة والتضامن والكفاح المشترك للتحرير من قيود الاحتلال وسياساته الوحشية¹ .

حيث أصدر المدني " كتاب الجزائر " سنة 1932 معبرا من خلاله عن ردود الأفعال الوطنية تجاه الاحتفالات الاستعمارية المخلدة للذكرى المئوية له بالجزائر من 1830 الى 1930 ، لدحض فكرة الإدماج ورفض قانون الإلحاق (جوان 1834) الذي تقر بموجبه أن تصبح الجزائر مقاطعة فرنسية فكان الكتاب موجها لذلك .

واستهل كتابه بالتذكير بأهمية معرفة التاريخ والواقع رافعا شعار " الإسلام ديننا ، العربية لغتنا والجزائريوننا " واصفا فئة الشباب الجزائريين من المثقفين ثقافة فرنسية بالفارغين ذهنيا من الناحية التاريخية ، لجهلهم بتاريخهم الوطني وانجذابهم نحو التاريخ الدخيل حسب وصفه ونفورهم من تاريخ الجزائر المشوه² ، وكذلك من المؤرخين ممن خانتهم المراجع التي تربطهم بأصالتهم .

كما يؤكد من خلال كتاباته على إسلام الجزائر وعروبتهما وانها لم تكن فرنسية ولن تكون وأن أمالها هي الحرية والإستقلال³ ، واستدل المدني ليعطي وزنا وقيمة لعلمه بقول ابن باديس في نضاله مع فرنسا للحصول على الحقوق " بأن العلاقات لا تنظم ولا تنمو (يقصد مع المستعمر) إلا إذا تعاملنا بصفاء على قاعدة أنت أنت " و " أنا وأنا " ، أما أن نصبح أنت فذلك من المستحيل⁴ .

وأنه (المدني) يرفض الإدماج وأكد أنه " لم يرف في التاريخ العالمي أمة من الأمم وقع عليها الاحتلال فاندمجت بكليتها في المحتل وأصبحت وإياه حزا واحدا وذلك مخالف لنواميس الطبيعة على حد وصفه⁵ . ويرى المؤرخ الفرنسي " أجرون " : " أن الميل في كتابه " تاريخ الجزائر في القديم والحديث " وكذا المدني هما أول من ألفا في التاريخ الوطني الجزائري بالعربية ويقصد " كتاب الجزائر " ، الذي ألفه المدني

1 - المدني ، هذه هي الجزائر ، مرجع سابق ، ص 20-21 .

2 - المدني ، كتاب الجزائر ، دار الكتاب للنشر ، البليدة ، الجزائر ، الطبعة 2 ، طبق الأصل 1382-1963 ص 373

3 - للمزيد أنظر: المدني ، كتاب الجزائر ، مرجع سابق .

4 - نفسه ، ص 330 .

5 - المدني ، كتاب الجزائر ، مرجع سابق ، ص 329 .

سنة 1931 كما سبق الإشارة إليه ، والذي كان يحمل فوق غلافه شعار الجمعية الإسلامية ديننا والعربية لغتنا والجزائريون (وطننا) .

كما أحدثت تعابير جديدة تحمل معاني جديدة لم يألفها الجزائري وهي وطن وأمة جزائرية وشعب إلخ¹.

اذ لم يكن كتاب المدني للتاريخ ورصد المحطات التاريخية للجزائر عبر العصور بقدر ما كانت دعوته من خلال كتاباته الى ضرورة التمسك بتاريخ الأمة والوطن الجزائري والإرتباط بتاريخه .

كما عبر المدني كذلك من خلال دفاعه عن الجزائر والمدنية العربية الإسلامية وفي كثير من المحطات التاريخية من خلال محاضراته على الهوية الوطنية الجزائرية وأركانها بأنه دين يتبع الإسلام ولغة يختارها العربية بإعتبارها لغة للعلم والأدب والشعر والحكمة والداعي إلى الضرورة للدفاع أو المحافظة على الذات والدفاع عن الإستقلال في دائرة العروبة والإسلام ومن أجل المحافظة على المدنية العربية الإسلامية ضمن أقطار الإسلام المسيحية الأمة العربية والإسلامية².

د/ تاريخ ومواقف مع المفكر والأديب "عبدالله الركبي" حول الهوية والثقافة الوطنية الجزائرية: حسب عبد الله الركبي أنه: " رغم أن الكتابات التاريخية التي تناولت موضوع الهوية والثقافة الجزائرية قديمة إلا أن قضاياها لا تزال حية ومازلنا نخوض في الحديث فيها باستمرار لارتباطها بالحياة الثقافية والفكرية والسياسية والحضارية للجزائريين".

وحسبه كذلك: " فان الدفاع عن الهوية أو صراع الهوية لا يزال يدفعنا إلى الكتابة بل يكاد يطغى على كثير من ديباجات الأفلام في العقود الماضية ، وتعبيرا عن إيمانهم بها وإمتدادها عبر التاريخ"³.
فالثقافة هي التعبير الأصيل والحي عن الهوية ، كما أنها تعبر عن اللغة العريقة مثلما تجسدها العقيدة الروحية المتمثلة في الإسلام فضلا عن الوطنية والتراث الثقافي وبقية العناصر الأخرى التي تجعل من الجزائر أمة عظيمة وحضارة شامخة على مر الزمن⁴.

ومن هنا كان الاهتمام بالثقافة من قبل المثقفين والمفكرين والمؤرخين بالرد على المشككين في هذه الثقافة (العربية) وفي عراقها ودورها في الإبقاء على الكيان الجزائري رغم وسائل الاحتلال وأساليبه المختلفة في القضاء عليه .

1 - Histoire de l'Algérie contemporaine (1834 -1979) imprimerie de presse universitaire de France 1986 que je ? p88 sais

2 - للمزيد أنظر: آثار الأستاذ المدني محاضرات في اللغة والفكر والتاريخ ، المجلد العاشر ، عالم المعرفة للنشر والتوزيع الجزائر 2010 ص ص 134-138 .

3 - عبد الله الركبي ، " الهوية بين الثقافة والديمقراطية " ، دراسات ومقالات ، دار الكتاب العربي ، ط 1332 هـ الموافق ل 2011 م ، ص 27 .

4 - نفسه ، ص 80 .

وأن الصراع الثقافي يعود تاريخه إلى الماضي لما كانت تعيشه الثقافة إبان فترة الاحتلال والتي كرسّت اضطراب النظرة لموضوع الهوية بين المثقفين الوطنيين المغيبين والمهمشين على حد تعبير ركيبي، وبين دعاة الثقافة التغريبية التي حجبت عنهم الرؤية التاريخية مما دفعهم إلى التنكر لجذورهم و معاً دأبوا للثوابت الوطنية وفي مقدمتها اللغة العربية التي هي عنوان الثقافة ورمزها الأصيل¹.

ويرى كذلك أن التكامل الثقافي العربي هو دفاع عن هويتنا الشاملة كما أنها تطلع إلى المستقبل الواحد²،

و أن الوطنية لا تتجزأ وأن الولاء لا يتجزأ والإنتماء إما أن يكون كاملاً أو لا يكون، وحسبه أن اليوم إذا كنا نرفع شعارات الديمقراطية يقصد (بعد الإستقلال) وذلك للتمييز بين الوطن وغيره لا أن نسوي بينهما، ولا أن نسوي بين اللغة الأم وبين اللغة أو اللغات الأجنبية (يعني الفرنسية).

كما يدعو إلى التعامل مع كافة الثقافات التي تساعد على إثراء التجربة وتنمية الوعي والفهم الجيد للحياة ولكن بشرط أن لا تصبح بديلاً لأصل و بديلاً للغتنا وثقافتنا على حد تغييره بدعوى الديمقراطية أو غيرها.

و يطرح أسئلة تكاد تكون منطقية بالنظر إلى سياسة المستعمر وهي هل يمكن الإختيار بين تاريخ الوطن وبين تاريخ الغير؟ هل يحق الإختيار بين الجزائر ووطننا وبين غيره؟ أو إختيار عقيدة غير التي اختارها الشعب الجزائري منذ قرون؟ هل الفرنسي لو طرحت عليه هذه الأسئلة وهو لن يقبل طرحها أصلاً يرضى بغير الفرنسية لغة وبغير فرنسا ووطننا وبغير الحضارة العربية حضارة؟³

كما يرى أن بعضهم من بينهم المعربين بالإنغلاق ليفسروا نظريتهم ويؤكدوا أفكار من سبقهم من المنظرين الفرنسي في مناهجهم التي إستخدمت لتحطيم شخصية الشعب وهويته الوطنية بدافع ما يسمى الديمقراطية⁴.

1 - نفسه ، صص 7 - 9 .

2 - عبدالله الركيبي ، الهوية بين الثقافة و الديمقراطية دراسات و مقالات ، دار الكتاب العربي ط 1432 - 2011 ص ص 7 - 9-8 .

3 - الركيبي، " بين التعريب والتغريب " مقال منشور في مجلة الشعب ، جوان 1989 للمزيد أنظر نفس الكتاب ، الهوية بين مرجع سابق ص ص 113 - 114 .

4 - نفسه ، الهوية بين الثقافة و الديمقراطية ، مرجع سابق ص ص 114 - 115 .

الخلاصة :

بالرغم من تطور الكفاح مع تطور الزمن والشعوب فإن الجزائري يفرط في كل شيء عزيز في هذه الحياة إلا في دينه وجنسيته التي يراها جزءاً من عقيدته .

ففي فترة الثلاثينات من القرن العشرين وفي خضم المقاومة السياسية في ظل حملة الإدماج المسعورة التي تبنتها بعض الاتجاهات اعتماداً على تشجيعات فرنسا وقرارتها ، تهاطلت العرائض (الشكاوي) على وزير الداخلية الفرنسي الذي جاء الجزائر في جولة إستطلاعية عن سياسة الإدماج التي تزعمها (موريس فيوليت) الوالي العام السابق اذ ذلك ، والنائب البرلماني ، مذكرة هؤلاء بعودهم السابقة بمحافظة الجزائريين لديهم وتقاليدهم القومية ويعني بذلك معاهدة (5 جويلية سنة 1830)، ويرجون من عدالتهم التعهد بالبرنامج المذكور فيما يخص الجنسية والدين والأحوال والمآل¹ ، أنه مجتمع عربي مسلم شديد الإعتراف بعروبه قوي التمسك بإسلامه².

وأنه مجتمع محافظ لا يندفع بسرعة إلى تغيير تقاليده وعاداته ، الموروثة جرياً وراء المستحدث من الأمور، ولعل هذه الخاصية هي التي جعلته يحتفظ بكيانه بما فيه من تراث ثقافي وديني ولغوي وحضاري ، أثناء فترة الاحتلال الطويلة ورغم ما تعرض له من حرب شعواء من الإستعمار الفرنسي بقصد تحطيمه حتى يسهل عليه تنصيره وفرنسته وبالتالي إذا بتة في الكيان الفرنسي العام³.

1 - عبدالرحمان بن إبراهيم بن العقون، الكفاح القومي و السياسي من خلال مذكرات معاصر ، الفترة الأولى 1920-1936 ص 46 .

2 - رابع تركي ، الشيخ عبد الحميد ابن باديس ، رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر ، ط5 ، المطبعة الوطنية للنشر والتوزيع ، 2001 ، ص 42 .

3 - نفسه ص 44 .

الماركسية والتفسير الاقتصادي للتاريخ

الاستاذ المساعد الدكتور عمار خالد رمضان الربيعي / كلية الآداب / جامعة
البصرة

مقدمة:

تعد الماركسية مذهب اقتصادي وسياسي واجتماعي، وضع أسسه الفيلسوف الألماني كارل ماركس وزميله فريدريك انجلس. ولاشك في انها مجموعة من اهم مذاهب العصور الحديثة. وقد احتلت مكانة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والجزء الاول من القرن العشرين، تساوي على الاقل مكانة تعاليم روسو وأدم سميث قبل ذلك بمئة عام. والتي يقول عنها لينين بأنها أتمت على نحو عبقرى التيارات الفكرية الرئيسية الثلاثة في القرن التاسع عشر والتي تعزى إلى البلدان الثلاثة الأكثر تقدماً في العالم وهي: الفلسفة الكلاسيكية الألمانية، والاقتصاد السياسي الكلاسيكي الانجليزي؛ والاشتراكية الفرنسية المرتبطة بالتعاليم الثورية الفرنسية بوجه عام.

وتؤلف أفكار ماركس بمجموعها المادية الحديثة والاشتراكية العلمية الثورية المعاصرة بوصفها نظرية الحركة العمالية وبرنامجها في جميع البلدان. وإذا كانت المادية بوجه عام تفسر الوعي بالكائن وليس بالعكس فهي تتطلب عند تطبيقها على الحياة الاجتماعية للإنسانية تفسير الوعي الاجتماعي بالكائن الاجتماعي. أو بتعبير أدق تطبيق وتوسيع المادية بدأب وانسجام إلى النهاية حتى تشمل ميدان الظواهر الاجتماعية.

وقد أعطى ماركس صيغة كاملة عن الموضوعات الأساسية للمادية في تطبيقها على تقدم المجتمع البشري وتفسير حركته التاريخية، وأوضح ان الاساس الذي تنطلق منه عوامل التغيير والتطور في التاريخ هو البناء الاقتصادي للمجتمع. ولذلك سميت نظرية ماركس هذه بنظرية "المادية التاريخية" أو "التفسير الاقتصادي للتاريخ".

وفي نطاق هذا التحديد المختصر لمفهوم الماركسية، سنتناول في هذا البحث، دراسة العلاقة بين ظروف نشأة الافكار الماركسية في اوربا ومفهوم التاريخ باعتباره علما، التاريخ الذي لا يكتفي بمعرفة كيف حدثت الامور بل معرفة لماذا حدثت على نحو معين وليس على نحو اخر، والذي توصلنا اليه نتيجة لدراسة استقرار النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، التي كانت سائدة انذاك، على نحو ما بينه كل من ماركس و انجلس، وما تأثرا به من تيارات و أفكار كانت سائدة في عصرهما أو قبله، وكان لها انعكاسات على اغلب الاسس والمبادئ الاساسية التي بنيا عليه مذهبهما.

وعلى ذلك قسمت الدراسة الى مقدمة وثلاثة محاور وخاتمة، وعلى النحو الاتي:

المحور الاول: ظروف نشأة الماركسية وانتشارها في أوروبا. وذلك انطلاقاً من ان لكل عهد فلسفته الخاصة بتفسير التاريخ.

المحور الثاني: مصادر الماركسية الفكرية وأسسها الفلسفية.

المحور الثالث: الاقتصاد والتفسير المادي للتاريخ.

أولاً: ظروف نشأة الماركسية وانتشارها في أوروبا.

أخذت الرأسمالية خلال القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر تحل بالتدرج محل الاقطاعية كنظام اجتماعي واقتصادي في العديد من بلدان أوروبا، وسببت تطوراً اقتصادياً هائلاً للقوى المنتجة حطم الحواجز الاقطاعية وشكل نظاماً اقتصادياً عالمياً للنتاج والمبادلة. وكانت لها اهمية بالغة في تطور المجتمع والسياسة في أوروبا. حيث تحولت المجتمعات الزراعية الى مجتمعات صناعية فنشأة مدن صناعية جديدة وتوسعت مدن اخرى بفعل الاختراعات ونظام المصنع، وظهرت بدل المشاغل الحرفية والمانيفاكتورات معامل ومصانع ومناطق تعدين، ذلك ان رؤوس الاموال التي وفرتها التجارة كانت احد الاسس في قيام المصانع وحفر المناجم وفتح القنوات وتطوير اساليب ووسائل النقل والمواصلات.⁽¹⁾

ومن جانب اخر ساعد احلال الآلات في العمل محل أدوات الانتاج التقليدية، حتى ذلك الوقت، على نمو الانتاج على نطاق واسع، وعلى نمو رؤوس الاموال مما ادى الى ظهور الرأسمالية الصناعية، التي ساعد على ظهورها تقدم الصناعة واستخدام الآلات والمخترعات الجديدة التي ارتبطت بالقوة البخارية. وفي مدة زمنية قصيرة تحقق في ظل الرأسمالية الصناعية تطور للانتاج أكبر بكثير مما تحقق في كل تاريخ البشرية والمجتمعات الأوروبية السابق للرأسمالية، تلك المجتمعات التقليدية ذات الطابع الزراعي، فظهرت طبقات اجتماعية وقيم وتقاليدها لم تكن موجودة من قبل، وذلك بفعل الثورة الصناعية التي بدأت في بريطانيا في نهاية النصف الثاني من القرن الثامن عشر، ومن ثم انتقلت الى بقية انحاء أوروبا في بداية القرن التاسع عشر⁽²⁾. تمثلت مظاهر الثورة الصناعية في زيادة الثروة وظهور طبقة الرأسماليين الصناعيين، التي كانت تشكل الطبقة الوسطى التجارية والزراعية قبل الثورة الصناعية، وارتفاع مستوى المعيشة، ووفرة الانتاج وجودته، وتكاثر السكان ونمو المدن. ولم يقتصر تأثير الثورة الصناعية على تلك التغيرات الجذرية، بل انها تعدت ذلك وشملت تغيير هيكل البيئة الاجتماعية وأعلنت عن ظهور طبقة جديدة وهي طبقة العمال

1 ((افاناسييف، في الشيوعية العلمية، ترجمة: عبد الرزاق الصافي، ط3، منشورات الطريق الجديد، بغداد، 1976، ص13، 34.

2)) محمد مظفر الادهمي، تاريخ أوروبا الحديث في القرن التاسع عشر، وزارة التربية، بغداد، 1990، ص83-84، 113.

ومشاكلهم، بفعل تحول العمال المنزليين والمزارعين الى عمال مأجورين لا يملكون ارضاً، والتي اخذت اهميتها تزايد منذ نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر.⁽¹⁾ وترتب على هذه الظاهرة انقسام المجتمعات الصناعية الى طبقتين رئيسيتين هما: الطبقة الصناعية الرأسمالية (البرجوازية)⁽²⁾، والطبقة العاملة النامية (البروليتاريا)⁽³⁾. ولقد اعتمد نمو كل من هاتين الطبقتين على مبادئ وفلسفات كان لها تأثيرها الكبير في نمو مصالحهما وتضاربهما. فكانت الطبقة العاملة قد وقفت الى جانب الطبقة البرجوازية الصناعية النامية عندما كانت الاخيرة تناضل ضد ما تبقى من العلاقات الاقطاعية، وبعد نجاح الثورات البرجوازية في اوروبا وما تبعها من انتقال السلطة السياسية الى ممثلي الطبقة البرجوازية الصناعية اصبح واضحاً اكثر من اي وقت مضى بان مصالح هاتين الطبقتين على طرفي نقيض، لان الاكثرية، اي العمال، تنتج والاقلية، أي الرأسماليين، هم الذين يستحوذون على منتج عمل الاكثرية⁽⁴⁾. وان هذا التناقض الاساسي في الرأسمالية، الذي هو تعبير حقيقي عن التناقض بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج، والتناقض بين الطابع الاجتماعي لعملية الانتاج والشكل الرأسمالي الخاص للامتلاك، يولد الازمات والبطالة ويثير صراعاً طبقياً لا مهادنة فيه بين البرجوازية والبروليتاريا، صراعاً نتيجته الثورة الاشتراكية واستبدال الرأسمالية بالاشتراكية.⁽⁵⁾ وعلى هذا الاساس، اخذت تبلور المأساة الاجتماعية للطبقة العاملة الاوروبية التي كانت محرومة، وخاصة في المراحل الاولى لقيام الصناعة، من كل الحقوق الطبيعية للانسان ومن الملكية الخاصة لوسائل الانتاج، والطبقة الاكثر تعرضاً للاستغلال في المجتمع الرأسمالي بسبب تطور ادوات العمل المستخدمة في

1)) عبد القادر يوسف الجبوري، التاريخ الاقتصادي، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، 1979، ص 199.

2)) ((نعني بالبرجوازية طبقة الرأسماليين المعاصرين، مالكي وسائل الإنتاج الاجتماعي الذين يستخدمون العمل المأجور))، ملاحظة انجلس للطبعة الانكليزية للبيان الشيوعي عام 1888. نقلا عن: ماركس، انجلس، بيان الحزب الشيوعي، دار التقدم، موسكو، 1968، ص 36.

3)) ((في عام 1838، استخدم سان سيمون (1760-1812) تعبير ((البروليتاريا)) لكي يصف الذين لا يملكون أي نصيب في الثروة العامة، ولا يتمتعون بأي ضمان من ضمانات المعيشة، وليس لهم ماض، وليس لهم مستقبل. ثم استخدم كارل ماركس تعبير البروليتاريا بمعنى "الشعب العامل" الذي يستخدم الأساليب الاقتصادية الحديثة في ظل النظام الرأسمالي، والذي يعي الاستغلال الواقع عليه من جانب الطبقة الرأسمالية. ويقول ماركس ان البروليتاريا هي الطبقة التي تتحمل كل أعباء المجتمع بدون ان تتمتع بأية ميزة من ميزات هذا المجتمع، والتي تجد نفسها مضطرة الى معارضة جميع الطبقات الأخرى، والتي تمثل في الوقت ذاته الحاجة الى حل جميع المتناقضات وتوحيد جميع القوميات. والبروليتاريا، في رأي ماركس، هي "نتاج تحلل المجتمع، وهي نتاج الرأسمالية باعتبارها الدليل على انقسام المجتمع وتحلله". وتعني البروليتاريا طبقاً لملاحظة انجلس للطبعة الانكليزية للبيان الشيوعي عام 1888 (طبقة العمال الاجراء المعاصرين الذين لا يملكون اية وسائل انتاج فيضطرون بالتالي الى بيع قوة عملهم لكي يعيشوا). للمزيد ينظر: دار الادبيات السياسية، المعجم الفلسفي المختصر (رؤية ماركسية)، ترجمة: توفيق سلوم، دار التقدم، موسكو، 1986، ص 290-291.؛ ماركس وانجلس، المصدر السابق، ص 36.

4)) عبد القادر يوسف الجبوري، المصدر السابق، ص 199؛ محمد مظفر الادهي، المصدر السابق، ص 127.

5)) افاناسييف، المصدر السابق، ص 35.

النشاط الانتاجي في عصر الرأسمالية. حيث ان تراكم رأس المال وتنمية الثروات في مجتمع الثورة الصناعية، كان يقوم في القسم الاكبر منه على أستحواذ الرأسماليين على الفرق بين القيمة النقدية لما ينتجه العمال من بضائع وخدمات ومقدار الاجر المنخفض الذي يتقاضونه مقابل عملهم الانتاجي، هذا الفائض الذي كان من حق العمال كمنتجين فعليين، كانوا يحرمون منه لان الرأسماليين، ملاك رأس المال واصحاب المصانع، كانوا يأخذونه منهم كريح مقابل توظيفهم واستثمارهم لرؤوس اموالهم وقد سمي هذا الفرق في التراث الاقتصادي بـ (فائض القيمة)، وبتأثير هذا الوضع فقد كانت الطبقة العاملة لا تحصل الا على اقل الاجور وتعيش في وضع الكفاف ان لم يكن دونه⁽¹⁾. ولم يكن من الممكن الا ان تنعكس هذه التغييرات الاجتماعية في الحياة الفكرية للمجتمع، فظهرت تعاليم اشتراكية عكست احتجاج الجماهير الشعبية من الشغيلة (البروليتاريا) ضد النظام الاجتماعي القائم، مثيرة في البداية احتجاجها غير الواعي ضد النظام الرأسمالي. ولقد كانت تعاليم الاشتراكيين في القرن التاسع عشر انعكاساً لنضال البروليتاريا ضد البرجوازية واحتجاجها غير الواعي ضد عبودية الاجر الرأسمالي⁽²⁾. فالعمل المأجور، الذي هو أحد ميزات بنية الاقتصاد الرأسمالي، يشكل أحد جذور انقسام المجتمع الرأسمالي إلى طبقتين مختلفتين بالأساس: الطبقة العاملة التي لا تستطيع أبداً أن تصبح بواسطة مداخيلها مالكة وسائل إنتاج، وطبقة مالكي وسائل الإنتاج أو الرأسماليين⁽³⁾. غير ان هؤلاء الاشتراكيين كانوا مثاليين في مبادئهم التي لم تكن كافية لتثبيت دعائم الاشتراكية ولذلك وصفت اشتراكيهم بالخيالية او الطوبائية.

ومع تقدم العلاقات الاجتماعية، وتعمق تناقضات الرأسمالية نتيجة لعلاقات الانتاج الرأسمالية التي ولدت دافعاً لتطوير الانتاج كالريح الرأسمالي، اشتد الصراع الطبقي بين العمل ورأس المال الذي اصبح مصدراً هاماً للتطور الاجتماعي ومحتواه، ظهر المفهوم الماركسي للاشتراكية الذي طرح تصوراً جديداً لتحقيقها يقوم على اساس الثورة الطبقيّة العمالية للقضاء على النظام الرأسمالي وسيطرة الطبقة الرأسمالية و اقامة النظام الاشتراكي وسلطة الطبقة العاملة التي اعتبرها الطبقة الوحيدة المؤهلة بفعل ظروفها لاداء هذه المهمة التاريخية⁽⁴⁾. وذلك أولاً وقبل كل شيء لان الطبقة العاملة هي الطبقة الاكثر ثورية في المجتمع الرأسمالي. ولانها محرومة من الملكية الخاصة لوسائل الانتاج وهي الطبقة الاكثر تعرضاً للاستغلال في المجتمع الرأسمالي. ولهذا السبب بالذات فإن الطبقة العاملة هي اكثر من أي طبقة اخرى، ذات مصلحة بتصفية الملكية الخاصة والاستغلال، وهذا يعني انها الطبقة الاكثر ثورية، والاكثر حزمياً تجاه الطبقة الرأسمالية. كما ان الطبقة العاملة أكثر ثورية أيضاً لانها مرتبطة بالشكل التقدمي للانتاج الصناعي – الانتاج الصناعي الكبير. ذلك ان ظروف تطور الانتاج نفسها تجعل من الطبقة العاملة الاكثر

1)) محمد مظفر الادهي، المصدر السابق، ص 132.

2)) افاناسييف، المصدر السابق، ص 14، 20.

3)) أرنست ماندل، مدخل إلى الاشتراكية العلمية، ط 1، ب. م، 1974، ص 9.

4)) افاناسييف، المصدر السابق، ص 35؛ محمد مظفر الادهي، المصدر السابق، ص 136.

تنظيماً، والاكثراً انضباطاً والاكثراً وعياً⁽¹⁾. ولان "جميع الطبقات الاخرى تنحط وتهلك مع نمو الصناعة الكبرى، أما البروليتاريا فهي، على العكس من ذلك، اخص منتجات هذه الصناعة"⁽²⁾. اذ ان البرجوازية باقامتها الصناعة الكبيرة تعمل على تجميع العمال وتمركزهم في مدن ضخمة ومعامل ومصانع هائلة. والعمال بدورهم يعملون بتعاون، في مجاميع كبيرة وبهذا فانهم يدخلون بصراع مع البرجوازية وسرعان ما يبدأون بأدراك ضرورة التنظيم والضبط الصارم. كما وانهم يقتنعون بأن ظروف عملهم وحياتهم شاقة في كل مكان، وأنهم في كل مكان يواجهون المستغل نفسه (الرأسمالي). ومن هنا يتولد لدى العمال ويتطور الوعي الطبقي والطموح للوحدة ليس على الصعيد الانتاجي فحسب وانما على الصعيد الوطني ايضاً ومن ثم على الصعيد العالمي ايضاً.⁽³⁾

وعليه فإن ظروف عمل وحياة الطبقة العاملة تجعل منها الطبقة الاكثر قدرة على قبول الافكار الثورية التقدمية، واستيعاب النظرية التقدمية. بعبارة اخرى، ان الطبقة العاملة وفق المفهوم الماركسي هي بالضبط القوة الاجتماعية التي ولدتها الرأسمالية والمدعوة للقيام بالثورة الاشتراكية وبهذا تكسب الانسان وعمله وتحرره من الاضطهاد والاستغلال، من تأثير العلاقات الرأسمالية، ومن علاقات الملكية الرأسمالية. وهي حين تقوم بالثورة وفقاً لهذا المفهوم ليس لديها ما تفقده فيها سوى "قيودها واغلالها، وتربح من ورائها عالماً بأسره"⁽⁴⁾.

بدأ النشاط العلمي والثوري لكارل ماركس (Karl Marx)⁽⁵⁾، وفريدريك انجلس (Friederich Engels)⁽⁶⁾، في المانيا في اربعينيات القرن التاسع عشر، وقد كان هذا زمن تطور عاصف للرأسمالية التي ترسخت في

1)) افاناسييف، المصدر السابق، ص 42-43.

2)) نقلا عن: ماركس، انجلس، بيان الحزب الشيوعي، ص 51.

3)) المصدر نفسه، ص 48 – 49؛ افاناسييف، المصدر السابق، ص 43.

4)) نقلا عن: ماركس، انجلس، بيان الحزب الشيوعي، ص 86.

5)) كارل ماركس (1818-1883): فيلسوف واقتصادي الماني، صاحب النظرية الماركسية. ولد بمدينة تريف بالمانيا في الخامس من شهر ايار عام 1818، لاسرة برجوازية يهودية. وتلقى العلم في جامعتي بون وبرلين، حيث درس القانون والفلسفة والتاريخ وحصل على درجة الدكتوراه. اقتحم ميدان العمل السياسي لاول مرة في عام 1842 – 1843 حين كان يدير صحيفة (الاجازيت رينان) بمدينة كولونيا. ولم تلبث هذه الصحيفة ان اغلقت فذهب الى باريس حيث عاش بين الاوساط الاشتراكية وتعمق في دراسة تاريخها. كان متأثراً بالفلسفة الالمانية وبخاصة فلسفة فيورباخ وهيغل، وبالنظريات الاقتصادية المعاصرة فتمكن من المزج ما بين الجانبين لاجراء نظرية في تطور النظم الاجتماعية على اساس الاشتراكية العلمية. كما اهتم ماركس بجميع حركات البروليتاريا وبحركة البروليتاريا الروسية بنوع خاص، وكتب مقدمة لترجمة البيان الشيوعي الى اللغة الروسية. ينظر للمزيد: بول لويس، الفكر الاشتراكي في مائة وخمسين عاماً، ترجمة: عبد الحميد الدواخلي، ج 1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1972، ص 159-166.

6)) فريدريك انجلس (1820-1895): اشتراكي الماني ساهم مع ماركس في وضع أسس النظرية الاشتراكية (العلمية)، وتعاون معه تعاوناً وثيقاً في صياغة البيان الشيوعي الشهير، الذي يعد وثيقة تاريخية، عام 1847، والذي صدر بوصفه اول برنامج لاول حزب شيوعي في العالم وهو (عصبة – اتحاد الشيوعيين)، وهي رابطة امنية للشغيلة. ولد في مدينة بارمن الالمانية عام 1820، في اسرة

العديد من البلدان الاوروبية واميركا الشمالية، زمن تطور طبقة جديدة هي الطبقة العاملة الصناعية (البروليتاريا) التي تطورت وتحولت الى قوة حاسمة في التطور الاجتماعي⁽¹⁾. وعندما حلل ماركس وانجلس تطور التاريخ ومعه الانسان أوضحا في (بيان الحزب الشيوعي) بأن تاريخ كل مجتمع لم يكن سوى تاريخ - صراع - نضال بين الطبقات. الا ان الذي يميز عصر البرجوازية - الرأسمالية الصناعية - هو أنه جعل الصراع الطبقي أكثر بساطة: "فأن المجتمع أخذ في الانقسام أكثر فأكثر، الى معسكرين فسيحين متعارضين، الى طبقتين كبيرتين، العداء بينهما مباشر - هما البرجوازية والبروليتاريا"⁽²⁾.

وهذا الصراع هو حتمية تاريخية تكون نتيجته الثورة العمالية التي تقوم بها الطبقة العاملة (البروليتاريا) واستبدال الرأسمالية بالاشتراكية، حسب رؤية ماركس، وان الخطوة الاولى في ثورة العمال هي "تحول البروليتاريا إلى طبقة سائدة والفوز بالديمقراطية". وستستخدم البروليتاريا سيادتها السياسية لتنتزع من البرجوازية تدريجيا، رأس المال كله، ومركزة جميع أدوات الإنتاج في أيدي الدولة، أي في أيدي البروليتاريا المنظمة في طبقة حاكمة، وزيادة حجم القوى المنتجة وانماها بأقصى سرعة ممكنة⁽³⁾. وهكذا ينتزع تقدم الصناعة الكبرى من تحت اقدام البرجوازية نفس الاسس التي أشادت عليها الاخيرة نظام انتاجها وتملكها. ويصف ماركس ذلك فيقول: "ان البرجوازية تنتج قبل كل شيء حفاري قبرها، فسقوطها وانتصار البروليتاريا كلاهما امر محتوم لامناص منه"⁽⁴⁾. وكان ماركس اول من فلسف هذه النظرية وعمل على نشرها عندما أصدر (بيان الحزب الشيوعي) في عام 1848، وكتابه رأس المال.

لقد كشف ماركس وانجلس، وفي هذا تكمن مآثرهما العظيمة من وجهة نظر الكتاب الشيوعيين، التناقض الاساسي في الرأسمالية، والتناقض بين الطابع الاجتماعي لعملية الانتاج والشكل الرأسمالي الخاص للامتلاك. وعلى هذا الاساس يتكون نوعان متناقضان تناقضاً تاماً من الناس: انسان مستغل وأنسان شغيل. وان هذا الانقسام يبدو على اشد ما يكون من الوضوح في المجتمع الرأسمالي. وبالتالي فإن

ميسورة الحال، حيث كان والده يشتغل بتجارة الاصواف، ويفاخر بتمسكه بالمذهب البروتستانتي. اضطر لمغادرة المانيا وثم انتقل للاقامة على التوالي في بلجيكا وفرنسا، وانكلترا بعد فشل الحركة الثورية عام 1848. وفي العام التالي شارك في ثورة مقاطعة بالاتينات البولندية. وفي عام 1845، ظهر كتابه الذي تناول وضع الطبقة العاملة في انكلترا، وهو كتاب رئيس في اتجاهاته؛ لان المادية التاريخية هي فكرته الاساسية. وبعد كتابه (معارضة دوهرنغ) توضيحا للماركسية، ومؤلفه (جدليات الطبيعة) تنمة وتعميقاً لكتاب ماركس (رأس المال). قام بدور حاسم في الدولية - الاممية الثانية، وعمل كأداة صلة بين مختلف الاحزاب العمالية. توفي بمدينة لندن في الخامس من اب عام 1895، بعد ان اتم مراجعة الجزئين الثاني والثالث من مؤلف ماركس رأس المال، والقي برفاته في البحر بناء على طلبه. المصدر نفسه، ص 181-183.

1)) افاناسييف، المصدر السابق، ص 32.

2)) نقلا عن: ماركس، انجلس، بيان الحزب الشيوعي، ص 38.

3)) المصدر نفسه، ص 65-66.

4)) المصدر نفسه، ص 54.

الثورة العمالية - الاشتراكية تستند الى اساس اقتصادي محدد هو التناقض في الانتاج الرأسمالي, وهي تظهر كضرورة تاريخية. وان هذه الضرورة تنبع من حاجات تطور الانتاج نفسها, التي يضيق بها اطار علاقات الانتاج الرأسمالية, وحاجات الانتاج الذي تتطلب طبيعته الاجتماعية نفسها تصفية الملكية الرأسمالية الخاصة وتثبيت الملكية الاجتماعية الجماعية.⁽¹⁾

ومن هنا, فإن الماركسية تشكل بناء فلسفياً شاملاً, ذا جوانب متعددة أهمها الجانب الاقتصادي والجانب السياسي. فالجانب الاقتصادي فيها يقوم على بيان صور الاستغلال الاقتصادي الذي عاصره ماركس, مما دفعه الى الدعوة الى انهاء الملكية الخاصة لعناصر الانتاج, والاستعاضة عنها بالملكية الجماعية.⁽²⁾

أما الجانب السياسي, فيقوم على حتمية تغير المجتمع من خلال تفاعل التناقضات التي يعيشها النظام الرأسمالي على نحو يدفع بالبروليتاريا الى الاستيلاء على السلطة, وأداء رسالتها "التاريخية" في انهاء استغلال الانسان للانسان, وانهاء عهد الفاقة⁽³⁾. ويربط الجانب الاقتصادي بالجانب السياسي, يمكن ملاحظة ان الماركسية ترى بأن الاقتصاد, وعلى الاخص في جانبه الانتاجي, هو الذي يحدد عمليات الحياة الاجتماعية والسياسية والقانونية, خلال فترة تاريخية معينة. ومن ثم فإن الحالة السياسية لاي مجتمع, انما تتحدد وفق أسلوب الانتاج الشائع في تلك الفترة التاريخية التي يمر بها. وبعبارة أخرى, يقول أنجلس: "ان العوامل الاقتصادية قوة حاسمة وتاريخية. كما انها مصدر ما بين الطبقات من صراعات, وتلك العوامل الاقتصادية هي أساس تكوين الاحزاب السياسية ومصدر ما يقوم بينها من منازعات. وبالتالي فإن العامل الاقتصادي يسيطر على التاريخ السياسي".⁽⁴⁾

وعلى اساس ذلك, يصور بعض منتقدي الماركسية ان الماركسية ليست الا مذهباً اقتصادياً, وتهمل العوامل الاجتماعية الأخرى, ولكن ذلك غير صحيح, اذ انه مع الأهمية القصوى للعوامل الاقتصادية في

1)) افاناسيف, المصدر السابق, ص 32, 35.

2)) نعمان احمد الخطيب, الاحزاب السياسية ودورها في أنظمة الحكم المعاصرة, أطروحة دكتوراه, منشورة, كلية الحقوق, جامعة عين شمس, مصر - القاهرة, 1983, ص 219.

3)) المصدر نفسه؛ عبد الحميد كمال حشيش, الماركسية والثورة البلشفية: دراسة تحليلية تقييمية, مكتبة القاهرة الحديثة, القاهرة, د. ت, ص 25.

4)) عبد الحميد متولي, الاسلام ومبادئ نظام الحكم في الماركسية والديمقراطيات الغربية, ط 2, منشأة المعارف, الاسكندرية, 1981, ص 153. نقلاً عن: نعمان احمد الخطيب, المصدر السابق, ص 220.

الماركسية فأنها ليست مجرد مذهب اقتصادي، بل انها نظرية شاملة تركز الى المادية الجدلية⁽¹⁾، التي تعتبر بمثابة الاساس للنظرية بأكملها.⁽²⁾ وقبل الشروع في فهم وتحليل أفكار ماركس، لابد من معرفة المؤثرات الفكرية على أفكاره، وكذلك المذاهب الفكرية التي أسترشد بها مؤسس الماركسية، والتي تتمثل في: الفلسفة الكلاسيكية الألمانية والإقتصاد السياسي الإنكليزي والإشتراكية الفرنسية المرتبطة بالتعاليم الثورية الفرنسية بوجه عام. والتي يصفها لينين بـ "مصادر الماركسية الثلاثة"، والتي هي في الوقت نفسه "أقسامها المكونة الثلاثة".⁽³⁾ ثانيا: مصادر الماركسية الفكرية وأسسها الفلسفية:

بعد ان اتم دراسته الثانوية دخل ماركس جامعة بون فدرس الحقوق، والتاريخ والفلسفة في جامعة برلين. وفي عام 1841، حصل على شهادة الدكتوراه بالفلسفة من جامعة ينا، وكان موضوع أطروحته عن فلسفة ديمقريطس وأبيوفور، وهما من فلاسفة اليونان ذوي النزعة المادية⁽⁴⁾. وقد تأثر ماركس في هذه الحقبة من حياته بالفيلسوف الألماني هيغل (1770-1831)، الذي كانت فلسفته (المثالية) واسعة النفوذ في الجامعات الألمانية. وقد أخذ ماركس من هيغل منطق الجدلي (الديالكتيك)، أي نظرية التطور بأكمل مظاهرها وأشدها عمقا، في دراسته للتاريخ ليطبقه على المجتمعات البشرية وتطورها. إذ اخذ عنه عناصر الجدول الثلاث في تفسير حركة التاريخ وهي: "الفكرة ونقيضها والمركب بينهما".⁽⁵⁾

1) (تعتبر المادية الجدلية امتدادا نقديا للنزعة المادية التقليدية في إطار منظومة الفلسفة الأوربية، حيث ترى أن العالم المادي هو وحده العالم الحقيقي، الجدير بالاهتمام والتأمل؛ وأن العقل في حد ذاته ليس سوى ظاهرة مادية لا تنسلخ عن العالم المادي، لأنه ليس إلا نتاجا لعضو مادي هو الدماغ. وتعتبر كذلك أن التعارض المزعوم بين "المادة" و"الوعي" لا قيمة له إلا في نظرية المعرفة المجردة، أما في نظرية الوجود الحقيقي فلا يوجد شيء غير المادة. أن المادية الجدلية لا تتعارض مع النزعة المادية التقليدية، وإنما تنتقدها لغياب العنصر الجدلي فيها، ومن ثم قصورها عن تقديم تصور صحيح عن التطور. بوشنسكي (إ. م.)، الفلسفة المعاصرة في أوروبا، ترجمة: عزت قرني، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1992، ص 95. نقلاً عن: محمد حمشي، الاتجاه الماركسي للتنظير في العلاقات الدولية، جامعة باتنة،

https://drive.google.com/open?id=1WcP37QL0_OQxjDhHmD22wjLqVGCWzvN2

2) (يحيى الجمل، الانظمة السياسية المعاصرة، دار النهضة العربية، بيروت، 1969، ص 242.

3) (لينين، مصادر الماركسية الثلاثة وأقسامها المكونة الثلاثة، المختارات، ج 1، دار التقدم، موسكو، ب. ت، ص 21-28.

4) (فلاديمير لينين، كارل ماركس (موجز عن تاريخ حياة كارل ماركس، يتضمن عرضاً للماركسية)، مقتطف، في: ماركس، انجلس، مختارات، ج 1، دار التقدم، موسكو، 1975، ص 8.

5) (لقد تصور هيغل ان كل فكرة تحمل في داخلها ما ينقضها فاطلق على الجانب الموجب منها اسم أطروحه thesis، وعلى الجانب السلبي لفظ النقيض Antithesis، ومن تعارض الاثنين يؤدي الى مفهوم جديد مركبا هو التوفيق Synthesis، وسرعان ما يتحول الاخير الى أطروحه يتولد عنه نقيضه. وهكذا تسير عملية التطور التاريخي الى امام من غير توقف. المصدر نفسه؛ هاشم يحيى الملاح، المفصل في فلسفة التاريخ، منشورات المجمع العلمي، بغداد، 2005، ص 393؛ يحيى الجمل، المصدر السابق، ص 246؛ نعمان احمد الخطيب، المصدر السابق، ص 227.

لقد اخذ ماركس عن هيغل جوهر منطقته في الجدل⁽¹⁾، لكنه لم يقبل بمنطقاته المثالية في هذا المجال، لان هيغل يقيم نظريته على أساس ان "الفكرة المطلقة" هي أصل الوجود وأنها سابقة على المادة ومحدثة لها، ورأى عكس ما يراه هيغل تماما، من ان القاعدة التي ينطلق منها الجدل هي المادة، لان المادة هي الاصل في الوجود وهي السبب الموجد لكل موجود، وليس الفكرة، وذلك لان الفكرة حسب رأي ماركس "هي مجرد الانعكاس الواعي لحركة العالم الحقيقي الديالكتيكية"⁽²⁾. وكتب ماركس ايضا: "يرى هيغل ان حركة الفكر، هذه الحركة التي يشخصها ويطلق عليها اسم الفكرة، هي الاله (الخالق، الصانع)... اما انا فاني ارى العكس: ان حركة الفكر ليست الا انعكاسا لحركة المادة منقولة الى دماغ الانسان ومتحولة فيه"⁽³⁾. وعلى نحو تام الانسجام مع فلسفة ماركس المادية هذه كتب فريدريك انجلس عند شرحه لها في كتابه (ضد دوهرنغ) "إن وحدة العالم ليست في كيانه... بل في ماديته. وهذه المادية قد أثبتتها... تطور طويل وشاق للفلسفة وعلوم الطبيعة... الحركة شكل وجود المادة. لم يوجد قط ولا يمكن أن يوجد أبدا في أي مكان مادة بدون حركة ولا حركة بدون مادة... ولكن إذا تساءلنا... عن ماهية الفكر والمعرفة وعن مصدرهما نجد أنهما إنتاج الدماغ الإنساني وأن الإنسان نفسه هو نتاج الطبيعة الذي نما وتطور في محيط طبيعي معين ومع هذا المحيط. وإذ ذلك يغدو من البداهة أن نتاجات دماغ الانسان التي هي أيضا عند آخر تحليل نتاجات للطبيعة ليست في تناقض بل في انسجام مع سائر الطبيعة"⁽⁴⁾. وهكذا يتوصل ماركس الى ان المناهج التي تطبق على عالم الطبيعة هي غير المناهج التي تطبق على عالم الانسان، وذلك لان عالم الانسان خاضع للارادة ولقوانين التطور التاريخي. لذا فقد أطلق على نظريته في تفسير التاريخ تسمية (المادية التاريخية)، كترجمة لعبارة (Historical materialism)، وتمييزاً لها من النظريات المادية (الميكانيكية - الالية) التي شاع مفهومها في فرنسا في القرن الثامن عشر، والتي حاولت تفسير تطور المجتمع الانساني على نفس القوانين المعتمدة في تفسير عالم الطبيعة⁽⁵⁾.

1)) يقول انجلس ان الجدل هو "علم القوانين العامة للحركة ولتطور الطبيعة والمجتمع الانساني والتفكير". وكلمة "الجدل" كما وردت في اللغات الاوروبية مشتقة من كلمة يونانية مركبة معناها الحوار أو فن المناقشة. وهذا هو ما تعنيه الكلمة اصطلاحا في اللغة العربية. يحيى الجمل، المصدر السابق، ص 245؛

Engles, Anti – Dunhring, Moscow, 1956, p.194.

2)) (فريدريك إنجلس، التفسير الاشتراكي للتاريخ، تعريب: راشد البراوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1947، ص 63-64؛ هاشم يحيى الملاح، المصدر السابق، ص 393؛ يحيى الجمل، المصدر السابق، ص 246.

3)) (فلاديمير لينين، كارل ماركس (سيرة مختصرة وعرض للماركسية)، (يوليو - نوفمبر 1914)، نشر لأول مرة في عام 1915 في

الموسوعة الكبرى Granat Encyclopaedia، الطبعة 7، المجلد 28 تحت توقيع V. Ilyin.

<https://www.marxists.org/arabic/archive/lenin/1914-marx/02.htm>

4)) المصدر نفسه.

5)) هاشم يحيى الملاح، المصدر السابق، ص 394-395.

وهكذا أصبح ديالكتيك هيغل "واقفاً على قدميه بعد ان كان واقفاً من قبل على رأسه"، بحسب تعبير انجلس⁽¹⁾. وكان ماركس قد أصبح مادياً منذ 1844-1845، أي في الفترة التي تكونت فيها أفكاره، وقد كانت لآراء الفيلسوف الألماني لودفيغ فيورباخ (1804-1872)، الذي كان من دعاة الفلسفة المادية في ألمانيا، أثر هام في مادية ماركس. وقد أقر ماركس وانجلس، وأكد ذلك لينين، بهذا التأثير الا انهما أكدا أنهما قد تجاوزا فيورباخ من خلال تطويرهما للتفسير المادي للتاريخ وصياغته على أساس ديالكتيكي⁽²⁾. والديالكتيك عند ماركس، بناء على ما تقدم، هو جدل المادة بالاساس. فالمادية هي الحقيقة الاساسية، وما الروح والفكر الا مجرد مشتقات منبثقة منها ونتيجة لها. وبالتالي فالمادة هي الجدلية في الاساس وليست الفكرة هي الجدلية في الاساس، وان القوى المتصارعة هي قوى مادية، وان هذه القوى (المادية) لا الافكار هي التي تدير حركة عجلة التاريخ. ومن هنا سميت نظرية ماركس بـ"المادية الجدلية".

وعلى هذا الاساس فإن أهم ما يميز مادية ماركس هو اقرانها بمفهوم الجدلية التي قال بها هيغل لتفسير تطور المجتمع الانساني، الذي تندمج فيه مصالح كل فرد في مصالح المجتمع ككل. وبناء على المادية الجدلية يأتي التفسير الماركسي للتاريخ الانساني، وهو التفسير الوثيق الاتصال بالموضوع الذي نحن بصدد دراسته، وهو الاقتصاد والتفسير المادي للتاريخ.

ثالثاً: الاقتصاد والتفسير المادي للتاريخ:

كانت أول مساهمة مهمة لماركس، على حد ما جاء في الكلمة التي القاها زميله المخلص فريدريك انجلس بمقبرة هاي غايت Highgate Cemetery في لندن على ضريح ماركس بعد ثلاثة أيام من وفاته في الرابع عشر من اذار 1883، هي ملاحظته الحقيقة البسيطة التي تخفيها هيمنة "الايديولوجيا" وهي "أن الإنسان يجب أولاً أن يأكل ويشرب ويجد المأوى والملبس قبل أن يصبح في استطاعته الإهتمام بالسياسة والعلم والفن والدين الخ... وبالتالي فإن إنتاج الوسائل المادية الضرورية للعيش ومن ثمة درجة التطور الاقتصادي

1) (المصدر نفسه، ص 394؛ فريدريك إنجلس، التفسير الاشتراكي للتاريخ، ص 65.

2) ("لقد كان، بوجه خاص، من أتباع فيورباخ. ولم يقر ماركس بما عند فيورباخ من نقاط ضعف حتى فيما بعد إلا من حيث عدم الكفاية في منطق ماديته وشمولها. لقد كان يرى أن الشأن التاريخي العالمي لفيورباخ الذي "شغل دهرًا" قائم بالضبط على مقاطعته النهائية لمثالية هيغل وتوكيده للمادية، هذه المادية التي "لم تكن في القرن الثامن عشر وخصوصاً في فرنسا نضالاً ضد المؤسسات السياسية الراهنة وكذلك ضد الدين واللاهوت وحسب بل أيضاً... ضد كل ميتافيزية". إن العيب الأساسي في المادية القديمة وفي جملتها مادية فورباخ (بالأحرى المادية "المبتدلة" عند بوختر وفوغت وموليشوت) هو في نظر ماركس وانجلس: أولاً - إن هذه المادية كانت "في أساسها ميكانيكية" ولم تكن لتأخذ بعين الاعتبار آخر ما توصلت إليه الكيمياء والبيولوجيا. ثانياً - إن المادية القديمة لم تكن تاريخية ولا ديالكتيكية، بل كانت ميتافيزيقية بمعنى أنها ضد الديالكتيكية، ولم تكن تطبق وجهة نظر التطور من جميع نواحيها على نحو منسجم محكم الحلقات إلى النهاية. ثالثاً - إنها تفهم "جوهر الإنسان" على نحو تجريدي لا بمثابة "مجموعة العلاقات الاجتماعية كافة" (التي يحددها التاريخ على نحو ملموس). وهكذا لم تقم إلا "بتفسير" العالم مع أن المقصود كان "تغييره" وبتعبير آخر إن المادية القديمة لم تكن تدرك شأن "النشاط العملي الثوري". نقلاً عن: فلاديمير لينين، كارل ماركس (سيرة مختصرة وعرض للماركسية).؛ فريدريك إنجلس، التفسير الاشتراكي للتاريخ، ص 39.

المحققة من طرف شعب ما أو في حقبة ما تشكل الأساس الذي تقوم عليه مؤسسات الدولة والمفاهيم الشرعية والفن وحتى الأفكار حول الدين التي يختص بها هذا الشعب أو ذاك وعلى ضوءها يجب أن تفسر وليس العكس كما هو الحال".⁽¹⁾

ويقصد بذلك انه ليس الفكر هو الذي يسيطر على حياة الانسان او على تطور العالم. وإنما الصحيح، فيما يرى ماركس، هو العكس، أي ان طريقة معيشة الانسان المادية هي التي تكيف طريقة تفكيره. وبعبارة اخرى يقول ماركس "لا تستطيع الأحوال القانونية والأشكال السياسية أن تفسر نفسها بنفسها ولا عن طريق ما يدعى التطور العام للعقل البشري؛ إن أساسها بالعكس هو في ظروف الحياة المادية...".⁽²⁾

وبعد أن بدأ بدراسة الاقتصاد السياسي في فرنسا ومن ثم بلجيكا، توصل ماركس، وزميله انجلس، الى أسس التفسير المادي، أو الاقتصادي، للتاريخ. فتوصل الى ان بنو البشر، من واقع تكوين وجودهم الاجتماعي، يدخلون في علاقات محددة، ضرورية ومستقلة عن إرادتهم، وهي علاقات إنتاج تطابق درجة معينة من تطور قواهم الإنتاجية المادية. ويشكل مجموع علاقات الإنتاج هذا البنيان الاقتصادي للمجتمع، أي يشكل الأساس الحقيقي الذي يقوم فوقه صرح علوي قانوني وسياسي وتتماشى معه أشكال اجتماعية⁽³⁾. وتعتبر هذه العلاقات (علاقات الإنتاج، أو علاقات الملكية) - من وجهة رأي الماركسية - الأساس الواقعي، الذي يقوم عليه البناء العلوي للمجتمع كله فكل العلاقات السياسية، والحقوقية، والظواهر الفكرية، والدينية مرتكزة على أساس علاقات الإنتاج (علاقات الملكية). لأن علاقات الإنتاج، هي التي تحدد شكل الملكية السائد في المجتمع، والأسلوب الذي يتم بموجبه تقسيم الثروة على أفرادهم. وهذا بدوره، هو الذي يحدد الوضع السياسي، والحقوقية والفكرية، والديني، بصورة عامة⁽⁴⁾. وطبقاً لذلك، فقد شبه ماركس العلاقة بين انظمة المجتمع ببناء ذي صرحين، حيث تمثل (البنية الاقتصادية) الصرح السفلي، التي تمثل العامل الاول والاساس لاي مجتمع superstructure. ويمثل الصرح العلوي النظام الاجتماعي والسياسي والدين والقانون والاخلاق وغيرها. ولهذا، فالمادية التاريخية تقوم على أساس هو ذو طبيعة اقتصادية بالاصل قائم على اساس استغلال موارد الطبيعة لاشباع حاجات الانسان، والذي يترتب عليه صرح أعلى

1) (نقلا عن: إنجلس، كلمة على قبر ماركس، 17 اذار / مارس 1883، في: ماركس، انجلس، مختارات، ج3، دار التقدم، موسكو، ب. ت، ص 135-136؛ ادوار م. بيرنز، افكار في صراع..النظريات السياسية في العالم المعاصر، ترجمة: عبد الكريم احمد، ط1، منشورات دار الاداب، القاهرة، 1975، ص115؛

<https://www.marxists.org/arabic/archive/marx/1883/burial.htm>

2) (كارل ماركس، نقد الاقتصاد السياسي، ترجمة: راشد البراوي، ط1، دار النهضة العربية، القاهرة، 1969، ص2.

3) (المصدر نفسه، ص2-3.؛ بول لويس، المصدر السابق، ص167.

4) (محمد باقر الصدر، اقتصادنا، ط20، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، 1987، ص43.

منه، فأذا ما حصل اي تطور أو تغير في الصرح السفلي فلا بد ان يؤدي ذلك بالضرورة الى تغير في الصرح العلوي.⁽¹⁾

وهذه العلاقات - علاقات الإنتاج - التي تقوم بين الناس، بسبب خوضهم معركة موحدة ضد الطبيعة، هي في الحقيقة علاقات الملكية، التي تحدد الوضع الاقتصادي، وطريقة توزيع الثروة المنتجة في المجتمع وبمعنى آخر: تحدد شكل الملكية - المشاعية، أو العبودية، أو الاقطاعية، أو الرأسمالية، أو الاشتراكية - ونوعية المالك، وموقف كل فرد من الناتج الاجتماعي⁽²⁾. فأسلوب إنتاج الحياة المادية هو شرط العملية الاجتماعية والسياسية والفكرية للحياة بوجه عام. ولا يحدد وعي الناس وجودهم، ولكن وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم. فعندما تصل قوى المجتمع الإنتاجية المادية إلى درجة معينة من تطورها تدخل في صراع - تناقض - مع علاقات الإنتاج القائمة أو بحسب التعبير القانوني مع علاقات الملكية التي كانت قد تغيرت في ظلها حتى ذلك الوقت. وبعد ان كانت هذه العلاقات اشكالا قابلة لتطویر هذه القوى الانتاجية، فأنها تصبح عوائق في سبيلها. وعندئذ يحل عهد الثورة الاجتماعية. وعليه فإن التغير الذي يحدث في القاعدة الاقتصادية يقربا في بطنه او في سرعة جملة نظم المجتمع و أفكاره وثقافته، لكل الصرح العلوي الهائل.⁽³⁾

وهذا يعني، حسب تفسير المفكر الاسلامي محمد باقر الصدر، ان علاقات الإنتاج (علاقات الملكية)، تتكون في المجتمع بصورة ضرورية، وفقا لشكل الإنتاج، والدرجة المعينة التي تعيشها القوى المنتجة. فلكل درجة من نمو هذه القوى، علاقات ملكية ووضع اقتصادي، يطابق تلك الدرجة من نمو هذه القوى، علاقات ملكية ووضع اقتصادي، يطابق تلك الدرجة من تطورها. فالقوى المنتجة هي التي تنشئ الوضع الاقتصادي، الذي تتطلبه وتفرضه على المجتمع ويتولد عن الوضع الاقتصادي، وعلاقات الملكية عندئذ، جميع الأوضاع الاجتماعية، التي تطابق ذلك الوضع الاقتصادي وتتفق معه. ويستمر الوجود الاجتماعي على هذه الحال، حتى تبلغ قوى المجتمع المنتجة درجة جديدة من النمو والتطور فتدخل في تناقض مع الوضع الاقتصادي القائم لأن هذا الوضع، إنما كان نتيجة للمرحلة أو الدرجة، التي تخطتها قوى الإنتاج إلى مرحلة جديدة، تتطلب وضعاً اقتصادياً جديداً، وعلاقات ملكية من نمط آخر، بعد أن أصبح الوضع الاقتصادي السابق، معيقاً لها عن النمو. وهكذا يبدأ الصراع بين القوى المنتجة لوسائل الإنتاج، في مرحلتها الجديدة من ناحية، وعلاقات الملكية والأوضاع الاقتصادية، التي خلفتها المرحلة السابقة لقوى الإنتاج من ناحية أخرى.⁽⁴⁾

1) (ينظر: فريدريك إنجلز، التفسير الاشتراكي للتاريخ، ص 119-120؛ نعمان احمد الخطيب، المصدر السابق، ص 228-

229؛ هاشم يحيى الملاح، المصدر السابق، ص 397.

2) محمد باقر الصدر، المصدر السابق، ص 43.

3) (كارل ماركس، نقد الاقتصاد السياسي، ص 3؛ بول لويس، المصدر السابق، ص 167.

4) محمد باقر الصدر، المصدر السابق، ص 43-44.

وقد أستمد هذا المفهوم من الفيلسوف المثالي الالماني هيغل، الذي فسر تطور التاريخ على انه عملية جدلية من الصراع بين أضداد، وتتخذ فيها الفكرة "المسيطرة" في كل عصر دور "القضية". التي تحمل في ذاتها الشيء ونقيضه متحدين ومتصارعين في نفس الوقت. وما دام كل شيء يتطور وما دام التطور في فترة معينة ينتج شيئا جديدا مختلفا كيفيا عن سابقه (المركبة) فان الجديد ينفي القديم ليحل محله، أي تتحول كل فكرة مركبة بدورها الى قضية، وتستمر القضية الى ان تؤدي عوامل التطور من جديد الى ان يصبح الجديد نفسه قديماً ثم يأتي جديد آخر ينفيه أي يستبعده ويحل محله الى ان يتحقق الهدف النهائي "الفكرة المقدسة" في "الدولة الكاملة".⁽¹⁾

إن هذا المظهر الثوري لفلسفة هيغل هو ما تبناه ماركس وطوره. بل دفع الفلسفة خطوات إلى الأمام، فأغناه بمكتسبات الفلسفة الكلاسيكية الألمانية، ولاسيما بمكتسبات مذهب هيغل، الذي قاد بدوره إلى مادية فيورباخ. وأهم هذه المكتسبات، الديالكتيك، أي نظرية التطور بأكمل مظاهرها وأشدها عمقا، وأكثرها بعدا عن ضيق الأفق، نظرية نسبية المعارف الإنسانية التي عكس المادية في تطورها الدائم⁽²⁾. فقام بوضع النظم الاقتصادية محل الافكار عند هيغل. فقد رأى ان كل نظام بذاته من نظم الانتاج وعلاقات الملكية المصاحبة له ينمو الى ان يصل الى اقصى درجات كفايته، ثم تنمو تناقضات داخله تؤدي الى انهياره السريع. وفي هذه الاثناء توضع اسس نظام مضاد، وينبثق من الصراع نظام جديد يمتص اثن من ما فهمما من عناصر. وتستمر هذه العملية الديناميكية بسلسلة من انتصارات الجديد على القديم، الى ان يتحقق الهدف النهائي وهو "الشيوعية"⁽³⁾. وان تحقيق هذا الهدف سيؤدي الى زوال الطبقة والدولة وقيام مجتمع قائم على المساواة والعدالة، وهو الهدف الاعلى والاخير للتطور كما تعرضه نظرية ماركس في المادية الديالكتيكية، أنه بمثابة "نهاية التاريخ".⁽⁴⁾

وهنا يأتي دور الطبقات في المادية التاريخية. اذ لا يقتصر التاريخ على فكرة الحرب بين النظم الاقتصادية المتعارضة، بل انه ينطوي ايضا على فكرة الصراع بين الطبقات. ويعني ماركس بالطبقات، الطبقة الاقتصادية، اي مجموعات لها دور محدد في انتاج السلع أو توزيعها أو تناولها⁽⁵⁾. وذلك لان الصراع بين القوى المنتجة النامية، وعلاقات الملكية القائمة، ينعكس على الصعيد الاجتماعي دائما، في الصراع بين طبقتين: إحداهما: الطبقة الاجتماعية، التي تتفق مصالحها مع نمو القوى المنتجة، ومستلزماته الاجتماعية. والأخرى الطبقة الاجتماعية، التي تتفق مصالحها مع علاقات الملكية القائمة، وتتعارض منافعها مع متطلبات المد التطوري للقوى المنتجة. ففي المرحلة التاريخية الحاضرة - مثلا - يقوم التناقض بين نمو القوى المنتجة، والعلاقات الرأسمالية في المجتمع. ويشب الصراع تبعا لذلك، بين الطبقة العاملة،

1)) يحيى الجمل، المصدر السابق، ص 246؛ ادوار م. بيرنز، المصدر السابق، ص 115-116.

2)) لينين، مصادر الماركسية الثلاثة وأقسامها المكونة الثلاثة، ص 23.

3)) يحيى الجمل، المصدر السابق، ص 246؛ ادوار م. بيرنز، المصدر السابق، ص 115-116.

4)) هاشم يحيى الملاح، المصدر السابق، ص 396.

5)) ادوار م. بيرنز، المصدر السابق، ص 116.

التي تقف إلى صف القوى المنتجة في نموها، وترفض بإصرار ووعي طبقي علاقات الملكية الرأسمالية في الملكية، وتستमित في الدفاع عنها.⁽¹⁾

وهكذا يجد التناقض، بين قوى الإنتاج، وعلاقات الملكية - دائما - مدلوله الاجتماعي، في التناقض الطبقي. ففي كيان المجتمع - إذن تناقضان: الأول: التناقض بين نمو القوى المنتجة، وعلاقات الملكية السائدة، حين تصبح معيقة لها عن التكامل. والثاني: التناقض الطبقي، بين طبقة من المجتمع، تخوض المعركة لحساب القوى المنتجة، وطبقة أخرى، تخوضها لحساب العلاقات القائمة. وهذا التناقض الأخير، هو التعبير الاجتماعي والانعكاس المباشر، للتناقض الأول. ولما كانت وسائل الإنتاج، هي القوى الرئيسية في دنيا التاريخ فمن الطبيعي أن تنتصر في صراعها، مع علاقات الملكية ومخلفات المرحلة القديمة. فتقضي على الأوضاع الاقتصادية، التي أصبحت في تناقض معها وتقيم علاقات وأوضاعا اقتصادية تواكبها في نموها وتنسجم مع مرحلتها. ومعنى ذلك بالتعبير الاجتماعي: "أن الطبقة الاجتماعية التي كانت تقف في المعركة إلى صف القوى المنتجة، هي التي يكتب لها النصر على الطبقة الأخرى التي كانت تناقضها، وتحاول الاحتفاظ بعلاقات الملكية كما هي".⁽²⁾

ان صراع الطبقات عند ماركس هو التطبيق التاريخي لفكرة صراع الاضداد في المنطق الجدلي عند هيغل. الا ان ماركس قد حصره في صراع الطبقات في اطار النظام الاقتصادي للمجتمع من أجل الوصول الى الغاء الطبقات في النهاية بينما تصوره هيغل صراعا بين الشعوب من اجل الوصول الى الحرية عبر الدولة⁽³⁾. بيد أن هذه الفكرة، كما صاغها ماركس وانجلس بالاستناد إلى هيغل، هي أوسع جدا وأغنى جدا في محتواها من الفكرة الشائعة عن التطور، بحسب ما ذهب اليه لينين. إذ ان هذا التطور يبدو كأنه يستنسخ مراحل مقطوعة سابقا ولكن على نحو آخر وعلى درجة الرفع "نفي النفي"، تطور على نحو "لوبي" إذا صح التعبير لا على نحو خط مستقيم - تطور بقفزات وكوارث وثورات - "انقطاعات في التدرج" تحول الكمية إلى كيفية - اندفاعات داخلية نحو التطور يثيرها التضاد والتصادم في القوى والاتجاهات المتمايزة التي تعمل في جسم معين أو في حدود ظاهرة معينة أو في قلب مجتمع معين - تبعية متبادلة وصلة وثيقة لا يمكن فصلها بين جميع جوانب كل ظاهرة، صلة تحدد مجرى الحركة الوحيد المشروع الكلي غير أن الديالكتيك حسب مفهوم ماركس كما هو حسب مفهوم هيغل يشمل ما يسمى اليوم بنظرية المعرفة أو "العرفانية" التي يجب أن تعالج موضوعها من وجهة نظر تاريخية أيضا وذلك بأن تدرس وتعمم منشأ المعرفة وتطورها أي الانتقال من اللامعرفة إلى المعرفة.⁽⁴⁾

ويرى ماركس ان التغييرات التاريخية التي تطرأ على المجتمعات الانسانية انما تحدث نتيجة للصراع الطبقي، وبسبب انتصار طبقة اجتماعية معينة على غيرها من الطبقات. أي ان الصراع الطبقي صراع

1)) محمد باقر الصدر، المصدر السابق، ص44.

2)) المصدر نفسه، ص44-45.

3)) هاشم يحيى الملاح، المصدر السابق، ص401.

4)) فلاديمير لينين، كارل ماركس (سيرة مختصرة وعرض للماركسية).

اقتصادي نشأ عن أستغلال أحد هذه الطبقات للآخرى. وبالتالي فوجوده مرتبط بتباين مستوى الافراد الاقتصادي، وعلى هذا لن تخلو أية فترة تاريخية من هذا الصراع، الا الفترة التي تتسم بالشيوعية.⁽¹⁾

فيقول ماركس وانجلس في بيان الحزب الشيوعي: "إن تاريخ كل مجتمع إلى يومنا هذا لم يكن سوى تاريخ نضال بين الطبقات"⁽²⁾. وقد كان الصراع في الازمنة القديمة بين الحر والعبد، ثم اصبح بين النبيل والعامي، والسيد الاقطاعي والقن، والمعلم والصانع، أي باختصار، بين المضطهدين والمضطهدين، الذين كانوا في تعارض دائم وكانت بينهم حرب مستمرة، تارة ظاهرة، وتارة مستترة، حرب كانت تنتهي دائما إما بانقلاب ثوري يشمل المجتمع بأسره وإما بانهييار الطبقتين معا. وفي العهود التاريخية السابقة هناك، في كل مكان تقريبا، تقسيما كاملا للمجتمع إلى مراتب متميزة، وتدرجا متفاوتا للمنزلة المجتمعية. ففي روما القديمة، كان ثمة نبلاء، و ثم الفرسان، و ثم العامة، فالعبيد؛ وفي القرون الوسطى، الإقطاعيون الاسياد، ثم الاقطاعيين الاتباع، والمعلمون و ثم الصناع، فالاقنان. وفي داخل كل طبقة من هذه الطبقات، تراتبية فارقة من مراتب ودرجات خاصة. أما المجتمع البرجوازي الحديث الذي خرج من أحشاء المجتمع الاقطاعي الهالك فإنه لم يقض على التناقضات بين الطبقات بل أقام طبقات جديدة محل القديمة وأوجد ظروفًا جديدة للاضطهاد وأشكالا جديدة للصراع بدلا من القديمة.⁽³⁾

وبحسب ماركس تشكل أحوال الإنتاج البرجوازية الشكل المتناقض الأخير من عملية الإنتاج الاجتماعي. ولكن التناقض ليس فردياً، ولكنه ينبعث من الأحوال الاجتماعية التي يعيش فيها الأفراد. وأن القوى الإنتاجية التي تنشأ في المجتمع البرجوازي تخلق في الوقت نفسه الأحوال المادية التي تسمح بفض هذا التناقض، ومن ثم فهذا التكوين الاجتماعي ينتهي عصر ما قبل التاريخ للمجتمع البشري⁽⁴⁾. وبما ان البروليتاريا الاجيرة نتاج محتوم للرأسمالية تنشأ جنباً الى جنب مع البرجوازية، فأن نجاح الثورة البرجوازية يفسح الطريق أمام ثورة البروليتاريا الاكثر شمولا والتي سوف تكتسح في النهاية الطبقة المستغلة الجديدة، عن طريق وضع وسائل الانتاج في خدمة المجتمع والغاء الطبقات والاستغلال كلية⁽⁵⁾. وعليه يرى لينين إن اكتشاف المفهوم المادي عن التاريخ أو بتعبير أدق "تطبيق وتوسيع المادية بدأب وانسجام إلى النهاية حتى تشمل ميدان الظاهرات الاجتماعية" قد قضى على عيبين رئيسيين في النظريات التاريخية السابقة:⁽⁶⁾

1)) عبد الحميد متولي، الوجيز في النظريات والانظمة السياسية ومبادئها الدستورية، ط1، دار المعارف، مصر، 1958-1959،

ص349؛ نعمان احمد الخطيب، المصدر السابق، ص230.

2)) ماركس، انجلس، بيان الحزب الشيوعي، ص36.

3)) المصدر نفسه، ص37.

4)) كارل ماركس، نقد الاقتصاد السياسي، ص3؛ بول لويس، المصدر السابق، ص167-168.

5)) هاشم يحيى الملاح، المصدر السابق، ص400؛ نعمان احمد الخطيب، المصدر السابق، ص232.

6)) فلاديمير لينين، كارل ماركس (سيرة مختصرة وعرض للماركسية).

الاول: لم تكن هذه النظريات تأخذ بعين الاعتبار، في أحسن الحالات، غير الدوافع، دون أن تدرك القوانين الموضوعية التي تسيطر على تطور نظام العلاقات الاجتماعية، دون أن ترى جذور هذه العلاقات في درجة تطور الإنتاج المادي.

والثاني: كانت النظريات السابقة تهمل على وجه الضبط عمل جماهير السكان بينما مكنت المادية التاريخية لأول مرة من دراسة الظروف الاجتماعية لحياة الجماهير ومن دراسة تغيرات هذه الظروف بدقة العلوم الطبيعية. ومن هنا فالماركسية تقف في المادية التاريخية، موقف العالم الطبيعي من قوانين الطبيعة.⁽¹⁾

لقد كان علم الاجتماع وعلم التاريخ قبل ماركس، من وجهة رأي لينين، يكدرسان في أحسن الحالات وقائع خام مجموعة كيفما اتفق ويعرضان بعض الجوانب من حركة تطور التاريخ. لقد شقت الماركسية الطريق أمام دراسة واسعة شاملة لعملية نشوء تشكيلات المجتمع الاقتصادية وتطورها وانهارها وذلك بتحليلها مجموعة الميول المتناقضة وردّها إلى ظروف المعيشة والإنتاج الواضحة المعالم لمختلف طبقات المجتمع وبإبعادها اختيار الأفكار "القائدة" أو تأويلها على نحو ذاتي واعتباطي وبكشفها عن جذور جميع الأفكار وجميع الميول المتباينة في أوضاع القوى المنتجة المادية دون استثناء. ويقتطع مقتطف من "البيان الشيوعي" يبين فيه ما اراده ماركس من علم الاجتماع من وجهة نظر التحليل الموضوعي لأوضاع كل طبقة من طبقات المجتمع الحديث بالارتباط مع تحليل تطور هذه الطبقة: "وليس بين جميع الطبقات التي تقف الآن أمام البرجوازية وجهها لوجه إلا طبقة واحدة ثورية حقا هي البروليتاريا. إن جميع الطبقات الأخرى تنحط وتنقرض في النهاية مع نمو الصناعة الكبرى أما البروليتاريا فهي - خلافا لذلك - أخص وأساس منتجات هذه الصناعة. إن الشريحة السفلى من الطبقة المتوسطة وصغار الصناعيين والباعة والحرفيين والفلاحين تحارب البرجوازية من أجل الحفاظ على وجودها بوصفها فئات متوسطة. فهي ليست إذن ثورية بل محافظة وأكثر من محافظة أيضا إنها رجعية. إذ أنها تريد أن تدور عجلة التاريخ إلى الوراء. وإن حدث وأن كانت ثورية فذلك لأنها في حالة انتقال إلى صفوف البروليتاريا وبذلك لا تدافع عن مصالحها الآنية بل عن مصالحها المستقبلية وهي تتخلى عن وجهة نظرها الخاصة لتتخذ لنفسها وجهة نظر البروليتاريا".⁽²⁾

فكان واضحا على أساس نظرية التفسير الاقتصادي (المادي) للتاريخ، ان نشوء وتطور هاتين الطبقتين الكبيرتين قد حددتهما أسباب اقتصادية بحثه. مثلما كان واضحا أيضا ان النضال بين مالكي الارض الكبار والبرجوازية، وكذلك النضال بين البرجوازية والبروليتاريا، قد دار قبل كل شيء من اجل المصالح الاقتصادية التي لم تكن السلطة السياسية الا وسيلة من اجل تحقيقها.⁽³⁾ وان البرجوازية وكذلك البروليتاريا نشأتا بسبب التغيرات في العلاقات الاقتصادية، او بعبارة أدق، بسبب التغيرات في أسلوب الانتاج. وعلى هذا النحو "ثبت" بالنسبة للتاريخ الحديث على الاقل، "ان كل نضال سياسي هو نضال طبقي، وان كل نضال تخوضه

1)) محمد باقر الصدر، المصدر السابق، ص 213-214.

2)) فلاديمير لينين، كارل ماركس (سيرة مختصرة وعرض للماركسية).

3)) ينظر: انجلس، لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية، في: ماركس، انجلس، مختارات، الجزء الرابع، دار التعم، موسكو، ب. ت، ص 57.

الطبقات من اجل تحررها، رغم شكله الذي هو بالضرورة سياسي – لان كل نضال طبقي هو نضال سياسي – هو بالنتيجة هو نضال لاجل التحرر الاقتصادي".⁽¹⁾

وفي جملة من المؤلفات التاريخية أعطت الماركسية أمثلة واضحة وعميقة عن علم التاريخ المادي وعن تحليل ظروف كل طبقة بذاتها وأحيانا ظروف مختلف الجماعات والفئات في الطبقة الواحدة وبينت على نحو واضح لماذا وكيف "أن كل نضال طبقي هو نضال سياسي".⁽²⁾

"إن الناس هم صانعو تاريخهم"، ولكن ماركس رسم الطريق لدراسة علمية للتاريخ بوصفه حركة تطور واحدة تسير وفق قوانين معينة رغم تنوعها العجيب ورغم جميع تناقضاتها.⁽³⁾

وبعد ما لاحظ ماركس أن النظام الاقتصادي يشكل الأساس الذي يقوم عليه البناء الفوقي السياسي، أعار انتباهه أكثر ما أعاره لدراسة هذا النظام الاقتصادي، ومؤلف ماركس الرئيسي "رأس المال" مكرس لدراسة النظام الاقتصادي في المجتمع الحديث، أي الرأسمالي⁽⁴⁾. وعليه، فإن السبب النهائي عند ماركس، لكل تطور تاريخي اساسي؛ ولكل نمو وتغيير في المجتمع حدث، بغض النظر عن طابعه الظاهر، ليس بسبب زيادة معرفة الانسان وحكمته، بل نتيجة لتغيرات في اساليب الانتاج وعلاقات الانتاج وعلاقات الملكية السائدة. كما خلص الى ان كل مجتمع وحدة حضارية متكاملة، والاضاع الاقتصادية هي الرابط الذي

1)) المصدر نفسه، ص 58-59.

2)) "في فرنسا وانجلترا استحوذت البرجوازية على السلطة السياسية. ومنذ ذلك الوقت، اتخذ الصراع الطبقي نظريا وعمليا اشكالا أكثر حدة وتهديدا. وفي الوقت ذاته دقت ساعة احتضار الاقتصاد البرجوازي العلمي. ولذلك لم يعد السؤال ما اذا كانت هذه النظرية صحيحة ام لا، وانما ما اذا كانت مفيدة لرأس المال ام ضارة به، ملائمة ام غير ملائمة، خطيرة سياسيا ام غير خطيرة. وبدلا من التحقيقات المحايدة كان هناك المحترفون النفعيون بدلا من البحث العلمي الحقيقي، كان هناك الضمير السيء والنية التبريرية الشريرة". كارل ماركس، رأس المال نقد الاقتصاد السياسي، المجلد الاول، الكتاب الاول: عملية انتاج الرأسمال، ج 1 (الفصول 1-13)، دار التقدم، موسكو، 1985، ص 21؛ انجلس، لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية، ص 58-59؛ ادوار م. بيرنز، المصدر السابق، ص 173.

3)) فلاديمير لينين، كارل ماركس (سيرة مختصرة وعرض للماركسية).

4)) وسعى لكشف ما رآه كتناقضات متأصلة في الرأسمالية، ووضح بأن الاقتصاديين الكلاسيكيين اساءوا فهم الافتراضات الايديولوجية المسبقة لمبادئ الاقتصاد العالمية. وبأن رأس المال بكامله تقريبا هو في أيدي البرجوازية، وهذا يكشف آلة التجدد الذاتي للنظام الرأسمالي: "إن من يملكون رؤوس أموال يستطيعون أن يراكموا منها أكثر فأكثر، ومن لا يملكون رؤوس أموال لا يستطيعون الوصول إلى تملكها". وهكذا يستمر انقسام المجتمع إلى طبقة مالكة وطبقة مكرهة على بيع قدرتها على العمل. وثمر قوة العمل هذه، أي "الأجرة"، يستهلك بكامله من الناحية العملية، بينما تملك الطبقة المالكة رأس مال يزداد باستمرار بسبب فائض القيمة. وبالتالي فإن إثراء المجتمع برؤوس الأموال إنما يجري، إذا صح القول، لصالح طبقة واحدة من طبقات المجتمع وحسب، هذه الطبقة هي الطبقة الرأسمالية. وإن فائض القيمة من زاوية النظرية الماركسية ليس سوى الشكل النقدي لفائض الإنتاج الاجتماعي. أي الشكل النقدي لهذا الجزء من إنتاج الكادح، يتخلى عنه دون مقابل لمالك وسائل الإنتاج.

ينظر للمزيد: ارنست ماندل، محاضرات في الإقتصاد السياسي الماركسي،

https://www.marxists.org/arabic/archive/mandel/lectures_in_marxist_polical_economy.htm

يضفي عليها التماسك⁽¹⁾. وبالنتيجة، فإن الدولة، النظام السياسي، تؤلف في التاريخ الحديث على الأقل، العنصر الثانوي، بينما المجتمع المدني، ميدان العلاقات الاقتصادية، يؤلف العنصر الحاسم⁽²⁾. ولذلك سميت نظرية ماركس هذه بالتفسير الاقتصادي – أو المادي - للتاريخ. وذلك لان هذه النظرية تفسر تطور المجتمعات البشرية وأحداث التاريخ من حروب وثورات وقيام دول وأنظمة وسقوطها؛ تفسيراً مادياً مستنداً الى العوامل الاقتصادية⁽³⁾. وعلى هذا الأساس فالمادية التاريخية هي: "علم قوانين الإنتاج في تطوره ونموه، ونتائجه الإجتماعية في مختلف الحقول الإقتصادية والسياسية والفكرية"، وبعبارة أخرى: "هي علم الاقتصاد الماركسي، الذي يفسر التاريخ كله تفسيراً اقتصادياً، في ضوء القوى المنتجة"⁽⁴⁾. في حين يرى لينين إن مادية ماركس التاريخية كانت "أكبر انتصاراً حرزته الفكر العلمي"، فعلى إثر "البلبلة والاعتباط" اللذين كان سائداً حتى ذلك الحين في مفاهيم السياسة والتاريخ، جاءت نظرية علمية، روعة في التناسق والتجانس والانسجام، تبين كيف ينبثق ويتطور، من شكل معين من التنظيم الاجتماعي، ومن جراء نمو القوى المنتجة، شكل آخر، أرفع، – كيف تولد الرأسمالية من الإقطاعية، مثلاً⁽⁵⁾.



1)) ادوار م. بيرنز، المصدر السابق، ص 115؛ نعمان احمد الخطيب، المصدر السابق، ص 227.

2)) انجلس، لودفيغ فوريباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية، ص 59.

3)) عبد الحميد متولي، المصدر السابق، ص 351-352.

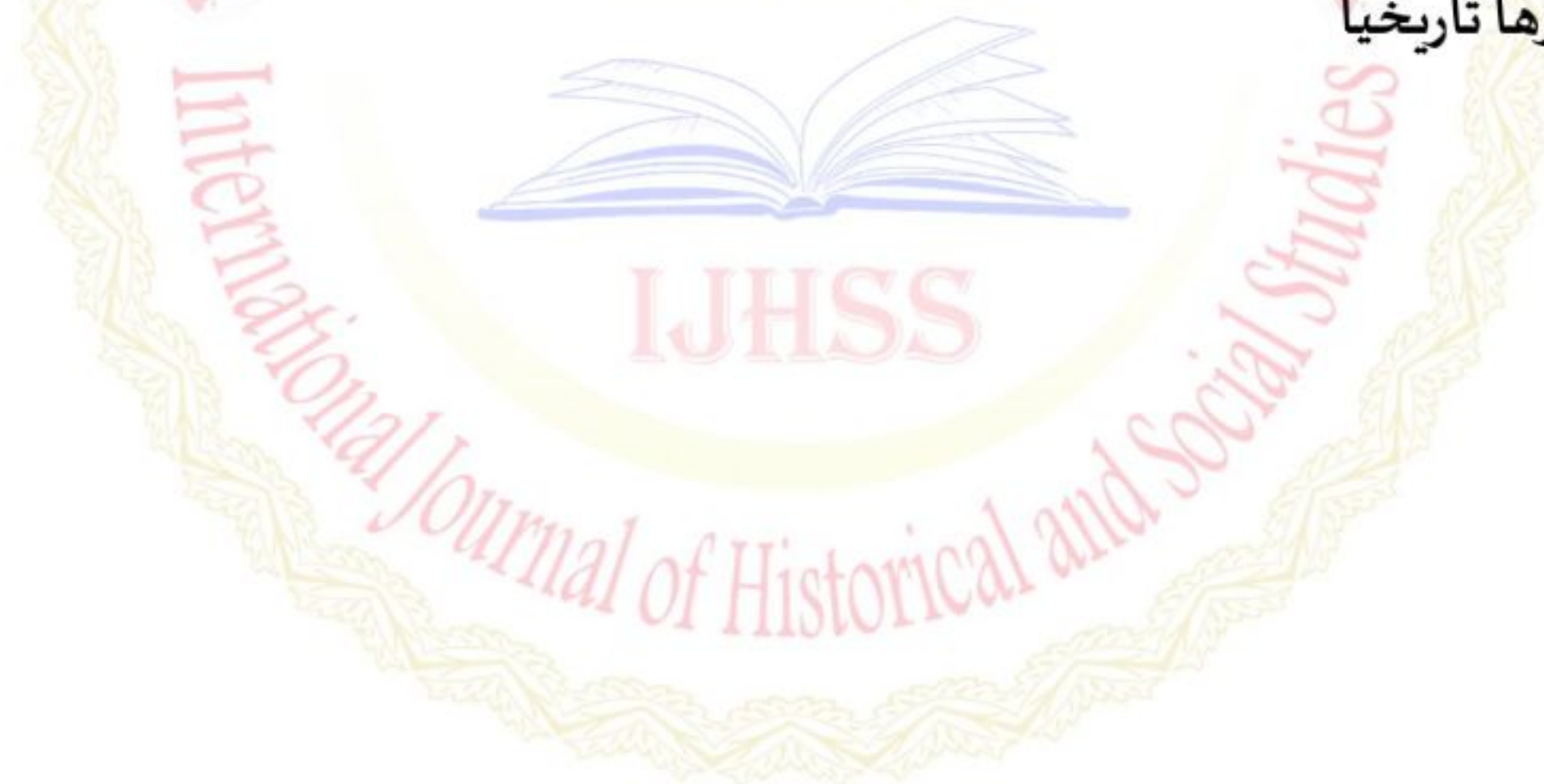
4)) محمد باقر الصدر، المصدر السابق، ص 213.

5)) لينين، مصادر الماركسية الثلاثة وأقسامها المكونة الثلاثة، ص 23.

الخاتمة

لقد ظهرت الماركسية في ظروف الرأسمالية الناهضة المتطورة في الغرب الاوروبي, وهكذا نجد بأن الواقع الاوروبي والفهم المادي للتاريخ وتحليل القوانين الموضوعية للتطور الاجتماعي والديالكتيك الموضوعي للرأسمالية والتناقضات الداخلية الملازمة لها قد دفعت ماركس الى صياغة تعاليم النظرية الماركسية, حول مجرى الصراع الطبقي في المجتمع الرأسمالي والثورة الاشتراكية, التي أشرت ان تقوم بها الطبقة العاملة الصناعية (البروليتاريا) الواعية, دون غيرها, بوصفها القوة الاجتماعية الاكثر تعرضاً للاستغلال في المجتمع الرأسمالي, والطبقة الاكثر قدرة على قبول الافكار الثورية التقدمية, واستيعاب النظرية الماركسية بحكم ظروف عملها وحياتها. ويأتي التحليل الماركس للصراع الطبقي الحديث من خلال رؤية اقتصادية تقوم على ما يسمى بنظرية فائض القيمة. حيث يذهب ماركس الى ان تاريخ المجتمعات قائم على فرضية الصراع بين الطبقات, بسبب التغيرات في العلاقات الاقتصادية, او بعبارة أدق, بسبب التغيرات في أسلوب الانتاج.

وفضلا عن نظرية ماركس في السببية الاقتصادية التي تفسر تطور التاريخ, كان للماركسية مفهوم المادية الجدلية عن التطور او الديناميكية التاريخية التي تعمل استجابة للقوى الاقتصادية, وقد استمد هذا المفهوم, على ضوء ما تم استعراضه, من ديالكتيك الفيلسوف المثالي الالماني هيغل. والذي اخذ عنه عناصر الجدل في تفسير حركة التاريخ وهي: الفكرة ونقيضها والمركب بينهما, وطبقها على حركة المجتمعات البشرية وتطورها تاريخيا



خصائص المنهج التاريخي و تطبيقاته في العلوم الأخرى الدكتور محمود علالي- جامعة عمار ثليجي بالأغواط-

مقدمة:

تهدف البحوث التاريخية إلى تفسير الأحداث و الكشف عن العوامل التي أدت إلى وقوعها و أبعادها المستقبلية، ليس فقط من أجل فهم الماضي بل و للتخطيط المستقبلي أيضا، و لا يمكن تحقيق ذلك إلا بتطبيق المنهج التاريخي الذي يقوم على تتبع ظاهرة تاريخية، من خلال أحداث أثبتها مؤرخون أو ذكرها أفراد أو تناقلتها روايات، على أن يخضع ما حصل عليه الباحث من بيانات و أدلة تاريخية للتحليل النقدي، للتعرف على أصالتها و صدقها. بمعنى أن التاريخ يتكون من الوقائع و الأحداث التي ظهرت في الماضي مرة واحدة و لن تتكرر أبدا على أساس أن التاريخ يستند إلى عنصر الزمن المتجه دوما إلى الأمام دون تكرار أو رجوع إلى الوراء.

(1) تعريف المنهج التاريخي:

اختلفت تسميات هذا المنهج في العديد من مؤلفات العلوم الاجتماعية، فتارة يذكر باسم المنهج التاريخي (méthode historique) أو (historical method)، و تارة بالأسلوب التاريخي (style historique) أو (historical style)، و تارة أخرى بالمدخل التاريخي أو المقاربة التاريخية (approche historique) أو (approach historical)، و نجدها في كتب أخرى تعرف بالتحليل التاريخي (analyse historique) أو (analysis historical).

و مهما اختلفت التسميات فإن هذا المنهج ينشغل بدراسة قضايا المجتمع في الحاضر مبتدئا بمعرفة الواقع الاجتماعي بغرض تغييره، و منشغلا بالتعرف على تاريخ العملية الاجتماعية أي تاريخ المجتمع. و يعرف عند المؤرخين بالمنهج النقلي أو المنهج الاستردادي أي الاسترجاعي، حيث يقوم فيه الباحث باسترداد الماضي تبعا لما تركه من آثار أيا كان نوعها، و هو يعتمد على استرداد أحداث الماضي ليتحقق من مجرى الأحداث و لتحليل القوى و المشكلات التي صاغت الحاضر².

فمنهج البحث التاريخي هو مجموعة الطرق و التقنيات التي يتبعها الباحث و المؤرخ للوصول إلى الحقيقة التاريخية، و إعادة بناء الماضي بكل وقائعه و زواياه و كما كان عليه زمانه و مكانه و يجمع تفاعلات الحياة فيه، و هذه الطرق قابلة دوما للتطور و التكامل مع تطور جموع المعرفة الإنسانية و تكاملها و منهج اكتسابها³.

1 سامية محمد جابر، منهجيات البحث الاجتماعي و الإعلامي، (دار المعرفة، القاهرة، 2000)، ص، ص 245، 260.

2 محمد جلاء ادريس، مناهج البحث العلمي: نظريا و تطبيقيا، (الجامعة الإسلامية 1998)، ص 124، 125.

3 حسن عثمان، منهج البحث التاريخي، ط8، (دار المعارف، القاهرة، 1964)، ص 21.

(2) أهمية المنهج التاريخي:

- من خلال ما استعرضناه يمكننا حصر أهمية المنهج التاريخي في النقاط التالية:
- (أ) يمكن استخدام المنهج التاريخي في حل مشكلات معاصرة على ضوء خبرات الماضي.
- (ب) يساعد على إلقاء الضوء على اتجاهات حاضرة ومستقبلية.
- (ت) يؤكد الأهمية النسبية للتفاعلات المختلفة التي توجد في الأزمنة الماضية وتأثيرها.
- (ث) يتيح الفرصة لإعادة تقييم البيانات بالنسبة لفروض معينة أو نظريات أو تعميمات ظهرت في الزمن الحاضر دون الماضي¹.

(3) خطوات تطبيق المنهج التاريخي:

- نظرا لتداخل وترابط عناصر المنهج التاريخي، يمكننا حصر مراحل تطبيقها في النقاط التالية:
1. تحديد المشكلة العلمية التاريخية: أي تحديد المشكلة أو الفكرة العلمية التاريخية التي تقوم حولها التساؤلات والاستفسارات التاريخية، الأمر الذي يؤدي إلى تحريك عملية البحث التاريخي لاستخراج فرضيات علمية تكون الإجابة الصحيحة والثابتة لهذه التساؤلات. وتعتبر عملية تحديد المشكلة تحديدا واضحا ودقيقا، من أول وسائل نجاح البحث التاريخي في الوصول إلى الحقيقة التاريخية، ويشترط في عملية تحديد المشكلة الشروط التالية:
- يجب أن تكون المشكلة معبرة عن العلاقة بين متحولين أو أكثر.
 - يجب أن تصاغ المشكلة صياغة جيدة وواضحة وكاملة.
 - يجب أن تصاغ بطريقة جيدة ملائمة للبحث العلمي التجريبي والخبري².
2. جمع و حصر الوثائق التاريخية³: و تتمثل في جمع كافة الحقائق و الوقائع المتعلقة بالمسألة، وذلك عن طريق حصر و جمع كافة المصادر و الوثائق و الآثار و التسجيلات المتصلة بعناصر الحادثة، و دراسة و تحليل هذه الوثائق بطريقة علمية للتأكد من صحتها و سلامة مضمونها.

1 عمر فروخ، كلمة في تحليل التاريخ، ط3، (دار العلم للملايين، بيروت، 1977)، ص65.

2 عزيز العظمة، منهج النقد التاريخي الاسلامي و المنهج الأوروبي، (مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية، 1976)، ص45.

3 أطلق عليه الألمان اسم الهورسطيقا Heuristik و هو اسم موجز لعملية البحث عن الوثائق. أنظر: لانجلوا و سنيوبوس،

بول ماس، امانويل كنت، النقد التاريخي، و يشمل: المدخل إلى الدراسات التاريخية - نقد النص - التاريخ العام، ترجمة عبد

الرحمن بدوي، ط4، (وكالة المطبوعات، الكويت، 1981)، ص5.

ونظرا لأهمية وحيوية هذه العملية أطلق البعض على المنهج التاريخي اسم "منهج الوثائق" فالوثائق التاريخية هي جوهر المنهج التاريخي. و الوثيقة في اللغة الأداة و البيّنة المكتوبة الصحيحة و القاطعة في الإثبات، وهي مأخوذة من وثق يثق ثقة أي ائتمنه، أي الشيء الوثيق بمعنى المحكم.

أما في الاصطلاح فهي: "جميع الآثار التي خلفتها أفكار البشر القدماء"، و الوثائق أوسع من النص المكتوب، حيث تشمل كافة الوثائق و المصادر و الأدلة و الشواهد التاريخية، أصيلة و أولية أو ثانوية و تكميلية، مكتوبة أو غير مكتوبة رسمية أو غير رسمية، مادية أو غير مادية، و التي تتضمن تسجيلاً لحوادث و وقائع تاريخية، أو لبعض أجزائها و عناصرها يعتمد عليها في البحث و التجريب للوصول إلى الحقيقة التاريخية المتعلقة بالمشكلة محل الدراسة و البحث¹.

3. نقد الوثائق التاريخية: و تأتي هذه المرحلة بعد حصر و جمع الوثائق، و ذلك بفحصها و تحليلها تحليلاً علمياً دقيقاً عن طريق استخدام كافة أنواع الاستدلالات و التجريب للتأكد من مدى أصالة و هوية و صدق هذه الوثائق.

و تعرف عملية التقييم و الفحص و التحليل هذه بعملية النقد، و تتطلب صفات خاصة في الباحث مثل: الحس التاريخي- الذكاء القوي- الإدراك العميق- الثقافة الواسعة و المعرفة المتنوعة- و كذا القدرة القوية على استعمال فروع العلوم الأخرى في تحليل و نقد الوثائق التاريخية مثل اللغة و علم الكيمياء و علم الأجناس، و معرفة اللغات القديمة و الحديثة².

4. تحليل البيانات و المعلومات المتعلقة بالمشكلة: في هذه الخطة تكون بداية الباحث في توقع أسباب الظاهرة التي يريد دراستها كي تساعد على التفسير و التحكم بها، من حيث صياغة الإشكالية أو الفرضية ثم اختبار مدى الدقة و الصدق و المعالجة لتلك المعلومات، ثم قبول تلك الفروض و تفسيرها³.

5. توثيق و كتابة البحث: هذا الجانب يتضمن تحديد أهمية و أهداف المشكلة البحثية، و كذلك استعراض الباحث العلمي للدراسات السابقة التي تتناول ذات موضوع الدراسة أو ما يقاربه، و أيضاً المناهج المتبعة في الحل ثم وضع الإشكالية و كذلك النتائج التي تم الوصول إليها، ثم اقتراح للتوصيات، و إدراج للمصادر المعتمدة، لذلك يجب كتابة هذا البحث بلغة واضحة و بشكل موضوعي⁴.

(4) أساليب المنهج التاريخي و علاقته بالعلوم الأخرى:

يعتمد المنهج التاريخي على أسلوبين هامين هما:

1 ناصر الدين سعيدوني، أساسيات منهجية التاريخ، (دار القصة للنشر، الجزائر، 2000)، ص 39.

2 لانجلوا، المرجع السابق، ص-ص 27، 29.

3 قاسم يزبك، التاريخ و منهج البحث التاريخي، ط1، (دار الفكر اللبناني، بيروت، 1990)، ص 90، 91.

4 نفسه، ص-ص 145، 148.

✓ الأسلوب الاستنباطي: حيث يتوصل الباحث العلمي من خلال هذا الأسلوب إلى النتائج وذلك من خلال الاستنباط، فهو يعبر عن طبيعة العالم ويستخدم الباحث حدسه هنا، أي أنه الأداة الرئيسية التي يعتمد عليها في الاستدلال العقلي بالوصول للحقائق بالتفكير المجرد¹.

✓ الأسلوب الاستقرائي: يعتمد هذا الأسلوب على قيام الباحث العلمي بمجموعة من التجارب التي تقوده إلى المبادئ العامة، حيث يحتاج المنهج التاريخي إلى الاستنتاج والاستنباط، وذلك بسبب اختيار الباحث العلمي لظواهر محددة ومن ثم تحديد المشكلة لتلك الظواهر، وتحديد الفروض الخاصة بها ومن ثم معالجة لهذه البيانات والمعلومات الخاصة بالظاهرة، وفي النهاية الخروج بالنتائج².

كثيرا ما يتبادر إلى أذهاننا السؤال التالي حول الفرق بين الأسلوب التاريخي والأسلوب العلمي؟ وللإجابة على هذا السؤال نقول: أن ثمة فرق بين الأسلوبين وثمة اتفاق بينهما، ويرجع ذلك للاختلاف وذلك الاتفاق لكون الأسلوبان يضمنان في جوانبهما سمات تميزهما عن بعض مما يُعطي لكل منهما جانباً من الخصوصية والتفرد.

و حول هذه القضية اختلفت وجهات النظر: النظرة الأولى حدّدت أوجه الاتفاق بين الأسلوبين في الأمور التالية:

⇒ انتقاء المشكلة وتحديدها .

⇒ وضع الفرضيات اللازمة لتفسير الظاهرة .

⇒ جمع المعلومات .

⇒ نقد المادة .

⇒ تفسير واستخلاص النتائج .

أما النظرة الثانية فحدّدت أوجه الاختلاف بين المنهج التاريخي والعلمي، في الأمور التالية:

❖ الأسلوب التاريخي لا يعتمد على التجربة العلمية المضبوطة، بمعنى أن الحقائق والأحداث لا يمكن أن تتكرر بصورتها، وذلك بسبب اختلاف العوامل المؤثرة.

❖ المصادر التاريخية في المعرفة غير مباشرة مثل الملاحظات العلمية، بل تعتمد على الآثار والسجلات والوثائق والمخطوطات وغيرها.

1 عبد الناصر جندلي، تقنيات و مناهج البحث في العلوم السياسية والاجتماعية، (ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2005)، ص134.

2 نفسه، ص143.

❖ لا يستطيع الباحث التاريخي الوصول إلى كل الحقيقة، وذلك لعدة أسباب منها ما يتعلق بالبعد الزمني والمكاني، ومنها ما يتعلق بصحة الأحداث وصعوبة الحصول على المادة التاريخية.

❖ لا يمكن عن طريق الأسلوب التاريخي أن نعمم النتائج أو القوانين بالدقة التي يحصل عليها الباحث في الأسلوب العلمي وذلك لعدة أسباب منها: تعقد البيانات الاجتماعية مقارنة بالبيانات الطبيعية، والطبيعة المتغيرة للظواهر الاجتماعية مقارنة بالثبات النسبي للبيانات العلمية، ضياع كثير من المعلومات التاريخية¹.

لقد دار جدل واسع بين العلماء والمؤرخين حول طبيعة المادة التاريخية وطرق الوصول إلى الحقيقة العلمية المجردة الثابتة، وكان على المؤرخين إثبات أن التاريخ معرفة علمية دقيقة غنية بتجربة قرون طويلة لها طرائق في البحث والاستقصاء من الحقيقة لا تقل في علميتها وصحة وسائلها عن مناهج العلوم الأخرى. وهكذا بحث عدد من المؤرخين في طرائق علم التاريخ وأثبتوا في كتبهم ومقالاتهم أن علم التاريخ علم يعود إلى الحقيقة الثابتة المؤكدة². وفي عام 1894 صدر كتاب حول منهج البحث التاريخي قام بوضعه أرنست بيرنهيم (E. Bernheim) جمع فيه ما كتب عن المنهج التاريخي وكان كتاباً لنخبة من المثقفين لا يتضمن طريقة صحيحة في البحث لمن يريد³.

أما المؤرخ فوستيل دو كولانج (Fustel de Coulanges) (1830-1889) صاحب كتاب المدينة العتيقة، فقد قام بتحويل قواعد المنهج التاريخي إلى دساتير وقوانين دقيقة جداً وكان أول كتاب بسط فيه إلى حد ما منهج البحث التاريخي هو الكتاب الذي ألفه المؤرخان الفرنسيان لانجلوا⁴ (Langlois) و سينوبوس⁵ (Seignobos) ويطلق عليه اسم "مدخل للدراسات التاريخية" صدر في باريس سنة 1898⁶.

1 لانجلوا، المرجع السابق، ص 199.

2 (هـج) إتكين، دراسة التاريخ وعلاقته بالعلوم الاجتماعية، ترجمة محمود زايد، (دار العلم للملايين، بيروت، 1963)، ص 47.

3 عاصم الدسوقي، البحث في التاريخ: قضايا المنهج والاشكالات، (مكتبة القدسي، القاهرة، 1986)، ص 24.

4 شارل فكتور لانجلوا (1863-1929)، مؤرخ و باحث في منهج التاريخ ولد في روان Rouen بفرنسا اهتم خاصة بتاريخ فرنسا في العصر الوسيط خصوصاً في القرنين الثالث عشر والرابع عشر. أنظر: التصدير بقلم عبد الرحمن بدوي في كتاب لانجلوا.

5 شارل سينوبوس (1854-1942)، ولد في لاماستر Lamastre محافظة الأردش بفرنسا، درس بجامعة السوربون، له عدة مؤلفات منها: التاريخ اليوناني، التاريخ السياسي لأوروبا المعاصرة...

6 توزع تأليف الكتاب بين المؤلفين: فكتب لانجلوا الكتاب الأول ثم الكتاب الثاني حتى الفصل السادس والتنبية، وكتب سينوبوس بقية الكتاب الثاني (أي الفصل الرابع و الفصل الثامن) ثم الكتاب الثالث. أما الفصل الأول من الكتاب الثاني و الفصل الخامس من الكتاب الثالث و الخاتمة فقد حرراها معا. أنظر: نفس المرجع السابق.

توالت الأبحاث في موضوع منهج البحث التاريخي، وكان من أولها باللغة العربية مصنف الأستاذ أسد رستم "مصطلح التاريخ" الصادر ببيروت سنة 1931 وكتاب "منهج البحث التاريخي" لحسن عثمان الذي طبع بالقاهرة سنة 1943¹، وبذلك أصبح المنهج التاريخي يقوم على قواعد محددة وملاحظات دقيقة متعارف عليها أملت التجارب وفرضها التطور العلمي المستمر².

وليس معنى هذا أن العرب لم يهتموا بالكتابات التاريخية قبل هذه التأليف، فقد نشأ علم التاريخ عند المسلمين فرعا من علم الحديث وقد سعوا إلى جمع المادة الأساسية من المصادر الموثوقة والرواية الشفوية، واهتم المؤرخون بالمكان فمزجوا بين التاريخ والجغرافيا مثل المسعودي وابن النديم، ومن ثم اعتمدوا على الوثائق الرسمية في مدوناتهم مثل اليعقوبي والبلاذري والطبري وغيرهم... لقد عمل المؤرخون المسلمون في بداية القرن الأول على التدوين التاريخي مستخدمين طريقة الإسناد أو العنونة كما في رواية الحديث، وبذلك كانوا أمناء في نقل الأخبار خاصة عند الطبري³.

أما النقد التاريخي عند العرب فقد بينه القرآن الكريم في كثير من الآيات، وذلك بإعمال العقل فيما يرى الإنسان ويسمع، وأكد على مفهوم البيّنة والحجة والبرهان، ووجوب التثبت من الخبر، وكلها أمور توجه الفكر إلى النقد العقلاني للأمور، وقد نبه النبي ﷺ في أحاديثه إلى ضرورة تحري الصدق من الكذب، ومن ثم أوجد علماء الحديث تدريجيا أصولا نقدية للتمييز بين الصحيح والموضوع من الأحاديث، و لتصنيفها حسب قربها من الحقيقة و اتبع المؤرخون العرب تلك الأصول للتحقق من صحة الخبر أيضا. فالأسلوب النقدي الذي صاروا عليه واقتدوا فيه بعلماء الحديث كان "التجريح والتعديل" هذا النهج هو في لب المنهجية العلمية المعاصرة للبحث التاريخي⁴.

لقد اتخذ المؤرخون المسلمون الموازنة الزمنية بين خبرين، أي النقد الباطني السلبي أو ما يسمى بنقد المؤلف، بحيث استطاعوا بهذا النمط من الموازنة والمحكمة الزمنية التاريخية أن ينقدوا ما يدعى بأنه وثائق ويظهروا زيفها، وقد حاول المؤرخين العرب ضبط الأحداث زمنيا بواسطة التوقيت لها بالسنة والشهر واللييلة، وبذلك فاقوا مؤرخي اليونان والرومان وأوروبا في العصور الوسطى، فقد قال المؤرخ الإنجليزي "بلوك Bloch": "إن التوقيت على هذا النحو لم يعرف في أوروبا قبل 1597"⁵. وقد أبدى المؤرخون العرب اهتماما فائقا بتحديد الزمن في الأخبار، ويتضح هذا من تعريفهم للتاريخ بأنه "الإنسان والزمان" و

1 نظرا لأهمية الكتاب طبع عدة مرات، حسن عثمان، منهج البحث التاريخي، ط8، (دار المعارف، القاهرة، 1964)

2 نفسه، ص11.

3 علي ابراهيم حسن، استخدام المصادر وطرق البحث في التاريخ الاسلامي العام و في التاريخ المصري الوسيط، ط2، (مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1980)، ص33.

4 قاسم يزبك، المرجع السابق، ص10، 11.

Bloch(M), Apologie pour l'histoire ou métier d'historien, (Paris,1946), p15.5

أنه "الزمان وأحواله"، ولكن جميع الأحداث في سلسلة زمنية هي خطوة أولى في عملية التركيب التاريخي إلا أنها ليست لها، فالتركيب الحقيقي يقوم على ربط الأحداث ببعضها ربطاً سببياً. وهذا ما أراد أن يوضحه ابن خلدون في معرض حديثه عن التاريخ بأنه "هو في ظاهره لا يزيد على أخبار الأيام و الدول و في باطنه نظرو تحقيق و تعليل الكائنات و مبادئها دقيق و علم بكيفيات الوقائع و أسبابها عميق"¹.

وقد اهتمت بعض الكتابات الغربية المؤرخين العرب بعدم سعيهم إلى التعليل و اكتفائهم بالسرد فقط، و نجد تفاوت كبير بين المؤرخين العرب في تفصيلهم للأسباب في تفسير الظواهر و الحوادث، إلا أنهم أدركوا بمجموعهم أهمية العوامل الاقتصادية و الجغرافية في دفع الأحداث، و في التأثير على حياة البشر و كذلك العوامل النفسية و الاجتماعية و الفكرية. و لا ندري من المؤرخين كان كتابه مجرد سرد ساذج لا يحمل ضمن التطور تأويله الخاص و تفسيره الذاتي؟ بالإضافة إلى ذلك لم يكتف المؤرخون المسلمون بتتبع أسباب الحوادث فقط، بل سعوا لتكوين تركيب فلسفي لمعنى التاريخ.

ومن هنا يمكننا القول: أن منهج البحث التاريخي عند المؤرخين العرب يسجل لهم أنهم أول من ضبط الحوادث بالإسناد و التوقيت الكامل، و أنهم مدوا حدود البحث التاريخي و نوعوا التأليف فيه و أكثره إلى درجة لم يلحق بهم فيها من تقدمهم أو عاصرهم من مؤرخي الأمم الأخرى، و أنهم أول من كتب فلسفة التاريخ، و أنهم لم يدخروا جهداً بالعمل بواجب المؤرخ و ذلك بالصدق في القول و النزاهة في الحكم، و بذلك يكون المؤرخون العرب هم الذين وضعوا الأصول الأولى لمنهج البحث التاريخي العلمي الحديث الذي بدأ ناضجاً في أوروبا في القرن 19، و هم الذين تركوا بتلك الأصول أثرهم في مؤرخي أوروبا في مطلع العصور الحديثة الذين شرعوا بدورهم ينتهجون في الكتابة التاريخية طريق النقد و التمحيص و التدقيق².

فمن مميزات المنهج التاريخي أنها متداخلة في حد ذاتها بالعديد من المناهج الأخرى، شأنها في ذلك شأن انفتاح العلوم ببعضها على بعض، و تداخلها مع حركة الوعي الإنساني الذي صاحب معطيات التفكير في كل العصور، و لعل أبرز هذه المميزات تداخل المنهج التاريخي في عدة مجالات علمية، مثل التربية و الأدب و القانون، و غيرها.

أ. تطبيقات المنهج التاريخي في المجالات التربوية:

- أ) توفر الدراسات و البحوث التاريخية محتوى معرفياً علمياً لتاريخ التربية و التعليم في دولة معينة أو في دول العالم المختلفة، و يُستخدم هذا المحتوى في الإعداد المهني للمعلمين و المشتغلين بالأمور التربوية و التعليمية.
- ب) تزودنا نتائج البحوث التاريخية بمعرفة عن الأهداف و محتوى المقررات و طرق التدريس و أساليب التقويم و أسلوب إعداد المعلم، و غير ذلك من القضايا و

1 سعيدوني، المرجع السابق، ص 83، 84.

2 طريف الخالدي، المرجع السابق، ص 34، 37.

السياسات التعليمية التي أتبعَت في الماضي، ومثل هذه المعرفة لها أهميتها في تحديد العمليات والخطوات اللازمة لتطوير التعليم في الحاضر والمستقبل.

ت) تمكنا البحوث التاريخية من تفسير الكثير من الممارسات والمشكلات التعليمية القائمة في الواقع التعليمي في حاضره و مدى ارتباطها بهذه الجذور التاريخية، ومن أمثلة ذلك مشكلة الأمية، ومشكلة التفاوت في المستوى العلمي و المهني لمختلف مراحل التعليم.

ث) تكشف لنا البحوث التاريخية جوانب أصيلة في تراثنا التربوي العربي و الإسلامي في مجال النظرية و التطبيق التربويين، وهذا يتيح الفرص للاستفادة منه وتحسين عمليات التربية و التعليم ونتائجها في الحاضر والمستقبل¹.

ب. تطبيقات المنهج التاريخي في ميدان الدراسات القانونية:

يضطلع المنهج التاريخي بدور هام و أساسي في ميدان الدراسات و البحوث العلمية القانونية و الإدارية التي تتمحور حول الوقائع و الأحداث و الظواهر القانونية، المتحركة و المتطورة و المتغيرة، باعتبارها وقائع و أحداث و ظواهر إنسانية في الأصل.

فيقدم المنهج التاريخي الطريقة العلمية الصحيحة، للكشف عن الحقائق العلمية التاريخية للنظم و الأصول و المدارس و النظريات و الأفكار القانونية و الإدارية و التنظيمية. إن المنهج التاريخي هو الذي يقود إلى معرفة الأصول و النظم و الفلسفات و الأسس التي يستمد منها النظم و القواعد و المبادئ و الأفكار القانونية و التنظيمية الحاضرة، و ذلك عن طريق حصرو جمع كافة الوثائق التاريخية و تحليلها و نقدها و تركيبها و تفسيرها، لمعرفة و فهم حاضر فلسفات و نظم و قواعد و مبادئ الأفكار القانونية السائدة و السارية المفعول، و القيام بالبحوث و الدراسات العلمية المقارنة لفهم و اقع النظم القانونية و الإدارية المعاصرة فهما سليما حقيقيا أولا، و لتطويرها بما يجعلها أكثر ملائمة و تفاعلا و انسجاما مع و اقع البيئة و الحياة المعاصرة ثانيا².

فبواسطة المنهج التاريخي أمكن و يمكن معرفة الحقائق العلمية و التاريخية، عن أصل و أساس و غاية القانون في كافة مراحل و عصور ماضي التاريخ الإنساني في الغابر بطريقة علمية صحيحة. كما أمكن التعرف على الأحكام و النظريات القانونية القديمة و الماضية، مثل النظام القانوني و الإداري الإغريقي و الروماني، النظام القانوني الإداري الإسلامي، الجزائري...³

1 أحمد عاظم، مناهج البحث في التربية و علم النفس، (دار المعارف، القاهرة، 1992)، ص 17.

2 مصطفى أبو حنيف أحمد، مناهج البحث التاريخي بين الماضي و الحاضر، (عمان، الأردن، 1985)، ص 48.

3 بشير العريضي، محاضرات في التاريخ العام و المعاصر، (كلية الحقوق، علو سياسية، الجامعة اللبنانية، بيروت، 1963)،

ت. تطبيقات المنهج التاريخي في ميدان الدراسات الأدبية:

يحاول المنهج التاريخي أن يبلور العلاقات الموجودة بين الأعمال الأدبية في إطار تاريخي-زمني (أي في إطار واعي بحركة التاريخ)، وهو بذلك يتعامل مع الأدب من الخارج¹. تبعا لذلك فالمنهج التاريخي يحتاج إلى ثقافة واعية وتتبع دقيق بحركة الزمن وما فيه من معطيات يمكنها أن تنعكس في صورة مباشرة أو غير مباشرة وعلى النص الأدبي، ولعل عنايته أحيانا بالطابع التحليلي يبرز مظهر ذلك الوعي. فالناقد التاريخي قد يلتفت إلى النص الأدبي ويحلله في إطار إحصائي أو بياني أو حتى جمالي، ليصل في النهاية إلى هدفه وغايته وهي محاولة الربط بين استخدام تلك المقاييس اللغوية التحليلية، وبين العصر الذي ولدت فيه وبين المؤلف الذي تأثر بذلك العصر فاستخدم تلك المصطلحات اللغوية، ولهذا نجد المنهج التاريخي منهجا مرتبطا ارتباطا وثيقا بالمنهج النقدي.

نجد أن المنهج التاريخي معني بمستويات النقد وأطره لذا فهي تستخدم كل مراحلها الممثلة في التفسير والتأويل والتنقيح والحكم نظرا لعنايته الجادة بالنص كروية واقعية ترتبط بالزمن والعصر والبيئة، ويلعب المؤلف دوره المحلل في ضوء تلك المراحل التي لا غنى عنها في العملية النقدية².

ومن هنا يظهر منهج التاريخ الأدبي وكأنه حقبة خاصة في حقل التاريخ، أي أنه يذكر الماضي من أجل الحاضر، ويحيي العلاقة التي غالبا ما تكون عاطفية مع كبار القدماء الذين سبقوه، فهو بالطبع يحصر حقل أبحاثه في ميدان الأدب محمدا علاقاته بكافة الأطر الاقتصادية والسياسية والثقافية لتبيان ما فيها من عوارض وإشارات تنم من عقلية نقدية ما. كما أن المنهج التاريخي يختص بالتوفيق في الأعمال القديمة من حيث ذكرها وحفظها و ترتيب ظواهرها في سياق التسلسل التاريخي التي يتكون منها حياة الأدباء وإنتاجهم والجمهور والعلاقات بين الكاتب ومستهلك الكتاب (القارئ)، ويقدم التفسيرات حول هذه الأشياء و على مستوى أعمق يحاول شرحها وحتى إحيائها من خلال المقتطفات أو يقوم أمام تراكم الوقائع بإطلاق المعايير والقواعد التي تحكم بيئة الأدباء وسيرتهم الذاتية³.

1 عبد الحميد دياب، تحقيق التراث العربي منهجه تطوره، (منشورات سمير أبو داود المركز العربي للصحافة، أهلا، القاهرة، د.ت)، ص 57.

2 جوزف هورس، قيمة التاريخ، ترجمة نسيم نصر، ط3، (منشورات عويدات، بيروت، 1986)، ص 86.

3 صالح هويدي، النقد الأدبي الحديث قضاياها ومناهجها، ط1، (منشورات جامعة السابع من أفريل، ليبيا، سنة 1426هـ)، ص 77.

أما على مستوى النص فإن المنهج التاريخي يتتبع الأعمال الأدبية من حيث إقرار النصوص و الوقائع و الأحداث فيها، فهو يدرس المخطوطات و يقارن الطبقات و يدقق في التصويب النهائي للنص بالإضافة إلى دراسة تكوينات الوقائع الاجتماعية المتعلقة بسيرة الكاتب الذاتية¹.

هذه أهم الملامح التي تميز المنهج التاريخي وتحدد خصائصه، ولا شك فإن معطياته قد لا تعطي كل الثمار المرجوة في الحركة النقدية، فهو منهج قديم أهم ما يعيبه دراسة النص من الخارج و الوقوف على المغزى الواقعي الذي قد لا يكشف لنا أحيانا رؤى النص المتمثلة في التحليل و الخيال و البعد المثالي الذي تفضيه مشاعر المؤلف أو المبدع، و الروح النقدية التاريخية فيها من السهولة ما يجعلها مستهدفة من قبل بعض النقاد الذين يملكون قدرة البحث و التقصي فتكون متعتمهم بارزة في هذا المجال، وهي خاصية تنبعث من رؤى هذا المنهج الذي أكثر ما يميزه ثقافة مؤلفه التي يطبعها معلم الواقعية الحصينة في فهم الأشياء.

فالمنهج النقدي-التاريخي من ظل هذا يهدف إلى تحقيق منطق الزمن الذي يعايشه من خلال النص، فيرى فيه المتعة في البحث و التقصي و إيجاد العلاقات الواقعية في إطار هذا المغزى². و يعد طه حسين أبرز من استخدم هذا المنهج في دراساته عن الأدب العربي القديم، مثل كتابه "حديث الأربعاء" و "تجديد ذكرى أبي علاء"، ففي الكتاب الأخير طبق طه حسين المنهج التاريخي تطبيقاً دقيقاً، فقد خصص باباً في هذا الكتاب (حوالي ثلث الكتاب) درس فيه زمن أبي العلاء و مكانه و شعبه و الحياة السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية و الدينية في عصره و قبيلته و أسرته ليرى أثر ذلك كله في شعره و أدبه³.

خاتمة:

وفي الأخير يمكننا القول أن المنهج التاريخي يهدف إلى صنع معرفة علمية من الماضي الإنساني، ونعني بالعلمية أنها تستند إلى طرائق عقلانية توصل إلى الحقيقة بقدر ما تسمح به الظروف التي تخضع لها، و هي ظروف تقنية تتمثل في طبيعة الوثائق المستخدمة و وجودها، و ظروف منطقية و هي تلك التي تحللها نظرية المعرفة. فلا يمكن تحقيق إعادة البناء التصوري للماضي دون خطة مضبوطة تعتمد على فحص و تحليل سجلات الماضي و مخلفاته، مما يجعل منهجية البحث التاريخي ضرورية للتدرب على الكتابة و الوصول إلى الحقيقة التاريخية التي ليست بأي حال من الأحوال حقيقة مطلقة وإنما هي نسبية⁴.

1 بسام قطوس، المدخل إلى مناهج النقد المعاصر، ط1، (دار الوفاء لنديا الطباعة و النشر، الاسكندرية، 2006)، ص39.

2 قسطنطين زريق، نحن و التاريخ، ط4، (دار العلم للملايين، بيروت، 1979)، ص45.

3 يوسف و عيسى، مناهج النقد الأدبي مفاهيمها و أسسها، تاريخها و روادها و تطبيقاتها العربية، ط1، (جسور للنشر و التوزيع، الجزائر، 2007)، ص18.

4 نفسه، ص72.

دراسة المجتمع والذهنيات بتونس**من خلال رحلة المبشر كريستيان ايضالد من تونس الى طرابلس سنة 1835****عثمان البرهومي، جامعة صفاقس/تونس****مقدمت**

لقد كان للخصائص التاريخية والثقافية التونسية ارتباط وثيق بالرحلة والرحالة، فموقع تونس في شمال افريقيا المطل على البحر الأبيض المتوسط شكّل دوما رافدا من رو افد التفاعل والتطور، وما يزال إلى يومنا هذا يثير اهتمام الباحثين في مجالات التاريخ والجغرافيا وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا واللسانيات.

وقد كانت معرفة الأوروبيين لبلادنا خلال الفترة الحديثة محدودة جدا رغم الانتماء إلى نفس المجال الجغرافي وهو البحر الأبيض المتوسط، فرغم الاشتراك في المصالح الاقتصادية منذ القرن السادس عشر عبر مجموعة من المعاهدات التجارية مع عدد من البلدان، على غرار فرنسا و انكلترا والنمسا وهولندا... فإنّ هذا الانفتاح والاهتمام بإيالة تونس أصبح أمرا مؤكدا خلال القرن التاسع عشر حيث تكثفت الرحلات وتعددت الكتابات المدونة لها لتصبح من أكثر الأجناس الأدبية تداولاً بين كتابات الأوروبيين في التاريخ للحضارات ورصد مميزات المتنوعة، الاجتماعية والسلوكية والذهنية، خصوصا وأنّ هذا الجنس الأدبي وفر للرحالة الأوروبيين الفرصة الأنسب للكتابة والتأليف اللذين بلغا درجة الإبداع، وهو إبداع جمع بين الحكاية والانطباع الشخصي ووصف الأماكن والوقائع سجّل الأحداث دون إغفال أنماط الحياة الاجتماعية المختلفة.

لذلك تُعتبر الكتابات والوثائق الأوروبية وكتب الرحلات خاصة، مصدرا مهما من مصادر دراسة تاريخ البلاد التونسية، وبالتالي من المؤلفات التي تتمتع بالقدرة على سدّ النقص الذي تواجهه مصادرنا وأحاديثها، كما تقدّم هذه الكتابات نظرة أخرى مغايرة تماما للمصادر المحلية، سواء من النصوص الأدبية أو الوثائق الأرشيفية التي لم تخرج عن دائرة الوثائق الرسمية التي لا يمكن التعويل عليها بصفة كلية لدراسة جوانب مختلفة من خصائص المجتمع ومميزاته وتحولاته، كما أنّها توفر لنا نظرة مغايرة يمكن اعتمادها في الدراسات الأنثروبولوجية التي تهتم بالذهنيات والسلوك الاجتماعي والظواهر الثقافية وردود الأفعال الجماعية والفردية تجاه الظواهر الطبيعية والاجتماعية والدينية وغيرها، إضافة إلى أنّ هذه

الوثائق ترصد ردود الأفعال المختلفة تجاه الأحداث السياسية والأنشطة الاقتصادية والاجراءات الجبائية لجميع شرائح المجتمع.

ولئن وفّرت لنا الرحلات معلومات قيّمة ودقيقة لمشاهدات حيّة ومباشرة وسجلات مليئة بوصف دقيق للمدن والأماكن التي زارها الرحّالة أو لحياة أشخاص تعاملوا معهم أو لأخبار إخوانهم من الأوروبيين من تجار وعبيد وقناصل ووكلاء، فإنّه من الواجب التعامل مع كتاباتهم بحذر كبير وبمزيد التدقيق والتمعّن فيما دونوه بسبب توجيههم نحو الإثارة والتشويق واستخدام مفردات وعبارات في غير محلّها قد تبعدنا عن الواقع.

وفي هذا الإطار يأتي اهتمامنا بـ "رحلة المبشر الألماني ايفالد من تونس الى طرابلس سنة 1835"¹، وتعتبر رحلته وثيقة مهمّة لما تضمّنه من معلومات إثنولوجية واجتماعية وأنتروبولوجية. ومصدر أساسي للمؤرخ الدارس للمجتمع والذهنيّات بإيالة تونس خلال القرن التاسع عشر.

فكيف كان " ايفالد" مراقبا جيّدا لخصائص المجتمع التونسي وتحولاته خلال القرن التاسع عشر؟ وما هي قيمة المعلومات التي تضمّنتها جولته بمجموعة من المدن الساحلية التونسية، في دراسة الذهنيّات والتوافق بينها وبين الظواهر الاجتماعية؟

أولا: خصائص المجتمع التونسي وتحولاته خلال القرن التاسع عشر كما يقدّمها الرحالة " ايفالد"

لقد أظهر الرحّالة الألمان اهتماما كبيرا بتونس خلال القرن التاسع عشر، وشارك في هذه الرحّلات دبلوماسيون ومغامرون وباحثون جغرافيون فأصبحت تونس حاضرة بصفة دائمة في المنشورات المكتوبة وتقارير الرحلة التي ألفها الرحّالة الألمان².

1 ايفالد، رحلة المبشر ايفالد من تونس الى طرابلس في سنة 1835 (مرورا بسليمان ونابل والحمامات والمنستير والمهدية وصفاقس وقابس وجربة)، نقلها من الألمانية الى العربية وقدم لها وعلق عليها منير الفندري، بيت الحكمة- قرطاج، تونس، 1991.

صدر هذا الكتاب بالألمانية سنة 1837. وقد ألفه المبشر كرستيان فردناند ايفالد Christian-Ferdinand Ewald، وروى فيه رحلته إلى تونس وطرابلس بهدف التبشير بدين المسيح لدى اليهود - وكان هو نفسه من أصل يهودي - ولدى المسلمين أيضا. وقد تحدّث عنه الرحّالة الألماني بوكليير موسكاو وعن نشاطه التبشيريّ مؤكّدا ببعض التهكم فشله الذريع في تنصير أيّ كان رغم الكمّيات الهائلة من الأنجيل التي كان يجود بها.

2 يبدو أن هذا الاهتمام انطلق وبصفة محتشمة منذ القرن السابع عشر، غير أن الخوف من القرصنة المتمركزة بالضفة الجنوبية للمتوسط، جعلهم يصورون منطقة شمال افريقيا أو " بلاد البربر" كما يطلقون عليها. بأنها مجال خطر ومنطلق لصيد المسيحيين وتحويلهم الى عبيد. خصوصا وأن الألمان وعلى عكس بقية البلدان الأوروبية الأخرى لم ينجحوا قبل 1830 في ابرام معاهدة مع بلدان شمال افريقيا " بلاد البربر" لتأمين حركة السفن بالمتوسط. انظر :

1. التعريف بصاحب الرحلة

كريستيان فرديناند إيفالد Christian-Ferdinand Ewald هو مبشر ألماني الجنسية عاش بين 1803 و1875¹، كان نشيطاً في نشر الإنجيل بين اليهود والمسلمين وبإقامة القداس وغيره من الطقوس العقائدية بالنسبة إلى المقيمين من طائفة البروتستان، وقد كان عمره عندما حلّ بتونس (1833-1834) في تمام الثلاثين سنة قادمة إليها من الجزائر حيث أقام سنة 1832 وبدأ نشاطه كمبشر بالإنجيل في الجزائر غداة احتلالها². وكان إيفالد قد جاء إلى بلاد المغرب إثر دخول الاستعمار الفرنسي إليها، بإيعاز من جمعية مسيحية تابعة للكنيسة الإنكليكانية تُعنى بتنصير اليهود تُعرف باسم:

«The London Society for the Promotion of Christianity among the Jews»

وكان إيفالد نفسه من أصول يهودية، فهو إسرائيلي تنصّر قبل أن ترسله جمعية لندن لنشر الدعوة المسيحية بين اليهود إلى "بلدان القرصنة بشمال إفريقيا لكي يدي إلى اليهود بالشهادة على منقذ بني إسرائيل الصحيح". وهذا ما أكده الرحالة الألماني الأمير بوكير موسكاو³ الذي تزامنت رحلته إلى تونس مع رحلة إيفالد سنة 1835. وقد عرف بوكير إيفالد بوصفه شاباً كان في الأصل يهودياً اعتنق المذهب الكالفييني بمدينة بازل السويسرية ثم انضم إلى الكنيسة الإنكليكانية التي لا شك أنها لقيت فيه من المؤهلات والتحمّس لخدمة العقيدة البديلة ما جعلها توكل إليه مهمة التبشير باسمها على سواحل إفريقيا الشمالية إبان دخول الاستعمار الفرنسي إليها، عبر الجزائر محطته الأولى التي منها انتقل إلى تونس حيث دشّن فرع الجمعية المذكورة بحاضرة

Mounir Fendri, 2019, « « Si ce pays de trouvait entre les mains laborieuses ! » Voyageurs allemands en Tunisie au XVIIIè siècle » in Alia Baccar Bournaz (dir), *La Tunisie sous la plume des voyageurs à l'époque moderne (1492 – 1789)*, Académie tunisienne des sciences, des lettres et des arts Beït al-Hikma, Carthage – Tunis. Pp 155-173, p 156.

1 إيفالد، رحلة المبشر إيفالد من تونس إلى طرابلس في سنة 1835.....، ص 10.

في حين تذكر الباحثة Dabbour Ellen Wootten، أن فرديناند كريستان فريادريش إيفالد ولد سنة 1802 وتوفي سنة 1874 في مقاطعة البافيار البروسية من عائلة يهودية.

Ellen Wotten Dabbour, *La mission protestante au Maghreb aux XIX-XX siecles : Itinéraire, idéaux humanitaires et récits du quotidien. Doctorat en Histoire*, in folio, sous la direction du Professeur Abdelhamid Larguèche, Année universitaire 2015-2016, p 191.

2 وردت تفاصيل مهمة عن حياته ونشاطه التبشيري في مقالات له أو عنه " مقتطفات من يوميات إيفالد المبشر بين اليهود"، بصحف صادرة عن جمعيات التبشير: الصحيفة المعنية هي: Barmer Mission-Blatt. أنظر: منير الفندري، تقديم ترجمة كتاب، إيفالد، رحلة المبشر إيفالد من تونس إلى طرابلس في سنة 1835.....، ص 10.

3 بوكير موسكاو سميلاسو، 1989، *سميلاسو في إفريقيا: رحلة أمير ألماني إلى الإيالة التونسية في سنة 1835*. نقلها من الألمانية إلى العربية منير الفندري وقدمها الصحبي الثابتي، بيت الحكمة، قرطاج – تونس، ص 76.

إيالة تونس وأشرف عليه إلى غاية 1840 أو 1841 في حماية قنصل انقلترا المدعو السير توماس ريد لأداء مهامه التبشيرية الموجهة لليهود أو المسلمين، وهو ما أكده خلفه دافيس¹.

وقع نشر هذه الرحلة في ألمانيا سنة 1837، وصاحبها مازال في تونس، تحت عنوان² Christian- *Ferdinand Ewald, Reise von Tunis nach Tripolis (über Soliman, Nabal, Hammamet, Susa, Sfax, Gabis, Jerba)*

وقد تكفل بنشرها صاحبه المدعوباولوس إيفالد بصفحة عنوانها قس ملكي "ببلاش"، وحسب اعتقاد الأستاذ منير الفندري فإنّ هذا الشخص من المحتمل أن يكون أب المبشر كريستيان إيفالد ومن نفس المكان بلدة "بلاش" Ples / Plech الواقعة في مقاطعة شلازيان البروسية "بولونيا حاليا". وقد تصرّف الناشر في النصّ الأصلي، فحذف معظم ما احتواه من معلومات حول النشاط التبشيري.

ولم يكن البريطانيون أقلّ اهتماما من الألمان بهذه المذكرات، فقد نُشرت فصول منها مترجمة في أعداد مختلفة من صحيفة «The Penny Magazine» سنة 1938-1939، ومقتطفات من هذه الرحلة في مرحلة لاحقة، كما قامت دار نشر إنجليزية بنشر مذكرات أخرى لنفس الرحالة حول محطته الثانية بعد شمال افريقيا وهي القدس³. وتبرز من كلّ هذه المعطيات الأهميّة التي أصبح يوليها الأوروبيون، الألمان والبريطانيون منهم بالخصوص لمذكرات إيفالد.

ويبدو أن إيفالد كغيره من الرحالة الأوروبيين، استطاع أن يترك لنا من خلال مشاهدته وانطباعاته في شكل أدب الرحلة العديد من المعلومات المفيدة، من تعريف الأماكن والأسماء والظواهر النابعة من أعماق واقع المجتمع التونسي والتي أهملتها المصنّفات المحليّة بقصد أو بغير قصد.

2. مضمون الرحلة

1 هو القس الانكليكاني والباحث في علم الآثار في نفس الوقت N. Davis وقد اكتشف له الباحث التونسي بول صباغ كتابا يتعلق بتونس صدر بالانجليزية في مالطا سنة 1841 يحتوي على بعض المعلومات حول فرع جمعية لندن لنشر الدعوة المسيحية بين اليهود بتونس. ويذكر إيفالد كونه كان على رأس هذا الفرع. انظر :

», In *Cahiers de] Nathan Davis [Paul Sebag, 1958, « Une description de Tunis au XIXe siecle Tunisie, N° 21-22, 2e trim. pp 161-181. p161.*

ذكره، منير الفندري، تقديم ترجمة كتاب إيفالد، ص 15.

Christian-Ferdinand Ewald, *Reise von Tunis nach Tripolis (über Soliman, Nabal, Hammamet, 2 Susa, Sfax, Gabis, Jerba).*

de l'allemand à l'arabe par Mounir Fendri et publié par la Fondation Nationale pour la Traduit Traduction, l'Etablissement des Textes et les Etudes, Beït Al-Hikma, Carthage (Tunisie)

3 منير الفندري، تقديم ترجمة كتاب إيفالد، ص 14.

لقد اختلفت أدبيات الرحالة وتنوعت آثارهم من حيث القيمة والأهمية والغنى، حتى أن القارئ يطلع ضمن هذه المدونة على كتابات متعجّلة لعدد من الرحالة كانت زيارتهم طارئة ومحدودة في الزمان والمكان، الأمر الذي جعل نظرتهم إلى المجتمعات المحليّة التي زاروها تفتقر إلى الموضوعية. فقد كانت كتاباتهم إما صدى لأفكار مُسبقة ممجوجة، أو تكريسا لرؤية مستهلكة.¹ ولئن قامت جلّ هذه القراءات، على التقاط الشوارد وأبسط الحقائق والوقائع وعلى اختزال لامس الكاريكاتور أحيانا، فإنّ جزءاً مهماً من تلك الرؤى قامت على قوالب ووجهت وجهات معيّنة خدمة لمشاريع معروفة ومُعلنة في أغلب الأحيان كما هو الحال بالنسبة إلى إيفالد الذي كانت رحلته تبشيرية بالأساس وتضمّنت معطيات وإشارات على غاية من الأهمية على الأقلّ في دراسة جوانب مختلفة من المجتمع ومن الذهنيّات المميّزة لسكان إيالة تونس خلال القرن 19.

ولا يختلف إيفالد كثيرا عن كثير من الرحالة الأوروبيين الأجانب في أسلوبه المتعالي والتحقيقي للأهالي عند نقل بعض الأحداث والظواهر إلى حدّ المبالغة فهو لا يتوانى مثلا في توصيف الأهالي بالمهدية، بقلة العمل والكسل رغم الثراء "لذا نجد السكان على غاية الثراء ولكنهم كسالى، فلا يُزرع شيء ولا يُجنى إلا ما جادت به الطبيعة تلقائيا"². والكسل بالنسبة إليه صفة يجتمع فيها البدو والحضر رجال ونساء، كما أنّه ذهب إلى أكثر من ذلك عند وصف السكان بالاعتقاد في الخرافات والأباطيل والسحر والشعوذة ويجعل منها ظاهرة عامّة "إن هؤلاء القوم لعلّ قدر كبير من الاعتقاد في الخرافات والأباطيل، ثم أنهم يعلمون أنّي أحذق العربية وقرأ القرآن. وبالتالي يكفي أن أقول أنّي خبير بالسحر المعروف بـ "خط الرمل" و أنّي سوف أنفذ هذا السحر في صورة ما لم يحضروا لي بغلي وأن الجاني سيلقى عندئذ عقابا شديدا"³.

وهذا التعميم يجعل شهادة إيفالد حول المجتمع وذهنيّاته في أغلب الأحيان تغيب عنها الدقة والموضوعية رغم المعطيات المهمة التي دوّنها وجمعها خلال رحلته التي انطلق خلالها كريستيان إيفالد من تونس في شهر ماي من سنة 1835م نحو طرابلس التي وصل إليها يوم 17 أوت، بعد رحلة عبر الشريط الساحلي، فمرّ بحمام الأنف فسليمان، ثم استقرّ بعض الوقت في نابل وواصل رحلته فيما بعد نحو سوسة فالمنستير أين قضى ثلاثة أيام. سافر بعدها إلى المهديّة وزار الجمّ ومنها انتقل إلى مدينة صفاقس. ومن هناك

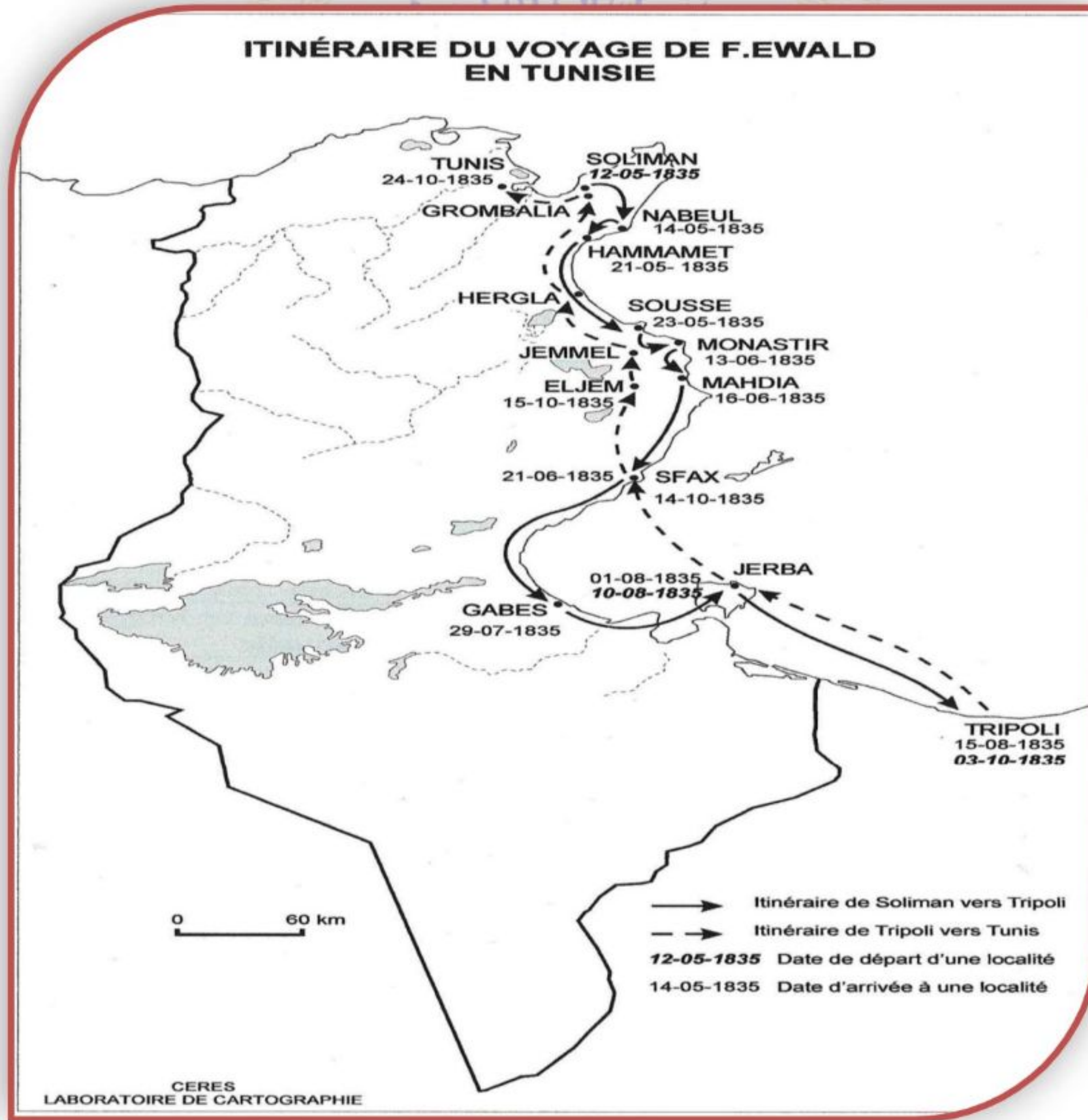
1 الحبيب الجموسي، 2019، صفاقس في عيون الآخرين. نماذج من شهادات الرحالة الأوروبيين خلال الفترة الحديثة، تقديم الأستاذ فتحي ليسيير، مكتبة علاء الدين، صفاقس - تونس، ص 11.

2 إيفالد، رحلة المبشر إيفالد من تونس إلى طرابلس في سنة 1835.....، ص 52.

3 إيفالد، رحلة المبشر إيفالد من تونس إلى طرابلس في سنة 1835.....، ص 58.

ركب البحر قاصدا قابس¹ ثم أقله مركب إلى جزيرة جربة حيث مكث ستة أيام انتقل إثرها إلى طرابلس². وبعد قضاء مدة شهرين ونصف بطرابلس عاد مجدداً إلى الحاضرة تونس، متخذاً السبيل نفسه. وكان قد دَوّن ما جدّ في رحلته هذه ذهاباً وإياباً من وقائع وأحداث ومن مواقف ومشاهد تكتسي اليوم أهمية وثائقية. فقد روى مثلاً إقامته في قابس في ضيافة

« فيلسوف » مالطي، وتحدّث عن الحرب الأهلية التي اندلعت بطرابلس وما انجر عنها، وتعرّض لمتاعب الحجّر الصحيّ عند عودته إلى جربة....الخ.



Abdelmajid Kraiem, 2008, «le patrimoine de gabes et de ses environs au regard des voyageurs 1 européens au XIX e siècle (1829-1860) », in *Histoire et patrimoine du littoral Tunisien*, Actes du 1 séminaire ,Nabeul 28-29 décembre 2008 , INP, p 197.

2 حسن العنابي ، 1993 ، « الوطن القبلي من خلال مذكرات الألماني إيفالد 1835 » ، الوطن القبلي بين الماضي والحاضر، وزارة الثقافة ، نابل ، ص ص 120-135، ص 120.

خريطة رحلة المبشر كريستيان إيفالد من تونس نحو طرابلس

(مرورا بسليمان ونابل والحمامات والمنستير والمهدية و صفاقس وقابس وجربة)¹

وقد كانت غايته من هذه الرحلة تبشيرية بالأساس، حيث مرّ بالأماكن التي كانت بها أهمّ الجاليات اليهودية قصد التعرف على حالتهم الاجتماعية ودعوتهم إلى دين المسيح، وكان ذلك على طول الطريق الرابطة بين تونس وطرابلس، واجتهد في كسب الأنصار من بين أهالي المدن الواقعة على هذه الطريق، اليهود منهم أولاً ثم من وجد إلى إقناعه سبيلاً من بين المسلمين أيضاً.²

وقد دوّن إيفالد في مذكراته كلّ ما حدث له خلال سفره واصفاً الجهات التي مرّ بها، عارضا عادات وتقاليدهم السكان، وكذلك الأمراض والعاهات الاجتماعية التي شدّت انتباهه، متحدّثاً عن نشاطه في كلّ الأماكن التي حلّ بها. كما قدّم انطباعاته الخاصة وأحكاماً حول حكم البايات في تونس خلال فترة حلوها، والعلاقة التي ربطتهم بالأهالي خصوصاً الأعيان منهم الذين التقى أو اتّصل بهم لتسهيل مهمّته، خاصّة وأنّه قام بمهمّته التبشيرية في كنف حماية توماس ريد قنصل بريطانيا العظمى بتونس، الذي ساعده في الحصول على خطابات التوصية ومكّنه من التعرف على بعض الأعيان ممن كانت لهم علاقة وثيقة بالأوروبيين، ومنهم على سبيل المثال الحاج يونس بن يونس وهو من أثرى أعيان جربة.³ وهذا ممّا جعلنا نتساءل هل كانت غاية إيفالد من رحلته تبشيرية فقط؟ ونحن في ظرف تاريخي تميّز باحتلال فرنسا للجزائر سنة 1830 وإمضاءها معاهدة منح امتيازات مع باي تونس بتاريخ 8 ماي 1830، وقد نتج عن ذلك احتداد المنافسة بين ممثلي القوى العظمى بتونس، وتسابق القناصل الأوروبيين من أجل الفوز بموقع مؤثّر على سياسة الباي.

ويمكن القول إنّ عين الأجنبي المختلفة والمغايرة في نقل الوقائع والأحداث مكّنت المبشر إيفالد من تقديم صورة عن المجتمع المحلي، غير أنّه لا يمكن بأي حال تعميم ما سجّله وقدمته من ملاحظات وتأمّلات.

3. الجوانب الاجتماعية في رحلة " المبشر إيفالد "

يصنّف إيفالد السكّان بالبلاد التونسية إلى " ثلاث فئات مختلفة من العرب. أمّا في المدن فإنّه يقال لهم (Mauren)⁴.... ويعيش الصنف الثاني منهم، تارة في القرى وتارة تحت الخيام، وهم الذين ما زالوا

Hassen El Annabi, 2012, « L'île de Jerba à travers le récit du voyageur allemand Ewald 1 (début du XIXe siècle) », in *The Mediterranean Studies*, Italia , p204.

2 منير الفندري، تقديم ترجمة كتاب إيفالد، ص 12.

3 حسن العنابي، 1993، « الوطن القبلي من خلال مذكرات الألماني إيفالد 1835.....ص 123.

4 Mauren ou Maures, qui désigne à l'époque romaine les [Berbères d'Afrique du Nord](#).

يحافظون على العادات التي يصورها لنا الإنجيل وهم الذين يسمون عادة عرب. البدو هم العرب الرّحل الذين لا يستقرون في مكان بل يتنقلون من موضع الى آخر"¹.

الصنف الأول يضم سكان المدن أو الحضر، ويرى إيفالد أن السّكان الحضريين هم سكان المدن الكبرى وأهل الأمصار، وهم أصحاب الوظائف المتنوعة مثل الصناعة والتجارة التي تدرّ عليهم مكاسب أرقى من أهل البدو، تبرز من خلال ملابسهم الفاخرة وامتلاكهم بيوتاً وقصوراً، وهم أصحاب علم وضيافة وبساطة ومسالمون يتحلّون بأداب راقية. وليس لهم من التعصّب الديني إلا قدر قليل². وانطلاقاً من تركيزه على أكبر المدن على غرار الحاضرة وسوسة والمنستير والمهدية وشفافس وبدرجة أقل قابس، فإنّه لاحظ أنّ للحضر أشياء كثيرة تميّزهم في نمط العيش والمستوى المادي وتنظم الأسواق وتنوعها، بالإضافة إلى نظافة الأنهج والشوارع في كلّ من المنستير ومدينة سوسة التي "تميّز أنهجها نسبياً بالاتّساع والنّظافة"³. وقد كانت لهذه المدن أسوار محروسة وأرباض بها أسواق متنوّعة، حيث أثارت مدينة شفافس إعجابه، "قد لا توجد على كامل ضفاف البحر الأبيض المتوسط مدينة لها ما لشفافس من موقع متميّز ومحيط جميل فتان، والمدينة محصّنة تحصينا حسناً، وشوارع المدينة حسنة ومبلطة في بعض الأحيان، كما أن المنازل جميلة تنمّ على الحفظ والصيانة"⁴. وكانت المدينة تحتوي على بضعة أسواق جميلة وثريّة توجد فيها منتوجات البلاد ومصنوعات المعامل الأوروبية على حدّ السواء. وكانت لديها أسواق على غرار أسواق الفاكهة والخضر والزيت والطيور الداجنة والغنم والخيل والجلد ونسيج الأشرعة وسوق التوابل وأسواق الفضة والذهب والجواهر والنعال والملابس وسوق العبيد... وهي مجال لترويج بضائع مستوردة من افريقيا تفد إلى شفافس ضمن قوافل غدامس، منها التبر والعاج وورق السنا وريش النعام والعبيد... وغير ذلك.⁵ ويتميّز تنظيمها الداخلي بوجود الجامع الأكبر بقلب المدينة، وتنحدر نحوه كلّ الأنهج، وتحيط به الأسواق التي كانت تنبض بالحركة لما تقوم به من دور الوساطة من خلال تسويق البضائع الوافدة من كلّ مناطق العالم المتوسّطي إلى دواخل الإيالة التي كانت بدورها تمّولها بمختلف منتوجاتها⁶.

1 إيفالد، رحلة المبشر إيفالد من تونس إلى طرابلس في سنة 1835.....، ص 37.

2 إيفالد، رحلة المبشر إيفالد من تونس إلى طرابلس في سنة 1835.....، ص 53.

3 نفس المصدر، ص 40.

4 نفس المصدر، ص 62.

5 نفس المصدر، ص 63.

6 الحبيب الجموسي، 2019، شفافس في عيون الآخرين.....، ص 75.

كما كان السكن داخل أسوار المدينة العتيقة حكرًا على الصفاقسيّة الأصليين أي "البلديّة" ومُحرّم على سواهم، ولا يتسنى لأيّ غريب امتلاك منزل في حيّز المدينة عربيًا كان أو بدويًا¹.

وقد تأثرت بعض المدن ديمغرافيًا بسبب تقلص عدد سكّانها حتّى أنّ الخراب ضرب جزءًا مهمًا من منازلها بسبب الطاعون الذي اجتاح البلاد سنة 1816 وبسبب "أسلوب حكم الباي الأرعن المتجبر"²، الأمر الذي شجّع الأهالي على النزوح إلى حاضرة تونس حيث يكون المرء في مأمن من هذا الجور، فسكّانها مُعفون من دفع الضرائب المباشرة.

أما الصنف الثاني فهم سكّان القرى ويسمّهم بالبدو القاطنين في الأرياف، وهم مختلفون عن بقية الأصناف بسبب تعويلهم الكبير على النشاط الزراعي، ويرتقون بالخصوص من محاصيل الحبوب ومن الزيت، كما نجد ببعض القرى في جهة الساحل مثلًا فلاحية وتربية الماشية في وضع حسن. ويكثر في المنطقة بصفة خاصّة الزيتون والأشجار المثمرة³، إضافة إلى عناية بعضهم بالحرف مثل النسيج والخزف والحدادة والنجارة، استجابة إلى حاجيات الأهالي بهذه الأرياف والقرى. ومن خصائص هذه القرى اختلاف العادات والتقاليد ونمط العيش المتميّز ببساطة المساكن وتواضعها، وأهاليها يعيشون حياة الفقر ويسكنون أكواخ حقيمة، إذ "لم يسبق لي بتاتا أن رأيت أكواخا أكثر بؤسا ولا بدوا أكثر فاقة من هؤلاء"⁴.

وعلاقتهم بالسلطة المركزية قوامها جمع الجباية و"الإتاوات" والحصول عليها دون معارضة أو احتجاج. وهو ما كان سببا في تواتر الانتفاضات، الأمر الذي جعل الدولة الحسينية تروّج الروايات التي تقدّم صورة سلبية على البدو، وتعمل على تحقير المجتمع البدوي ووصفه بنعوت سلبية كالفساد والتخريب والسرقة والخروج عن الإسلام... ونجد لذلك أثرا في كتابات الإخباريين المحليين على غرار ابن ديار

1 إيفالد، رحلة المبشر إيفالد من تونس إلى طرابلس في سنة 1835.....، ص 64.

2 المقصود هنا الباي محمد باي بن حمودة حكم بين 1814 و 1824، وقد عاشت البلاد خلال هذه الفترة أزمة مالية كانت وراء التحوير الجبائي لسنة 1819 حيث أصبحت ضريبة العشر تخلص عينا بعد عصر الزيتون في المعاصر مما أدى الى ازدياد العبء الجبائي الموظف على الملاكين ومضاعفة خسارتهم. حيث ساهم الترفيع في المقادير المستخلصة الى جعلها مطابقة للقدرة الدفوعية الحقيقية التي أصبحت تؤمنها غابات الزياتين من جهة، وتحويل الضريبة النقدية الى أخرى عينية، من جهة ثانية، حرم الأهالي من المتاجرة بمادة الزيت ومن الحصول على جزء من الفائض التجاري. أنظر: عبد الحميد هنية، 2012، تونس العثمانية، بناء الدولة والمجال. من القرن السادس عشر الى منتصف القرن التاسع عشر، منشورات تير الزمان، تونس. ص 213.

3 إيفالد، رحلة المبشر إيفالد من تونس إلى طرابلس في سنة 1835.....، ص 47.

4 نفس المصدر، ص 56.

ومحمد الصغير بن يوسف وابن أبي الضاف¹ وهي من الطرق والأساليب التي اعتمدها السلطة المركزية بتونس العثمانية لتبرير قمع المحلة للقبائل والبدو عند استخلاص الضرائب.

أما الصنف الثالث فهم البدو أو العرب الرحل، أي الأعراب، وانطلاقاً من الأنشطة أو الأعمال التي يقومون عليها فإنّ الترحال هو الطابع المميز لهم والأصلح لحالهم من الاستقرار، منهم من يرعى المواشي، غنم وماعزوبقر، وهم رحالة بحثاً عن الماء والكلأ.. ويصفهم إيفالد بالأعراب "المتوحّشين" و"المتشردين" و"شبه العراة" وأكثر من ذلك لا يؤتمن جانبهم. فهم بالنسبة إليه يكتنون العداوة إلى سكان المدن "لا يعيشون إلا في الخيام، منصرفين إلى رعي غنمهم ومرحّبين بما تدرّ عليهم الأرض طوعاً"². وهم بالنسبة إلى السكان الحضر بمقام المتشردين لعدم استقرارهم في المجال ودوامه في الزمان، وتجبرهم طبيعة أعمالهم أن يكونوا بالبادية لتساعها للزراعة، ويذكر هؤلاء بقوله "وقطعنا في تؤدة هذا السهل المديد حيث اعترضنا كوكبتين من البدو الرحل. ولسوف يضربون خيامهم اليوم في هذا الفضاء ويفرشون بسطهم المصنوعة من ضريع البحر على الأرض ويخيّمون حول قطعانهم وعندما يقلّ الكلاً أو عند حصول أي إشكال فإنهم يقلعون أوتادهم ويطوون خيامهم ويحملون متاعهم القليل، بالاضافة إلى الأطفال والكلاب والقطط، فوق ظهور الحمير والإبل ويواصلون ترحالهم إلى أن يعثروا من جديد على مكان ملائم"³.

وبذلك نقول إنّ إيفالد اجتهد من خلال رحلته في تقديم صورة واضحة عن أعماق المجتمع التونسي، المصنّف إلى حضروبدو وأعراب. لكن هناك مبالغات كثيرة منطلقها الأحكام المسبقة والنظرة الأوروبية المتميزة بنوع من التعالي، الأمر الذي جعله في أغلب الأحيان يسقط في التعميم والجزم أنّ كلّ البدو من ذوي الطباع المتوحّش وصعب المراس، ولا قيمة لهم في المجتمع. وقد كان يأخذ حذره في التعامل معهم كما حذره شيخ تركي من بعض العناصر وهو في طريقه إلى نابل بالقول "خذ حذرك من هؤلاء الكلاب، إنهم بدو... وهم أناس أشرار"⁴. غير أنّ المهتمّ بخصائص المجتمع يلاحظ الدور الكبير للبدو في الحياة الاقتصادية، وبشكل خاصّ التجارة الداخلية التي نشطت فيها شبكة من العلاقات الاقتصادية بين الأرياف والمدن، وكان لهم فيها دور هام، وهذا ما بينه Victor Guérin عند الحديث عن العلاقات التجارية بين القيروان وأريافها، واعتبر أنّ البدو يملؤونها بما تحتاجه من مواد غذائية، وهي بدورها تمدّهم بما هم في حاجة إليه من

1 ابن أبي دينار أبو عبد الله، 1957، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تحقيق محمد شمام، المكتبة العتيقة، تونس، طبعة 3. محمد الصغير بن يوسف، 1998، المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي تركي، المجلد الأول، تقديم وتحقيق، الدكتور أحمد الطويلي المطبعة العصرية، تونس.

ابن أبي الضياف أحمد، 1999، إتخاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، 9 أجزاء، تحقيق لجنة من وزارة الشؤون الثقافية تنفيذ الدار العربية للكتاب، تونس.

2 إيفالد، رحلة المبشر إيفالد من تونس إلى طرابلس في سنة 1835.....، ص 54.

3 نفس المصدر، ص 38.

4 نفس المصدر، ص 28.

صناعات يدوية... وغيرها¹. وهذا في الحقيقة مواصلة لنفس الدور خلال قرون سبقت القرن التاسع عشر، ومثل هذا المجال النواة الجديدة للمدينة - القيروان - التي بدأت تنهض من سباتها بصعوبة ابتداء من مطلع القرن السابع الهجري. لكن هذه النهضة الثانية اقترنت بشدة الاقتران بعنصر البدو، سواء أكانوا من الأعراب أو من هوارة النازلة في الجبال الغربية².

ثانيا: دراسة الذهنيّات والظواهر الاجتماعية المميّزة لسكان المناطق الساحلية التونسية من خلال جولة "المبشر إيفالد"

إن تاريخ الذهنيّات يظلّ القمّة للتاريخ الاجتماعي، وتتمثّل مهمّة المؤرخ حينئذ في طرح التساؤل الأساسي بالنسبة إلينا حول ترابطيّة الأفعال المتبادلة والأسباب والنتائج. ومن هذا المنطلق لا يجب توظيف الذهنيّات وسيلةً لتقويض البنى الاجتماعية خصوصا إذا كانت المكونات الرمزيّة لمجتمع ما تخترقه صراعات داخلية أو تناقضات جهويّة مهما كان نوعها، كما هو الحال بالنسبة إلى الحالة التونسية خلال القرن 19.

1. مظاهر من الحياة اليوميّة للتونسيين ونمط عيشهم

لا يستبعد إيفالد عنصريّ الطرافة والغرابة على نمط عيش التونسيين، وهذا مردّه المراوحة خلال زيارته بين الالتقاء بسكان المدن العريقة في التحضر، وانهياره الشديد بمعالمها التاريخية، والإطناب في ذكر أدقّ التفاصيل مثل تواريخ تأسيس هذه البناءات ومقاساتها، الأمر الذي جعل هذه الرحلة تندرج أيضا ضمن استراتيجية توجيه الرأي العامّ الأوروبي إلى الزخم الحضاري الذي أصابه الإهمال في هذه الربوع وربما بشمال إفريقيا بشكل عامّ. ولعلّ الإحساس الذي أصابه عند بلوغه إلى الجبل ومشاهدة "البرج الكبير متاع الرومي!" كما يسمّيه الأهالي، من بعيد حيث انتابه، " شعور كثيف لا يوصف مزق أحشائي"³ والمقصود به المسرح الرومان بالجبل، أمر جعله يسرع " حالما سمحت قواعد اللياقة بذلك، إلى الخارج لكي أدقق النظر عن كذب في أعجب ما رأيت إلى حدّ الآن"⁴. وإطنابه في العودة إلى تاريخ المعلم وتأسيسه باعتباره أعظم معلم من معالم فنّ الرومان وترفهم، دون أن يغفل عن ذكر سكان المجال المحيط بهذا المعلم التاريخي المثير للإعجاب، حيث تغلب البداوة والانعزال والابتعاد قصدا عن المسالك والطرق، وذكرهم بالقول

1 Victor Guérin, 1862, Voyage Archéologique dans la Régence de Tunis, Paris. Tome 2. p331.

2 محمّد حسن، 1999، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، نشر كلية العلوم الانسانية والاجتماعية - تونس، 2 أجزاء، الجزء 1، ص 212.

3 إيفالد، رحلة المبشر إيفالد من تونس إلى طرابلس في سنة 1835.....، ص 54.

4 نفس المصدر، ص 55.

عندما "خيم الليل شيئا فشيئا وصرنا نبصر هنا وهناك في البعد نيران البدو مشتعلة ونسمع نباح كلابهم. ومن عادة هؤلاء البدو ألا يقيموا مضاربهم على قارعة الطريق تفاديا لضيوف غير مرغوب فيهم"¹.

وفي كل الحالات لا يمكن اعتبار ما ذكره ايفالد حول أنماط العيش بالمجتمع التونسي خلال القرن التاسع عشر مسلّمات لأنّه ينطلق في ما دون من اعتبارات ذاتية ومعايير قيمية مرتبطة بثقافة يشترك فيها مع عدد هامّ من الرحالة الأوروبيين، مختلفة عن ثقافة مجتمعات بلاد المغرب أو "بلاد البربر" Barbaresques كما يحلو لهم تسميتها.

ومما أثار انتباه ايفالد علاقة الأهالي بالسلطة الحاكمة، فقد بدت له حادثة الاعتداء بالضرب على البدو من طرف ممالك الباي أمرا غير مقبول بالنسبة إلى الإنسان الأوروبي في ذلك الوقت. وأثرت فيه أيما تأثير مما جعله يقول "شاهدت مشاهد أدخلت على نفسي كدرا كبيرا. ذلك أن بعضا من ممالك الباي انهالوا على عدد البدو ضربا وأساؤوا معاملتهم بكل عنف، لماذا؟ لأنهم باعوا إلى بعض الأوروبيين مسبقا أكثر زيتونا مما حصل لديهم إثر الجني"². ويبدو أن لهذه الحادثة علاقة باحتكار الباي لبيع المنتج الفلاحية الزيت أساسا الذي تزايد عليه الطلب في الأسواق الأوروبية والفرنسية خاصة. فأصبحت الدولة تضع يدها مباشرة على فوائض هذه المادة باعتماد طرق ربوية تتمثل في التعامل بـ "السلم" مع الملاكين بمناطق الساحل. وصورة "السلم" أن يشتري الباي عن طريق وكلاء محصول الزيت من المنتجين قبل أو انه في مقابل مال يُقدّم مسبقا للمنتج. ورغم أن "السلم" قديم فإن الجديد أنّه كان يفرض على المنتجين وبسعر بخس. والطابع الربوي جلي في هذه الممارسة. وعندما تفوق الحاجة إلى كميات الزيت يعمل الباي على احتكار الحصول عليها عن طريق الشراء "بسعروا أقع الحال" أي بسعروا وقت الصباة وعلى عين المكان³. وهو أمر يجعل الفلاحين غير قادرين على الإيفاء بتعهداتهم تجاه التجار الأوروبيين المنتصبين لشراء الزيت مباشرة. "والعربي الذي أدّى به سوء الطالع إلى أن يبيع "مطر" الزيتون بخمسة ريالات يجد نفسه الآن ملزما بدفع عشرين ريالاً للأوروبي وريالين للمملوك على عنائه"⁴.

ولعلّ ايفالد من خلال هذه الحادثة ينقل إلينا صورة عن تسلط جباة الضرائب وتعسفهم في ظرفية اقتصادية صعبة من مميزات التحولات الجبائية والإجراءات التي وقع اتخاذها في بداية الثلاثينات حيث

1 إيفالد، رحلة المبشر إيفالد من تونس إلى طرابلس في سنة 1835.....، ص 60.

2 نفس المصدر، ص 56.

3 عبد الحميد هنية، 2012، تونس العثمانية... ص 214.

4 إيفالد، رحلة المبشر إيفالد من تونس إلى طرابلس في سنة 1835..... ص 57.

بدأ التفكير في مواكبة الحاجيات الجديدة من النفقات المتزايدة مع محاولات الاعتناء بالجيش النظامي منذ عهد حسين باشا باي (1824-1835)¹، هذا وقد سعى أحمد باي (1837-1855) ولنفس الأسباب، إلى البحث عن وسائل أكثر نجاعة على المستوى الجبائي للترفيغ في مداخل الدولة خاصة وأن مشروعه الإصلاحية تطلب نفقات كبيرة².

2. العادات والتقاليد دليل على ثراء المجتمع وحيويته

لقد تضمنت مؤلفات الرحالة الأوروبيين إلى البلاد التونسية بصفة عامة معطيات مُعقدة ومُتداخلة بسبب التركيز على خصوصيات السكّان والإطناب في ذكر تفاصيل الحقائق التاريخية والمجالية³.

ومما استرعى انتباه المبشر ايفالد تعدد اعتقادات التونسيين من العرب بالمدن، أو البدو الذين أطلق عليهم نعوتاً مختلفة من نوع "العرب المسلمين" و"العرب البدو" و"البربر" و"البرابرة الهمج"، وهو يستعمل هذه التسميات حسب الوضعية التي يكون فيها أثناء التعامل مع هؤلاء، للتحقير أو الإشادة لما وجده من السكان المحليين أثناء رحلته التي قادته انطلاقاً من حاضرة تونس في 11 ماي 1835 إلى عدد كبير من المدن والقرى الساحلية بالبلاد التونسية وصولاً إلى طرابلس في 3 سبتمبر 1835.

وفي هذا الصدد يطلق أحياناً أحكاماً ويقوم بتعميم بعض الاعتقادات التي كانت لدى الأهالي "إن هؤلاء القوم لعل قدر كبير من الاعتقاد في الخرافات والأباطيل والسحر"⁴. وقد ركز المبشر ايفالد على هذا الجانب من الاعتقادات معتبراً أن الأهالي تسيطر على عقولهم خرافات أخرى يعتبرها سبباً في خلاء بعض الديار في نابل وبقائها غير مستغلة شاغرة تسكنها الأرواح.

ولعل ما شدّ انتباه ايفالد عبر رحلته بين المدن والأرياف أيضاً تعدد أضرحة الأولياء ومزاراتهم في الأوساط الاجتماعية التي كان يسود فيها الاعتقاد الكبير في الأولياء الصالحين وفي كراماتهم إلى حدّ أنّها لدى بعضهم

1 عثمان البرهومي، 2019، الدولة والجبابة والمجتمع. اللزم والمجال الحضري بإيالة تونس 1705-1856، تصدير الاستاذ الدكتور عبد الواحد المكني أستاذ التاريخ والانتروبولوجيا ورئيس جامعة صفاقس، مجمع الأطرش للنشر والتوزيع المختص، تونس. ص 57.

2 Khelifa Chater, 1984, Dépendance et mutations précoloniales. La Regence de Tunis de 1815 à 1857, Tunis. p 553.

3 Salma Lakhdar, 2019, « Connaissance de l'autre et intérêt documentaire dans Relation de 3 voyage de François Savary de Brèves ». in Alia Baccar Bournaz (dir), *La Tunisie sous la plume des voyageurs à l'époque moderne (1492 – 1789)*, Académie tunisienne des sciences, des lettres et des arts Beït al-Hikma, Carthage – Tunis. Pp 105-114, p 109.

4 إيفالد، رحلة المبشر إيفالد من تونس إلى طرابلس في سنة 1835..... ص 58.

قادرة على منح القوة والضخامة "ورأيت قائد القافلة يرفع حفنات من تراب هذه الأضرحة ويذروها على الخيول والبغال. وسألت عن سرّ هذا الصنيع فقيل لي: لكي تقوى الدواب وتسمن"¹، بالإضافة إلى بعض الاعتقادات الشاذة التي أثارت انتباهه في مظاهر تعبيرها عن الدهنيات السائدة في المجتمع التونسي خلال القرن التاسع عشر، إذ أنّ لكلّ مجموعة بشرية متجانسة أسلوبها في نقل مضامين قيمها ومعارفها وخبرتها إلى أجيالها وأدوات تواصلها بين أفرادها. فالمجموعة المحليّة تعمل بكلّ جهد وجد على تضمين محتويات ذاكرتها الجماعية ومخيالها ورموزها التي كوّنتها لنفسها طيلة تاريخها، في صياغات تناسب الذوق العامّ والسائد. ويتحمّل الجميع مسؤوليّة نقلها وتواترها لأنها تحتوي على عناصر صدقها².

ومن العادات التي حاول ايفالد في كلّ مرة الحديث عنها طريقة الأكل لدى الأهالي، خاصّة الأعراب المسلمين، رغم أنّه لم يذكر أشياء كثيرة عن الغذاء وأنواع الأطعمة. فقد تحدّث بإطناب عن "الكسكسي" وطريقة طهيها "ويعد هذا الصنف من الطعام أشهى لقمة في ذوق هؤلاء الناس. أما أنا فلم استسغ هذه الأكلة قط"³.

كما اهتمّ المبشر ايفالد في رحلته بالمرأة ووضعها في المجتمع، إذ كان من عادات أهل البلاد حجب النساء رغم مشاركتهنّ في أعمال كثيرة ومتنوعة، فلاحية ومنزلية وحرفية، وهذا ما انتبه إليه بمدن مثل سوسة والمنستير والمهدية والقرى المجاورة لمدن الساحل⁴. غير أنه - ايفالد - أطلّ في وصف نساء مدينة قابس ومظهرهنّ المميّز والفريد في قوله "ويظهر النساء هنا دون لحاف ويبدن ولعا بالغا بالحليّ فتراهنّ يتحلّين بأقراط مفرطة في كبر الحجم وبأطواق للرقبة والجبين وبأسورة وخالخيل مصنوعة من ذهب وفضة أو نحاس"⁵، ورغم إطنابه في ذكر تفاصيل المظهر الخارجي للأهالي من العرب، وبشكل خاصّ لدى سكان المدن، فإنّه يرى أن اللباس يتميّز بالبساطة، ولا يمكن التعويل عليه في تصنيف الأفراد حسب الانتماء الاجتماعي، فقراء كانوا أو أغنياء، إذ "يتوازي لباس الفقيرات منهنّ والغنيّات من حيث الطراز والهيئة"⁶.

ورغم أن المبشر ايفالد أشاد بالتنظيم الحسن لبعض المدن واتّسع شوارعها كما هو الحال بالنسبة إلى مدينتي سوسة والمنستير، وجمال الطبيعة في كلّ من نابل وجربة، وبطباع أهل مدن زارها واستقر بها على غرار مدينة نابل قائلاً "سوف أغادر نابل غدا وقد احتلّتي في قلبي مكانا حقًا. ولن أنسى أبدا الحفاوة

1 إيفالد، رحلة المبشر ايفالد من تونس إلى طرابلس في سنة 1835.....، ص 122.

2 Willem Doise , 1993, Logiques sociales dans le raisonnement, Paris, p.128.

3 إيفالد، رحلة المبشر ايفالد من تونس إلى طرابلس في سنة 1835.....، ص 83.

4 نفس المصدر، ص 72.

5 نفس المصدر، ص 72.

6 إيفالد، رحلة المبشر ايفالد من تونس إلى طرابلس في سنة 1835.....، ص 72.

التي أحاطني بها جميع أهل هذه الديار"¹، فإن أغلب المدن وانطلاقاً ممّا شاهده ووثّقه تتكدّس بها الأوساخ، كما هو الحال في مدينة صفاقس، وقد لاحظ ذلك بشوارعها عند وصوله إلى المدينة "وكاد الجولان عبر هذه الشوارع يكون متعة، لولا أنّها، كما هو الحال بالنسبة إلى كامل بلاد البربر، تغصّ بالأوساخ على كافّة أجناسها"²، أو في قابس إذ بعد أن انهر بمنظر الواحات استدرك قائلاً "إلا أنّ ما يكتنف هذا الموقع من قاذورات وحشرات ضارة ووسخ يتحدّى كل التصوّرات"³. وهذا ممّا جعله يعتبر أنّ هذا الأمر ميزة من مميّزات حياة السكّان بالمدن، ومظهرها من مظاهر عدم اكتراثهم بتردّي الحالة البيئيّة، يقول "وهكذا والحق يقال فإنّه من خاصيّات مسلمي سواحل شمالي إفريقيّا أن يروا في قذارة الشوارع ضرورة لا غنى عنها"⁴. لكنّه يتدارك هذا التعميم عندما يتحدّث عن الحاضرة، فمدينة تونس بدت له مختلفة نسبياً بعد رحلة قادته إلى عديد المدن الكبرى والقرى والبوادي. فقد "بدأت تدخل على تونس أوجه التجميل يوماً بعد يوم. فقبل بضعة أعوام كانت الأوساخ تغشّي الأنهج بصورة لا توصف. ففي موسم الأمطار كنت ترى بعض الأزقة تنسدّ إلى حدّ أنّ عبورها يصير مستحيلاً، وفي الصيف تصدر منها روائح لا تطاق"⁵. لكنّ الأمور تغيّرت نحو الأفضل في هذا الوقت -أي في 24 نوفمبر 1835- وذلك بفضل تدخل القناصل الأوروبيين تحسّبا من تفشّي وباء الكوليرا الذي ظهر في الجزائر المجاورة⁶، فتمّ اتّخاذ إجراءات للحفاظ على النظافة العامّة، يقول واصفا تحسّن الوضع "أما الآن فهناك عربة تجوب كلّ صباح مختلف أحياء المدينة وتجمع القمامة، فحصل للمدينة بذلك كسب عظيم"⁷، خصوصاً وأنّ عدد سكان المدينة كبير، وباعتبارها عاصمة للإيالة تتميّز بالحركيّة الاقتصاديّة والحيويّة الاجتماعيّة وتتعايش فيها عناصر مختلفة حيث "ينقسم سكّان تونس إلى مسلمين حصّروا وعرب وأتراك وزنوج ويهود ونصارى"⁸، وهذا التنوّع جعل سكّانها الأصليين حسب إيفالد أكثر تحضّراً ولياقة، وكان يبدو جازماً في الأمر بعد جولة أخذته إلى مناطق مختلفة من الإيالة بـ "أنّ مسلمي

1 نفس المصدر، ص 32.

2 نفس المصدر، ص 62.

3 نفس المصدر، ص 72.

4 نفس المصدر، ص 62.

5 نفس المصدر، ص 123.

6 في سنة 1835 ظهر مرض الكوليرا في منطقة الجزائر العاصمة قادم من مدن الجنوب الفرنسي كمرسيليا و طولون أين خلف هذا المرض الألاف من الوفيات في تلك المدن الفرنسية، وكذلك في الجزائر العاصمة خلف هذا المرض ما لا يقل 1426 حالة وفاة. أنظر :

Lucette Valensi, 1969, « Calamités démographiques en Tunisie et en Méditerranée orientale aux XVIIIe et XIXe siècle » *Annales. Economies, Sociétés, Civilisations*. 24e année, N° 6, pp. 1540-1561, p 1559.

7 إيفالد، رحلة المبشر إيفالد من تونس إلى طرابلس في سنة 1835.....، ص 123.

8 نفس المصدر، ص 132.

هذه المدينة لقوم يتحلون بأداب راقية حتى أنّ سلامهم يكاد لا يعرف نهاية. فتسمعهم يسألون: "كيف الحال؟ كيف الصحة؟ أنت بخير؟ هل من سوء يترصدك؟ أنت بخير، أليس كذلك؟ الحمد لله، أنت بخير!" ويجيب الطرف الآخر: "بارك الله فيك سلام عليك أطاله الله أيامك أطال الله أعوامك الله يمن عليك بكل خير" وهي عبارات تُلفظ على وجه السرعة وباسترسال¹.

إذن أتى المبشر إيفالد، خلال رحلته هذه على مجموعة من العادات والتقاليد التي شاهدها بنفسه فأثارته ولفتت انتباهه، وهو أمر جعله يُطنب في أدق التفاصيل، ومنها تفاصيل العادات الجماعية التي صادف أن حضر ممارستها واحتفالاتها ببعض المدن أو بمناطق الأرياف والقبائل.

2. مسلمو المدن أهل علم وأصحاب معرفة

لقد عمد إيفالد خلال إقامته بتونس إلى تكثيف اتصالاته بالجمالية اليهودية، وباليهود "التوانسة" تحديداً، في إطار مهمته التبشيرية، ولم يستثن المسلمين من السكّان المحليين من تلك المهمة، ورغم أنّ محاولات التبشيرية باءت بالفشل فإنّ الحوارات التي رافقتها نقلت إلينا بشكل أو بآخر المستوى المعرفي للأشخاص، ومدى التسامح مع الديانات الأخرى للذين حاورهم، ويبدو أنّهم ينتمون إلى فئات اجتماعية مختلفة.

وقد وصل إلى هذا الاستنتاج عند المقارنة بين أهالي سوسة والمنستير، يقول "ووجدنا مسلمي المكان أكثر طيبة و أقلّ تعصّباً من مسلمي سوسة، وكانت لي معهم طوال إقامتي محاورات صريحة"². ويعود هذا التسامح الذي لمسّه لدى فئات من المجتمع بالمدن عند محاورته بعضهم للمستوى المعرفي والعلمي المميّز، يقول في ذلك "يُعتبر مسلمو صفاقس أهل علم وأصحاب معرفة وقد أجريت مع العديد منهم نقاشات، كما أنّهم تحصلوا من لدني على نصيب لا يُستهان به من الكتب المكتوبة بالعربية، إلا أنّي لم ألمس من علمهم الواسع إلا شيئاً قليلاً"³.

وهذا يحيلنا على التمييز بين العلماء وغيرهم من المتعلّمين وباقي المجتمع الذي عاشوا فيه وما يصلهم به، ومن ثم تتضح طبيعة النظام الاقتصادي والاجتماعي والسياسي السائد في تونس قبل الاستعمار. لذلك من الصعب وصف العلماء وقتها بالطائفة بما أنّهم يتألّفون من قسمين، قسم المحظوظين وقسم

1 نفس المصدر، ص 132.

2 إيفالد، رحلة المبشر إيفالد من تونس إلى طرابلس في سنة 1835..... ص 47.

3 نفس المصدر، ص 66.

المحرومين، وهذا الوضع يوافق التقسيم المألوف للعلماء في المجتمع الإسلامي إلى خاصّة وعامة، وإن كان من الصعب الجزم بأنّ العلماء ينتمون إلى هذه أو تلك¹.

غير أن إيفالد لاحظ انخراط رجال الدين والعلماء في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، وهو انخراط جعلهم أكثر اتصالاً بالفئات الشعبية، وهذا ما يفسّر تمتّعهم بامتيازات جبائية، وتعويل السلطة الحاكمة والبيات عليهم لتبرير ممارسات ارتبطت بطريقة حكمهم حتّى وإن كانت جائرة. "والغريب في الأمر أن رجال الدين المسلمين. علما أنّ قسما كبيرا منهم ينتمي إلى طائفة التجار والأوروبيين لا يؤدّون سوى ثلاثة بالمائة في حين يُفرض على اليهود والمسلمين خمسة بالمائة"².

إنّ ما ذكره المبشر إيفالد عن الدين الإسلامي والمسلمين لم يسلم من المغالطة والأخطاء التي تدلّ على أنّه - رغم المدّة التي قضّاها في تونس الحاضرة وجولته في عدد من مدن البلاد التونسية وقراها وأريافها وتعامله ولقائه مع أصناف وفئات اجتماعية مختلفة ومتنوعة - توخّى منهج التعميم وإطلاق الأحكام حتّى بدا سمةً غالبية عليه، ومن أمثلة ذلك ما استخلصه عند زيارته سوسة "وكره النصراني في هذه الديار ممّا يُرضع مع حليب الأمّ ويظلّ كامنا في القلوب لا يزول"³. وهذا ما يجعله بعيداً كلّ البعد عن الموضوعية وضرورة التحري وتجنّب الإطلاق، ويوجب على القارئ التعامل مع هذا النص بالتحري والنقد.

الخاتمة

تُعتبر الرحلة بصفة عامّة، بالنسبة إلى المؤرخ مادة يجتمع فيها التاريخي بالأنثروبولوجي، ويتجاوز فيها التاريخ باعتباره حدثاً إلى التاريخ باعتباره اجتماعاً وثقافة وذهنيتات. وتستجيب رحلة "المبشر كريستيان إيفالد من تونس إلى طرابلس في سنة 1835" بصفة خاصّة، إلى تطلّعات مؤرّخ التاريخ الثقافي والاجتماعي للبلاد التونسية، فهي تمثّل بالنسبة إليه مصدراً أساسياً لا يمكن التغاضي عنه مهما كانت أهميّة المصادر التاريخية الأخرى، فأهميتها ليست في كونها نصّاً سردياً فقط، بل أيضاً لما تضمّنته من معطيات تُجيب على مجموعة من الأسئلة التاريخية ذات البعد الثقافي والاجتماعي، وتملأ فراغات ونقائص من دونها تصعب كتابة تاريخ دقيق وشيق، فيجد المؤرّخ نفسه مضطراً إلى الخروج عن المألوف وتنويع المصادر التاريخية، واعتماد الرحلات بشكل أساسي.

1 أرنولد قرين، 1995، العلماء التونسيون، ترجمة حفناوي عمائريّة وأسماء معلّى، نشر دار سحنون للنشر والتوزيع والمجتمع التونسي للعلوم والآداب والفنون: بيت الحكمة. ص 62.

2 إيفالد، رحلة المبشر إيفالد من تونس إلى طرابلس في سنة 1835.....، ص 128.

3 نفس المصدر، ص 44.



إن نموذج الرحلات الأوروبية التي قدمنا معطياتها التاريخية والثقافية والاجتماعية في هذا المقال، بمثابة مثال للتحدي الذي يواجه المؤرخ، على اعتبار أن الرحالة الأوروبيين جالوا في فضاء واقعي ونقلوا عنه شهادات وتجارب، تتجاوز فردانية الرحالة إلى تدوين تاريخي وأنثروبولوجي للمجتمع وفئاته وطرق عيشها وتنظيمها وعاداتها وتقاليدها وثقافتها... إلخ، وهو ما لا يمكن أن توفره مصادر تاريخية أخرى.



تأسيس الاتحاد العام للعمال الجزائريين في سنة 1956 والمواقف المختلفة منه

أستاذ محاضر د. بغداد خلوفي

المركز الجامعي نور البشير - مدينة البيض، الجزائر.

المخلص باللغة العربية: يعتبر تأسيس الاتحاد العام للعمال الجزائريين في 24 فيفري 1956 نقطة تحول في تاريخ الحركة العمالية الجزائرية أثناء الحقبة الاستعمارية، فأول مرة ومنذ أن وطئت أقدام المستعمر الفرنسي أرض الجزائر وبعد مسيرة نضالية طويلة وشاقة تمكن العمال الجزائريون من تأسيس منظمة نقابية وطنية خاصة بهم بعد أن كانوا ينخرطون قبل ذلك التاريخ داخل المركزيات النقابية الفرنسية.

جاء تأسيس الاتحاد العام للعمال الجزائريين كذلك ليعطي للثورة التحريرية دفعا قويا بانضمام العمال إلى صفوفها وتجنيدهم لخدمة الثورة والوطن سواء بواسطة النضال النقابي أو عن طريق انخراطهم في صفوف جيش وجهة التحرير الوطني .

لقد عانى العمال الجزائريون جراء هذا الالتزام نحو القضية الوطنية الظلم والاضطهاد والتنكيل والمتابعات من طرف السلطات الفرنسية، لكن رغم تلك الصعاب إلا أنهم واصلوا نضالهم إلى غاية الاستقلال. يأتي هذا المقال ليعالج قضية تأسيس الاتحاد العام للعمال الجزائريين والظروف التي نشأ فيها وأهدافه والمواقف المختلفة المؤيدة والمعارضة لنشأته.

الكلمات المفتاحية: الاتحاد العام للعمال الجزائريين؛ النضال النقابي؛ عيسات ايدر؛ الثورة التحريرية؛ العمال الجزائريون؛ الاضطهاد؛ الاستعمار الفرنسي؛ الاستقلال؛ المواقف؛ 24 فبراير 1956.

ABSTRACT: The foundation of the General union for the Algerian Workers on February 24th, 1956 is considered as a turning point in the history of the Algerian Labour Movement during the colonial period. Since the early invasion of the French colonizers to Algeria, and after long and hard struggles, it was possible for the Algerian workers to establish their own national syndical organization; however, this had only been possible amongst the French central syndical movements .

The foundation of the General union for the Algerian Workers gave a strong push to the Algerian Liberation War by the fact that so many workers joined the revolution and were devoted to serve it by either the syndical struggle or by joining the rows of the National Liberation Army.

The Algerian workers suffered a lot repression from the French Colonizer because of their engagement to their National Question. Despite all these difficulties, they carried on their struggles until the independence of the country in 1962.

This article aims to shed light on the General union for the Algerian Workers and the circumstances of its foundation and its aims. Moreover, I will discuss the different supporting or opposing attitudes to its foundation.

Keywords: the General union for the Algerian Workers; syndical struggle; Aissat Idir; Algerian Revolution; Algerian workers; repression; French colonizer; independence; attitudes; 24 February 1956.

المقدمة: سرع تأسيس الحركة الوطنية الجزائرية المصالية لمركزيتها النقابية اتحاد نقابات العمال الجزائريين في 14 فبراير 1956 إلى تأسيس جبهة التحرير الوطني للاتحاد العام للعمال الجزائريين في 24 فبراير 1956 الذي ستكون له السيطرة التامة بالجزائر على الحياة النقابية أثناء الثورة التحريرية سواء على المستوى التنظيمي أو فيما يتعلق بالنشاط.

وكان تأسيس الاتحاد العام للعمال الجزائريين قد جاء أيضا وبصفة خاصة استجابة لظروف مختلفة كانت تعيشها الجزائر وبالتحديد الثورة التحريرية التي كانت بحاجة ماسة إلى وقوف كل مكونات المجتمع الجزائري إلى جانبها، وقد عمل هذا الاتحاد بعد تأسيسه على بذل جهود جبارة من أجل كسب اعتراف القوى العمالية الإقليمية والعالمية، ورغم الصعوبات التي واجهها استطاع في وقت وجيز أن يواكب الحركة الثورية ويساهم بفعالية في المجهود الثوري.

وسيحاول هذا المقال معالجة الإشكاليات التالية: ما هي حيثيات وظروف وأسباب تأسيس الاتحاد؟ وما هي المواقف المختلفة من تأسيسه سواء المؤيدة أو المعارضة بالداخل أو بالخارج. وقد استعملت في تحرير المقال المنهج التاريخي معتمدا على وثائق أرشيفية مهمة، بالإضافة إلى شهادات لفاعلين أساسيين في تلك الفترة، مستهدفا من خلال هذه الدراسة كشف بعض الحقائق والمعلومات الجديدة التي لم تنشر بعد حول الموضوع.

1 - تأسيس الاتحاد العام للعمال الجزائريين:

1.1. حيثيات وظروف تأسيس الاتحاد العام للعمال الجزائريين: منذ خروج عيسات ايدر من السجن خلال شهر مارس 1955 بدأت فكرة إنشاء مركزية نقابية جزائرية تخامر ذهن هذا النقابي من أجل الكفاح

ضد سيطرة الاتحاد العام للنقابات الجزائرية (UGSA) على الوضع النقابي بالجزائر، ومن أجل الوقوف في وجه انقسام محتمل داخل الطبقة العمالية الجزائرية تقوده العناصر المصالية¹.

وفي هذا الإطار يقول رمضاني محمد² أمين عام اتحاد نقابات العمال الجزائريين (USTA) أنه تم الاتصال بمائتين النقابيين الجزائريين من التوجهين التوجه المساند لمصالي الحاج والتوجه المؤيد لجهة التحرير الوطني خلال شهر ماي أو جوان 1955 من أجل إنشاء مركزية نقابية جزائرية موحدة تقف في وجه الاتحاد العام للنقابات الجزائرية (UGSA)، وتم عقد اجتماع مشترك في شهر ديسمبر 1955 تكونت خلاله بعثة مشتركة تتكون من بن عيسى عطا الله، جرمان رابح وبورويبة بوعلام من جهة التحرير الوطني وكفاح العيد وبن سيد عبد الرحمان من الحركة المصالية، وكانت مهمة هذه اللجنة الذهاب إلى باريس حيث استقبلت من طرف مولاي مرياح الذي أكد لها دعم الحركة الوطنية المادي للمركزية النقابية الجديدة ثم توجهت اللجنة إلى بروكسل من أجل لقاء قادة الكونفدرالية العالمية للنقابات الحرة (CISL) وإطلاعهم على المشروع السالف الذكر، وقد شجع أعضاء الكونفدرالية العالمية للنقابات الحرة هؤلاء على المضي قدما من أجل نجاح هذا المشروع في إطار الوحدة العمالية الجزائرية، لكن الصراع السياسي بين الجناحين حال دون نجاح تلك التجربة³.

وكان قادة جهة التحرير والمناضلين النقابيين الوطنيين على علم بتحركات الجناح المصالي الانفرادية منذ أواخر سنة 1955، ولكن تعليماتهم اقتصرت على مطالبة المناضلين النقابيين بمتابعة الأحداث وترقب الأوضاع ومحاولة عرقلة الحركة الوطنية في مسعاها نحو تأسيس مركزية نقابية في انتظار تهيئة الظروف الملائمة وتحين الفرصة لإنشاء مركزية نقابية تابعة لجهة التحرير الوطني، إلا أن الحركة المصالية فاجأت الجميع بإعلانها تأسيس مركزية نقابية تابعة لها في 14 فيفري 1956⁴.

هذه الخطوة جعلت عملية تسريع إنشاء مركزية نقابية جزائرية ذات توجه تابع لجهة التحرير الوطني من أولويات القادة السياسيين والنقابيين لجهة التحرير الوطني.

1 - Harbi Mohamed, le FLN : Mirage et Réalité, des origines à la prise du pouvoir (1945-1962), ENAL, Alger, 1993, pp 140-141.

- Aissat, Hassan, Aissat Idir, sa lutte politique et syndicale pour l'indépendance de l'Algérie, l'Harmattan, Paris, 2006, pp 84-85.

- Fares Mohamed, Aissat Idir, documents et témoignages sur le syndicalisme algérien, ENAP-ENAL, 2 Alger, 1992, p54.

- Bourouiba Boualem, les syndicalistes algériens, leur combat de l'éveil à la libération (1935-1962), Dahleb/ENAG, Alger, 2001, p188.

- Aissat Hassan, op cit, pp 84-85.

- Harbi Mohamed, op cit, pp 140-141.3

- Aissat Hassan, op cit, p 85, Harbi Mohamed, op cit, p 140.4

ففور الإعلان عن تأسيس اتحاد نقابات العمال الجزائريين (USTA) في 14 فيفري 1956، اجتمع عبان رمضان رفقة بن يوسف بن خدة بعيسات ايديروبوعلام بورويبة في منزل هذا الأخير ببولوغين يوم 17 فيفري 1956¹.

وفي هذا الاجتماع المطول تقرر إنشاء مركزية نقابية جزائرية، كما تم دراسة كل الخطوات المتعلقة بتسمية الاتحاد الجديد ومقره ودراسة الوسائل المادية المتوفرة لمباشرة نشاطه وتحديد قائمة أعضاء الأمانة العامة الأولى للاتحاد، وتحديد أهدافه وعلاقاته، وأختير عيسات ايدير أمينا عاما للمركزية النقابية، وتم التأكيد على تاريخ 24 فبراير لعقد المؤتمر التأسيسي لهذه المركزية النقابية.

وحول نقطة اختيار عيسات ايدير أمينا عاما يشير بورويبة بوعلام² بأنه لم يتم اختيار عيسات ايدير أمينا عاما وإنما تم اختياره منسقا عاما للأمانة العامة، وهذا الأمر كان بطلب من القيادة السياسية لجهة التحرير الوطني التي كانت تؤكد على القيادة الجماعية خوفا من تكرار التجربة المصالية في الزعامة الحزبية. وخلال الفترة من الاجتماع الأول إلى غاية 24 فبراير انعقاد المؤتمر التأسيسي، قام أعضاء الأمانة العامة باطلاع المناضلين بالقطاعات الاقتصادية والمصالح العمومية والخدمات من أجل تجنيد العمال الجزائريين وتسجيل انخراطهم في المركزية الجديدة، كما قام أعضاء الأمانة العامة بإعداد القانون الأساسي للمركزية النقابية وتحضير ملف الاعتماد وتحضير البيان الذي سينشر عقب الإعلان عن التأسيس الرسمي للمركزية النقابية³.

إن كل هذا العمل الجبار الذي قام به أعضاء الأمانة العامة في فترة سبعة أيام فقط هو ما يبين الجهود الضخمة والعمل ليل نهار الذي قام به هؤلاء الأعضاء ربحا للوقت واستباقا للزمن والحوادث. وفي يوم 24 فيفري 1956 اجتمع ممثلو حوالي اثنتا عشر (12) نقابة تابعة للاتحاد تشمل بعض القطاعات الاقتصادية والوظائف هي: نقابة عمال ميناء الجزائر، نقابة عمال السكك الحديدية للجزائر والبلدية، نقابة المعلمين، نقابة عمال مؤسسة النقل، نقابة عمال مؤسسة الكهرباء والغاز، نقابة عمال مكاتب التجارة وهيئات الضمان الاجتماعي، نقابة عمال المستشفيات، نقابة عمال مؤسسات التبغ، نقابة عمال الحديد، نقابة عمال ترامواي الجزائر، نقابة عمال البلديات، نقابة عمال المواد الكيماوية ونقابة عمال المخازن⁴.

-
- note de renseignements a/s de réunions de l'UGTA, A.N.O.M, (Archives Nationale d'Outre Mer), GGA 1
(Gouvernement General d'Algérie), 7G/1106, PRG, Alger, 20/05/1956.
- Bourouiba Boualem, op cit, p 206. 2
- Fares Mohamed, op cit, p 57.3
- Syndicats Musulmans en Algérie A.N.O.M, GGA/40G/104, SLNA, Alger, 02/03/1956. 4

والحقيقة، لم يذكر أي مصدر عدد المشاركين بالتحديد في الاجتماع التأسيسي للاتحاد المنعقد في التاريخ المذكور، وإنما أجمعت تلك المصادر على أن هناك حوالي اثنتا عشر نقابة شاركت في هذا المؤتمر بالإضافة إلى المناضلين القدامى في اللجنة النقابية لحركة الانتصار للحريات الديمقراطية.

لقد تم في الاجتماع الإعلان الرسمي والعلني عن ميلاد مركزية نقابية جزائرية جديدة تحت اسم الاتحاد العام للعمال الجزائريين (UGTA)، وهو المشروع الذي طالما انتظره المناضلون النقابيون وناضلوا من أجله وعلى رأسهم المناضل عيسات ايدير منذ سنة 1947، وقد تحقق في هذا التاريخ بفضل مجهودات هؤلاء المناضلين النقابيين وبفضل الإرادة القوية للقادة السياسيين لجهة التحرير الوطني.

كما قام المجتمعون في هذا اليوم باختيار أعضاء المكتب الوطني الذي يتكون من ثلاثة عشر عضوا هم : عيسات ايدير، بورويبة بوعلام، رابح جرمان، علي يحي عبد المجيد، عطا الله بن عيس، عبد القادر عمراني، مادا محمد، لعسل مصطفى، عياش محمد، عاقب محمد، حدادي مسعود، زيتوني أحمد وبورويبة حسان¹.

كما قام المجتمعون بتزكية أعضاء الأمانة العامة وهم:

أميننا عاما: عيسات ايدير، أميننا عاما مساعدا: بن عيسى عطا الله، أميننا وطنيا: بورويبة بوعلام، جرمان رابح وعلي يحي عبد المجيد (مكلف بالجانب المالي)².

وفي يوم 26 فيفري 1956 تم إيداع ملف اعتماد الاتحاد العام للعمال الجزائريين (UGTA) لدى بلدية الجزائر³.

والملاحظ في تشكيلة أعضاء المكتب الوطني والأمانة العامة للاتحاد أو حتى في النقابات المنخرطة المشاركة في المؤتمر التأسيسي أنها كانت كلها من مدينة الجزائر أو المناطق المجاورة لها، وهذا طبعا بسبب ما كانت تقتضيه العملية من سرية وسرعة في التنفيذ، لأن جبهة التحرير الوطني لم تمهل القادة النقابيين سوى سبعة أيام من أجل تحضير كل ما يتعلق بتأسيس المركزية النقابية الجديدة، لذلك اقتضت ظروف العمل في البداية تجنيد الإطارات النقابية المتواجدة على مستوى مدينة الجزائر فقط.

لقد تم في المؤتمر التأسيسي تحديد مقر الاتحاد في 06 شارع لافيغري (شارع الإخوة عبد السلامي حاليا) بمدينة الجزائر، كما بين ووضح الاتحاد وأكد في المادة الأولى من قانونه الأساسي على أنه منظمة نقابية تعمل في إطار القوانين المنظمة لهذا النشاط وداخل مؤسسات الدولة، وأنه لا يتدخل في أي عمل سياسي أو ديني⁴.

1. - l'ouvrier algérien, 06/04/1956.

2 - Note de Renseignements a/s de la Création de l'UGTA, A.N.O.M, GGA/7G/1105, PRG, Alger, 27/02/1956.

3 - Syndicats Musulmans en Algérie, A.N.O.M, GGA/40G/104, SLNA, Alger, 02/03/1956.

4 - Statuts de l'UGTA, A.N.O.M, GGA/7G/1105, UGTA.

وللتعبير عن اهتمامات وطموحات منظماتهم وللقيام بالتوعية المستمرة للطبقة الشغيلة ولخدمة الثورة التحريرية، أصدرت قيادة الاتحاد العام للعمال الجزائريين صحيفة نقابية تسمى العامل الجزائري (l'Ouvrier Algérien) التي صدر منها أول عدد في شهر أفريل 1956، ورغم ما تعرضت له من حجز ومنع، إلا أنها واصلت صدورها بانتظام بالجزائر إلى غاية شهر فيفري 1957، ثم تكفلت الودادية العامة للعمال الجزائريين بإصدارها من باريس منذ تأسيس هذه الأخيرة في 27 فيفري 1957 وإلى غاية حلها في شهر أوت 1958، فانتقلت الجريدة للصدور من تونس بترقيم جديد¹.

2.1. أسباب تأسيس الاتحاد العام للعمال الجزائريين: وإذا رجعنا إلى الأسباب التي أدت إلى تأسيس الاتحاد العام للعمال الجزائريين، فإننا نجد أن الاتحاد قد وضحها في البيان الذي نشره يوم 28 فيفري 1956²، وتتلخص تلك الأسباب فيما يلي:

_ الاستغلال الفاحش الذي يتعرض له العمال الجزائريون، فهناك أكثر من مليون عامل في قطاع الفلاحة لا تتجاوز أجرتهم ثلاثمائة فرنك فرنسي في اليوم مقابل ستة عشر ساعة عمل وهذا بدون الحصول على المنح العائلية، في حين أن عمال الوظيفة العامة يحصلون على أجور أكثر بثلاثة وثلاثين بالمائة، أما العمال البسطاء في الصناعة والتجارة فإنهم ليسوا بأحسن حال من عمال القطاع الفلاحي، فحق العمل المعترف به لكل الأشخاص بواسطة القوانين الدولية تستثنى منه طبقة واحدة فقط هي العمال الجزائريون.

_ هناك مليونان من الجزائريين يعيشون في بطالة رغم قدرتهم على العمل، وحوالي أربعمئة ألف جزائري هاجروا إلى فرنسا بحثا عن العمل هروبا من المجاعة في حين أن الجزائر بلد مفتوح على الهجرة الأوروبية.

_ إن تطلعات العمال الجزائريين مهضومة وهذا بسبب النظام الاستعماري الذي بدون شك هو السبب الرئيسي، ولأجل إدامة وتثبيت هذه الوضعية يسجل الاتحاد تواطؤ مسيري الكونفدرالية العامة للعمال (CGT) الذين باعوا العمال الجزائريين لأرباب العمل الفرنسيين، وذلك برفضهم مباشرة نضال عمالي لأجل إيقاف الهجرة الأوروبية إلى الجزائر ومن أجل وظيفة عمومية جزائرية.

_ وفي تونس منذ عشرة أعوام وفي المغرب منذ سنة قام العمال في البلدين بمسك تسيير شؤونهم بأنفسهم دون وصاية، لقد قاموا بفرض إرادتهم وأجبروا السلطات على الاعتراف بشخصيتهم الوطنية وتخلصوا من الوصاية النقابية الامبريالية التي خدعتهم مثلما تخدع العمال بالجزائر. لذلك دعا الاتحاد العمال الجزائريين إلى قطع الروابط مع النقابات الفرنسية ووضع نهاية للوضعية التي يوجدون فيها.

1 - بومالي أحسن، أدوات التجنيد والتعبئة الجماهيرية أثناء الثورة التحريرية الجزائرية (1954. 1956)، دار المعرفة،

الجزائر، 2010، ص ص 447. 450.

2 - Appel aux travailleurs Algériens, A.N.O.M, GGA/7G/1106, UGTA, Alger, 28/02/1956.

وإذا كانت هذه هي الأسباب المعلنة في النداء الموجه للعمال الجزائريين غداة تأسيس الاتحاد، فإنها أسباب غير مباشرة لأنها كانت موجودة منذ أن وطئت أقدام المستعمر هذه الأرض.

وعلى ما يبدو هناك سببين أساسيين مباشرين جعلوا المناضلين النقابيين وقيادة جبهة التحرير الوطني تسرع عملية إنشاء الاتحاد العام للعمال الجزائريين (UGTA) وهما¹:

_ ضرورة إيجاد مركزية نقابية جزائرية خالصة قادرة على تعبئة الطبقة العمالية الجزائرية ودفعها داخل العمل الوطني خدمة للثورة التحريرية.

_ رد فعل عاجل وسريع على مبادرة الحركة الوطنية الجزائرية المصالية، وذلك لتوضيح بأن كل أو أغلبية الطبقة العمالية الجزائرية هي في صف جبهة التحرير الوطني.

3.1. أهداف الاتحاد العام للعمال الجزائريين: من خلال الاطلاع على القانون الأساسي للاتحاد العام للعمال الجزائريين²، فإننا نجد أن أهداف الاتحاد قد تم توضيحها في المادة الثانية من هذا القانون، وهذه الأهداف تتمثل فيما يلي:

_ الدفاع عن المصالح المادية والأخلاقية والاقتصادية والمهنية للعمال الجزائريين العاملين بالمؤسسات المكونة بها نقابات تابعة للاتحاد.

_ التدخل في هذا الإطار لدى السلطات العمومية من أجل الحصول على ظروف حياة جيدة للعمال الجزائريين.

_ إنشاء نقابات بكل المراكز وبكل التعاونيات وجعلها تنخرط داخل الاتحاد العام للعمال الجزائريين.

_ إنشاء مكاتب إعلام واتصال بكل المناطق بالجزائر أو بالدول التي يوجد بها عمال جزائريون، وأين تكون مصلحة الاتحاد العام للعمال الجزائريين تتطلب ذلك.

_ القيام بربط علاقات تضامن ما بين كل العمال الجزائريين المجتمعين داخل النقابات المنضوية تحت لواء الاتحاد العام للعمال الجزائريين وتنسيق العمل فيما بينهم، وينظم الاتحاد في هذا الإطار اجتماعات ويقوم باستعمال كل وسائل النشر والدعاية التي يراها مناسبة لتحقيق ذلك.

_ يسهر الاتحاد على العمل الجيد للنقابات المنخرطة بداخله، ويساعدها في مهامها، ويدعم كل الخطوات الفعالة لدى السلطات العمومية ولدى الإدارات ولدى أرباب العمل المعنيين.

_ الاطلاع على كل النقاشات للمشاريع والاتفاقيات وغيرها التي تقوم بها تلك النقابات من أجل إيجاد حلول للمشاكل التي تعترضهم أو القيام بصياغة النظام الذي له علاقة مباشرة بظروف العمل أو بالأجرة أو أي نشاط يهم العمال.

- Brancard Michel, un syndicat dans la guerre d'Algérie (CFTC), Synos, Paris, 1984, pp 53-54.1

- Statuts de l'UGTA A.N.O.M, GGA/7G/1105, UGTA .2

- Syndicats Musulmans en Algérie, A.N.O.M, GGA/40G/104, SLNA, Alger, 02/03/1956.

رفع المستوى المعنوي والاجتماعي للعمال والدفاع عن الحريات الديمقراطية وحقوق الإنسان. يظهر من هذه الأهداف أن عمل الاتحاد سيكون عملا نقابيا مطلبيا محضا، وهذا ما أكد عليه الاتحاد في المادة الأولى من قانونه الأساسي.

أما الأهداف التي نشرت في البيان الموزع بتاريخ 28 فيفري 1956 فإنه بالإضافة إلى ما سبق ذكره من أهداف، فإن أهداف الاتحاد هي أيضا التعبير عن التطلعات المشروعة للعمال الجزائريين وتمثل في¹

إعطاء النضال العمالي بالجزائر توجها يوافق تطلعاته العميقة أي ثورة في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

غرس لدى العمال الجزائريين يقظة عمالية تجعل منهم قادرين على النضال الدائم ضد كل أنواع الاستغلاليين بدون تمييز.

تجنب كل تمييز عند الدفاع عن الطبقة العمالية.

بسط ديمقراطية حقيقية داخل النقابات.

تحقيق الوحدة النقابية الشمال افريقية مع المركزيتين النقابيتين المغربية والتونسية أي مع الاتحاد العام للنقابات التونسية والاتحاد المغربي للشغل.

إسماع صوت الجزائري في كل العالم عن طريق الانخراط في مركزية عمالية عالمية بعد المشاورة الديمقراطية للعمال.

طبعا التأكيد على عدم الخوض في المسائل المرتبطة بالسياسة والدين كانت تتطلبها ظروف المرحلة، لأن سرد الأهداف الأولى في القانون الأساسي كان الهدف منه الحصول على الاعتماد الرسمي من السلطات الفرنسية، في حين أننا نلاحظ أن الأهداف المضافة في البيان كانت أكثر تحررا وطالبت بثورة حتى في المجال السياسي وتمديد النشاط خارج الجزائر على المستوى الإقليمي والدولي، كما أن ظروف الواقع لن تسهل على الاتحاد الالتزام بالأهداف غير السياسية فقط.

2- المواقف المختلفة من تأسيس الاتحاد العام للعمال الجزائريين:

1.2- موقف جبهة التحرير الوطني: لاشك أن جبهة التحرير الوطني التي كانت وراء إنشاء الاتحاد العام للعمال الجزائريين قد رحبت بهذا المولود الجديد الذي سيدعم جهودها في تأطير شريحة مهمة من المجتمع الجزائري، لذلك فقد أشاد عبان رمضان بتأسيس الاتحاد العام للعمال الجزائريين واعتبره قوة جديدة لا بد من الآن فصاعدا أن تحسب لها فرنسا ألف حساب².

1 - Appel aux travailleurs Algériens, A.N.O.M, GGA/7G/1106, UGTA, Alger, 28/02/1956.

- Syndicats Musulmans en Algérie A.N.O.M, GGA/40G/104, SLNA, Alger, 02/03/1956.

- Meynier Gilbert, histoire intérieur du FLN (1954/1962), Alger, Casbah, 2003, p 525.2

كما حيا مؤتمر الصومام الاتحاد العام للعمال الجزائريين وأعتبر ما يقوم به من نشاط تطورا كبيرا من أجل أخذ مكانه ودوره في القضاء على الاستعمار المسؤول عن البؤس والبطالة والهجرة والممارسات الإنسانية، كما عين عيسات ايدير في هذا المؤتمر رغم وجوده في السجن ضمن الأعضاء الدائمين في المجلس الوطني للثورة التحريرية¹.

2.2 - موقف الصحافة الفرنسية: تطرقت معظم الصحف الفرنسية بالجزائر أوبفرنسا إلى موضوع إنشاء الاتحاد العام للعمال الجزائريين (UGTA) وقامت ببعض التعليقات على ذلك دون أن يكون لها موقف محدد قابل أو رفض بصورة علنية لهذا الاتحاد.

فجريدة الجزائر (le Journal d'Alger) ذكرت بأنه تم إنشاء مركزية نقابية جديدة تحت اسم الاتحاد العام للعمال الجزائريين (UGTA) وبينت بأن هذه المركزية ذات توجه وطني². أما جريدة صدى الجزائر (l'Echo d'Alger) فذكرت تحت عنوان حرب النقابات الوطنية بالجزائر نبأ تشكيل مركزية نقابية هي الاتحاد العام للعمال الجزائريين (UGTA) وقالت أن هذا يدخل في إطار حرب النقابات في الجزائر ما بين المصاليين وأنصار جبهة التحرير الوطني وذلك بتحريض من الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا³. وذكرت جريدة العالم (Le Monde) بأن مركزية نقابية جديدة ظهرت بالجزائر بدعم من جبهة التحرير الوطني⁴.

في حين علقت جريدة لوفيفارو (le Figaro) على الأمر بأنه بإيعاز من القاهرة تم تكوين مركزية نقابية جديدة بالجزائر وهذا يدخل في إطار الأجنحة المتصارعة داخل الجزائر ما بين جبهة التحرير الوطني والحركة المصالية⁵.

وتحدثت كل الصحف السابقة الذكر عن تشكيلة الأمانة العامة للاتحاد العام للعمال الجزائريين (UGTA)، لكن بعضها كجريدة الجزائر والعالم لم تكن دقيقة في تحديد أسماء أعضاء الأمانة العامة للاتحاد بدقة.

3.2 - موقف السلطات الفرنسية: أما السلطات الفرنسية فإنها كانت على علم بالاتصالات التي سبقت تأسيس الاتحاد العام للعمال الجزائريين (UGTA) والتي تمت ما بين القيادة السياسية لجبهة التحرير الوطني والمناضلين النقابيين، فقد ذكرت برقية صادرة عن مصلحة المعلومات العامة بالجزائر صادرة بتاريخ 1956/02/16 بأن مسؤولي جبهة التحرير الوطني اتصلوا بمناضلين نقابيين لهم مسؤوليات داخل الكونفدرالية العامة للعمال (CGT) ومن بين هؤلاء ذكرت البرقية أسماء عيسات ايدير، أوجينا

- El-Moudjahid, s.d, n°031

- le Journal d'Alger, 02/03/1956.2

- l'Echo d'Alger, 02/03/1956.3

- le Monde, 03/03/1956.4

- le Figaro, 04/03/1956.5

أدريس، بن عيسى عطا الله، رمضاني محمد، تفاحة عبد القادر، حسان باي بن ناصر، فلوس محمد وجرمان رابح¹.

كما أن برقية أخرى صادرة عن المحافظة المركزية للأمن لمدينة وهران بتاريخ 1956/02/20 تؤكد أمر اطلاع السلطات الفرنسية على الاتصالات الأولية التي تمت ما بين مسؤولي جبهة التحرير الوطني والمناضلين النقبائين، فقد أكدت هذه البرقية على أن هؤلاء عقدوا اجتماعا بمدينة الجزائر يوم 1956/02/18 وعلى إثره تقرر إنشاء مركزية نقابية تابعة لجبهة التحرير الوطني².

طبعا هاتين البرقيتين تؤكدان اطلاع السلطات الفرنسية على نية جبهة التحرير الوطني إنشاء مركزية نقابية تابعة لها رغم أن المواعيد التي ذكرت في البرقيتين كانت غير دقيقة.

لكن السلطات الفرنسية لم تقم رغم ذلك بخطوات استباقية لمنع حدوث هذا الأمر، إلا أنها حاولت القيام ببعض العراقل الإدارية وكانت تماطل لتأخير أو منع قبول ملف اعتماد الاتحاد بعد تأسيسه رغم أن الملف كان كاملا ومستوفيا لكل الأوراق والشروط المطلوبة ولا يوجد فيه ما يمكن أن يدعو إلى رفضه بطريقة قانونية، ولكن جهود جرمان رابح الذي كان مستشارا بلديا سابقا بالجزائر كللت لدى زملائه في قبول الملف والحصول على وصل إيداع ملف الاعتماد يوم 1956/02/26، وهو الإجراء الذي كان كافيا لأن يباشر الاتحاد العام للعمال الجزائريين (UGTA) نشاطه في إطار الشرعية ابتداء من هذا التاريخ³.

ولم يكن للسلطات الفرنسية عشية الإعلان عن تأسيس الاتحاد أي رد فعل رافض لهذا الأمر ولم تصدر أي تصريح حسب ما اطلعت عليه من وثائق بخصوص موقفها من تأسيس الاتحاد العام للعمال الجزائريين (UGTA). غير أن النجاحات التي حققها الاتحاد العام للعمال الجزائريين (UGTA) في المجال التنظيمي خاصة وفي مدة وجيزة بدأت تقلق السلطات الفرنسية، فقد قام الوزير المقيم روبر لاكوست بالتدخل بنفسه لإلغاء نتائج الانتخابات المتعلقة باختيار مندوبي المستخدمين التي جرت يوم 31 مارس 1956 بعدما سحق هذا الاتحاد خصومه في قطاع النقل حيث فاز بنسبة 72% من الأصوات ما يعادل 12 مقعدا من أصل 18 مقعدا مقابل 06 مقاعد لصالح الاتحاد العام للنقابات الجزائرية (UGSA)، كما حصل على نسب 100% في بعض القطاعات الأخرى.

ولم يكتف روبر لاكوست بإلغاء نتائج الانتخابات، بل قام بتعويض الأعضاء المعزولين بأعضاء معينين من مركزية القوة العمالية (FO) والكونفدرالية الفرنسية للعمال المسيحيين⁴ (CFTC).

- note de renseignements a/s du Front de Libération National, A.N.O.M, GGA/7G/1106, PRG, Alger, 1
Alger, 16/02/1956.

- note de renseignements a/s de réunions de l'UGTA, A.N.O.M, GGA/7G/1106, PRG, Alger, note Alger, 2
20/05/1956.

- Fares Mohamed, op cit, p 83.3

- Gallissot René, Syndicalisme et nationalisme , revue le mouvement social, N° 66, 1969 , pp 7- 50.4

ثم بدأت السلطات الفرنسية حملة الاضطهاد والاعتقالات ضد إطارات الاتحاد العام للعمال الجزائريين (UGTA) والقيام بمدهامات لمحلته ابتداء من شهر ماي 1956.

4.2 - موقف المركزيات النقابية الشمال افريقية: فيما يتعلق بموقف الاتحاد العام التونسي للشغل (UGTT)، أيد أحمد بن صالح الأمين العام للاتحاد التونسي للشغل دون تردد تأسيس الاتحاد العام للعمال الجزائريين لأن قياديه كانوا معروفين لديه وتربطهم به علاقات وطيدة ومستمرة. وقد وجه الاتحاد العام التونسي للشغل نداء إلى العمال الجزائريين بهذه المناسبة جاء فيه: "أنه يحثهم على هذه الخطوة لوضع حد للاستغلال الذي يتعرضون له ويطلب منهم الاستفادة من خبرة الحركتين النقابيتين التونسية والمغربية، إذ أن عمال هذين البلدين، في تونس منذ عشر سنوات وفي المغرب منذ سنة أخذوا على عاتقهم تسيير شؤونهم الخاصة وأحرزوا على الاعتراف بالشخصية الوطنية وتخلصوا من النقابيين الامبرياليين الذين خانوهم."¹

كما صرح أحمد بن صالح زعيم الاتحاد التونسي للشغل (UGTT) "بأن تكوين هذه المنظمة من شأنه أن يعمل على تدعيم الحركة النقابية بالمغرب العربي لأن وجود منظمات نقابية قوية في بلداننا لها نفس الطموحات والمبادئ سيمكننا من أن نعمل ونلعب في أقرب الآجال دورنا في منطقة البحر المتوسط"².

وقد سارع عيسات ايدر الذي كانت تربطه علاقات متينة مع نقابيي الاتحاد العام التونسي للشغل (UGTT) إلى تونس بعد بضعة أيام فقط من تأسيس الاتحاد العام للعمال الجزائريين (UGTA) وبالضبط في 12 مارس 1956 وذلك ليربط منظمته بصلات متينة ودائمة مع المنظمة التونسية³.

ونفس الشيء بالنسبة للاتحاد المغربي للشغل (UMT) الذي كان له موقف مؤيد ومساند للاتحاد العام للعمال الجزائريين، حيث صرح الطيب بوعزة الأمين العام للاتحاد المغربي للشغل: "أن الطريق التي يسلكها العمال الجزائريون اليوم هي نفس الطريق التي يسلكها العمال التونسيون والمغاربة بالأمس، وأنه لا يوجد على الإطلاق ما يفرق بينهم وأنهم عملوا وسيعملون بجميع الوسائل التي في حوزتهم للتعجيل بتحقيق تحرير إخوانهم الجزائريين"⁴.

ورحب الاتحاد الليبي للشغل (ULT) أيضا بتأسيس الاتحاد العام للعمال الجزائريين (UGTA). وسيظهر دعم وتأييد هذه المركزيات الشمال افريقية بشكل كبير للاتحاد العام للعمال الجزائريين (UGTA) في شهر جويلية سنة 1956 عندما عملوا كل ما بوسعهم وجندوا كل طاقاتهم من أجل حصول الاتحاد العام

1 - بويحي سالم، العلاقات النقابية المغربية ودور الطبقات العاملة في وحدة المغرب العربي من 1946 إلى 1959، المجلة التاريخية المغربية، تونس، العدد 44/43، 1986، ص 95.5.

2 - Le Monde, 28/04/1956.

3 - l'Action Tunisienne, 12/03/1956.

4 - بويحي سالم، مرجع سابق، ص 95.5.

للعمال الجزائريين (UGTA) على عضوية الكونفدرالية العالمية للنقابات الحرة (CISL)، وسيظل هذا التأييد مستمرا ومتواصلا من طرف المركزيات الثلاثة حتى حصول الجزائري على استقلالها¹.

5.2 - موقف الاتحاد العام للنقابات الجزائرية: أما قيادة الاتحاد العام للنقابات الجزائرية (UGSA) فلم يكن يخفى عليها كليا ما كان يحضر له لإنشاء مركزية نقابية جزائرية جديدة، فقد تحسست ذلك بواسطة تسريبات من بعض المناضلين داخل الاتحاد العام للنقابات الجزائرية (UGSA) ومن طرف القياديين الذين تم الاتصال بهم من طرف زملائهم لمغادرة الاتحاد العام للنقابات الجزائرية (UGSA) لأجل تكوين مركزية نقابية جديدة، لكن الأمر بصورة جلية لم يكن واضحا وكان يكتنفه بعض الغموض كما يصح قايد لخضر².

ومع تأسيس الاتحاد العام للعمال الجزائريين (UGTA) في 24 فيفري 1956 أعلنت قيادة الاتحاد العام للنقابات الجزائرية (UGSA) بأنها ضد الانشقاق النقابي، فقد بعثت برسالة بتاريخ 29 فيفري 1956 إلى قيادة الاتحاد العام للعمال الجزائريين (UGTA) مما جاء فيها:

"إن تكوين مركزيتين نقابيتين بالإضافة إلى الاتحاد العام للنقابات الجزائرية سيكسر الانقسام داخل الطبقة العمالية ببلدنا وسيكون لهذا الانقسام نتائج وخيمة على الحركة النقابية مما سيؤدي إلى فشل نضال الطبقات الضعيفة الآن في مواجهة الاستغلال من طرف كبار الملاك وكبار المعمرين.

إننا نتوجه إليكم ونقترح عليكم عقد اجتماع مفتوح على كل المسؤولين بدون تمييز أو إقصاء من أجل مناقشة تكوين مركزية نقابية وطنية موحدة تستجيب لتطلعات العمال الجزائريين ووحدتهم"³.

وتبين هذه الرسالة خوف وقلق قيادة الاتحاد العام للنقابات الجزائرية (UGSA) من تأسيس الاتحاد العام للعمال الجزائريين (UGTA) وكيف أنها من البداية فهمت بأن تأسيس مركزية وطنية ستكون له نتائج وخيمة على وجودها.

كان رد قيادة الاتحاد العام للعمال الجزائريين (UGTA) على مقترحات الاتحاد العام للنقابات الجزائرية (UGSA) قد جاء بعد أسبوع بواسطة رسالة مؤرخة في 1956/03/07 جاء فيها: "أصدقاءنا: يشرفنا أننا استلمنا رسالتكم المؤرخة في 1956/02/29 وذلك يوم 1956/03/02 المتعلقة بتأسيس مركزية نقابية وطنية.

إجابة، نعلمكم بأن هذه المنظمة موجودة وهي الاتحاد العام للعمال الجزائريين (UGTA)، وأنه من واجبكم حل الاتحاد العام للنقابات الجزائرية (UGSA) الذي لم يبق له سبب للبقاء والالتحاق بالاتحاد

1 - نفس المرجع، ص ص 95.5

- Djabi Nasser, Kaidi Lakhdar, une histoire du syndicalisme algérien, Chihab, Alger, s.d, pp 208-209.2

- lettre adressée à l'UGTA et à l'USTA, A.N.O.M, GGA/40G/104, UGSA, Alger, 29/02/1956. 3

العام للعمال الجزائريين (UGTA) المركزية الوطنية المفتوحة على كل العمال الجزائريين بدون أي تمييز¹.

ورغم هذا الرد الحاسم والقاطع من قبل الاتحاد العام للعمال الجزائريين (UGTA)، فإن قيادة الاتحاد العام للنقابات الجزائرية (UGSA) لم تياس وبعثت برسالة أخرى مؤرخة في 17 مارس 1956 محتواها كالآتي: "أصدقائي، من أجل مقابلة وجهات نظرنا حول مسألة تحقيق إنشاء مركزية نقابية وطنية موحدة نقترح عليكم محادثة ثنائية ما بين أمينينا يوم السبت 24 مارس 1956 على الساعة التاسعة بالنادي المدني أو أي مكان آخر يناسبكم."² ثم بعثت قيادة الاتحاد العام للنقابات الجزائرية برسالة أخرى في 19 مارس 1956 مضمونها: "لقد قامت أمانتنا بإبلاغكم برغبتنا في محادثتكم يوم السبت 24 مارس في الرسالة السابقة، لكن لم يصلنا الرد لحد الآن، نطلب منكم إعلامنا إذا كنتم تقبلون تاريخ 24 مارس، ولربح الوقت نقترح عليكم اجتماعا عاما من أجل ضبط جدول الأعمال للاجتماع الأمينين، وفي حال الموافقة أهتفوا إلينا من أجل تحديد الموعد"³.

ولما لم يأتها الرد من الاتحاد العام للعمال الجزائريين بعد مرور الوقت المقترح للقاء، أرسلت قيادة الاتحاد العام للنقابات الجزائرية برسالة رابعة بتاريخ 29 مارس 1956 إلى قيادة الاتحاد العام للعمال الجزائريين (UGTA) مما جاء فيها بعد الحديث عن عدم استجابة الاتحاد العام للعمال الجزائريين للدعوات المقدمة من طرف الاتحاد العام للنقابات الجزائرية، وبعد تحليل الوضعية النقابية بالجزائر بوجود ثلاث مركزيات نقابية وطنية، وخطورة ذلك على النشاط النقابي الوطني: "إننا نقترح عليكم من جديد الاجتماع في أقرب الأجل خلال الأسبوع الأول من شهر أفريل بين أمينينا من أجل مناقشة كل المسائل. نأمل أن تردوا بإيجابية على مقترحنا"⁴.

وظلت قيادة الاتحاد العام للعمال الجزائريين متمسكة بضرورة حل الاتحاد العام للنقابات الجزائرية (UGSA) لنفسه ودعوة منخرطيه إلى الانضمام بصفة فردية إلى الاتحاد العام للعمال الجزائريين (UGTA)، وهذا ما أكدت عليه الرسالة الأخيرة التي بعثت بها قيادة الاتحاد العام للعمال الجزائريين (UGTA) إلى قيادة الاتحاد العام للنقابات الجزائرية (UGSA) بتاريخ 1956/05/31، والتي

1 - lettre adressée à l'UGSA, A.N.O.M, GGA/40G/104,UGTA, Alger, 07/03/1956.

2 - lettre adressée à l'UGTA, A. N.O.M, GGA/40G/104, UGSA, Alger, 17/03/1956.

3 - lettre adressée à l'UGTA, A.N.O.M, GGA/40G/104, UGSA, 19/03/1956.

4 - lettre adressée à l'UGTA, A.N.O.M, GGA/40G/104, UGSA, 29/03/1956.

أكدت " بأن عبارات رسالتنا المؤرخة في 1956/03/24 تبقى دائما صالحة وهي إجابة على هذه الاقتراحات، إن المركزية التي نتحدثون عنها موجودة وهي الاتحاد العام للعمال الجزائريين"¹.

وظل الموقف بين المركزيين على ما هو عليه إذ تمسك كل طرف بمواقفه، وكانت آخر رسالة بعثت بها قيادة الاتحاد العام للنقابات الجزائرية رغم الرد الصارم من طرف الاتحاد العام للعمال الجزائريين بتاريخ 07 جوان 1956 من أهم ما جاء فيها: "إن إجابتم بحل الاتحاد العام للنقابات الجزائرية وجعل العمال التابعين له ينخرطون فرديا بالاتحاد العام للعمال الجزائريين لا يمكن أن يكون اقتراحا صالحا يمهّد سبيل الوحدة، إن العمال يعرفون جيدا ما تمثله لهم منظماتنا التي لعبت دورا كبيرا وهذا ما سبب لها الاضطهاد من طرف الإدارة، إن تعلقهم بمنظمتنا قوي جدا مثلما هي رغبتهم بالوحدة وإنشاء مركزية نقابية وطنية واحدة، لذلك نقترح عليكم من جديد ما يلي:

_ اجتماعا عاجلا من أجل دراسة العمل المشترك الواجب القيام به من أجل الاستجابة لمطالب العمال والأمال الوطنية لشعبنا.

_ اجتماعا ثانيا من أجل مناقشة مسألة وحدة الطبقة العمالية وتحقيق مشروع المركزية الوطنية الواحدة.

نرجو أننا قد وضحنا بأننا بقبول اجتماع كهذا لا يعني أننا اتخذنا قرارا حول مبدأ إنشاء مركزية موحدة، نأمل لقاءكم قريبا، تقبلوا أخلص التحيات"².

ولم يجب الاتحاد العام للعمال الجزائريين على هذا النداء حتى تم توقيف نشاط الاتحاد العام للنقابات الجزائرية (UGSA) في شهر نوفمبر سنة 1956 بعدما هجرها العمال الجزائريون نحو الاتحاد العام للعمال الجزائريين (UGTA) كما هجرها العمال الأوروبيون كذلك بسبب توجهاتها نحو مطالب العمال الجزائريين، فكانت تلك النهاية حتمية وتحصيل حاصل، فاضطرت إلى دعوة من بقي من منخرطيها من الجزائريين إلى الانضمام إلى الاتحاد العام للعمال الجزائريين³ (UGTA).

6.2 - موقف الكونفدرالية العالمية للنقابات الحرة والمركزيات النقابية الفرنسية: أما الكونفدرالية العالمية للنقابات الحرة (CISL) فقد وقفت في البداية موقفا متحفظا بسبب وجود مركزيين نقابيين جزائريين جديدين طلبت كلاهما الانضمام إلى هذه الكونفدرالية العالمية، وهو ما جعل قيادتها يترشون في البداية، لكن لما تمكنوا من استيضاح الأمور تبين لهم أن الاتحاد العام للعمال الجزائريين (UGTA) هو

1 - lettre aux camarades dirigeants de la CGT en Algérie, A.N.O.M, GGA/40G/104, UGTA, Alger, 1 31/05/1956.

2 - lettre adressée à l'UGTA, A.N.O.M, GGA/40G/104, UGSA, lettre 07/06/1956. 2

3 - Gallissot René, op cit, pp 7- 50.3

القوة النقابية الممثلة للعمال الجزائريين دعموا هذا الاتحاد وقبلوا عضويته في شهر جويلية 1956 وكانوا يدعمونه في كل المحافل الدولية.

أما النقابات الفرنسية الأخرى الكونفدرالية العامة للعمال (CGT) والكونفدرالية العامة للعمال/القوة العمالية (CGT /FO) فقد نددتا بتأسيس الاتحاد العام للعمال الجزائريين واعتبرت ميلاده صنيعة أمريكية¹.

كما اعتبرت الكونفدرالية العامة للعمال (CGT) ذلك انشقاقا داخل الحركة العمالية الجزائرية حيث صرحت: "في الوقت الذي يتحمل فيه الشعب الجزائري تجربة قاسية وفي نفس الوقت الذي تشن فيه حملة واسعة وعنيفة هدفها تصادم العمال الجزائريين والفرنسيين بعضهم ببعض فإننا نعتبر أن هذا الانشقاق الذي يحدث داخل الحركة النقابية الجزائرية هو أمر خطير"².

واعتبرت الكونفدرالية العامة للعمال (CGT) أن هذا الأمر غير مبرر باعتبار أنها طالما دافعت عن تطلعات الشعب الجزائري في كفاحه من أجل التحرر الوطني³.

وقد وقفت القوة العمالية (FO) بقوة ضد تكوين الاتحاد العام للعمال الجزائريين (UGTA)، بل ووقفت بكل قوة ضد انضمامه إلى الكونفدرالية العالمية للنقابات الحرة (CISL)، وبذلت كل المساعي لدى المركزيات الدولية من أجل عدم قبول عضويته⁴.

أما الكونفدرالية الفرنسية للعمال المسيحيين (CFTC) فلم يكن لها موقف واضح في البداية من تأسيس الاتحاد العام للعمال الجزائريين (UGTA)، ومع أنها لم تساند علنية هذا الأخير إلا أنها بدأت في ربط اتصالات معه بعد حله وخروجه من الجزائر بداية من سنة 1957.

الخاتمة: إن تأسيس الاتحاد العام للعمال الجزائريين يعتبر لبنة من اللبنة التي سعت الثورة إلى وضعها من أجل تعبئة كل فئات المجتمع الجزائري حتى يلتحم مع قضيته الوطنية ويبطل مزاعم فرنسا المشككة في ذلك.

إن إنشاء الاتحاد العام للعمال الجزائريين لم يكن سهلا وإنما اعترضه عقبات عديدة من طرف السلطات أو النقابات الفرنسية وكذلك من طرف نقابات جزائرية وهذه العقبات جعلت الاتحاد يقوم بمجهودات كبيرة لإثبات وجوده وإزاحة كل تلك العراقيل وهو ما نجح في تحقيقه في مدة وجيزة.

لقي الاتحاد العام للعمال الجزائريين تأييد ودعم نقابات شقيقة وعالمية مهدت له الطريق نحو المساهمة دوليا في إدخال الثورة التحريرية إلى المحافل العمالية العالمية.

1 - l'Action Tunisienne, 12/03/1956.

2 - Brancard Michel, op cit , p54.2

3 - IBID, p 54.3

4 - Weiss François, doctrine et action syndicale en Algérie , Paris , Cujas, 1970 , p38.4

وبالتالي فقد أسهم تأسيس الاتحاد العام للعمال الجزائريين في 24 فبراير 1956 بشكل فعال في إمداد الثورة التحريرية بإطارات نقابية كفؤة، كما جند الطبقة العمالية الجزائرية للانخراط في الثورة التحريرية وتقديم إسهاماتها في هذا الميدان أسوة ببقية مكونات المجتمع الجزائري، ومن جهة أخرى كان هذا الاتحاد أداة من أدوات الثورة استطاعت بواسطته كسب تأييد عمال العالم للقضية الجزائرية وإحراج فرنسا في المحافل النقابية العالمية التي كان لها في ذلك الوقت وزنها السياسي.



خروج سيف بن سلطان على أخيه الإمام بلعرب (1104 - 1105 هـ / 1692 - 1693 م)

د. إبراهيم بن يحيى
البوسعيدي
جامعة السلطان قابوس

د. موسى بن سالم بن حمد
البراشدي
وزارة التربية والتعليم - مسقط

لماخص :

تناول هذه الدراسة حادثة سياسية مهمة كان لها انعكاس على سير الأحداث التاريخية في عمان خلال القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي، وتتمثل تلك الحادثة في خروج سيف بن سلطان بن سيف اليعربي على أخيه الإمام بلعرب بن سلطان عام 1104 هـ / 1692 م مطالباً إياه بالتناحي عن الحكم، الأمر الذي دفعه إلى حصاره في حصن يبرين¹ حتى وفاته عام 1105 هـ / 1693 م .

كما وقفت الدراسة على الأسباب التي أدت إلى تلك الحادثة ومجريات الأحداث التي ترتبت عليها، إلى جانب النتائج والآثار التي خلفتها ، ولما كان نظام الإمامة مرتبطاً بأهل الحل والعقد من العلماء، فقد تطرقت الدراسة إلى موقف العلماء من هذه الحادثة فقد انقسموا إلى فريقين؛ الأول متمسك بإمامة بلعرب بن سلطان، والثاني المؤيد لأخيه سيف وبالتالي بايعه بالإمامة .



IJHSS

Abstract

This study discusses an important political event which had an impact on the course of the historical events in Oman in the 12 AH/ 18 AD century. This event occurred when Saif bin Sultan bin Saif Al- Ya'arubi rebelled against his brother the Imam Balarab to force him to step down. To achieve this aim, Saif sieged Balarab in Yabrin Fort till he passed away in 1105AH/1693AD.

This study also sheds light on the reasons that led to this conflict, the sequence incidents and results which emerged later. Since the backbone of Imamate political system is the Constitutional Body (Ahl alhal Wa Alaqd), the study talked about the stand taken by this body against what happened. The constitutional body was divided into two groups, one was the Imam and the other one was with Saif.

1 يعرف الحصن اليوم باسم جبرين، وهذا عائد إلى اختلاف نطق الاسم بين القبائل العمانية، بحيث تبدل الجيم ياء فالقبائل البدوية مثلاً تنطق بعض الكلمات التي تبدأ بحرف الجيم ياء.

المقدمة:

عندما يتناول المؤرخون العمانيون إمامة بلعرب بن سلطان بن سيف اليعربي (1090هـ-1105هـ/1680م-1693م) فإنهم يُشيرون إلى أنه بُوع بالإمامة في اليوم الذي تُوفي فيه أبوه (ابن رزيق، الصحيفة القحطانية، ج5، ص237؛ السالمي. التحفة، ج2، ص81)، وهو ما أشارت إليه بعض المصادر الفقهية أيضاً، حيث جاء فيها: "ومات الإمام سلطان بن سيف رحمه الله يوم الأربعاء وست عشرة ليلة خلت من شهر ذي القعدة سنة تسعين سنة وألف سنة من الهجرة¹، وعقدوا الإمامة للإمام بلعرب بن سلطان بن سيف بن مالك اليعربي رحمه الله في اليوم الذي مات فيه أبوه سلطان" (مؤلف مجهول. لقط الآثار المؤلف بصحار)، وهكذا لم ترد في تلك المصادر أية إشارة إلى العلماء الذين بايعوا بلعرب بن سلطان، ولا توضيح لمكان البيعة وعدد الحاضرين، ومما يزيد الأمر غموضاً الرأي الذي أورده المؤرخ ابن رزيق بقوله: ".. وقيل: بل عُقد له بعد موت أبيه بشهر، والله أعلم بالصواب" (الصحيفة: 237)، والتوقف عند هذه العبارة يدفع الباحث إلى نتيجة مفادها أن هناك احتمالية في عدم وجود توافق بين العلماء على إمامته، وهو الأمر الذي ساعد أخاه سيف على تحقيق طموحه في الحكم عندما خرج على أخيه المنتخب في سابقة خطيرة كانت لها تبعاتها على مجريات الأحداث السياسية فيما بعد، وشكّلت عندئذ أولى الأزمات السياسية التي شهدتها الساحة العمانية في ظل حكم أسرة اليعاربة.

بوع بلعرب بن سلطان بالإمامة في نزوى بعد وفاة والده يوم الثلاثاء 16 ذي القعدة 1090هـ/19 ديسمبر 1679م (السالمي. التحفة، ج2، ص81)، وفي الحقيقة بأن انتخاب بلعرب بن سلطان إماماً بعد وفاة والده لا يُشكل أي خرق للنظام السياسي الإباضي² في حد ذاته ولا سيما إذا ما انطبقت عليه شروط

1- يؤكد هذا التاريخ ما ذكره الشاعر الفزاري في ديوانه، حيث قال:

لقد دفن الإمام سليل سيف نهار الأربعاء فع الكلاما
لست ثم عشر من هواع وألف بعده تسعون عاما

وكلمة هواع تسمية جاهلية لشهر ذي القعدة؛ انظر: الفزاري، بشير بن عامر بن عبدالله. ديوان الفزاري، تح مهنا بن خلفان بن عثمان الخروصي، ط1، مكتب المستشار الخاص لجلالة السلطان للشؤون الدينية والتاريخية، مسقط: 1428هـ/2007م، ص308.

2- ذهب بعض الكتّاب إلى أن اختيار بلعرب خليفةً لوالده يُعد أول خرق دستوري للنظم التي توافق عليها علماء الإباضية، وذلك لأنهم لم يُقدموا أي تبرير مقنع لذلك الاختيار، ولم تكن ظروف دولة الإمامة تُعطيهم دافعاً منطقياً لذلك الاختيار، وذلك بعكس ترشيح الإمام سلطان خليفة للإمام ناصر بن مرشد، حيث كانت الأوضاع تتطلب اختيار رجل عسكري يستطيع استكمال عملية تحرير عمان من السيطرة البرتغالية؛ انظر: المحرزي، منصور بن ناصر. الدولة والمجتمع في عمان منذ النباهنة حتى العصر الحديث (1154-2012)، ط1، منتدى المعارف، بيروت: 2014، ص25-26.

الإمامة، خاصة أنه كان أحد علماء عصره¹، وهذا في حد ذاته له نظائر في تاريخ الإمامة الإباضية ليست في عمان² فحسب وإنما في بلاد المغرب أيضاً³.

عمل الإمام بلعرب على السير على نهج والده في مواجهة البرتغاليين (التوبي.المقاومة العمانية، ص269) ولاسيما في بداية عهده، إلا أنه بعد ذلك تراجع عن المواجهة العسكرية رغبة منه في النهوض بالشأن الداخلي لعمان، ولذلك ركّز على التعليم بعد النصيحة التي تلقاها من الشيخ عمر بن سعيد بن زكريا الجربي، فكانت النتيجة أن أنشأ مدرسة في قصره ببييرين أشرف عليها بنفسه، إضافة إلى تشجيعه على إنشاء المدارس في ربوع عمان (البراشدي.الحياة العلمية، ص127).

ازدهرت عمان في عهد الإمام بلعرب بن سلطان، ولاسيما في الجوانب العلمية والاقتصادية (الأزكوي.كشف الغمة، ج6، ص77)، إلا أن نهاية حكمه جاءت بسبب خروج أخيه سيف عليه مطالباً إياه بالتنحي عن الإمامة، الأمر الذي يطرح تساؤلات عدة تتمثل في ماهية الأسباب التي دفعت بسيف إلى الخروج على الإمام المنتخب، وتحديد موقف العلماء من تلك الحادثة، إضافة إلى النتائج المترتبة على ذلك الحدث التاريخي.

أولاً: الأسباب التي دفعت بسيف إلى الثورة على الإمام بلعرب:

تناولت المصادر التاريخية ثورة سيف على أخيه الإمام بلعرب بصورة مقتضبة جداً، حيث لا تُورد الأسباب التي أدت إلى ذلك، كما لا توجد أي إشارات إلى ما أخذ عدّها العلماء على الإمام بلعرب بن سلطان، بل إن أغلبها يُشير إلى عبارة "فلم تزل الرعية له شاكرة، ولفضله ذاكرة، وكان جواداً كريماً" (الأزكوي، تاريخ عمان: 112)، الأمر الذي يعكس سيرته الحسنة بين الناس.

ولم تكن قضية الخروج على الإمام ومطالبته بالاعتزال مغيبة في الفكر السياسي الإباضي ولاسيما بعد تعرض الإمامة لحادثة سابقة في القرن الثالث الهجري (الريامي، 2015: 86)، الأمر الذي فتح المجال للفقهاء والعلماء للمزيد من التنظير الفكري بشأنها ابتداءً منذ تلك الحقبة، كما إن المصادر الفقهية لفترة

1- ورد وصفه في بعض الكتب الفقهية بالشيخ العالم الزاهد، كما كان أديباً شاعراً تُشير إلى ذلك بعض كتب الأدب؛ انظر: المسكري. المنتور، الورقة 4/أ؛ الخصيبي، محمد بن راشد بن عزيز. الزمرد الفائق في الأدب الرائق، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط: 1408هـ/1987م، ج1، ص125.

2- الأمثلة من عمان مبايعة حفص بن راشد بالإمامة بعد وفاة والده الإمام راشد بن سعيد عام 445هـ/1053م، ومبايعة محمد بن خنبش بعد وفاة والده عام 510هـ/1116م، وكذلك مبايعة بركات بن محمد بعد وفاة والده محمد بن إسماعيل عام 942هـ/1536م؛ انظر: الأزكوي. الكشف، ج6، ص15-26.

3- من الأمثلة في بلاد المغرب تعاقب الأئمة على الدولة الرستمية حيث خلف عبدالوهاب بن عبدالرحمن والده عبدالرحمن بن رستم في الإمامة عام 171هـ/787م عندما كان أحد المرشحين السبعة من قبل والده، وأدى اختياره إلى خروج يزيد بن فندين اليفرني -أحد المرشحين السبعة- عليه، وأتى بعد وفاة الإمام عبدالوهاب عام 190هـ/508م ابنه أفلح بن عبد الوهّاب؛ انظر: الباروني، أبو الربيع سليمان. مختصر تاريخ الإباضية، د.ت، ص40-44.

الدراسة تتضمن بعضاً من الآراء حول هذا الموضوع نظراً لأهميته الدقيقة، ولذلك يقول الرقيشي: "اعلم حفظك الله أن عزل الأئمة من الأحداث التي يجوز فيها الحق والباطل، والهدي والضلال، والطاعة والمعصية" (مصباح الظلام: الورقة 34/أ)، وهذا يعني أن هذه المسألة ليست سهلة بحيث تترك للأقوى التسلط والقيام بتغيير النظام السياسي كيفما شاء ومتى شاء، وإنما لا بد لها من ضوابط ومعايير تنظمها. وبالنظر إلى موجبات عزل الإمام كما حددها الفقهاء التي تتمثل في وجود أسباب ظاهرة يستطيع من خلالها أهل الحل والعقد مواجهة الإمام وعزله مثل الأسباب الدينية أو الأخلاقية كإتيان معصية مصرأً عليها أو توجب الحد مثل القتل والزنا وغيرها¹، أو الأسباب الخلقية بسبب فقدان حاسة موجبة لبطلان الإمامة، مثل العمى أو الصمم أو الخرس² أو أسباب سياسية كأن يقع في أسر العدو³، أو أن يكون قد اعتزل بنفسه، على الرغم من أن العلماء لا يحبذون للإمام الاعتزال، وفي ذلك يقول الشقصي "ليس للإمام أن يخلع نفسه بغير حدث" (المنهج، ج 5:161)، فإن أياً من تلك الأسباب لم تكن ظاهرة لعزل الإمام بلعرب، كما إن هذا الأخير لم يعتزل الإمامة على الرغم من الرسائل التي وجهها إليه أخوه الثائر سيف لترك الإمامة، وبناءً على ذلك يجب البحث وسبر الأغوار وراء الدوافع والعوامل التي ساعدت سيف للخروج على أخيه، من خلال معرفة ظروف ذلك العصر، ليس على صعيد الجوانب السياسية للدولة في علاقاتها الخارجية فحسب، بل على المستوى الداخلي ولاسيما البحث في مؤسسة العلماء الموجودة آنذاك.

يتطلب البحث في الأسباب قراءة متأنية في المصادر المتاحة ولاسيما كتب الأدب، في ظل اكتفاء المصادر التاريخية بتناول الحدث التاريخي بشكل مقتضب كما تمت الإشارة إلى ذلك سابقاً، وعليه يمكن القول بأن هناك مجموعة من الأسباب أدت إلى تلك الحادثة أولها رغبة سيف بن سلطان في تولي الإمامة مستغلاً ضعف أهل الحل والعقد، ويبدو أن تلك الرغبة كانت دقيقة في نفسه منذ فترة ليست بالقصيرة، أما أهل الحل والعقد فلا تقدم المصادر المتوافرة معلومات كافية عنهم، كما أنها لا تُعطي تفصيلاً في كيفية انتخاب بلعرب بن سلطان إماماً، ولا مكان الانتخاب أو العلماء المبايعين، واستناداً إلى الرأي الذي طرحه ابن رزيق، فإن إمكانية بقاء عمان بلا إمام لمدة شهر مؤشراً على وجود منافسين للإمام المنتخب، ولا يُستبعد أن يكون المنافس هو أخوه سيف مستغلاً الدعم القبلي المعارض لإمامة أخيه بلعرب (Bathurst:189)، ويرى (مايلز. الخليج، ص 209) أن سبب الاختلاف بين الإمام بلعرب وأخيه سيف هو "الغيرة" دون أن يُعطي توضيحاً

1- يقول الكندي: "إذا كان ذنب الإمام مما يلزم حداً من حدود الله من قذف أو زنى أو لعان انخلعت إمامته في حال مواقفته له"؛ انظر: المصنف، ج 10 ص 217.

2- في هذا الإطار يقول الشيخ أطفيش: "وفي الأثر أنه يعزل الإمام إن صُم أو عمي أو خرس، إلا إن كان يسمع إذا نودي، أو يحضر له شيء فيبصره، أو يعرف الرمز، وإن جنّ ولا يفريق عزل، وإن كان يجنّ ويفيق لم يعزل، وإذا عزل لهذه الأحداث بقي على ولايته"؛ انظر: أطفيش. شرح النيل، ج 14، ص 343.

3- وهذا السبب فيه وجهان الأول زوال الإمامة تماماً بالأسر، والثاني زوال مؤقت حتى عودة الإمام؛ انظر: السالمي. الجوابات، ج 1، ص 549.

لذلك بل ذهب إلى أبعد من ذلك حين ذكر بأن الدولة انقسمت إلى معسكرين وأشار إلى مصطلح "الحرب الأهلية" وقال: "بدأ كل من المعسكرين ينعت الآخر بأحق الألقاب"، وفي النهاية تمكن سيف من الحصول على التأييد القبلي، وفي الحقيقة لم يصل الخلاف إلى قيام حرب أهلية وإلا لما تمكن الإمام سيف بعد ذلك من متابعة خطى والده في مطاردة البرتغاليين وتطوير البلاد، حيث اكتفى المؤرخون المعاصرون لتلك الأحداث (الأزكوي. الكشف، ج6، ص77؛ المعولي. القصص، ص243) بوصفها بمصطلح "الفتن"، وبعضهم (ابن رزيق. الفتح، ص257) قال: "فتن عظيمة"، بينما المؤرخ (السالمي. التحفة، ج2، ص105) قال: "وسبب ذلك أنه وقعت بين الإمام بلعرب وبين أخيه سيف بن سلطان ضغائن و انتشت بينهما فتن أثارها سيف على أخيه و افتتن بها كثير من الناس".

وبناءً على ما سبق يمكن القول بأن سيف بدأ يخطط منذ فترة للإطاحة بإمامة بلعرب مستفيداً من موقف بعض العلماء الذين لم يقدموا أسباباً مقنعة لعزل هذا الأخير من الإمامة كما تقتضي ذلك التقاليد الإمامية للإباضية، عدا ما ورد في سيرة الشيخ عبدالله بن محمد بن بشير إلى الإمام سيف التي ذكره فيها بإنكاره بعض التصرفات على عمال أخيه (ابن محمد، سيرة: الورقة 4/أ)، ولذلك تمكن من الانقلاب على الشرعية عن طريق الحصول على البيعة من علماء نزوى، في وقت ما يزال فيه الإمام بلعرب على قيد الحياة، وذلك أثناء الحروب بينهما (ابن رزيق. الصحيفة القحطانية، ج5، ص243)، فظهر الأمر كأنه صراع بين إمامين.

ومما ساعد على تفاقم الوضع وفاة الكثير من العلماء ممن يمثلون هيئة الحل والعقد في فترة الإمام بلعرب بن سلطان، الأمر الذي يعني فقدان الإمام للدعم الكبير الذي كان يتلقاه من هيئة العلماء، وهو ما استغله أخوه الثائر عليه، ومن هؤلاء العلماء الذين رثاهم الشاعر الفزاري مؤرخاً وفاتهم الشيخ الفقيه خلف بن أحمد بن عبدالله الرقيشي الأزكوي، حيث أشار الشاعر الفزاري إلى وفاته زمن الإمام بلعرب في آخر مرثيته (الفزاري. ديوان الفزاري المطبوع، ص291) فقال:

سليل سلطان الزاكي أبو العرب العدل الذي لم يشب أحكامه جنف
فأله نساله إبقاء دولته ما خُطَّ لام على القرطاس والقلم

ومن هؤلاء العلماء أيضاً الشيخ أحمد بن محمد بن أحمد الجعفري الأزكوي الذي توفي ضحى الخميس 29 صفر سنة 1091هـ/31 مارس 1680م، ومنهم أيضاً الشيخ الفصيح عبدالله بن عامر بن عبدالله العقري النزوي، وأخوه الشيخ الفقيه حبيب بن عامر بن عبدالله، وكذلك الشيخ الزاهد العالم أحمد بن خلف بن محمد الأدماني الأزكوي المتوفى في 17 من ذي الحجة سنة 1096هـ/14 نوفمبر 1685م، والشيخ الفقيه عامر بن أحمد بن خلف الأدماني المتوفى في 12 ذي الحجة سنة 1097هـ/30 أكتوبر 1686م (الفزاري. ديوان الفزاري المطبوع، ص291)، والشيخ راشد بن سعيد بن رجب الحارثي (البطاشي. الإتحاف، ج3، ص192)، والشيخ محمد بن سعيد بن سالم الفزاري المتوفى في أول أيام ربيع الأول سنة 1100هـ/24 ديسمبر 1688م، هذا بالإضافة إلى وفاة السيدة نصرى بنت الإمام ناصر وأرملة الإمام سلطان بن سيف في 27 شوال سنة 1103هـ/12 يوليو 1692م (الفزاري. ديوان الفزاري المخطوط، الورقة 63/أ).

ويرى الباحثان أن موت عدد من العلماء خلال تلك الحقبة من حكم الإمام بلعرب بن سلطان كان له أثر على تراجع دور العلماء في دعم شرعية الإمام المنتخب عند خروج أخيه سيف عليه، فكان ذلك مدعاة إلى أن يستخدم الكثير من العلماء التقية في مبايعة سيف بالإمامة حقناً للدماء وحفاظاً على وحدة المجتمع ولمّ شمل العمانيين.

ومن الجدير بالذكر بأن بعض الباحثين يُعلل خروج سيف على أخيه بلعرب بظهور الانقسامات بين العلماء عندما ساند بعضهم سيف بن سلطان في الثورة على أخيه الإمام بلعرب بحجة أن الإمام أراد مصالحة البرتغاليين¹، وإعطائهم مقرأً في مسقط² الأمر الذي رفضه سيف، واستغل الأخير فرصة خروج الإمام من نزوى فتمكن منها، وعندما رجع الإمام منع من دخولها فاتجه إلى قصر يبرين وهناك حاصره أخوه حتى توفي فيه (الحاج. العلاقات العمانية- العراقية، ص183)، ويتفق الباحث مع هذا الرأي فيما يتعلق بوجود انقسام بين العلماء بشأن إمامة بلعرب، إلا أن الحجة التي ساقها هؤلاء الباحثون لم تكن واضحة، وإلا لناقشها العلماء ضمن مؤلفاتهم الفقهية كونها مسألة وطنية، ولا بد أن تعرض على العلماء قبل اتخاذ القرار بشأنها، ومن ثم لم ترد مثل هذه الحجة عند المعارضين لبلعرب والمؤيدين لأخيه سيف.

كما كان نقل الإمام بلعرب بن سلطان مقر إقامته من نزوى إلى يبرين³ كفيلاً بتغيير ميزان القوى لصالح أخيه سيف الذي استغل فرصة خروجه من نزوى إلى الشمال، وهو ما اتضح في وقوف أهل نزوى مع سيف بن سلطان ومنعهم للإمام من دخول المدينة، التي تُعد العاصمة التقليدية للإمامة الإباضية منذ قيام الإمامة الثانية في عمان عام 177هـ/793م، وحتى الفترات اللاحقة حيث كان الأئمة يحرصون على إخضاعها لاتخاذها عاصمة لهم، فكان ذلك مدعاة لحصول سيف بن سلطان على البيعة، وهو ما أشار إليه المؤرخ (المعولي. القمص، ص243) بقوله: "فمنعه أهل نزوى من دخولها، فسار إلى يبرين، واجتمع أكثر أهل عمان، وعقدوا الإمامة لأخيه سيف بن سلطان"، وكان انتقال الإمام بلعرب إلى يبرين قد أدى إلى توجيه النقد إليه من قبل بعضهم، فانبرى لهم المدافعون عن الإمام بلعرب من أمثال الشاعر الفزاري الذي كتب

1- هذه التهمة أُلصقت بالإمام سلطان بن سيف قبل بلعرب، فابن الوزير يُشير إلى ذلك بقوله: "وفيه جاءت الأخبار أن صاحب عمان صالح الفرتقال-كذا- واستراح من شرهم واستقال"، وذلك عند حديثه عن أحداث 1083هـ؛ انظر: الوزير. طبق الحلوى، ج2، ص294.

2- يُشير بعض الباحثين إلى عقد معاهدة بين أنطونيو دي ميل ودي كاسترو (António de Melo de Castro) وبين الإمام بلعرب بن سلطان تضمنت هدنة لمدة ستة أشهر، واشتملت مقترحاً برتغالياً من بنود عدة، إلا أنها لم توضع موضع التنفيذ، وإنما كانت سبباً لإشعال المعارضة ضد الإمام من قبل أخيه سيف؛ انظر: Al-busaidi, Ibrahim Yahya Zahran, Oman e

Portugal (1650-1730) Politica e Econmia, Doutoramento em História, Universidade de Lisboa: 2010,

PP144-145.

3- يرى باثريست بأن نقل العاصمة إلى يبرين قد ساهم في زيادة الانفصال بين عاصمة الإمامة والتجارة الساحلية المزدهرة؛ انظر: Bathurst, op.cit, p180.

قصيدة¹ يرد فيها على من هجا الإمام بلعرب بن سلطان على سكونه يبرين وتركه نزوى (الفزاري. ديوان الفزاري المطبوع، ص 217-219)، وهذه إشارة واضحة إلى ما ذهب إليه الباحث من أهمية إيراد هذا السبب ضمن العوامل التي أدت إلى خروج سيف على أخيه الإمام.

وهناك أسباب تعود إلى مسائل مالية، فقد أثرت تساؤلات خطيرة بعد قيام الإمام بلعرب ببناء قصر يبرين؛ والمقصود بها التساؤل الذي أثير حول مصدر الأموال التي بُني بها القصر هل هي من بيت مال المسلمين؟ أم من المال الخاص للإمام بلعرب بن سلطان؟ ومن الملاحظ أن المؤرخين المعاصرين لفترة اليعاربة (الأزكوي. الكشف، ج 6، ص 77؛ المعولي. القصص، ص 242) لم يُشيروا إلى مصدر تلك الأموال بل اكتفوا بعبارة "وعمّر يبرين، وبني بها حصناً وانتقل من نزوى إليها"، أما المؤرخون المتأخرون فقد أكدوا بأن الإمام بلعرب بن قصر يبرين من ماله الخاص، وفي ذلك يقول عنه (ابن رزيق. الشعاع، ص 259): "أنه ما اقترض لبنائه حصن يبرين فلساً ولا درهماً"، بينما يصفه (السالمي. التحفة، ج 2، ص 97) بقوله: "وكان من أعاجيب الزمان، وقد بناه من صلب ماله على ما قيل لأن الأموال قد كثرت في أيامه، وأيام والده قبله حتى كادت أن تفيض البيضاء والصفراء من أيدي الناس".

أما المؤرخ السيايبي فيرى بأن الحصن بناه بلعرب بن سلطان قبل توليه الإمامة، حيث قال: "فتم بناؤه قبل وفاة والده بسنتين، وإنه ليعبر عن غنى هائل في عمان في ذلك الوقت، إذ بناه بملايين الملايين كما قيل، وخرّن فيه لطوارئ الدهر مثل ما بناه به، وكان آية في روعة الصنعة، بحيث أصبح يُضرب به المثل" (عمان عبر التاريخ، ج 4، ص 247)، ويؤيد ما أورده السيايبي تاريخ بناء هذا القصر كما ورد في أبيات شعرية نُقشت على أحد جدرانها وتؤرخ ببناءه بعام 1089هـ/1678م (بلديسيرا. قصر جبرين وكتابات، ص 79).

ولم تكن قضية الأموال التي بُني بها قصر يبرين الأولى من نوعها في ظل امتلاك الإمام بلعرب للأموال، وإنما كانت هناك محاولات واضحة من قبل العلماء لتمييز الأموال الخاصة للإمام عن أموال بيت المال كما يتضح ذلك من المسائل التي أوردها (المسكري. المنثور، الورقة 4/أ) حول استعمال المراحل التي التبس أمرهن، وقد اتضح أمرها أنهن لبيت مال المسلمين وللشيخ العالم الزاهد بلعرب بن سلطان بن سيف فقال: "ولم يستقبض منا قعدهن إمام المسلمين رحمه الله أيجوز لنا استعمالهن ونحفظ قعدهن لأنهن أمانة تحت أيدينا أم نتركهن من غير استعمال وقد جاءتنا بروة من سيدنا إمام المسلمين بتسهيل مرجل من بيت المال لوالي مقنيات وقد سلمنا منهن مرجلاً على الاطمئنان أنه لبيت مال المسلمين... الخ"، وكذلك التمر الذي لم يتمكن العامل من تمييزه هل هو لبيت مال المسلمين أو للشيخ بلعرب بن سلطان (المسكري. المنثور، الورقة 8/أ)، وهكذا يبدو بأن قضية تلك الأموال كانت تشغل الرأي العام في ذلك الوقت، وربما استغلها سيف ذريعةً للثورة على أخيه الإمام المنتخب.

1- انظر القصيدة ضمن الملاحق.

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن سبب خروج سيف على أخيه الإمام بلعرب بن سلطان سنة 1104هـ/1692م هو اهتمام الأخير بالسياسة الداخلية، ولاسيما ما يتعلق بالتعليم أكثر من اهتمامه بالسياسة الخارجية في وقت تتنافس فيه القوى الخارجية وتتصارع لبسط السيطرة على مناطق في الخليج العربي والمحيط الهندي (السديس. العمانيون والجهاد، ص306)، وهو رأي يحتاج إلى المزيد من التمحيص، إذ لا يمكن أن تزدهر الدولة خارجياً ما لم يصاحب ذلك اهتماماً بالسياسة الداخلية ولاسيما التعليم الذي يُعد الأساس في إيجاد روافد ثقافية تنهض بالوطن (البراشدي. الحياة العلمية، ص49)، وهو ما قام به الإمام بلعرب عندما أمر بفتح المدارس في ربوع عمان كافة إلى جانب ما تقدمه المساجد كونها مراكز هداية ومنارات علم (الصقلاوي. شعراء عمانيون، ص133)، وهذا ينافي ما ذهب إليه بعض الباحثين (مصطفى. موسوعة العالم الإسلامي، ج3، ص1753) من أن الإمام بلعرب "لم يحقق سوى بناء قلعة جبرين"، حيث لم تكن يبرين¹ مجرد قلعة وإنما ضمت في جنباتها مدرسة قدمت دوراً مهماً سواءً كان على المستوى الداخلي حتى وصفها بعض الكتاب بـ"كلية الدراسات (بادجر. مقدمة كتاب تاريخ الأئمة والسادة، ص21)، أم على المستوى الخارجي لكونها وثقت علاقة عمان ببلدان العالم الإسلامي ولاسيما بلاد المغرب² من خلال استقبالها لطلبة العلم من جميع المذاهب (السيابي. العنوان، ص274).

ومن خلال الأسباب السابقة التي أدت بصورة متكاملة مع بعضها بعضاً إلى نشوب الخلاف بين الأخوين، يمكن التفسير بأن ذلك الخلاف لم يولد فجأة وإنما كانت له مقدماته التي بدأت منذ تولي الإمام بلعرب بن سلطان الإمامة في عمان، وتبلور بشكل واضح وجلي بثورة أخيه سيف عليه مطالباً إياه بالاعتزال والتنحي عن الإمامة في صورة دفعت ببعض الباحثين إلى تشبيهها بخروج حسام بن سليمان النهياني على أخيه الملك سليمان (الأغبري. البرتغاليون، ص104)، مع فارق التوقيت ونظام الحكم إلى جانب ردة الفعل من الحاكم، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى العوامل التي رجحت كفة سيف بن سلطان على أخيه بلعرب.

1- يُحدّد الباحث ذكرها باسمها الحقيقي بناءً على السياق التاريخي استناداً إلى ما ذكره ابن رزيق: "والعامّة تُسمي يبرين جبرين بالجيم، والصواب أنها يبرين بالياء والباء والراء والياء والنون"; انظر: ابن رزيق. الشعاع، ص259.

2- نشأ التواصل الثقافي بين عمان وبلاد المغرب منذ العصور الإسلامية الأولى حيث مثلت عمان منار الإشعاع الثقافي وقبلة العلماء وموطن العلم الذي شبهه العلماء بطائر "طار من المدينة وفرخ بالبصرة وطار إلى عمان"، ولذلك أقبل المغاربة على علماء عمان رغم بعد المسافة ومشقة الطريق، كما حرص علماء المغرب على اقتناء كتب علماء عمان، ففي عهد اليعاربة أرسل الشيخ عبدالعزيز الثميني الميزابي الجزائري (1130-1223هـ) لشراء الكتب النفيسة من عمان وجربة وغيرها، وفي المقابل استفاد علماء عمان من كتب المغاربة؛ يشير إلى ذلك اعتماد الشيخ خلف بن أحمد الرقيشي في تأليف كتابه "مصباح الظلام في شرح دعائم الإسلام" على كتاب "شفاء الحائم في شرح بعض الدعائم" للشيخ أبي القاسم بن إبراهيم البرادي النفوسي؛ انظر: بوتشيش، إبراهيم القادري. التواصل الحضاري بين عمان وبلاد المغرب، ط1، جامعة السلطان قابوس، مسقط: 2000م، ص14؛ بوحجام، محمد بن قاسم ناصر. التواصل الثقافي بين عمان والجزائر، ط1، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، السيب: 1423هـ/2003م، ص50؛ الرقيشي. مصباح الظلام، الورقة 5/أ.

ثانياً: حصار الإمام بلعرب في يبرين :

تشح المصادر التاريخية عن تقديم تفاصيل دقيقة تتعلق بهذه القضية، فعلى سبيل المثال لا نجد بها تاريخاً محدداً لثورة سيف بن سلطان على أخيه الإمام بلعرب، ولا مدة الحصار، فضلاً عن معرفة عدد الجيش المحاصر أو عدد الموجودين داخل القصر المحاصر، وهذا يعني اللجوء إلى المصادر الأخرى المتمثلة في كتب الأدب ولاسيما تلك المعاصرة للأحداث وفي مقدمتها ديوان الحبسي الذي أرنَّ وفاة الإمام بلعرب بن سلطان بتاريخ 1105هـ/1694م (الحبسي. الديوان المطبوع، ص513)، وبذلك فهو يُخالف ما ذهب إليه المؤرخون¹، ولعل التاريخ الذي أورده المؤرخون مرتبط بمحاصرة سيف لقصر يبرين الذي كان يتحصن فيه الإمام بلعرب، ويُؤيد ذلك الرسالة التي وجهها الإمام سيف لأخيه المحاصر الإمام بلعرب المؤرخة بتاريخ الثلاثاء 30 من رجب 1104هـ/6 إبريل 1693م (البطاشي. الإتحاف، ج3، ص406).

كما يوجد نقش أثري بنجد المخاريم بولاية بهلاء يُشير بوضوح إلى أن الصراع بين الأخوين استمر حتى عام 1105هـ/1694م، حيث ورد به ما نصه (انظر الملاحق): "سنة خمس سنين ومائة سنة وألف سنة وقع الخلاف والحرب بين بلعرب وسيف ابني سلطان بن سيف بن مالك كتبه مداد بن محمد بن راشد الغافري² بيده"، هذا إلى جانب الوثيقة التي أشار إليها (الشيبياني. أمالي التراث، ص265) المتضمنة تقييد تواريخ وفيات أئمة اليعاربة، وفيها ورد ما نصه: "توفي سيدنا ومقباسنا إمام المسلمين بلعرب بن سلطان بن سيف بن مالك بن بلعرب بن سلطان اليعربي في قصر يبرين بناحية قرية المحروسة من الأوقات بهلاليلة الأثنين و22 من شهر شعبان من شهر سنة 1105هـ"³، وهذا يعني بأن الحرب ما زالت مستمرة في تلك السنة وهي التي توفي فيها الإمام بلعرب كما ذكر الشاعر الحبسي.

وعندما يعبر المؤرخون عن ذلك فإنهم يوجزون الحدث في عبارة "ثم وقعت بينه - أي بلعرب - وبين أخيه سيف فتن، وأصاب كثيراً من أهل عمان من فقهاءهم ومشايخهم أهل ورع وزهد وعلم عقوبات كثيرة، أدت إلى تلف نفوسهم من اتباع السفهاء واقتفائه آراءهم وقبول كلمتهم" (الأزكوي. الكشف، ج6، ص77؛ المعولي. القصص، ص243)، ومن خلال هذه العبارة نستنتج أن أكثر فئات المجتمع تضرراً هم العلماء

1- يتفق المؤرخان السالمي والسيابي على أن وفاة الإمام بلعرب كانت في سنة 1104هـ، في حين يذهب ابن رزيق إلى أن وفاته

كانت في عام 1100هـ وهو رأي بعيد عن الحقيقة إذ إن الحصار يُؤرخ بسنة 1104هـ، وعليه فإن الباحث يُرجح ما ذكره

الحبسي لاسيما أنه معاصر للحدث التاريخي، وكان شاهد عيان عليه إذ إنه خرج من قصر يبرين أيام الحصار؛ انظر: ابن رزيق. الصحيفة القحطانية، ج5، ص242؛ السالمي. التحفة، ج2، ص104؛ السيابي. عمان عبر التاريخ، ج3، ص256.

2- أديب وشاعر وناسخ من مؤلفاته "الأشعار الرائقة والأخبار الفائقة" وكتاب "أخبار ومواعظ"، كما إنه نسخ مخطوط "منهاج العدل" سنة 1122هـ للشيخ سالم بن خميس بن عمر العبري؛ انظر: الجهلوي، عمر بن سعيد. منهاج العدل، مكتبة

السيد محمد بن أحمد البوسعيدي، السيب: مخطوط رقم 686، ج7، الورقة 138/أ؛ البراشدي. الحياة العلمية، ص183.

3- يُوافق 18 إبريل 1694م.

لكونهم الرقباء على مؤسسة الإمامة، وفي المقابل فهي تؤكد بوضوح أن دور العامة قد بدأ ينمو على حساب دور العلماء الذي بدأ هو الآخر في التراجع من خلال الإذعان لرأي زعماء القبائل.

وهكذا بدأت أحداث هذه القضية السياسية بوقوع "الفتن" كما ذكر المؤرخون دون الخوض في تفاصيل لهذا المصطلح، والأسباب المؤدية إليه، إلا أن الأحداث تُشير إلى محاولة سيف بن سلطان الانقلاب على شرعية أخيه بلعرب في الإمامة مستغلاً خروج هذا الأخير من نزوى متجهاً إلى الشمال¹، وذلك من خلال مساندة قبائل نزوى له، إذ كان لا يمكنه الاستيلاء عليها دون دعم من أهلها ولاسيما أن المصادر لا تُشير إلى وجود مقاومة لحركته، بل إن عبارة المؤرخين (الأزكوي. تاريخ عمان، ص 111؛ مؤلف مجهول. تاريخ أهل عمان، ص 147) عند حديثهم عن عودة بلعرب من الشمال إلى نزوى وقولهم: "فمنعه أهل نزوى من دخولها" تؤكد الدور التزواني في نجاح حركة سيف ضد أخيه الإمام بلعرب، خاصة أنه نجح في الحصول على البيعة بالإمامة في وقت ما يزال الإمام السابق متمسكاً بإمامته ولم يصدر أي إعلان من قبل أهل الحل والعقد بعزله منها عدا ما أورده بعض العلماء بعد وفاة الإمام بلعرب بأن إمامته إمامة دفاع، ومن ثم فللمسلمين عزله متى رأوا ذلك (البطاشي. الإتحاف، ج 3، ص 405).

بعد عجز الإمام بلعرب عن دخول نزوى العاصمة انسحب إلى يبرين حيث يوجد قصره بها، الأمر الذي دفع أخاه سيف إلى الخروج من نزوى بمعية القبائل المساندة له والتوجه بها إلى مناطق عمان حتى تمكن من السيطرة على حصونها كافة، وبعد ذلك توجه إلى يبرين لمحاصرة الإمام في قصره، وهذا يُشكل الحلقة الأهم في قضية ثورة سيف على أخيه الإمام بلعرب، حيث استمر الحصار لفترة طويلة²، أبدى خلالها بعض العلماء موقفاً واضحاً من تلك القضية مما شكل ضغطاً على الإمام الجديد على الرغم من تقليل هذا الأخير من أهمية ذلك الموقف.

ومن خلال فترة الحصار يلاحظ أن ميزان القوى قد بدأ في ترجيح كفة سيف على حساب أخيه الذي أصبح عاجزاً عن المواجهة بسبب قوة الأول ولاسيما من الناحية العددية³ خاصة أن القبائل العمانية قد انضوت تحت لوائه بعد سيطرته على المناطق كافة، وهكذا بقي الإمام المحاصر معتمداً على مخازن قصر يبرين الذي أصبح ثكنة عسكرية بعد أن كان يضم في جنباته مدرسة احتضنت العلماء والمتعلمين، فكان

1- يُقصد شمال عمان وهذا يعني أرض السر "الظاهرة" وأرض الجو "البريمي وما حولها".

2- يُشير إلى ذلك ما ورد في إحدى الرسائل التي وجهها الإمام سيف إلى أخيه الإمام بلعرب أثناء الحصار وجاء فيها قوله: "وقد طال -يا أخي بلعرب- منك وعليك من المعالجة العظيمة": انظر: البطاشي. الإتحاف، ج 3، ص 405.

3- وصف ابن رزيق المشهد بقوله: "ثم إن سيف بن سلطان جمع جيشاً عظيماً، وبلعرب يومئذ بحصن يبرين، فحصره حصراً شديداً"; انظر: ابن رزيق. الفتح، ص 258.

من الطبيعي أن يُغادر هؤلاء القصر كما فعل الشاعر الحبسي¹ والحالة تنطبق على غيره من طلبة المدرسة، ولا يُشير المؤرخون إلى وجود مواجهة حقيقية بين الأخوين على مشارف قصر بيرين - عدا المناوشات- وهي نتيجة طبيعية ترتبت على اقتراب جيش سيف من قصر بيرين، مما استلزم من المدافعين حماية القصر وعدم السماح للمهاجمين التقدم ناحيته، وهو ما أدى إلى مقتل عدد من الجنود التابعين لسيف (السالمي. التحفة، ج2، ص103).

ومن الجدير بالذكر أن تعامل الإمام سيف مع الموقف يدل على حكمته حتى لا يفقد النجاح الذي حققه حتى تلك اللحظة، ولذلك اكتفى بمخاطبة أخيه المُحاصر من خلال توجيه رسائل عدة إليه حملت في طياتها ترغيباً² وترهيباً³، وذلك بهدف الخروج من القصر والاعتراف بإمامته، وقد كان بإمكانه اعتماداً على قوته العسكرية إنهاء الحصار بالهجوم على القصر ومعاقبة من فيه ولاسيما أن الإمام بلعرب لم يكن قادراً على المواجهة، وهو ما اتضح في إحدى رسائل أخيه إليه عندما خاطبه بقوله: "ولو كان يجوز حربنا، فأنت غير قادر عليه" (البطاشي. الإتحاف، ج3، ص343)، إذ لم يبق معه غير أهل بيرين الذين حاول الإمام سيف استمالتهم كما يتضح من إحدى رسائله التي وجهها إليهم، وخاطبهم بقوله: "وإن كنتم أيها الرجال الذين بقرية بيرين غير باغين، فاتونا بأنفسكم مطيعين لله ولرسوله، ولنا في طاعة الله، وإن كنتم كما كتبنا، وكما أردناه إلى يوم الخميس وثاني من شهر شعبان من سنتنا هذه، فليحق ببيرين ومن فيها ما يُقدره الله" (البطاشي. الإتحاف، ج3، ص405)، ومن خلال ذلك الخطاب يتضح أن هناك مهلة حُددت لإنهاء فترة الحصار والهجوم على بيرين مدتها ثمان وأربعين ساعة، وهي مدة كفيلة بخروج أهل القرية منها وتسليم القصر وخروج الإمام المُحاصر، إلا أن المصادر التاريخية لا تُورد تاريخ الحصار، ويتضح من خلال المراسلات بأن مدة الحصار كانت أطول من المهلة التي حددها سيف لأخيه الإمام بلعرب.

أما موقف الإمام بلعرب فقد ظل هو الآخر متمسكاً بإمامته على الرغم من تخلي الرعية عن مناصرته، وانضوائهم تحت إمرة أخيه، وقد عبّر ابن رزيق عن تلك الحالة من الخذلان بقوله⁴: "وقال من كان له محباً: إن بلعرب قد صار بلى العرب" (ابن رزيق. الصحيفة القحطانية، ج5، ص241)، وهذه إشارة واضحة إلى فقدان الإمام بلعرب للتأييد القبلي مدعوماً بتأييد من بعض العلماء، إلا أنه على الرغم من ذلك الموقف

1- أشار الشاعر الحبسي إلى ذلك في ديوانه فقال: "خروجي من حصن بيرين أيام محاربة الإمام بلعرب بن سلطان وأخيه، وأنا ذلك اليوم ابن سبع عشرة سنة"؛ انظر: الحبسي، راشد بن خميس. ديوان الحبسي، مكتبة السيد محمد بن أحمد البوسعيدي، السيب: مخطوط رقم 94، الورقة 54.

2- تمثل الترغيب في قول سيف لأخيه بلعرب: "وإن أتيتنا بجميع الرجال والأحرار بقرية بيرين ونواحيها، فلعل الله ييسر لك أمراً"؛ انظر: البطاشي. الإتحاف، ج3، ص405.

3- من ضمن عبارات التهيب والتهديد قوله: "احذر يا أخي كل الحذر عن زيادة ما يسوئك ومخافة أمرنا ما أمكن"؛ انظر: المرجع السابق. ج3، ص406.

4- ابن رزيق. الصحيفة القحطانية، ج5، ص241.

القبلي وما رافقه من رسائل وُجِّهت إليه من قبل أخيه سيف فإنه لم يتنازل عن موقفه، بل بقي في قصره حتى وفاته عام 1105هـ/1693م¹.

ثالثاً: موقف العلماء من القضية

شكلت قضية ثورة سيف على أخيه الإمام بلعرب مؤشراً خطيراً على تدهور دولة اليعاربة بسبب انتهاك سيف بن سلطان لصلاحيات العلماء في قضية تنصيب الإمام وعزله، وهو ما يُعد خروجاً عن تقاليد الإمامة الإباضية؛ حيث سعى إلى أخذ البيعة بالقوة من العلماء في وقت كان الإمام بلعرب على قيد الحياة وباقيها في منصب الإمامة لعدم وجود مبررات لعزله من الإمامة بدليل تمسك بعض العلماء بإمامته حتى وفاته مع نظرتهم إلى سيف بأنه "باغٍ على أخيه" (الأزكوي، الكشف، ج6، ص78؛ ابن رزيق، الشعاع، ص270).

وعلى الرغم من استخدام سيف القوة للحصول على البيعة، وبناءً على الطرح السابق، يمكننا القول بأن موقف العلماء تجاه هذه القضية قد تباين ما بين مؤيد لموقف سيف وهؤلاء هم الذين بايعوه بالإمامة، إذ لا يمكنه الحصول أن يُنصَّبَ إماماً إلا بموافقتهم، ومن ثم فقد بويع بالإمامة في نزوى العاصمة، ووقف معه أهل نزوى، ولذلك لم يسمحوا لأخيه الإمام بدخولها، وأصبحت عمان تتنازعها إمامتان، وهو ما يُعد مخالفة صريحة لنظرية الفكر السياسي ليس عند الإباضية فحسب وإنما عند أغلب المذاهب الإسلامية التي لا تُجيز وجود إمامتين في المصر الواحد ما لم يفصل بينهما عدو أو مسافة بعيدة لا يستطيع الواحد منهم إدارتها بنفسه.

ومن أمثلة العلماء الذين أيدوا عزل الإمام بلعرب ومبايعة أخيه سيف الشيخ علي بن مسعود بن محمد المحمودي²، كما يتضح من جوابه عندما سئل عن إمامة سيف بن سلطان بن سيف اليعربي، فقال³: "فألذي عندنا وما نحن عليه مما حفظناه وعايناه ممن حضر عزل الشيخ بلعرب بن سلطان، وعقدهم الإمامة لأخيه سيف بن سلطان (رحمه الله)، مع اتفاق منهم في ذلك، والتراضي به إماماً للمسلمين، بعد عزل أخيه من الإمامة، ولأن للمسلمين عزل إمام الدفاع - طائعاً أو كارهاً - إذا أرادوا ذلك، ولو كان عزله على غير فعل منه، مما يُخرجه من الإمامة، وجائز عندي أن يقبض الإمام سيف بن سلطان زكاته، والانقياد لأمره فيما له على رعيته، إذا لم يصح عليه شيء يُخرجه من الإمامة عند المسلمين، والله أعلم" (البطاشي، الإتحاف، ج3، ص405)، ومن خلال الجواب يتضح رأي الشيخ المحمودي حيث أطلق لفظة "الشيخ" بدل

1- حدد البطاشي وفاة الإمام بلعرب بتاريخ يوم الأحد 22 من شعبان سنة 1104هـ/28 إبريل 1693م، مع الأخذ في الاعتبار بأن التاريخ المذكور لا يوافق يوم الأحد، وبالتالي فإن الوثيقة التي توصل إليها الباحث الشيباني أقرب للدقة وهي التي تؤرخ الوفاة بتاريخ 22 شعبان 1105هـ؛ انظر: البطاشي، الإتحاف، ج3، ص163؛ الشيباني، أمالي التراث، ص265.

2- توفي عام 1114هـ/1702م؛ انظر: المعولي، محمد بن عبدالله بن سالم. ديوان المعولي، تح الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط: 1412هـ/1992م، ص136.

3- البطاشي، الإتحاف، ج3، ص405.

"الإمام" على بلعرب، كما إن الحجة التي أوردها كون الإمام بلعرب يُمثل إمام دفاع¹ من وجهة نظره، وهذا يُؤيد ما ذهب إليه الباحثان سابقاً بشأن وجود اختلاف بين العلماء حولبيعة الإمام بلعرب منذ البداية، إذ لم يذكر المؤرخون أنه قد بُوع على الدفاع، كما إن الأوضاع في زمن والده قد استقرت سياسياً واقتصادياً وعندئذ لم يكن هناك أمر يتطلب انتخاب إمام على الدفاع وفقاً لمسالك الدين عند الإباضية. أما القسم الثاني من العلماء فهم أولئك الذين مثلوا الأغلبية كما أشار إليهم المؤرخون (الأزكوي. الكشف، ج6، ص77؛ المعولي. القصص، ص243) بقولهم: "وأحسب أن الأكثر دخل في الأمر تقيه، وأحسب أن بعضاً عوقب بتركه الدخول في العقد"، أي أن هؤلاء أُجبروا على مبايعة الإمام سيف، دون أن يُحدد المؤرخون نوعية العقوبة التي تعرض لها هؤلاء العلماء، فيذكر (السالمي. التحفة، ج2، ص103) ذلك بقوله: "وكتير من أهل عمان دخل في البيعة تقيه لأن سيفاً عاقبهم على عدم الرضا بإمامته" دون أن يُعطي تفصيلاً لتلك العقوبات، إلا أنهم كانوا يرون إمامة بلعرب صحيحة وسيفا باغيا عليه (البطاشي. سلاسل الذهب، ج10، ص446).

وهناك من العلماء من بقي متمسكاً بإمامة بلعرب بن سلطان من أمثال الشيخ محمد بن عبدالله بن جمعة بن عبيدان والشيخة عائشة بنت راشد بن خصيب الريامية التي كان لها موقف من قضية خروج سيف بن سلطان على أخيه الإمام بلعرب ومحاصرته له في قصره ببيرين عام 1104هـ/1692م حيث أصدرت فتوى تضمنت موقفها ذلك (المسكري. الإمام والصراع، ص59)، ورفضت مبايعة سيف بالإمامة واشترطت عليه الخروج من بيت الإمارة، وأن يترك الحكم ويمكث في بيته حتى ينظر في أمر بيعته، فما كان منه إلا أن رضخ لطلبها فرجع إلى بيته ومكث هناك يومين فأرسلت إليه، فلما حضر عندها ناقشته في أمر خروجه على أخيه، ثم بايعته على الجهاد والعمل الصالح (البطاشي. الإتحاف، ج3، ص343؛ الشقصية. السيرة الزكية، ص137؛ الطائي. دراسات عن الخليج، ص334).

أما الشيخ ابن عبيدان فقد كان موقفه واضحاً من إمامة سيف وتمسكه بإمامة بلعرب، ويُعد موقفه ذا أهمية لمكانته العلمية من ناحية، ولقربه من الإمام بلعرب من ناحية أخرى، حيث كان أحد مدرسي مدرسة بيرين وكان على اتصال دائم بالإمام (البراشدي. الحياة العلمية، ص126)، الأمر الذي يعني درايته التامة به إذا كانت هناك من موجبات لعزله من الإمامة، وهو ما لم يذكره أحد من العلماء، وقد تبلور موقفه في فتوى خطية كما يظهر من رسالة الإمام سيف إلى أخيه بلعرب أثناء فترة الحصار، التي جاء فيها (البطاشي. الإتحاف، ج3، ص406): "بسم الله الرحمن الرحيم، من إمام المسلمين سيف بن سلطان بن سيف إلى الشيخ بلعرب بن سلطان -سلمك الله- كتابك وصلنا وفهمنا معناه (...). ولا يغرك خط ابن

1- يتم انتخاب إمام الدفاع عندما يُداهم المسلمين خطر فتكون مهمته جمع الشمل وتوحيد الصفوف والتقدم إلى ساحة المعركة، ولا يشترط فيه توفر كل الشروط المطلوبة في الإمام، ولذا فإنه في حالة انتصاره يُنظر في أمر إمامته إما أن يبقى أو يُطلب منه الاعتزال وفي حالة الرفض يواجه بالطرد أو العزل؛ انظر: السالمي، محمد؛ وناجي عساف. عمان تاريخ.. يتكلم، المؤلفان، د.م: 1383هـ/1963م، ص127-128.

عبيدان، ولا فتوى المرأة العمياء، ولو كان تجوز حربنا فأنت غير قادر عليه، وأنت على خطر إن لم تسرع الإجابة..".

ومن خلال الرسالة السابقة يتضح منطلق القوة عند الإمام سيف حيث تسمى بالإمام وأطلق على أخيه لفظة "الشيخ"، وفي الوقت ذاته قلل من أهمية موقف الشيخ ابن عبيدان والشيخة عائشة الريمية وكلاهما كان أعى على الرغم من استعماله لفظة "خط¹ ابن عبيدان" لرجل لا يخط بنفسه وإنما تكتب فتاواه من قبل طلابه، أما الشيخة عائشة فوصفها بـ"المرأة العمياء" للتقليل من أهمية فتاوها، وختم خطابه بتحذير أخيه من مغبة الحرب وتهديده بالخطر المحدق به.

ولم يكن ابن عبيدان والريمية وحدهما ممن ظل متمسكاً بإمامة بلعرب²، إلا أنهما كانا واضحين وامتلكا الجرأة في إصدار الفتوى بشأن القضية، فهناك كان الشاعر بشير بن عامر الفزاري كما يُشير إليه البطاشي بأنه كان من المعارضين لإمامة سيف، على الرغم من وجود مدائح له في ديوانه، إلا أنه رجح أن تكون تلك المدائح قبل توليه الإمامة (البطاشي، الإتحاف، ج3، ص76-77).

ومن الجدير بالذكر أن هذه القضية على الرغم من خطورتها إلا أن أبعادها المباشرة اقتصر على فترة الصراع بين الأخوين، وبعد وفاة الإمام بلعرب عالج العلماء القضية باستتابته من خروجه على الإمام الشرعي وتجديد عقد البيعة له (البطاشي، سلاسل الذهب، ج10، ص447) وهو ما أشار إليه المؤرخ السالمي نقلاً عن الشيخ محمد بن مسعود قوله (السالمي، التحفة، ج2، ص105) "أن العلماء جلسوا يوماً في مجلس يتذكرون إمامة قيد الأرض فقاموا على أنه صحيح الإمامة"، ثم علق السالمي على ذلك بقوله (السالمي، التحفة، ج2، ص105): "ولعل ذلك كان بعد تنويبه من خروجه وتجديد العقد عليه بعد موت أخيه، وإلا فالعقد الأول غير صحيح والخروج غير جائز.."، وهذه الحادثة تؤكد استمرارية العلماء في تداولها لفترة طويلة من الزمن، كما إن تعليق المؤرخ السالمي يُشير إلى حصول بيعة أخرى للإمام سيف بن سلطان، وذلك بعد إعلان التوبة من خروجه على الإمام المنتخب، وهو ما يؤكد موقف الشيخة عائشة الريمية الذي تم ذكره سابقاً، وهذا يعني أن البيعة الأولى كانت منقوصة كما يراها بعض الكتاب، معللين ذلك برفض العلماء لها من ناحية، واعتمادها على بعض القبائل المنحازة له من ناحية أخرى (المحرزي، الدولة والمجتمع، ص26).

وفي الوقت الذي وقف فيه الشيخ ابن عبيدان والشيخة عائشة الريمية موقفاً معلناً من طريقة انتزاع الإمامة من الإمام بلعرب، فلا شك أن هناك علماء آخرين كانت لهم مواقفهم من هذه القضية، إلا أنه نتيجة لعزوف المؤرخين عن تناول هذه القضية فقد فقدت تلك المواقف وأصحابها، ومن خلال استقراء بعض الكتابات يمكن القول بوجود علماء اندمجوا مباشرة في دولة الإمام سيف لمصلحة رأوها في تلك

1- كلمة "خط" تُستخدم عند العمانيين مرادفة لكلمة "رسالة".

2- يُشير السالمي إلى ذلك بقوله "كان كثير من أهل عمان المشهورين بالعلم متمسكين بإمامة بلعرب، ويرون أن أخاه سيفاً باغٍ عليه"؛ انظر: السالمي، التحفة، ج2، ص104.

الفترة سواء قبل استنابته أم بعدها، ومن أمثال هؤلاء الشاعر العلامة محمد بن عبدالله بن سالم المعولي الذي كتب الكثير من القصائد في مدح أئمة اليعاربة ومن ضمنهم الإمامين بلعرب وسيف، إلا أنه على الرغم من ذلك سرعان ما اعترف بإمامة سيف وذلك سنة 1104هـ/1692م¹، ومنهم أولئك الذين عملوا قضاة وولاة في دولته من أمثال الشيخ محمد بن يوسف بن طالب العبدي، والشيخ خلف بن سنان الغافري، ومحمد بن علي البحراني، وعبدالله بن محمد بن بشير المدادي الناعبي، وأحمد بن محمد البوسعيدي، ويتضح ذلك من الحكم الذي أصدره بشأن الكتابة في فلج العينين من الظاهرة، المؤرخ بتاريخ الخميس 10 من ربيع الأول 1109هـ/19 أكتوبر 1695م (البطاشي. الإيقاظ، ص156)، ويبقى التساؤل المطروح ما موقف العلماء الذين تخرجوا من مدرسة يبرين من أمثال الشاعر راشد بن خميس الحبسي، والشيخ ناصر بن عيسى بن عمر الرحبي من ثورة سيف على أخيه الإمام بلعرب؟!

ففي الوقت الذي لا نجد فيه ذكراً لموقف الشيخ ناصر بن عيسى الرحبي من ثورة سيف على الإمام بلعرب، فإن الشاعر الحبسي يُشير إلى خروجه من يبرين أثناء الحصار وقبل وفاة الإمام بلعرب (السويدي. شعر راشد، ص32)، وهو ما عبّر عنه في ديوانه عندما قال (الحبسي. الديوان المخطوط، الورقة 54): "ذكرت أبياتاً من قصيدة نظمها حين خروجي من حصن يبرين أيام محاربة الإمام بلعرب بن سلطان وأخيه، وأنا ذلك اليوم ابن سبع عشرة سنة"، وعلى الرغم مما ذهب إليه بعض الباحثين من عدم وجود ميول سياسية لدى الشاعر الحبسي (الشكيلي. البنية الإيقاعية، ص29)، إلا أنه عبّر عن ذلك بأبيات شعرية، كما إنه سرعان ما لجأ إلى الإمام سيف يمدحه ويتكسب من وراء ذلك المديح، وهو ما أهله ليكون شاعر دولة اليعاربة²، ولاسيما أنه لم يُعبّر عن قضية ثورة سيف على أخيه الإمام بلعرب ومحاصرته لحصن يبرين بموقف المؤيد أو المعارض، وإنما أرجع ذلك للأقدار فرثى الإمام بلعرب بقصيدة ختمها بمدح الإمام سيف بن سلطان، ومما جاء فيها قوله (الحبسي. الديوان المطبوع، ص513-514):

الله أسكنه حصناً وأيده	بالنصر والفضل من آلائه الجمم
حتى أتى القدر الجاري فغير ما	كانوا عليه فيا سبحان ذي العظم
مضى لخمس سنين بعدما مائة	خلت مع الألف ما في القول من دهم

1- يُشير إلى ذلك في إحدى قصائده التي يُؤرخ فيها لبناء تم تشييده عام 1104هـ، حيث قال:

مضت مائة والألف مع أربع	وأكرم طويلاً بالحساب المقيد
بدولة سيف اليعربي إمامنا	سلالة سلطان بن سيف المؤيد

انظر: المعولي. ديوان المعولي، ص104.

2- من مدائحه لليعاربة قوله:

تهنى البلاد بآل يعرب كلهم	وقدومهم من بلدة الرستاق
قوم إذا ما ناب خطب أو عنا	أمر.. بحور ندى وأسد تلاق

انظر: الحبسي. الديوان المطبوع، ص53.

لهجرة المصطفى الهادي لأمته
صلى عليه إله العرش ما وخذت
وإنما هذه دنياكم عبر
فالحمد لله رب العالمين على
سيف سلالة سلطان الذي اتضحت
محمد القرشي الطاهر الشيم
عيس وما غرد الحادون بالنغم
لقلب كل لبيب عاقل فهم
بقاء من جوده يُغني عن الديم
آياته كاتضح الصبح للظلم

وعلى الرغم من توصل العلماء إلى موقف مؤحد تجاه هذه القضية، من خلال استتابة الإمام سيف وعقد البيعة الثانية له بعد وفاة أخيه الإمام بلعرب بن سلطان (الهاشي. الدراسات، ص 266)، إلا أنه يلاحظ أن تلك الحادثة تركت آثاراً ونتائج بعيدة المدى ظهر أثرها فيما بعد من خلال الأحداث التاريخية اللاحقة، كما بقي تأثيرها على نفسية بعض العلماء واضحاً في كتاباتهم وأشعارهم، ومن ذلك الأبيات الشعرية التي قالها الشيخ الوالي سالم بن محمد بن أحمد المحروقي الهلوي، ومنها (البسيوي. مختصر، مخطوط رقم 444، ورقة 1/ب):

طلبت من الدنيا الفضول عناوةً
وقد بلغ الحرصُ المدى بي وبلغةً
كفى عظة للعارفين وعبرة
بها ملك كان الزمان يُريشني
فتيَّ ماجدٌ كانت تدين لبأسه
فأصبح بعد الأمر والنهي ثاويًا
فأجابه الشيخ الوالي سليمان بن محمد المربوعي بأبيات منها قوله:
أقول لنفسي راقبي الله خشيةً
فقلت وقد أبدت جفاءً وغلظةً
فقلت لها هلا نظرتِ تفكراً
ذكرت مليكاً كان فيها مبعجلاً
له الملك بعد الله والأمر كله

رابعاً: نتائج ثورة سيف على الإمام بلعرب

من الجدير بالذكر أن قضية ثورة سيف على الإمام المنتخب بلعرب بن سلطان، واستيلائه على الحصون والمعقل العمانية ومبايعته بالإمامة قهراً كما ذهب بعض المؤرخين (الأزكوي. تاريخ عمان، ص 111؛ مؤلف مجهول. تاريخ أهل عمان، ص 147؛ السيابي. عمان عبر التاريخ، ج 3، ص 249)، ومن ثم حصاره لقصر بيرين المتحصن به أخيه، ومن معه سواء من أصحابه أم من أهل القرية نفسها، قد تركت آثاراً ونتائج بعيدة المدى اتضح أثرها على مجريات الأحداث فيما بعد، ومن أبرز تلك النتائج ما يلي:

1- تنامي الدور القبلي على حساب دور العلماء فيما يتعلق بقضية الإمامة، وهو ما اتضح في تعليق المؤرخين ووصفهم برعاع الناس والسفهاء (السيابي. عمان عبر التاريخ، ج 3، ص 248)، ولذلك يورد ابن

رزيق قضية اتفاق أعوان كلا الطرفين على التوقف عن القتال، وترك الأمر للأخوين للمبارزة، وبالتالي فالإمامة لمن غلب منهما وانتصر (ابن رزيق. الشعاع، ص 269)، وهذا الأمر يتعارض مع نظرية الإمامة في الفكر السياسي الإباضي، ولذا فقد تركت هذه الحادثة أبعاداً ونتائج خطيرة اتضحت معالمها وأخر حكم اليعاربة (المسكري. الإمامة والصراع، ص 62).

2- بدء ترسخ فكرة الحكم الوراثي في أذهان العامة من الناس، واستغل زعماء القبائل هذه الفكرة لفرض آرائهم بالقوة بشأن موضوع الإمامة، وهذا نابع من تنامي دورهم خلال فترة الصراع بين الأخوين، الأمر الذي عجل بزوال حكم اليعاربة من جهة، وتهميش دور العلماء من جهة أخرى، وقد أشار (السيابي. عمان عبر التاريخ، ج 3، ص 252) إلى هذه النتيجة بقوله: "هذه قضية سيف بن سلطان، وإنها لمن سيئات القضايا، وإنها لتندربزوال هذا الملك من أيديهم عن قريب، ولذلك كان العهد غير بعيد المدى".

3- فتحت هذه القضية الباب على مصراعيه للصراع بين أفراد البيت اليعربي نفسه، والتنافس حول الحكم باستخدام مبدأي القوة والدعم القبلي، ولم يقتصر الصراع على الأخوة فقط، وإنما امتد إلى أبناء العمومة والأخوال، وهو ما اتضح بعد ذلك في قضية سيف بن سلطان الصغير.

4- أدت الطريقة التي انتخب بها سيف إماماً إلى تجذر الانقسام بين زعماء القبائل الذين حذبوا فكرة الأسرة الحاكمة والعلماء الإباضيين الذين تمسكوا بمبادئ الانتخاب الشرعي (Bathurst, Op Cit, P190) وهو الأمر الذي يعني أن كلا الكتلتين ستعمل منذ ذلك الوقت على تثبيت نفوذها في موضوع الإمامة، ومن ثم على الأئمة القادمين الموازنة بين متطلبات كل كتلة منهما، للإبقاء على حالة الاستقرار في عمان. وهكذا مثلت قضية خروج سيف بن سلطان على أخيه الإمام بلعرب أولى الأزمات السياسية التي كان على العلماء مواجهتها في عصر اليعاربة، والعمل على معالجتها لإنقاذ عمان من الدخول في نفق من الصراعات الداخلية من خلال الحفاظ على كيان الإمامة طبقاً للفكر السياسي الإباضي، إلا أنه يلاحظ أن عدم وجود موقف موحد من قبل العلماء تجاه هذه القضية أدى إلى تراجع دورهم السياسي، وهو الأمر الذي ترتب عليه مواجهة كثير من الصعوبات والعقبات لحل الأزمات التي أعقبت هذا الحدث التاريخي.

الخاتمة:

تخلص الدراسة إلى مجموعة من النتائج على النحو الآتي:

- 1- يُعد تولي بلعرب بن سلطان الإمامة بعد وفاة والده في 16 من ذي القعدة سنة 1090هـ بداية لترسيخ نظام توريث الإمامة في عصر اليعاربة الأمر الذي مهّد لتعاقب عدد الأزمات السياسية أطاحت بدولة اليعاربة سنة 1162هـ/1749م .
- 2- أدى انقسام العلماء تجاه قضية خروج سيف بن سلطان على الإمام بلعرب إلى تراجع دورهم السياسي عمّا كان عليه عند قيام دولة اليعاربة الأمر الذي أفسح المجال لتنامي دور القبيلة في الشأن السياسي المتعلق بمبايعة الأئمة وعزلهم .
- 3- أورد المؤرخون سنة انتهاء حكم فترة الإمام بلعرب بن سلطان عام 1104هـ ، وبعد دراسة القرائن الأخرى توصلت الدراسة إلى أن وفاته كانت في عام 1105هـ، ولاسيما وأن المؤرخين أنفسهم أشاروا إلى طول فترة حصار سيف بن سلطان لأخيه الإمام بلعرب في يبرين .
- 4- تعددت الأسباب التي دفعت بسيف للخروج على أخيه الإمام بلعرب ما بين أسباب شخصية وأخرى وطنية تتعلق بمركز الحكم أو الجوانب الاقتصادية أو السياسية وقد عمل سيف على استثمارها لتحقيق الهدف الذي كان يتطلع إليه .
- 5- لجوء معظم العلماء إلى موضوع "التقية" حسب الفكر الإباضي لمبايعة سيف بن سلطان بالإمامة قبل وفاة الإمام بلعرب، الأمر الذي يُشير إلى نظرة بعض العلماء إليه على أنه من الجبابة



جوانب من الأوضاع الاقتصادية في لواء الكرك 1311-1372هـ / 1893-1952م

تيسير محمد نواف القويدر

أ.د. ميسون منصور عبيدات / جامعة مؤتة

ملخص

يتناول هذا البحث جوانب من الحياة الاقتصادية في لواء الكرك في الفترة الواقعة ما بين عامي 1311-1372هـ / 1893-1952م، فقد تعرض لأنواع المحاصيل الزراعية، وطرق استغلال الأراضي، والأدوات الزراعية، والمشكلات التي واجهت الفلاحين، والنقود المتداولة. واعتمدت الدراسة على مجموعة متنوعة من المصادر والدراسات الحديثة ساهمت في إثرائها، ومنها: وثائق المحاكم الشرعية، وكتب الرحالة الأجانب، والصحف المعاصرة لفترة الدراسة، إضافة إلى الدراسات الحديثة وغيرها. كلمات مفتاحية: لواء الكرك، الأوضاع الاقتصادية، الزراعة، المحاصيل، المشكلات الزراعية، الأمراض والأوبئة، النقود المتداولة.

Abstract

This research deals with aspects of the economic life in the Karak District in the period between 1311-1312 AH / 1893-1952 AD. The study displayed the types of agricultural crops, methods of land use, agricultural tools, the problems faced by farmers, and the money in circulation.

The study relied on a variety of sources and recent studies that have contributed to enriching it, including: documents of Sharia courts, books by foreign travelers, contemporary newspapers for the period of study, in addition to recent studies and others.

Key words :

Karak District, economic conditions, agriculture, crops, agricultural problems, diseases and epidemics, money in circulation.

جوانب من الأوضاع الاقتصادية في لواء الكرك

1311-1372هـ / 1893-1952م

أولاً: أنواع الزراعة:

تنوعت المحاصيل الزراعية في لواء الكرك في حقبة الدراسة بين الحبوب كالقمح والشعير والذرة والعدس والحمص والكرسنة وغيرها، وبين الأشجار المثمرة كالزيتون والتين والرمان، بالإضافة إلى الخضراوات بمختلف أنواعها:

1- الحبوب:

إن زراعة الحبوب هي العمل الرئيس الذي يقوم به أكثرية الفلاحين في لواء الكرك. وطريقة تناوب المزروعات التي يتبعونها تتراوح مدتها بين عامين وثلاثة أعوام، فتناوب العامين يجري بين الحنطة أو الشعير من جهة، والمزروعات القطنية الشتوية أو المزروعات الصيفية، كالذرة من جهة ثانية. أما تناوب الأعوام الثلاثية فيجري عادةً بزرع القطني بين زرع الحبوب الصيفية وزرع الحبوب الشتوية، وفي بعض مناطق الكرك تزرع الحبوب الشتوية في تربة جافة (عفياً)؛ أي قبل سقوط أمطار الخريف الباردة، وفي مناطق الكرك الأخرى يؤجل الزرع إلى حين سقوط الأمطار الباردة⁽¹⁾.

وتعد الحنطة من المحاصيل الرئيسة في لواء الكرك، وكانت تزرع في السهول، مثل: سهل ذات راس، والمزار، ومؤتة، وراكين، وأدر، والربة، والقصر، والياروت، وفقوع، وصرفا، وأمرع، والجديدة⁽²⁾.

وتزرع الحنطة في معظم مناطق الكرك، وتشغل زراعتها نحو نصف مجموع الأراضي المخصصة بزراعة الحبوب والقطني، ويقدر أن ثلث غلة الحنطة في لواء الكرك يعرض للبيع، وتعد الحنطة أهم الغلال بين الحبوب؛ ويعود السبب في اهتمام سكان لواء الكرك بزراعة الحنطة إلى اعتمادهم عليها في غذائهم، ومن أهم أنواع الحنطة التي كانت تزرع في لواء الكرك الحوراني، وهو صلب الحب يستهلكه سكان لواء الكرك في صنع الخبز، والحنطة السلموني وحبه سهل الطحن⁽³⁾. وقد اشتهر الكرك بجودة حنطتها⁽⁴⁾، وأشارت

(1) "سوق الحبوب"، جريدة الأردن، عمان، العدد (717)، تاريخ 1937/2/24م؛ "شؤون زراعية"، جريدة الأردن، عمان،

العدد (906)، تاريخ 1940/1/19م؛ "أسعار الحبوب"، جريدة الأردن، عمان، العدد (868)، تاريخ 1940/2/11م.

(2) عينيات دفترية، نومرو (37) عمومي (35) خصوصي، 2 تشرين الأول 1333 مالية/ 1335هـ / 1917م؛ دفتر

تسجيل الإعلانات، أوراق (1118) قرار (1294)، 22 تشرين الأول 1919م، ص104-107؛ Konikoff.

A.Trans Jordan. an Economic Survey. 1946, p. 107.

وسيشار إليه لاحقاً: Konikoff. A. Trans Jordan an Economic Survey

(3) المصري، علي، "الزراعة أساس السعادة"، جريدة الشرق العربي، عمان، العدد (66)، تاريخ 1924/8/18م.

(4) عينيات دفترية، نومرو (62) عمومي (55) خصوصي، 24 كانون الأول 1331 مالية/ 1333هـ / 1915م، ص69.

الوثائق الشرعية إلى "حنطة صفراء كركية"⁽¹⁾، وهي أجود الأصناف وأعمها، وذكر الرحالة أن الكرك مشهورة في زراعة حنطة دبوان المعروفة بحبها الطويلة وبلمعانها⁽²⁾. ومن أصناف الحنطة التي تزرع في الكرك، الهيتي، وسنبلته ذات سفا، وحبه حنطي يميل إلى الحمرة، والخوراني، ويعرف بساقه المتوسطة الطول، وسنبلة غليظة كثيفة مربعة ذات سفا لونها يميل إلى السمرة، وحبه سمين قاس يميل إلى الحمرة⁽³⁾.

وقد قدر كونكوف (Konikoff) مساحة الأراضي المزروعة في الحنطة في لواء الكرك عام 1944م بنحو (240.000) ألف دونم⁽⁴⁾.

وقد قدرت جريدة الأردن إنتاج الكرك من الحنطة عام 1347هـ/ 1930م ما يزيد على ثلاثة آلاف طن ودعت هذه الجريدة حكومة شرقي الأردن إلى اتخاذ الإجراءات والوسائل الكفيلة لتسويق إنتاج الكرك من الحنطة للبلاد المجاورة⁽⁵⁾.

وقد أشارت وثائق محكمة الكرك الشرعية إلى أسعار الحنطة في لواء الكرك، فذكرت وثيقة شرعية تعود إلى سنة 1334هـ/ 1913م، أن مد الحنطة بلغ (20) قرشاً⁽⁶⁾.

وسعت بلدية الكرك في 9 حزيران - يونيو 1929م كيلو الحنطة بعشرة ملات الفلسطينية⁽⁷⁾. ويلى الشعير الحنطة من حيث أهميته بين الحبوب، وزراعته منتشرة في معظم مناطق اللواء، وهو من المحاصيل الرئيسة في اللواء، وزرع في الأراضي قليلة المطر لتحمله العطش أو الملوحة، أو على أطراف الأراضي التي تزرع بالحنطة، ويعد الشعير مصدراً غذائياً للإنسان والحيوان⁽⁸⁾.

- (1) محكمة الكرك الشرعية، سجل (1)، عدد (11)، 5 جمادى الثاني 1334هـ/ 1916م، ص 86.
- (2) Baldensperger, Philip G. ((The Immovable East)) Palestine Exploration Fund, Quarterly statement, London, January 1907, p15.
- (3) كرد علي، محمد، خطط الشام، ج6، دار العلم للملايين، بيروت، 1971م، ج4، ص177، سيشار إليه لاحقاً: كرد علي، خطط الشام.
- (4) عينيات دفترية، نومرو (37) عمومي (35) خصوصي، 2 تشرين الأول 1333 مالية/ 1335هـ/ 1917م، ص ؛ دفتر تسجيل الإعلانات، أوراق (1118) قرار (1294)، 22 تشرين الأول 1919م، ص104-107؛ Konikoff. A.Trans Jordan an Economic Survey. p.107.
- (5) "مطالب الشعب الأردني"، جريدة الأردن، عمان، العدد (333)، تاريخ 19/2/1930م.
- (6) محكمة الكرك الشرعية، سجل (1)، نومرو (14)، 25 صفر 1334هـ/ 1916م، ص75؛ محكمة الكرك الشرعية، سجل (1)، نومرو (17)، 12 ربيع الثاني 1334هـ/ 1916م، ص76.
- (7) دفتر قرارات مجلس بلدي الكرك عام 1929م، قرار رقم (644)، تاريخ 9/6/1929م، ص52.
- (8) كرد علي، خطط الشام، ج4، ص177.

وقد سعت بلدية الكرك في عام 1346هـ/1929م، كيلو الشعير بثلاثة ملات ونصف⁽¹⁾.
 وقد قدر كونكوف (Konikoff) مساحة الأراضي المزروعة في الشعير في لواء الكرك عام 1944م بنحو (105.000) ألف دونم⁽²⁾.
 كما زرع في لواء الكرك من الحبوب الذرة البيضاء، ومن ميزاتنا أنها تزرع بعلاً وتحتمل قلة الأمطار، وكانت تخلط مع الحنطة وتطحن لتستخدم في إنتاج الخبز، وبخاصة لدى الفئات الفقيرة من السكان، كما تستخدم أوراقها علفاً للحيوانات⁽³⁾، وقد انتشرت زراعتها بشكل واسع في اللواء، وقد شاهد الرحالة تريسترام (Tristram) حقول الذرة في مناطق اللواء⁽⁴⁾، كما شاهد جري هيل (Gray Hill) حقول الذرة ومشى وسطها في مناطق اللواء⁽⁵⁾، وذكر الرحالة بيل (Bell) القبائل البدوية من المناطق المجاورة تأتي إلى المنطقة لشراء الذرة منها، كما شاهد عربات السكة الحديدية في محطة الجيزة تنقل الذرة إلى دمشق⁽⁶⁾.
 وقد قدر كونكوف (Konikoff) مساحة الأراضي المزروعة في الذرة البيضاء في لواء الكرك عام 1944م بنحو (350) دونم⁽⁷⁾.
 وزرع أهالي لواء الكرك القطني، وهو العدس والحمص والكرسنة والجلبانة⁽⁸⁾، وقد اعتمد السكان على العدس والحمص في غذائهم. أما الكرسنة والجلبانة فكانت تستخدم علفاً للحيوانات، وكان يصدر الفائض منها إلى أسواق المناطق المجاورة⁽⁹⁾.

- (1) دفتر قرارات مجلس بلدي الكرك عام 1929م، قرار رقم (644)، تاريخ 1929/6/9م، ص52.
- (2) عينيات دفترية، نومرو (37) عمومي (35) خصوصي، 2 تشرين الأول 1333 مالية/ 1335هـ/ 1917م؛ دفتر تسجيل الإعلانات، أوراق (1118) قرار (1294)، 22 تشرين الأول 1919م، ص104-107؛ Konikoff. A. Trans Jordan an Economic Survey. p.107
- (3) خوري، لالبرت "الزراعة"، مقالة ضمن كتاب النظام الاقتصادي في سوريا ولبنان، تحرير سعيد حمادة، طبع في المطبعة الأمريكية، بيروت، 1936م، ص77.
- (4) Tristram, The Land of Moab, p299.
- (5) Hill, Gray, With the Beduins: A Narrative of Journeys and Adventures in Unfrequented Parts of Syria, T. Fisher Unwim, Landon, 1891, P38.
- (6) Bell, Gertude L, Syria: The Desert and the Sown, Arno Press, New York, 1973 (Reprint of the 1919 Ed.) P23.
- (7) عينيات دفترية، نومرو (37) عمومي (35) خصوصي، 2 تشرين الأول 1333 مالية/ 1335هـ/ 1917م؛ ص؛ دفتر تسجيل الإعلانات، أوراق (1118) قرار (1294)، 22 تشرين الأول 1919م، ص104-107؛ Konikoff. A. Trans Jordan an Economic Survey. Jerusalem. p.107
- (8) دفتر قرارات حاكم الحقوق، أوراق (1446) قرار (1440)، 17 كانون 1919م، ص36.
- (9) دفتر تسجيل الإعلانات، أوراق (1100) قرار (1279)، 22 تشرين الأول 1919م، ص104-107.

وقد سعت بلدية الكرك بلدية الكرك في عام 1346هـ/ 1929م كيلو الكرسنة بأربعة ملات، وكيلو العدس بثمانية ملات⁽¹⁾.

صدرت الكرك ما كان يفيض عن حاجتها من الحبوب إلى المناطق المجاورة، فقد شاهد الرحالة في مطلع القرن العشرين كيف تتحول قرى الكرك خلال موسم البيدر إلى خلية نحل، حيث تتوافد إليها قوافل عديدة لابتياح الحنطة والحبوب الأخرى⁽²⁾. وكان إنتاج الكرك من الحبوب ينقل إلى أريحا والقدس والخليل ومدن الساحل الفلسطيني بواسطة زورق تجاري صغير، وقارب شرعي يمخران البحر الميت، كما كانت الحكومة العثمانية تمتلك ستة قوارب لهذا الغرض⁽³⁾. وصدرت الحبوب من منطقة القطرانة إلى دمشق وفلسطين والحجاز بواسطة السكة الحديدية الحجازية⁽⁴⁾، وكان التجار يشترون الحبوب من منطقة الكرك ويبيعونها في دمشق والحجاز، والمدن الفلسطينية.

فقد قبض حسين بن حمدان بن أحمد الطفيحات من عشيرة بني حميدة من خليل بن صالح بن محمد شرف من أهالي قرية سلوان التابعة للواء القدس الشريف مبلغ (85) ريال مجيدي على أن يسلمه في مدينة القدس (591) صاع حنطة بمكيال الصاع البلقاوي⁽⁵⁾.

وكان من متعهدين الحبوب في الكرك سيدو الكردي، ويوسف المحشي، وإبراهيم حزبون، وصادق البطيخي، وبلغ ما اشتراه هؤلاء التجار من الكرك وقرائها في سنة 1335هـ/ 1917م، نحو (47.710) كيلو حنطة، و (64.022) كيلو شعير⁽⁶⁾، وعقد عودة أفندي القسوس مع كامل أفندي الخواجة المقيم بالشام شركة تجارية مناصفة في عام 1334هـ/ 1916م لأجل "شراء الحبوب من منطقة الكرك وتصريفها بالمدينة المنورة"⁽⁷⁾.

2- الخضراوات:

- (1) دفتر قرارات مجلس بلدي الكرك عام 1929م، قرار رقم (644)، تاريخ 9/6/1929م، ص52.
- (2) الموسى، سليمان، غربيون في بلادنا، ط1، وزارة الثقافة والفنون، عمان، 1969م، ص57، سيشار إليه لاحقاً: الموسى، غربيون في بلادنا.
- (3) جريدة القبلة، مكة المكرمة، العدد (154)، 29 ربيع الثاني 1336هـ/ 7 شباط 1918م، ص2؛ الموسى، غربيون في بلادنا، ص57.
- (4) عينيات دفترى، نومرو (37) عمومي (35) خصوصي، 1 تشرين الأول 1333 مالية/ 1335هـ/ 1917م، ص21؛ وانظر: Bill, Getrude. L, Syria: The Desert and to sown, Arno Press, New York, 1919, 35-36.
- (5) محكمة الكرك الشرعية، سجل (1)، نومرو (71)، 17 شوال 1330هـ/ 1912م، ص23.
- (6) عينيات دفترى، نومرو (37) عمومي (35) خصوصي، 1 تشرين الأول 1333 مالية/ 1335هـ/ 1917م، ص21.
- (7) دفتر تسجيل الاعلامات، أوراق (1118) قرار (1294)، 22 تشرين الأول 1919م، ص103-107.

انتشرت زراعة الخضراوات بمختلف مناطق اللواء، وكان أهم الخضراوات التي كانت تزرع في لواء الكرك: البندورة والبصل والبامية والبادنجان والكوسا والفجل والقرع والفقوس والقرنبيط والبطيخ⁽¹⁾.

3- الأشجار المثمرة:

انتشرت زراعة الأشجار المثمرة في لواء الكرك، واهتم السكان بزراعتها ملائمة المناخ والتربة لها، وقد زرعت في الحواكير في القرى، ومن أنواع الأشجار المثمرة التي زرعت في لواء الكرك: العنب والتين والرمان والزيتون المشمش والخوخ. وقد انتشرت زراعتها في وادي الكرك، وكثريا، وخنزيرة، والعراق، وعي⁽²⁾.

4- التبغ (التن الهيشي):

انتشرت زراعة التبغ في منطقة الكرك⁽³⁾، وقد عرف الدخان المحلي باسم (التن الهيشي)، وأشار الرحالة بيركهارت (Burkhurt) إلى زراعة التبغ (التن الهيشي) في منطقة الغور⁽⁴⁾، وشاهد الرحالة تريسترام (Tristram) أثناء تجواله في المنطقة زراعة الأهالي للتبغ⁽⁵⁾. وكان الأهالي يزرعونه في الحواكير الواقعة بجوار منازلهم لاستخداماتهم الخاصة⁽⁶⁾.

(1) الطراونة، تاريخ منطقة البلقاء والكرك ومعان 1864-1918م، منشورات وزارة الثقافة، عمان، 1992م، ص155؛

سيشار إليه لاحقاً: الطراونة، تاريخ منطقة البلقاء والكرك ومعان؛ (The Baldensperger, Philip G. ((Immovable East)) Palestine Exploration Fund, Quarterly statement, London, January 1907, pp272-273.

(2) دفتر تسجيل الإعلانات، أوراق (1133) قرار (1258)، 16 تموز 1919م، ص133-135؛ دفتر تسجيل الإعلانات، أوراق (1198) قرار (1260)، 8 أغسطس، 1919م، ص135-137.

(3) A Hand Book of Syria Ruppin, Arthyr., Syrien als Wirtsch of tsgebiet, E.S. Mittler and Sohn, Berlin, 1916, p271.

وسيشار إليه لاحقاً: A Handbook of Syria.

(4) بيركهارت، يوهان لودفيغ، رحلات بيركهارت في سورية الجنوبية، ج2، ترجمة أنور عرفات، عمان، 1969م، ص115.

(5) Tristram, H. B **The Land of Moab: Travels and Discoveries on the East Side of the Dead Sea and the Jordan**, London: John Murray, London. 1873, p299

سيشار إليه لاحقاً: Tristram, The Land of Moab.

(6) أبو الشعر، تاريخ شرقي الأردن في العهد العثماني 1516-1918م، مؤسسة آل البيت، عمان، 2001م، ص337.

وكانت شركة الريجي تحتكر زراعة الدخان وإنتاجه في جميع أنحاء الدولة العثمانية⁽¹⁾، وذكر نعيم حسان مراسل جريدة المقتبس أثناء زيارته للكرك سنة 1331هـ/1913م أن إدارة الريجي أنفقت على زراعة التبغ نحو (1200) ليرة عثمانية⁽²⁾.

ثانياً: طرق استثمار الأراضي الزراعية:

من أشكال استثمار الأراضي الزراعية في لواء الكرك في فترة الدراسة، الآتي:

1- الاستثمار المباشر: وفي هذه الحالة يقوم صاحب الأرض باستغلال وزراعة أرضه مباشرة، وكانت هذه الطريقة أكثر الطرق استغلالاً في لواء الكرك، وكان هذا النظام يتم عند أصحاب الملكيات الصغيرة معتمدين بذلك على أفراد أسرهم، انطلاقاً من مساحة الأرض الزراعية⁽³⁾.

2- نظام المزارعة: عرفت منطقة الكرك بشكل واسع نظام "المزارعة"، حيث يقدم المالك الأرض لمن يزرعها والزرع يقسم بينهما، أو بتعبير آخر هو عقد بين الطرفين (المالك والفلاح)، على زرع مساحة من الأرض بشرط أن يكون الناتج بينهما على جزء معلوم كالنصف أو الثلث أو الربع أو الخمس، ويسمى الفلاح الذي يتعامل بهذا النظام بالمزارع أو الزراع⁽⁴⁾.

ومن أشهر أنظمة المزارعة التي عرفت في لواء الكرك نظام المربعة، حيث يحصل الفلاح على ربع الحاصل على أن تكون مؤونته من صاحب الأرض، وفي هذه الحالة تكون حيوانات الحراثة من البقر وحمير وبغال والأرض والبذار على صاحب الأرض والعمل من الفلاح على ربع الحاصلات⁽⁵⁾، ويسمى الفلاح في ظل هذا النظام "المربع" أو بمعنى آخر شريك في الربع⁽⁶⁾.

ويتعهد مالك الأرض بالمربع طوال مدة الموسم الزراعي، فيوفر له السكن وجميع احتياجاته من المؤونة خلال موسم زراعي كامل يمتد من شهر تشرين الثاني - نوفمبر إلى نهاية شهر تموز - يوليو، ويتكفل المربع بأداء الأعمال الزراعية المرتبطة بالأرض لصالح المالك، وهي جمع حطب الوقود استعداداً لفصل الشتاء وتطيين الدار (إضافة الطين لسقفها لتستطيع تحمل فصل الشتاء)، وجلب

(1) A Handbook of Syria, p248.

(2) حسان، نعيم، "عمران لواء الكرك"، جريدة المقتبس، دمشق، العدد (1106)، ص 1-2.

(3) عاشور، عصام، "نظام المربعة في سوريا ولبنان وفلسطين"، مجلة الأبحاث، الجامعة الأمريكية، بيروت، ج 3، 1948م، ص 32. وسيشار إليه لاحقاً: عاشور، "نظام المربعة".

(4) القاسمي، محمد سعيد، قاموس الصناعات الشامية، تحقيق ظافر القاسمي، ج 2، باريس، 1960م، ج 1: 219-430، وسيشار إليه لاحقاً: القاسمي، قاموس الصناعات الشامية.

(5) محكمة الكرك الشرعية، سجل (1)، تاريخ 2 جمادى الأولى 1329هـ/1911م.

(6) كرد علي، خطط الشام، م 2، ص 196-197.

الماء وصنع القهوة والعناية بالحيوانات. وكان الذي يحصل عليه المزارع يقتصر فقط على الحبوب والتين، بينما محصول الزيت والعنب من حق صاحب الأرض ولا دخل للمزارع به⁽¹⁾.

3- المغارسة: ومن الأنظمة الزراعية التي سادت في المنطقة نظام "المغارسة"، ويقوم على تخلي المالك عن الأرض إذا كانت مزروعة أشجار للمستأجر مقابل أن يتعهدا مقابل نصيب من الغلة⁽²⁾، والإشارات التي بين أيدينا عن هذا النظام محدودة، مما يدل على أن نظام المغارسة، هذا كان من أندر الأنظمة التي استخدمت في القضاء لغياب الملكيات الواسعة المغروسة بالأشجار، فملكيات الأشجار المثمرة خلال فترة الدراسة لازالت محدودة⁽³⁾.

ثالثاً: أساليب الزراعة والأدوات الزراعية:

يبدأ الفلاح في لواء الكرك في شهر آب وأيلول بعد الانتهاء من حصاد المحصول، حيث يقوم بحرثه أرضه، وتختلف على عدد مرات الحرث باختلاف نوع المحصول الذي ينبغي على الفلاح زراعته، ففي حالة المحاصيل الشتوية كالحبوب فإن الفلاح يقوم ببذر الحبوب بواسطة اليد في شهر تشرين الثاني، ثم يقوم بحرث التربة وتسمى هذه الحرث الثانية، أما في حالة زراعة المحاصيل الصيفية فإن الفلاح يحرق الأرض ثلاث حرثات فتتم الحرث الثانية في شهر شباط، أما الحرث الثالثة والتي تكون عادةً للبذار فتتم في شهر آذار أو نيسان، ولزراعة محاصيل الصيف كالذرة والخضراوات توضع البذور داخل الأثلام ثم تتبعها الحرث لتغطية البذور⁽⁴⁾.

وكان على الفلاح الكركي أن يبذر الحبوب قبل موسم نزول الأمطار، وتسمى في هذه الحالة عفيراً⁽⁵⁾، ويلجأ الفلاح لهذه الطريقة في حالة تأخر نزول الأمطار لأنه لو انتظر فلن يجد الوقت الكافي لحرث جميع أرضه بسبب تأخر البذار، وهذا ما يعبر في الذاكرة الشعبية بالأمثال المتداولة التي تلهج بها السنة الفلاحين " اعفروا عدم ولا تستنى وتندم"، "والعفير إن خلاك دوم لا تخلية يوم"⁽⁶⁾. كما أن للزراعة المبكرة فوائد أخرى فيعتبر التبيكر نوعاً من الحماية من أخطار الآفات الزراعية كالجراد أو هواء الصحراء اللافح الذي

(1) الجالودي، عليان، قضاء عجلون، 1864-1918م، عمان، منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام، 1415هـ/ 1994م،

ص 262، وسيشار إليه لاحقاً: الجالودي، قضاء عجلون.

(2) عاشور، نظام المربعة، ص 34.

(3) الطراونة، محمد سالم، تاريخ منطقة البلقاء ومعان والكرك، ص 144.

(4) القسوس، نجيب سليمان، ملامح من التراث الشعبي في محافظة الكرك، منشورات لجنة إحياء التراث، جامعة مؤتة،

1994م، ص 66-67. وسيشار إليه لاحقاً: القسوس، ملامح من الحياة الشعبية.

(5) القسوس، ملامح من الحياة الشعبية، ص 67.

(6) العزيمي، روكس بن زايد، معلمة التراث الأردني، 5 ج، منشورات وزارة الثقافة والشباب، عمان، 1981م، ج 1،

ص 245، سيشار إليه لاحقاً: العزيمي، المعلمة.

يهب في أواخر فصل الربيع والمعبر عنه "بالشراقي"⁽¹⁾. ولكن هذا لا يمكن تعميمه على جميع أنواع الأرض، فالأرض الكراب أو البور غير المحروثة لأعوام متتالية، لا يمكن حراثتها إلا بعد نزول كميات كافية من الأمطار، حتى يكون بمقدور الفلاح زراعتها بسهولة ويسر⁽²⁾.

ومن الحيوانات التي استخدمت في الحراثة والأعمال الزراعية الأبقار والحمير والبغال "الكدش" وبشكل محدود الحصان لندرته وارتفاع ثمنه بالكرك، واستخدمت الجمال على نطاق محدود والسبب في ذلك على حد تعبير المثل الكرك العام "مثل حراث الجمال التي يحترثه يدبكنه"⁽³⁾. وكانت أدوات الحراثة والحصاد والدرس في لواء الكرك بسيطة، إذ تصنع معظمها من الحديد والخشب، ومنها⁽⁴⁾:

1- سكة الحراثة:

وهي أهم جزء في المحراث، مصنوعة من الحديد والخشب ومن أجزائها: الذكر، الكابوسة، الوصال، الشرعة، البرك (السرعة)، الناطح، النير، ويجر المحراث زوج من الحمير أو البغال أو البقر.

2- أدوات الحصاد ونقل المحصول:

1. المنجل: أداة حديدية ذات شكل هلالى وطرفها الداخلى حادّ ومسّّن، وله مقبض خشبي، والمنجل الأداة الرئيسة في حصاد القمح والشعير والذرة البيضاء.
2. القادم: أداة زراعية مصنوعة من الخشب لنقل المحاصيل (القش) إلى البيدر من أجل درسها، وهي مكوّنة من أربعة أضلاع خشبية متداخلة من الأعلى وينفرجان إلى ضلعين من الأسفل، ويتصل بهما من الأسفل حبلان متوازيان بطول متر تقريباً وتسمى الرواجال (الرميات)، حيث يوضع القش بطريقة مرتبة بعد نصب القادم على هيئة مثلث بحيث تشكل الرواجل قاعدة، وتناظر هذه القاعدة قاعدة أخرى على الطرف الثاني وتشكلان معاً القادم، وتسمى الطراحة، وبعد إحكام ربط القش يحمل على ظهر الدابة، وينقل إلى البيدر، ويسمى الشخص الذي ينقل المحصول إلى البيدر (الرجّاد)⁽⁵⁾.

(1) Antoun, Richard, Arab Village, A Social Structural Study of a Trans Jordanian Peasant Community. Bloomington: Indiana University, 1972, p 10.

وسيشار إليه لاحقاً: Antoun, Arab Village.

(2) الجالودي، قضاء عجلون، ص 267.

(3) العزيزي، المعلمة، ج 1، ص 386.

(4) العزيزي، روكس بن زايد، قاموس العادات، منشورات وزارة الثقافة، عمان، 2004م، ج 2، ص 24. وسيشار إليه

لاحقاً: العزيزي، قاموس العادات.

(5) القسوس، ملامح من التراث الشعبي، ص 50.

3. الوثر: في حالة نقل المحاصيل على الدواب، لا بُدَّ من استخدام أداة خشبية تشدّ على ظهر الدابة تسمى (الوثر)، ويتكون الوثر من خشبيتين متوازيتين، تتصلان في الإمام وعلى عنق الدابة بخشبة على هيئة مثلث رأسه إلى الأعلى وطرفاه على جانبي رقبة الدابة تسمى (الكربوسة)، وينتهي الوثر بخشبة تربط نهاية المتوازيين، ويشد على ظهر الدابة عن طريق حزام، ويشد من الخلف بقطعة من القماش أو الجلد تسمى (الحياصة)، ويوضع تحت الوثر قطعة كبيرة من القماش أو الخيش السميك تقي الدابة من احتكاك الوثر بجسمها⁽¹⁾.

3- أدوات درس المحصول:

1. لوح الدّرس: أطلقت عليها في فلسطين النورج⁽²⁾، وهو لوح خشبي مستطيل الشكل في الجهة السفلى منه ثوب أفقية مملوءة بقطع من حجر الصوان أو الصخر البازلي أو الحديد القاطع لقص القش، ويجر هذا اللوح زوج من البغال أو الثيران أو الحمير يقف عليه الدّراس؛ تثقيلاً له وحثاً للحيوانات على الدوران⁽³⁾.

2. الشّاعوب (المربع)⁽⁴⁾: عصا طويلة من الخشب تثبت في أحد أطرافها أداة حديدية لها أربعة أصابع طول كل أصبع نحو: (30) سم، ويبعد كل أصبع عن الآخر نحو: 5 سم، وظيفته تقليب المحصول بطريقة تمكّن الدواب أو لوح الدرس من درس جميع المحصول⁽⁵⁾.

(1) العزيمي، قاموس العادات، ج1، ص294.

(2) A Handbook of Syria, p. 254.

(3) الشهابي، الأمير مصطفى، "الزراعة العلمية الحديثة"، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، 1935م، ص108، سيشار

إليه لاحقاً: الشهابي، "الزراعة العلمية الحديثة"؛ جغندوقة، محمد خير، الشركس: أصلهم، وتاريخهم، عاداتهم،

تقاليدهم، هجرتهم إلى الأردن، مطبعة رفيدي، عمان، 1982م، ص54؛ الشويحات، يوسف سليم، العرب وتراثهم،

مطبعة القوات المسلحة الأردنية، عمان، (د.ت)، ص276؛ وانظر: Post, G. Essays on the Sents and

.Musil, Arabia Petraea, Band 3, p. 300-306؛ Nationalities of Syria and Palestine, p. 115

(4) Abu Jaber, Ruouf., Pioneers Over Jordan, (Phd unpublshed), Tauris. 1989. pp62.

سيشار إليه لاحقاً: Abu Jaber, Pioneers Over Jordan.

(5) الشهابي، الزراعة العلمية الحديثة، ص54؛ السوارية، نوفان رجا الحمود، عمان وجوارها خلال الفترة من 1281-

1341هـ/1864-1921م، مطابع المؤسسة الصحفية الأردنية، عمان، 1995م، ص317، وسيشار إليه لاحقاً:

السوارية، عمان وجوارها، المجالي، فراس، السجل المصور للتراث الشعبي الكركي، منشورات وزارة الثقافة، عمان،

2002م، ص181؛ عبيدات، سليمان أحمد، التطور الحضاري لقضاء بني كنانة، جمعية المطابع التعاونية، عمان،

1984م، ص39.

3. الكربالة⁽¹⁾: وعاء دائري إطاره خشبي وباطنه مجموعة من الخيوط المتشابكة المصنوعة من أمعاء بعض الحيوانات وجلدوها، وتختلف الكرابيل حسب المحصول المراد تنقيته، فهي تتسع في بعض المحاصيل كالحمص والشعير والذرة، وتضيق في بعض المحاصيل كالقمح، والعدس، وتستعمل الكربالة في تنقية الحبوب من القصل وكبار الحصى والكدر.

4. الغربال⁽²⁾: يُشبه الكربالة حجماً وشكلاً، ولكن ثقوبه ضيقة، ويستعمل في تنقية المحاصيل من الأتربة والشوائب الصغيرة.

رابعاً: الثروة الحيوانية

تميز لواء الكرك في تنوع ثروته الحيوانية وتباينها الأهداف من تربيتها، فتأخذ بعض الأهالي من تربية الحيوانات مهنة لهم، وأهتم بعضهم بتربيتها لأغراض الزراعة والنقل، فقد اعتمد الأهالي عليها اعتماداً رئيسياً؛ كونها الوسيلة في الركوب والتنقل، وهي أداة النقل المتعارف عليها، وهي الوسيلة الوحيدة لحرارة الأرض ومن أهم هذه الحيوانات:

1- الأغنام والماعز:

كانت تُربي في أنحاء اللواء كافة كون المنطقة ذات مراعي واسعة وجيدة، وكانت الماعز والأغنام مصدراً رئيساً للغذاء، فهي تنتج الحليب الذي يصنع منه الفلاح اللبن، والجميد، والسمن، والزبدة، والأجبان، علاوة على الاستفادة من صوفها وشعرها في صناعة الملابس وبيوت الشعر، الذين يقطنون فيه، وكان التجارة بها ظاهرة شائعة في مناطق اللواء.

وكانت تستخدم في المخور، وتراوحت الحيازات لها من الإعداد الكبيرة من القطعان، إلى الأعداد المحدودة التي كانت تربي من الزرائب قرب المنازل، فعلى سبيل المثال: كان من جملة مهر فاطمة بنت عيسى بن بطاح القرالة (28) رأس ماعز⁽³⁾، وكان من جملة مهر ووجد بنت إبراهيم، بن خلف الخرشة (15) رأس ماعز⁽⁴⁾، وكان من جملة مهر فضة بنت داود بن سليمان القرالة (22) رأس ماعز، قيمة كل رأس خمسة ريالات مجيدي⁽⁵⁾، وكان من جملة مهر فاطمة بن إبراهيم بن رمضان الصرايرة (10) رؤوس من الأغنام، بلغت قيمتها (3000) قرش مصري⁽⁶⁾، واشترى الخوري عودة الشوارب من مسلم بن حسين السيائدة (50)

(1) القسوس، ملامح من التراث الشعبي، ص 51.

(2) القسوس، ملامح من التراث الشعبي، ص 51.

(3) محكمة الكرك الشرعية، سجل (1)، نومرو (15)، 15 ذي القعدة 1329هـ/1911م، ص 5.

(4) محكمة الكرك الشرعية، سجل (1)، عدد (12)، 28 ذي القعدة 1333هـ/1915م، ص 70.

(5) محكمة الكرك الشرعية، سجل (1)، عدد (24)، 25 صفر 1334هـ/1916م، ص 73-75.

(6) محكمة الكرك الشرعية، سجل (3)، رقم متسلسل (13)، 27 ربيع الأول 1343هـ/ 5 تشرين الأول 1924م، ص 16.

رأس ماعزرباعية بمبلغ (100) ريال مجيدي⁽¹⁾، واشترى جريس بن خليل الشوارب من حسن ويوسف ولدي محمد المصاروة (16) رأس ماعز بمبلغ ثماني ليرات فرنساوي⁽²⁾، وكان علي بن حسين الرماضنة يملك (107) رؤوس من الأغنام و (20) رأس من الماعزو (25) خروف⁽³⁾.

وكان يبيعون الزائد عن حاجتهم منها، وشكلت مصدررزق لسكان المنطقة، وقد شاهد الرحالة سيلاه ميرل قطعاناً كبيرة من الأغنام تعد بالآلاف في طريقها من سهول البلقاء والكرك إلى أسواق القدس والمدن الساحلية الفلسطينية⁽⁴⁾، واشترى عيسى أفندي الحمارنة إلى الجيش العثماني (أردوي همايوني) المرابط في الشام سنة 1333هـ/1915م نحو (300) جمل⁽⁵⁾، واشترى كل من زعل المجالي ونايف بن خليل المجالي أغنام للحكومة التركية سنة 1336هـ/1918م بمبلغ (520) ريال مجيدي⁽⁶⁾.

2. البغال والكدش والحمير:

وتستخدم للعمل في الزراعة وفي النقل، فقد اهتم أهالي لواء الكرك في البغال والكدش والحمير في الزراعة وحرارة الأرض، ونقل المحاصيل ودرسها، كما استخدمت لنقل المياه من العيون والآبار إلى المنازل، ولا تكاد تخلو تركة من تركات محكمة الكرك الشرعية من الإشارة إليهم، ومن الأمثلة على ذلك فقد اشترى عواد بن هلال بن منصور الخرشنة من درويش الزمعان الحجايا حمارة ثمن قدره (14) ريال مجيدي⁽⁷⁾، واشترى موسى بن درويش الخليلي حمار من الحاج عبده العلاوي بمبلغ (14) قرشاً⁽⁸⁾، واشترى الشيخ حمود بن محمد بن قبلان الشماليه من محمد بن سالم الكركي بغلة بمبلغ (40) ريال مجيدي⁽⁹⁾.

3- الأبقار:

تستخدم الأبقار في إنتاج الحليب ومشتقاته، كما تستخدم في حرارة الأرض ونقل المحصول، وتشير سجلات وثائق محكمة الكرك الشرعية، أن حسين بن محمد الطراونة حرث أرضه المسماة بتلعة الحماط

- (1) عينيات دفترية، نومرو (192) عمومي (81) خصوصي، 6 كانون الثاني 1330 مالية/ 1334هـ/ 1916م، ص33.
- (2) عينيات دفترية، نومرو (11)، 3 مايس 1333 مالية/ 1335هـ/ 1917م، ص7.
- (3) دفتر تسجيل الاعلامات، أوراق (50) قرار (20)، 13 شباط 1919م، ص43.
- (4) Merrill, Selah, East of the Jordan, Richard Benthley and son, London: **A Record of Travel and Observation in the Countries of Moab, Gibed, and Bashan**, Richard Merrill, East of the Jordan Bentley and Son, London, p.471; ويشار له فيما بعد هكذا: Merrill, East of the Jordan
- (5) عينيات دفترية، نومرو (33) عمومي (29) خصوصي، 24 تشرين الأول 1331 مالية/ 1333هـ/ 1915م، ص60-61.
- (6) دفتر تسجيل الاعلامات، أوراق (1121) قرار (1100)، 16 تموز 1919م، ص82-83.
- (7) محكمة الكرك الشرعية، سجل (1)، نومرو (49)، 21 جمادى الثاني 1330هـ/ 1912م، ص16.
- (8) محكمة الكرك الشرعية، سجل (1)، نومرو (106)، 18 جمادى الثاني 1331هـ/ 1913م، ص35.
- (9) محكمة الكرك الشرعية، سجل (1)، عدد (13)، 5 صفر 1334هـ/ 1916م، ص73.

بواسطة رأسين من البقر⁽¹⁾، وكانت تستخدم في دفع المهور، وكان من جملة مهر فضة بنت داود بن سليمان القرالة ثور تبلغ قيمته (35) ريال مجيدي⁽²⁾.

4- الخيول:

إن الخيول التي كانت تربي في الكرك من النوع العربي الأصيل، والتي كانت تستخدم للركوب ولإبراز مظاهر الوجاهة، ونظراً لارتفاع أسعارها كان يشترك في امتلاكها في بعض الأحيان أكثر من وحده، وكانت العادة المتبعة لدى عشائر الكرك عندما يقوم أي فرد إلى بيع فرسه الأصلية، فإنه كان يشترط على المشتري أن تكون له مثالي الفرس، أي المولود الأول، والمولود الثاني من إنتاج الفرس المباعة، فكان عبد القادر بن قاسم الجبور وعبد الله بن محمود بن معيوف يمتلكان مناصفة "الفرس الحمراء التي عمرها نحو ست سنوات هي أصلها وجنسها جلفة أسطى من البولاد نتجت عند علي بن عبد القادر الهنداوي ... وفي مقابل ذلك يكون له منها ومن أولادها النصف ما دامت بينهما شراكة حسب العرف المعلوم"⁽³⁾. وكان صالح بن يوسف القسوس يمتلك فرس قيمتها (250) ليرة انجليزي⁽⁴⁾، وألزمته محكمة بداية الكرك عودة بن سليمان الهلوسة الفرس الحمراء أصلها كبيشة جلفة بمبلغ (75) ليرة انجليزي والذي قام بقتلها بطلق من بارودته، وتعود هذه الفرس في ملكيتها إلى صالح بن عقلة الكفاوين⁽⁵⁾.

5- الجمال:

كانت تربية الجمال شائعة في الكرك عند القبائل البدوية المخيمة في المنطقة، وكانت تستخدم في نقل البضائع والسلع مقابل أجره معينة⁽⁶⁾، فكانت قبائل الحجايا وبني عطية وبني صخر تمتلك أعداد كبيرة من الجمال⁽⁷⁾، وقد باعت هذه القبائل إلى الجيش العثماني (300) جملاً لاستخدامها في نقل الجنود ومعداتهم⁽⁸⁾.

- (1) محكمة الكرك الشرعية، سجل (1)، نومرو (58)، 22 شعبان 1330هـ/1912م، ص21.
- (2) محكمة الكرك الشرعية، سجل (1)، عدد (14)، 25 صفر 1334هـ/1916م، ص75.
- (3) محكمة الكرك الشرعية، سجل (1)، نومرو (109)، 18 رجب 1331هـ/1913م، ص36-37.
- (4) دفتر تسجيل الاعلانات، أوراق (45) قرار (28)، 31 مارس 1919م، ص12.
- (5) دفتر تسجيل الاعلانات، أوراق (52) قرار (33)، 10 نيسان 1919م، ص53.
- (6) Jaussen, P. Antonin. (1948). Coutumes des Arabes au Pays de Moab/ P. Antonin Jaussen. Paris: Librairie D'ameriqueet D'orient. p271
سيشار إليه لاحقاً: Jaussen, Coutumes de Arabes.
- (7) Tristram, The Land of Moab, pp228-306.
- (8) عينيات دفترية، نومرو (45) عمومي (40) خصوصي، 20 أيلول 1331 مالية/ 1335هـ/ 1917م، ص60-61.

خامساً: المشكلات التي واجهت الزراعة في لواء الكرك

1- تعديات القبائل البدوية:

ومن المشكلات التي كان يعاني منها الفلاح في لواء الكرك تعديات القبائل البدوية على القرى والأراضي الزراعية، حيث كانت قطعان الجمال التي تمتلكها القبائل البدوية تتعدى وتتلف ما تجده في طريقها من مزارع. فقد شاهد الرحالة البريطاني مرل (Merrill) عند مروره بسهل مادبا عام 1293هـ/ 1876م ثلاثة قطعان كبيرة من الجمال، يُعد كل قطع بالآلاف، غطت سهلاً يتراوح المسير فيه مسافة ما بين (3-4) ساعات سير⁽¹⁾.

ويذكر الرحالة الألماني ستيزن (Seetzen) الذي زار منطقة الكرك في أواخر شهر صفر 1221هـ/ أيار- مايو 1806م الخراب والدمار في وقت لاحق، الذي أصاب الكرك وريفها بسبب هجمات القبائل البدوية وتعدياتها على الفلاحين وقراهم، فذكر نحو أربعين قرية أصابها الخراب والدمار، ويشير إلى أنه لم يبق في الكرك سوى ثلاث قرى بقيت عامرة ومأهولة بالسكان، وهي: كثرنا والعراق وخنزيرا، ويذكر ستيزن أن التضاريس الطبيعية وفرت لهذه القرى الثلاثة الحماية مما جعل سكانها منأى عن ابتزاز وهجمات البدو، وشاهد ستيزن القبائل البدوية تتجول في ريف الكرك وتتعدى على مزارع الفلاحين، وتعتدي على القرى⁽²⁾.

وكانت الدولة العثمانية تعاني من مشكلة كبيرة في إدخال هذه القبائل تحت طاعتها، أو على أقل تقدير ربط رؤساء هذه القبائل بالاتفاقية تتعهد الدولة بموجها دفع مبالغ وأعطيات سنوية إلى هؤلاء الرؤساء مقابل الحصول على سلامة وأمن الأرياف.

وتذكر جريدة فلسطين الصادرة في يافا عن معاناة الفلاحين شرقي الأردن، فيصف مراسلها في شرقي الأردن ما كان يعانيه الفلاح من الضرائب الباهظة، وتعديل القبائل البدوية على الحقول والمحاصيل الزراعية، فيقول: "كان البدو يطلقون مواشيهم على مزارع الفلاح الذي يضطر إلى السكون خوفاً من بطشهم و انتقامهم"⁽³⁾.

2- الكوارث الطبيعية:

تعرض لواء الكرك للجفاف في عدد من الأعوام، إضافة إلى تذبذب الأمطار، وعدم استقرارها من عامل لآخر، فيحل الضيق بالفلاح وصاحب الحيوانات، فقد حدث في عام 1316هـ/ 1898م قحط وجفاف

(1) Merrill, East of the Jordan, p252.

(2) الطراونة، تاريخ الكرك، ص 41-42.

(3) جريدة فلسطين، يافا، العدد (993)، تاريخ 1927/7/1م، ص5.

في لواء الكرك، مما تسبب بارتفاع أسعار المحاصيل الزراعية، ويأس الفلاحون من شدة القحط⁽¹⁾، كما عانى لواء الكرك عام 1931م من شدة القحط وذوقت الحالة بالفلاح⁽²⁾.

وتعرض لواء الكرك للقحط والجفاف عام 1345هـ/ 1926م⁽³⁾، وقد تعرضت منطقة لواء الكرك للكفاف بين عامي 1346-1348هـ/ 1928-1929م، وقد طلب المجلس التنفيذي (الوزراء) في شرقي الأردن من الأمير عبدالله تأجيل تحصيل ضريبة الأعشار والويركوب بسبب الظروف الاقتصادية المتردية للفلاحين⁽⁴⁾.

وتعرض لواء الكرك للجفاف عام 1350هـ/ 1931م، وعلى أثر الجفاف الذي تعرض له لواء الكرك أصدرت حكومة شرقي الأردن إعفاء لواء الكرك من مبلغ (4760) جنيهات فلسطينية من أصل الضرائب المفروضة على الأراضي الزراعية في اللواء، والبالغة نحو (7848) جنيهاً فلسطينياً⁽⁵⁾.

وبسبب ما عاناه لواء الكرك في عام 1350هـ/ 1931م، من شدة القحط والجفاف، قررت هذه الحكومة إعفاء أهالي لواء الكرك من بقايا الأموال الأميرية، وكما قررت شراء تبن بمبلغ (900) جنية فلسطيني، وتقديم (40) طن من مادة النخالة لتوزيعها على الفلاحين من أجل إعاشة حيواناتهم⁽⁶⁾.

كما تعرض لواء الكرك للقحط والجفاف في عام 1368هـ/ 1949م، وانتشرت المجاعة بين كثير من سكان اللواء، كما ونفقت حيوانات كثيرة بسبب الجفاف⁽⁷⁾.

وعانى لواء الكرك من الكوارث الطبيعية فعلى سبيل المثال تذكر جريدة البشير الصادرة في بيروت عام 1298هـ/ 1880م، أنه هطلت الثلوج في لواء الكرك لم يعهد لها مثيل دامت أربعين يوماً، تسبب بوفاة (31) شخص، وانهارت الكثير من المنازل، ونفقت أعداد كبيرة من الثروة الحيوانية في المنطقة⁽⁸⁾.

وذكرت جريدة المقتبس في عددها (597) تاريخ 11 صفر 1329هـ/ 11 شباط 1911م، أن الثلوج الكثيفة التي تساقطت في لواء الكرك تسبب في نفوق أعداد كبيرة من الثروة الحيوانية⁽⁹⁾.

كما كانت المزروعات في لواء الكرك عرضة لخطر الصقيع، والرياح الشمالية والرياح الشرقية المسببة للجفاف، كما تتعرض المنطقة لخطر الرياح الخماسينية الحارة المحملة بالغبار، والتي لها تأثيراً سيئاً على المزروعات⁽¹⁰⁾.

(1) جريدة البشير، بيروت، العدد (1324)، تاريخ 1898/2/24م، ص 3.

(2) جريدة فلسطين، يافا، العدد (1845)، تاريخ 1931/10/20م.

(3) جريدة فلسطين، يافا، العدد (1845)، تاريخ 1931/10/20م.

(4) جريدة فلسطين، يافا، العدد (1118)، تاريخ 1928/9/31م، ص 2.

(5) جريدة فلسطين، يافا، العدد (1810)، تاريخ 1931/9/18م، ص 3.

(6) جريدة فلسطين، يافا، العدد (1845)، تاريخ 1931/10/20م، ص 7.

(7) جريدة الأردن، عمان، العدد (1316)، تاريخ 1949/4/21م، ص 2.

(8) جريدة الكرمل، حيفا، العدد (1209)، تاريخ 1926/11/14م.

(9) جريدة المقتبس، دمشق، العدد (597)، تاريخ 1911/2/11م.

(10) جريدة البشير، بيروت، العدد (1234)، تاريخ 1895/6/15م، ص 7.

3- الأمراض والأوبئة التي كانت تفتك بالفلاحين:

ومن الأمراض والأوبئة التي كانت تفتك بالفلاحين في لواء الكرك، ومن هذه الأمراض: البذرة الخبيثة، الحمى المالطية، وأبو كعب، والالتهاب الدماغى الشوكي، والكوليرا، والتيفوس، والحصبة، والحمى الصفراء، والجدرى، والملاريا وغيرها، فهذه الأمراض كانت تفتك بأعداد كبيرة من الأهالي، وكانت بالعهد العثماني أشد فتكاً نظراً لقلّة الخدمات الصحية والنقص في أعداد الأطباء والعقاقير⁽¹⁾. والجدول الآتي الرسمي المعتمدة في أعلاه تقارير دائرة الصحة في إمارة شرقي الأردن في الفترة ما بين عامي 1928-1939م.

والجدول الآتي يبين الأمراض السارية والأوبئة في لواء الكرك في الحقبة 1928-1939م.



(1) جريدة الشرق العربي، عمان، العدد (124)، تاريخ 1926/3/1م.

جدول رقم (21) يبين الأمراض السارية في الكرك⁽¹⁾

السنة المرض	1928م	1929م	1930م	1931م	1932م	1935م	1936م	1937م	1938م	1939م
حصبة	الإصابات	113	495	365	35	78	3	27	37	318
الوفيات	14	29	19	11	11	-	1	-	1	2
ذات الرئة	الإصابات	13	7	4	7	11	2	2	-	4
الوفيات	1	1	1	2	4	-	-	1	-	-
التيفوئيد	الإصابات	-	-	3	1	5	13	9	10	14
الوفيات	-	-	-	-	-	2	3	1	-	3
ديزانتاري (الزحار)	الإصابات	16	12	25	17	4	2	2	7	10
الوفيات	-	-	-	-	1	-	-	-	-	-
باراتيفوئيد	الإصابات	-	-	-	4	-	1	2	2	5
الوفيات	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-

(1) دائرة الصحة العامة مصلحة الصحة العامة التقارير السنوية، دائرة الصحة العامة، التقرير السنوي عام 1928م، عمان، 1928م، ص 17-18؛ دائرة الصحة العام، التقرير السنوي، عام 1929م، عمان 1929م، ص 18؛ دائرة الصحة العامة، التقرير السنوي، عام 1930م، عمان 1930م، ص 19-21؛ دائرة الصحة العامة، التقرير السنوية عام 1931م، عمان 1931م، ص 22-23؛ دائرة الصحة العامة، التقرير السنوي عام 1932م، عمان، 1932م، ص 12-13؛ دائرة الصحة العامة، التقرير السنوي عام 1935م، عمان، 1935م، ص 13-14؛ دائرة الصحة العامة، التقرير السنوي عام 1936م، عمان، 1936م، ص 14؛ دائرة الصحة العامة، التقرير السنوي عام 1937م، عمان، 1937م، ص 13-15؛ دائرة الصحة العامة، التقرير السنوي عام 1938م، عمان، 1938م، ص 11-12؛ دائرة الصحة العامة، التقرير السنوي عام 1939م، عمان، 1939م، ص 10-12.

1	1	1	3	8	1	4	6	3	1	الإصابات	بنت الحمراء
-	-	-	1	1	-	-	-	-	-	الوفيات	
38	-	8	-	1	3	12	18	-	-	الإصابات	سعال ديكي
-	-	-	-	-	-	1	-	-	-	الوفيات	
-	-	-	-	-	-	-	-	2	-	الإصابات	جدري
-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	الوفيات	
2	2	7	9	3	7	1	-	5	2	الإصابات	جدري مائي
-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	الوفيات	
-	10	1	-	-	1	-	3	-	2	الإصابات	أبو كعب (التكاف)
-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	الوفيات	
1	1	5	1	-	2	2	3	3	1	الإصابات	حمى النفاس
-	-	1	1	-	-	-	-	1	1	الوفيات	
1	-	-	1	1	-	-	-	-	-	الإصابات	حمى راجعة
-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	الوفيات	
-	-	1	-	-	-	-	1	-	-	الإصابات	البثرة الخبيثة
-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	الوفيات	
17	14	42	68	23	49	12	104	1	35	الإصابات	أنفلونزا
-	-	1	-	2	12	3	5	-	3	الوفيات	
-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	الإصابات	أبو الركب
-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	الوفيات	
-	-	6	6	19	13	11	-	-	-	الإصابات	تيفوس
-	-	1	2	-	2	3	-	-	-	الوفيات	
2	1	2	-	-	-	-	1	-	1	الإصابات	دفتيريا (الشاهوق)
-	-	1	-	-	-	-	1	-	1	الوفيات	
1	-	2	-	-	-	2	-	3	2	الإصابات	التعقبة
-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	الوفيات	
185	98	98	-	-	31	20	41	45	73	الإصابات	الداء الإفرنجي
-	-	1	-	-	9	-	-	-	-	الوفيات	

108	77	60	-	-	21	14	8	4	12	الإصابات	السل بأنواعه
-	2	3	-	-	8	4	1	2	4	الوفيات	
296	252	288	-	-	-	-	-	-	-	الإصابات	الملاريا
-	-	1	-	-	-	-	-	-	-	الوفيات	
1007	522	555	132	77	227	152	582	580	373	الإصابات	المجموع
8	7	13	9	6	46	25	26	33	24	الوفيات	

المصدر: دائرة الصحة العامة، التقارير السنوية من عام 1939-1928م.

4- الأمراض النباتية والآفات الحشرية:

1. الجراد:

كان لواء الكرك عرضة لغزوات الجراد المضرّة التي تلحق بالفلاحين خسائر جسيمة، والجراد الذي كان يهاجم لواء الكرك يعرف بالجراد النجدي، لقد هاجم الجراد لواء الكرك في عام 1314هـ/1896م، وقضى على كثير من المحاصيل⁽¹⁾. وفي عام 1316هـ/1898م، هاجم الجراد المزروعات في لواء الكرك وأتلف أكثرهم⁽²⁾، وفي عام 1317هـ/1899م، غزا الجراد جميع أراضي لواء الكرك وأتلف مساحات كبيرة من المحاصيل الزراعية⁽³⁾.

وفي زمن الحكومة العربية الفيصلية في دمشق زحف الجراد عام 1919م على لواء الكرك، فكافحته الحكومة العربية بقوة، وأصدرت تعليماتها لتحديد كيفية القضاء عليه⁽⁴⁾. وشهدت فترة الإمارة المبكرة زحفاً متتابعاً للجراد، وفي عام 1346هـ/1928م، وضعت تعليمات خاصة لمكافحة الجراد، وحددت لجان مسؤولية عن المكافحة، وأعطى للمختير دور كبير في هذه العملية⁽⁵⁾، وقد استمر تأثير الجراد في هذه السنة لمدة شهر كامل، وصدر بلاغ بحث رؤساء الدواوين والمصالح التي ينتمي إليها الموظفون

(1) جريدة البشير، بيروت، العدد (1234)، تاريخ 15/6/1895م، ص7.

(2) جريدة البشير، بيروت، العدد (1236)، تاريخ 6/6/1898م، ص3.

(3) جريدة البشير، بيروت، العدد (1384)، تاريخ 8/5/1899م، ص8.

(4) جريدة العاصمة، دمشق، العدد (18)، تاريخ 17/4/1919م، ص3.

(5) جريدة الشرق العربي، عمان، العدد (181)، تاريخ 15/2/1928م، ص4-5.

المعنيون بمكافحة الجراد، بالاستمرار بالقيام بواجباتهم⁽¹⁾، و ثم تكوين لجان في إربد لمكافحة الجراد. تتكون من المتصرف ورئيس البلدية واحد موافي المالية ومع قائد الدرك وأحد الأهلين، وأحد أعضاء مجلس الإدارة مع أركان حرب المقاطعة وأحد موظفي الزراعة مع كاتب الرسائل⁽²⁾.

وهاجمت أسراب الجراد مناطق شرقي الأردن في عام 1345هـ / 1927م وقضت على مساحات شاسعة من المحاصيل الشتوية والصيفية، وقد اتخذت دائرة الزراعة التدبير اللازمة⁽³⁾.

ونظراً لكثافة أسراب الجراد الصحراوي (النجدي) الذي اجتاحت شرقي الأردن، رفعت مديرية الزراعة والأحراش تقريراً لرئيس النظائر (رئيس الوزراء)، جاء فيه أنها طلبت من حكومة فلسطين أن تزودها "بقاذفات اللهب والسموم، وكمية كبيرة من الزرنين الأبيض والعسل الأسود لمكافحة الجراد، فلبت طلبها وأرسلته بصحبة مدير قسم الحشرات ومساعدته، فما لبثت أن أبادت ما يقارب (21) طنناً من الجراد الطيار"⁽⁴⁾.

وفي عام 1346هـ / 1928م هاجمت أسراب كبيرة من الجراد الصحراوي القادم من منطقة نجد أراضي شرقي الأردن، فاهتمت الحكومة بالأمر، وطلبت من مدير الزراعة التوجه إلى مناطق معان ووادي موسى والشوبك والطفيلة والكرك لمكافحة، واصطحب معه مدير الزراعة العمال والمعدات اللازمة كافة لمكافحة "بسموم قاتل" وثمان آلاف قاذفات اللهب و(240) من ألواح الزنك، وكافة ما يلزم⁽⁵⁾.

وغزا الجراد الصحراوي الكرك في عام 1347هـ / 1929م، وتسبب في تلف المحاصيل⁽⁶⁾. وقد بلغ "ما اتلف منه ما يزيد عن الألفي كيس عدا ما أتلفته قاذفات اللهب"⁽⁷⁾. وغزت أسراب الجراد مناطق العقبة ومعان والشوبك ووادي موسى والطفيلة في 1348هـ / 1930م وتسبب في إتلاف مساحات واسعة من الحبوب، وشكلت الحكومة لجنة من المأمورين برئاسة شفيق حمزة معاون مدير الزراعة للإشراف على مكافحته وإبادته بوساطة السموم وقاذفات اللهب⁽⁸⁾.

واجتاحت الجراد في عام 1349هـ / 1931م مساحات كبيرة من الأجزاء الجنوبية والشرقية من شرقي الأردن، وسبب أضراراً كبيرة للمحاصيل الزراعية⁽⁹⁾، وتوجه إلى هذه الجهات مساعد مدير الزراعة ليشراف على أعمال مكافحة هناك⁽¹⁰⁾.

- (1) جريدة الشرق العربي، عمان، العدد (191)، تاريخ 1928/3/1م، ص 8.
- (2) جريدة الشرق العربي، عمان، العدد (187)، تاريخ 1928/4/15م، ص 10-11.
- (3) جريدة فلسطين، يافا، العدد (993)، تاريخ 1927/7/1م، ص 5.
- (4) جريدة فلسطين، يافا، العدد (1001)، تاريخ 1927/7/29م، ص 3.
- (5) جريدة فلسطين، يافا، العدد (1056)، تاريخ 1928/2/14م، ص 6.
- (6) جريدة فلسطين، يافا، العدد (1160)، تاريخ 1929/2/22م، ص 4.
- (7) جريدة فلسطين، يافا، العدد (1270)، تاريخ 1930/2/17م، ص 2.
- (8) جريدة فلسطين، يافا، العدد (1427)، تاريخ 1930/4/27م، ص 2.
- (9) جريدة فلسطين، يافا، العدد (1698)، تاريخ 1931/4/22م، ص 5.
- (10) جريدة فلسطين، يافا، العدد (1725)، تاريخ 1931/5/24م، ص 5.

وكان الناس يكافحون الجراد بطريقتين الأولى بحفر أخاديد عميقة وطويلة، ويقوم المزارعون بمهاجمة الجراد في الصباح الباكر وإجباره على الزحف نحو الأخاديد حتى يسقط فيها ثم يطمرونها بالتراب⁽¹⁾، والطريقة الثانية بجمع بيض الجراد من الأرض وإتلافه كما حدث في عام 1333-1334هـ/1915-1916م⁽²⁾.

وبما أن الجراد يجتاح بلداناً عديدة في آنٍ واحد فقد اتفقت بلدان الشرق الأدنى على تأليف جبهة واحدة لمحاربة هذا العدو بناءً على اقتراح قدمه الكولونيل سافر (Colonel Saver) في 1324هـ/1925م، وكان حينذاك مدير الزراعة في فلسطين فلاقى الاقتراح قبول حكومات سوريا والعراق ومصر وفلسطين وشرق الأردن، ورحبت به كخطوة إلى الأمام في سبيل محاربة غزوات الجراد. وفي عام 1345هـ/1926م اجتمع في دمشق مندوبو هذه الحكومات في الشرق الأدنى لوضع دستور لهذه اللجنة التي أطلق عليها اسم "المكتب الدولي في دمشق للاستعلام عن الجراد"، وفي أثناء ذلك العام السابق، وأصبح مركز المكتب الرئيسي في دمشق، بدأت اللجنة عملها مع حكومات فلسطين وشرقي الأردن والعراق ومصر وسوريا كأعضاء في اللجنة المذكورة. وعمل هذا المكتب أن يجمع ثم ينشر المعلومات من حركات الجراد المتلفة في أي بلاد كانت في الشرق الأدنى ويرفق تلك المعلومات بإرشادات عن طرق مقاومة هذه الحركات. وفضلاً عن ذلك يصدر المكتب سنوياً كتيباً يحتوي على خلاصة ما قام به في أثناء تلك المدة المالية⁽³⁾.

وقد اقترح المكتب الدولي المذكور في دمشق عدة طرق استعملتها بلدان الشرق الأدنى في محاربة الجراد، منها استعمال "محال" كبيرة لسحق إناث الجراد عندما تكون بارزة في التراب. ويمكن إتلاف البيوض إتلافاً يكاد يكون تاماً بحرث الأرض مرات متعددة في فترات مختلفة، وذلك يسحق البيوض أو يطمرها في التراب إلى عمق بعيد أو يعرضها للهواء وحرارة الشمس فتتبيس. ويمكن إتلاف جنادب الجراد بطرق متعددة، فحيث تكثر الأيدي العاملة يمكن جمع الجنادب في أكياس، وذلك قبل شروق الشمس وبعد غروبها أي عندما تشعر بالبرد فلا تقدر على الحركة ثم تحرق أو تطمري التراب كسماد له. وهناك طريقة أخرى وهي حفر حفرة كبيرة يضعون على أحد جوانبها صفائح من التنك أو الزنك ثم يطردون جنادب الجراد نحوها فتتزلق عليها وتجتمع ثم يحرقون تلك الجنادب أو يطمرونها في التراب. وهناك أيضاً الأدوية القاتلة للحشرات، فإنه يمكن استعمالها عندما يكون الجراد في أطوار نموه الأولى⁽⁴⁾.

وظهر في محاربة الجراد في سوريا أن أشد هذه الأدوية القاتلة تأثيراً زرنبيخات الصوديوم والصدودا الحارقة ومحلل الصابون. وكذلك مضخات الناروقاذفات اللهب التي ترش محلولاً سريع الالتهاب جداً

(1) Janssen, Costumes, pp. 250-251.

(2) جريدة المقتبس، دمشق، العدد (1558)، تاريخ 1915/4/6م، ص2؛ جريدة المقتبس، دمشق، العدد (1587)، تاريخ 1916/5/9م، ص1.

(3) خوري، "الزراعة"، في كتاب: النظام الاقتصادي في سوريا ولبنان، ص 114.

(4) خوري، "الزراعة"، في كتاب: النظام الاقتصادي في سوريا ولبنان، ص 115.

من زيت " ديزل " مع جزء واحد من البترول على الجماعات الكثيفة من الجنادب. وهذه الطريقة أفتك الطرق بالجراد، إلا أنها تكلف كثيراً⁽¹⁾.

واجتاح الجراد الكرك في عشرينيات القرن العشرين في السنوات 1928 م و 1929 م و 1930 م، فنظمت دائرة الزراعة الحملات عليه وقدمت الحكومة العمال والتجهيزات لهذه الغاية، فجاءت النتيجة مرضية جداً فوق المعتاد. فكانت الأضرار التي حلت بالبلاد من جرانه قليلة جداً لا يؤبه لها؛ إذ كان يتلف الجراد حين هبوطه على حدود فلسطين وفي شرق الأردن. فكانت تعين الأرض التي غرز ووضع بيوضه فيها ثم تتلف الجنادب والبيوض معاً. وبذلك نجت البلاد من أضرار شديدة كانت تحل فيها قبل الحرب كلما اجتاحتها أرجال الجراد في مدات دورية، دون أن تلقى المقاومة الشديدة الفعالة. وفي البلاد الآن معدات وتجهيزات عظيمة مهيأة لمكافحة هذه الآفة فيما لو ظهرت في المستقبل. وللسرعة في أعمال المقاومة والمكافحة سنت الحكومة "قانون إبادة الجراد لعام 1927 م"⁽²⁾.

2- جردان الحقل:

وعرف أيضاً باسم (فئران الحقل)، وأثرت جرادين الحقل على المحاصيل الزراعية، وكانت تهاجم حقول القمح، وشاهد الرحالة الإنجليزي ترسترام (Tristram) جردان الحقل تهاجم حقول القمح في سهول مؤاب⁽³⁾، وذكرت جريدة العاصمة التي كانت تصدر في دمشق أن جردان الحقل أتلقت مساحات واسعة من حقول الحنطة في لواء الكرك عام 1337 هـ / 1918 م⁽⁴⁾، وقد استجلبت الحكومة العربية الفيصلية مكافحة الجردان مادة "زهر الكبريت"، ووزعتها على المزارعين لمكافحته⁽⁵⁾.

3- الحشرات

من الحشرات التي تهاجم المحاصيل الزراعية في لواء الكرك⁽⁶⁾: حشرة السونة، والنمشة السوداء، النمشة الحمراء، الحشرة القشرية المستطيلة ذبابة الفاكهة.

- (1) خوري، " الزراعة "، في كتاب: النظام الاقتصادي في سوريا ولبنان، ص 115.
- (2) الجريدة الرسمية، عمان، العدد (246)، تاريخ 1929/12/31 م؛ حجازي، سامح، أعمال مكافحة الجراد في قضاء مأدبا عام 1939 م، تحقيق وإعداد محمد ربيع، مركز رأي للدراسات والمعلومات، عمان، 2005 م، ص 16، وسيشار إليه لاحقاً: حجازي، أعمال مكافحة الجراد في قضاء مأدبا؛ براون، موناتاغيو، "الزراعة"، تحرير حمادة، سعيد، النظام الاقتصادي في فلسطين، منشورات الجامعة الأمريكية، بيروت 1939 م، ص 135، وسيشار إليه لاحقاً: براون، "الزراعة".
- (3) Tristram. The Land of Moab, P. 315.
- (4) جريدة العاصمة، دمشق، العدد (7)، تاريخ 1919/3/19 م، ص 7-8.
- (5) جريدة العاصمة، دمشق، العدد (22)، تاريخ 1919/5/12 م، ص 8.
- (6) خوري، "الزراعة"، ضمن كتاب النظام الاقتصادي في سوريا ولبنان، ص 115-116؛ الجريدة الرسمية، عمان، العدد (176)، تاريخ 1928/1/15 م؛ براون، "الزراعة"، ص 131؛ جريدة فلسطين، يافا، العدد (1454)، تاريخ 1930/5/31 م، ص 4؛ براون، "الزراعة"، ص 232؛ براون، "الزراعة"، ص 231؛ الجريدة الرسمية، عمان، العدد (176)، تاريخ 1928/1/15 م.

وقد أصدرت حكومة شرقي الأردن في عام 1347هـ/ 1928م، أمر عدت فيه الحشرات الآتية وباءً حسب المعنى المقصود في القانون، وهي: الجنادب (أوربتترا)، حشرة السونة، حراشف ماصل، مرض النحل (باشلس لارفا وباشلس بلوتن)، بق الهسكوس، مرض اليرقان (أوستيللا جوميدس) الذي يصيب الذرة، الحشرة القشرية.

4- أمراض الحيوانات:

لقد استخدمت حكومة شرقي الأردن عدداً من الأطباء البيطريين الأكفاء لحماية قطعان الحيوانات في إمارة شرقي الأردن، وللقيام بعمليات مكافحة السريعة فيما لو ظهر فجأة وباءً عارض، ولمقاومة واستئصال الأمراض المحلية الخطرة تدريجياً. وقد ظهر قبل في البلاد الطاعون البقري (الوباء البقري) ونجحت الحكومة باستئصاله دون أن ينزل بالفلاحين أضراراً تذكر، بينما في العهد التركي كان هذا الوباء ينزل بالبلاد أضراراً جمة كل سنتين أو ثلاث.

وقد تقدمت مكافحة الأمراض المحلية تقدماً يذكر وهي لا تزال مستمرة في سيرها إلى الأمام. وأهم الأمراض التي تهاجم الحيوانات هي حميات القراد والإجهاض البقري المعدي وفرخ الجمر (انثراكس) وأمراض الخيل، ومنها: السقاوة، المغص، الحمى الفحمية (أبو طحيل)، السراحة، الدبر، التهاب الأوعية الليمفاوية، الزهري والدودة المعدية (الجعام)، الجرب، العلق، الجدري، وأمراض الدواجن المختلفة⁽¹⁾.

سادساً: النقود:

1- النقود العثمانية المتداولة في مركز لواء الكرك:

1. النقود الذهبية:

كانت عملة التداول الرئيسية في لواء الكرك الليرة العثمانية، والمضروبة من الذهب، وأصبحت الليرة العثمانية وحدة النقد الرئيسية للدولة منذ عام 1260هـ/ 1844م، وعرفت أحياناً بالليرة المجيدية نسبة إلى السلطان عبد المجيد الأول، وكانت تساوي رسمياً (100) غرش⁽²⁾، وكان من أجزائها نصف الليرة، وربع الليرة، ومن مضاعفاتها الليرتان والنصف، والخمس ليرات⁽³⁾.

(1) براون، "الزراعة"، ص233؛ القسوس، ملامح من التراث، ص88-94.

(2) Baldensperger, Philip. "The Immovable East", Palestine Exploration Fund, Quarterly statement, London, January 1906-1920, pp50;. A Hand Book of Syria Ruppin, Arthyr., Syrien als Wirtsch of tsgebiet, E.S. Mittler and Sohn, Berlin, 1916, p318; وسيشار إليه لاحقاً: A Hand Book of Syria Ruppin

الأنسى، عبد الباسط (ت1347هـ/ 1928م)، "دليل بيروت"، تقويم الإقبال لسنة 1327هـ/ 1910م، بيروت، مطبعة الإقبال، لا تاريخ.

(3) جريدة البشير، بيروت، العدد (1905)، تاريخ 1909/4/5م.

وذكرت سالنامه ولاية سورية أن سعر صرف الليرة العثمانية في الكرك في الفترة بين 1315-1318هـ/ 1900-1897م، هو (120) قرشاً⁽¹⁾، وأشارت وثائق محكمة الكرك الشرعية أن قيمة الليرة العثمانية عام 1336هـ/1918م، كان (130) قرشاً و (30) بارة⁽²⁾، واستمرت الليرة في التداول في لواء الكرك حتى عام 1927م.

والجدول الآتي يبين أجزاء الليرة العثمانية ومضاعفاته والذهب الصافي وسعر الصرف الرسمي لها. جدول رقم (22) يبين أجزاء الليرة ومضاعفاتها ونسبة الذهب فيها وسعر صرفها الرسمي في لواء

الكرك⁽³⁾

أجزاء الليرة ومضاعفاته	الذهب الصافي / قمحة	سعر الصرف الرسمي / غرش
خمس ليرات	510.4288	500
ليرتان ونصف الليرة	255.2144	250
ليرة	102.0858	100
نصف ليرة	51.0429	50
ربع ليرة	25.5214	25

المصدر: حمادة، سعيد، النظام النقدي والصيرافي في سوريا، ص 24.
2. النقود الفضية:

كان القرش وحدة التعاون الرئيسية في مركز لواء الكرك، وأصله القرش الصحيح، أو قرش صاغ الخزينة، وهو يشكل القيمة الرسمية للقرش، وعند صرفه يصرف بأربعين بارة⁽⁴⁾، وميزت وثائق محكمة

(1) سالنامه ولاية سورية سنة 1315هـ/1897م، دفعة (29)، مكتوبى ولايتك تحت نظاركندة اوله رق، ترتيب أولنمشدر، سورية ولايتي مطبعة سنده، 1315هـ/1897م، ص338؛ سالنامه ولاية سورية سنة 1316هـ/1898م، دفعة (30)، مكتوبى ولايتك تحت نظارتندة اوله رق، ترتيب أولنمشدر، 1316هـ/1898م، ص350؛ سالنامه ولاية سورية سنة 1317هـ/1899م، دفعة (31)، سورية ولايتي مطبعة سنده، طبع أولنمشدر، 1317هـ/1899م، ص377؛ سالنامه ولاية سورية سنة 1318هـ/1900م، دفعة (32)، سورية ولايتي مطبعة سنده، طبع أولنمشدر، 1318هـ/1900م، ص384.

(2) محكمة الكرك الشرعية، سجل (1)، نومرو (33)، تاريخ 22 ربيع الأول 1336هـ/1918م، ص125.

(3) U.S. Office of the Director of the Mint, Monetary Systems of the Principal Countries of the World (Washington) 1917, p56.

وسيشار إليه لاحقاً: U.S. Office of the Director of the Mint.

(4) A Hand Book of Syria Ruppin, p 318.

الكرك الشرعية بين نوعين من القروش: القرش الصحيح أو الصاغ، وكان يشار إليه في الوثائق الشرعية "قرش العملة الصاغ"⁽¹⁾، أو "قرش صاغ الخزينة"⁽²⁾، أو "قرش صاغ عثماني"⁽³⁾، أو "قرش عملة صاغ الميري"⁽⁴⁾، أو "قرش صحيحة"⁽⁵⁾.

وظهر في التعامل التجاري نتيجة التلاعب بوزن القرش، وذلك بالتقليل من نسبة الفضة فيه، ما يعرف بالقرش الرائج (الدارج)، ويشار إليه في الوثائق الشرعية باسم "قرش رائج البلدة"⁽⁶⁾، أو "قرش العملة الرائجة في بندر هذه القصبه"⁽⁷⁾، أو "قرش العملة الدارجة في بندر قصبه الكرك"⁽⁸⁾، فالقرش الصاغ هو القيمة الرسمية للقرش، ويساوي أربعين بارة⁽⁹⁾، أما القرش الرائج هو الذي يستخدم في المعاملات التجارية والشؤون العامة، وكانت قيمته أقل من قيمة القرش الصاغ.

كان الريال المجيدي هو وحدة النقد الفضية الرئيسية، ويعادل رسمياً عشرين قرشاً صاغاً، أو خمس الليرة العثمانية الذهب، وقد وضعت له هذه النسبة عام 1299هـ/ 1880م⁽¹⁰⁾، وعرف بريال المجيدي نسبة إلى السلطان عبد المجيد الأول التي ضربت في عهده عام 1260هـ/ 1844م⁽¹¹⁾.

وذكر الريال المجيدي في وثائق محكمة الكرك الشرعية باسم "الريال المجيدي الأبيض"⁽¹²⁾، وأشار إليه أحياناً ريال مجيدي عثماني⁽¹³⁾، ومن أجزائه: ربع الريال المجيدي، ونصف الريال المجيدي⁽¹⁴⁾.

وكان سعر صرف الريال المجيدي (20) قرشاً، وتراوح قيمته في مركز لواء الكرك ما بين (19) قرشاً، و(24) قرشاً وعشر بارات، ويوضح الجدول الآتي المستخلص من وثائق محكمة الكرك الشرعية قيمته في مركز لواء الكرك.

- (1) محكمة الكرك الشرعية، سجل (1)، نومرو (44)، تاريخ 6 شعبان 1334هـ/ 1916م، ص 103.
- (2) محكمة الكرك الشرعية، سجل (1)، نومرو (46)، تاريخ 21 ربيع الثاني 1330هـ/ 1912م، ص 15.
- (3) محكمة الكرك الشرعية، سجل (1)، نومرو (20)، تاريخ 14 ربيع الثاني 1337هـ/ 1919م، ص 139.
- (4) محكمة الكرك الشرعية، سجل (1)، نومرو (11)، تاريخ 29 صفر 1335هـ/ 1917م، ص 115.
- (5) محكمة الكرك الشرعية، سجل (1)، نومرو (124)، تاريخ 6 ذي القعدة 1331هـ/ 1913م، ص 41.
- (6) محكمة الكرك الشرعية، سجل (1)، نومرو (76)، تاريخ 16 ذي الحجة 1330هـ/ 1912م، ص 25.
- (7) محكمة الكرك الشرعية، سجل (1)، نومرو (12)، تاريخ 6 جمادى الثاني 1334هـ/ 1916م، ص 86-87.
- (8) محكمة الكرك الشرعية، سجل (1)، نومرو (17)، تاريخ 26 جمادى الأولى 1334هـ/ 1916م، ص 83.
- (9) محكمة الكرك الشرعية، سجل (1)، نومرو (22)، تاريخ 2 رجب 1334هـ/ 1916م، ص 92، وانظر: A Hand book of Syria, p318
- (10) حمادة سعيد، النظام النقدي والصيرافي في سوريا، ص 26.
- (11) Pakalin, Mehmet, Zeki, Osmanli Tarih Deyimlerive Termleri Soztugu, Cilt. 3, ikinci Basilis, Istanbul 1971, C.2, P428. سيشار له فيما بعد هكذا: Pakalin, Osmanli, C.2, P428
- (12) محكمة الكرك الشرعية، سجل (1)، نومرو (34)، تاريخ 27 ربيع الأول 1336هـ/ 1918م، ص 126.
- (13) محكمة الكرك الشرعية، سجل (1)، نومرو (7)، تاريخ 8 ذي القعدة 1331هـ/ 1913م، ص 72.
- (14) Pakalin, Osmanli, C.2, P428.

جدول رقم (23) يبين قيمة الريال المجيدي في لواء الكرك⁽¹⁾

العام	قيمه	
	غرش	بارة
1331هـ/1912م ⁽²⁾	19	00
1333هـ/1915م ⁽³⁾	19	00
1334هـ/1916م ⁽⁴⁾	24	30
1334هـ/1916م ⁽⁵⁾	24	10
1334هـ/1916م ⁽⁶⁾	23	00
1334هـ/1916م ⁽⁷⁾	20	00
1335هـ/1917م ⁽⁸⁾	20	00
1336هـ/1918م ⁽⁹⁾	24	10

المصدر: حمادة، سعيد، النظام النقدي والصيرافي في سوريا، ص 24.

ومن النقود الفضية التي كانت مداولة في مركز لواء الكرك الالتيلق (الالتيلك)، كلمة تركية من (آتي) بمعنى ستة، و(لك) للدلالة على النسبة، ومعنى الكلمتين ذو الستة، وكانت قيمته أول إصداره ستة قروش⁽¹⁰⁾. وقد ضرب في عهد السلطان محمود الثاني ما بين 1249-1255هـ/1833-1839م⁽¹¹⁾، ومن

(1) U.S. Office of the Director of the Mint, p56.

(2) محكمة الكرك الشرعية، سجل (1)، ونومرو (14)، تاريخ 6 ذي القعدة 1331هـ/ 1913م، ص 41.

(3) محكمة الكرك الشرعية، سجل (1)، ونومرو (72)، تاريخ 21 محرم 1333هـ/ 1915م، ص 63.

(4) محكمة الكرك الشرعية، سجل (1)، ونومرو (14)، تاريخ 25 صفر 1334هـ/ 1916م، ص 74.

(5) محكمة الكرك الشرعية، سجل (1)، ونومرو (18)، تاريخ 2 جمادى الثاني 1334هـ/ 1916م، ص 90.

(6) محكمة الكرك الشرعية، سجل (1)، ونومرو (34)، تاريخ 21 رجب 1334هـ/ 1916م، ص 98.

(7) محكمة الكرك الشرعية، سجل (1)، ونومرو (35)، تاريخ 21 رجب 1334هـ/ 1916م، ص 99.

(8) محكمة الكرك الشرعية، سجل (1)، ونومرو (12)، تاريخ 20 محرم 1335هـ/ 1917م، ص 115.

(9) محكمة الكرك الشرعية، سجل (1)، ونومرو (33)، تاريخ 21 ربيع الأول 1336هـ/ 1918م، ص 125.

(10) سامي، شمس الدين، قاموس تركي، إقدام مطبعة سي، درسعادت، 1318هـ، ص ؛ سيشار له فيما بعد هكذا:

سامي، قاموي تركي؛ المجذوب، طلال ماجد، تاريخ صيدا الاجتماعي 1840-1914م، منشورات المكتبة العصرية،

صيدا- بيروت، 1983م، ص 148، سيشار إليه لاحقاً: المجذوب، تاريخ صيدا الاجتماعي، Pakalin, Osmanli,

C.1, PP53-54

(11) المجذوب، تاريخ صيدا الاجتماعي، ص 148؛ السوارية، عمان وجوارها، ص 387؛ Pakalin, Osmanli, C.1,

PP53-53

أجزائه نصف اللتيلق، وربع اللتيلق⁽¹⁾، وذكرت سالنامه ولاية أن سعر صرفه في الكرك ما بين سنتي 1315-1318هـ/1897-1900م ما بين ستة قروش وعشر بارات، وستة قروش وعشرين بارة⁽²⁾. والجدول الآتي يبين النقود الفضية وأجزائها ونسبة الفضة فيها وسعر صرفها الرسمي. جدول رقم (24) يبين النقود العثمانية وأجزائها ونسبة الفضة فيها وسعر صرفها في مركز لواء الكرك⁽³⁾

النقود الفضية وأجزائها	الفضة الصافية/ حبة	سعر الصرف الرسمي
المجيدي	308.1107	20 قرش
نصف المجيدي	154.0546	10 قروش
ربع المجيدي	77.0546	5 قروش
غرشان (برغووث كبير)	30.8115	غرشان
غرش (برغووث صغير)	15.4042	غرش
نصف غرش (نصف برغووث)	7.7021	(20) بارة
اللتيلق	-	(6) قروش و (15) بارة

المصدر: حمادة، سعيد، النظام النقدي والصيرافي في سوريا، ص 25.

3. النقود النحاسية والنيكل:

كانت أهم النقود النحاسية والنيكل المتداولة في مركز لواء الكرك، الآتي:

(1) Pakalin, Osmanli, C.1, PP53-53

(2) سالنامه ولاية سورية سنة 1315هـ/1897م، دفعة (29)، مكتوبى ولايتك تحت نظاركندة اوله رق، ترتيب أولنمشدر، سورية ولايتي مطبعة سنده، 1315هـ/1897م، ص338؛ سالنامه ولاية سورية سنة 1316هـ/1898م، دفعة (30)، مكتوبى ولايتك تحت نظارتده اوله رق، ترتيب أولنمشدر، 1316هـ/1898م، ص350؛ سالنامه ولاية سورية سنة 1317هـ/1899م، دفعة (31)، سورية ولايتي مطبعة سنده، طبع أولنمشدر، 1317هـ/1899م، ص377؛ سالنامه ولاية سورية سنة 1318هـ/1900م، دفعة (32)، سورية ولايتي مطبعة سنده، طبع أولنمشدر، 1317هـ/1899م، ص384.

(3) U.S. Office of the Director of the Mint, p56.

- البارة: وهي أصغر وحدة نقد عثمانية ضربت من معدن النحاس سنة 1260هـ/ 1844م⁽¹⁾. ومضاعفاتها الخمس بارات، والعشر بارات، وعشرون بارة، والأربعون بارة⁽²⁾، وكل أربعين بارة تساوي قرشاً واحداً⁽³⁾.
- وكثيراً ما يشار في الوثائق الشرعية، ودفتر عينيات كاتب العدل، إلى ربع القرش؛ عشر بارات هكذا (/)، وإلى نصف القرش؛ أي عشرين بارة هكذا ()، وإلى ثلاثة أرباع القرش؛ أي ثلاثين بارة (S) أو (≤)⁽⁴⁾.
- البشلك: والبشلك كلمة مؤلفة من لفظتين؛ (بش)، وتعاني خمسة، و(لك) تدل على النسبة ومعنى المقطعين، الخماسي أو ذو خمسة⁽⁵⁾، وهي وحدة نقد مضروبة من النحاس الأحمر، ومن أجزائه نصف البشلك⁽⁶⁾. وبلغت قيمته في مركز لواء الكرك ما بين عامي 1315-1318هـ/ 1897-1900م ثلاثة قروش وعشر بارات⁽⁷⁾، وقد بلغت قيمته في فترة الدراسة ما بين سنتي 1328-1336هـ/ 1910-1918م ثلاثة قروش وخمس بارات⁽⁸⁾.
- المتليك: وحدة نقد مزيج من النحاس النيكل، والكلمة متليك من (Metalliqye)، وتعني النقد المعدني، وأول متليك جرى سكه في الدولة العثمانية كان في عهد السلطان العثماني محمود الثاني الذي حكم ما بين عامي 1223-1256هـ/ 1808-1839م، ولم يعد يسك بعد سنة 1260هـ/

- (1) Artuk, Ibrahim, And Artuk. Cevriye, Istanbul Arkeoloj, Muzeleri Teshirdeki Islam Sikkeler Katalog, Istanbulm 1979, 11, p736.
سيشار له فيما بعد هكذا: Artuk, Istanbul Atkroloj
- (2) محكمة الكرك الشرعية، سجل (1) نومرو (124)، 6 ذي القعدة 1331هـ/ 1913م، ص41؛ محكمة الكرك الشرعية، سجل (1) نومرو (2)، 16 جمادى الأولى 1334هـ/ 1916م، ص81؛ محكمة الكرك الشرعية، سجل (1)، نومرو (1)، 13 جمادى الأولى 1335هـ/ 1917م، ص119.
- (3) محكمة الكرك الشرعية، سجل (1)، عدد (36)، 21 رجب 1334هـ/ 1916م، ص99؛ محكمة الكرك الشرعية، سجل (1)، نومرو (1)، 13 جمادى الأولى 1335هـ/ 1917م، ص119.
- (4) محكمة الكرك الشرعية، سجل (1)، عدد (36)، 21 رجب 1334هـ/ 1916م، ص99؛ عينيات دفتر، نومرو (31)، 19 أيلول 1331 مالية/ 1333هـ/ 1915م، ص59.
- (5) الأنسي، قاموس اللغة العثمانية، ص 115.
- (6) جريدة البشير، بيروت، العدد 1905، 5 نيسان 1907م، ص4.
- (7) سالنامه ولاية سورية سنة 1315هـ/ 1897م، دفعة (29)، مكتوبى ولايتك تحت نظاركندة اوله رق، ترتيب أولنمشدر، سورية ولايتي مطبعة سنده، 1315هـ/ 1897م، ص338؛ سالنامه ولاية سورية سنة 1316هـ/ 1898م، دفعة (30)، مكتوبى ولايتك تحت نظارتندة اوله رق، ترتيب أولنمشدر، 1316هـ/ 1898م، ص350؛ سالنامه ولاية سورية سنة 1317هـ/ 1899م، دفعة (31)، سورية ولايتي مطبعة سنده، طبع أولنمشدر، 1317هـ/ 1899م، ص377؛ سالنامه ولاية سورية سنة 1318هـ/ 1900م، دفعة (32)، سورية ولايتي مطبعة سنده، طبع أولنمشدر، 1318هـ/ 1900م، ص384.
- (8) AHand book of Syria, p318. وانظر: جريدة البشير، بيروت، العدد 2213، 28 كانون الثاني 1913م، ص338.

وتساوي رسمياً (87.5) قرشاً وكانت تساوي في الكرك في الفترة الواقعة ما بين عامي 1315-1318هـ/1897-1900م نحو (109) قروش وعشرين بارة بحسب أسعار السوق⁽¹⁾. وكانت تستخدم في عمليات البيع والشراء والديون وعقود النكاح أو الزواج، ومن الأمثلة على ذلك: كان في ذمة أحمد بن صلاح بن بدوي الصلاحيات من أهالي غزة والقاطن في الكرك إلى إبراهيم بن موسى بن شجادة القسوس "مبلغ ثلاثة وعشرين ليره فرنساوي"⁽²⁾، وكان سليم بن سالم قد عقد نكاحه على شروف بنت أحمد بن فارس "بمهرين مسميين المقدم عشرين ليره فرنساوي والمؤخر ليره واحدة فرنساوية"⁽³⁾، وكان في ذمة حسن ويوسف ولدي محمد المصاروة إلى جريس بن خليل الشوارب ثماني ليرات فرنساوي ثمن (16) رأس ماعز⁽⁴⁾، واشترى ميخائيل وأيوب ولدي جريس الصناعات من سليمان بن يوسف المعاينة الأرض، التي تسمى المحمدية الواقعة بأراضي ذات راس "بمبلغ قدرة ثلاثون ليرة فرنساوي"⁽⁵⁾، واستمر استخدامها في لواء الكرك في بداية عهد الإمارة، وعقد نكاح عزيز بن أحمد بن علي المغربي على محمد بن أديب بن مصطفى الحلواني على صداق قدره ثمانون ليرة فرنساوية ذهب⁽⁶⁾.

أما الجنيه الاسترليني (الليرة الإنجليزية)، فقد استخدم في عمليات البيع والشراء والإقراض وعقود الزواج، ومن الأمثلة على ذلك: محمد بن عيسى المجالي إلى عبد الرحمن بن علي الصعوب فرس سوداء بمبلغ مائة ليرة إنجليزية⁽⁷⁾، واستدان محمد بن سليمان الرفاعي من حنا العودات مبلغ خمسون ليرة إنجليزية⁽⁸⁾، واشترى حنا العودات من سليمان بن علي الجعافرة أرضه الواقعة بوادي الكرك بمبلغ خمسون ليرة إنجليزية⁽⁹⁾، وكان بذمة عفنان بن صبح البريكات إلى مسعد بن سليمان الصناعات ثماني ليرات إنجليزية ثمن بضائع تجارية⁽¹⁰⁾، وعقد نكاح أمنة بن طالب بن سالم المعاينة على خليف بن سلامة بن

(1) سالنامة ولاية سورية سنة 1315هـ/1897م، دفعة (29)، مكتوبى ولايتك تحت نظاركندة اوله رق، ترتيب أولنمشدر، سورية ولايتي مطبعة سنده، 1315هـ/1897م، ص338؛ سالنامة ولاية سورية سنة 1316هـ/1898م، دفعة (30)، مكتوبى ولايتك تحت نظارتندة اوله رق، ترتيب أولنمشدر، 1316هـ/1898م، ص350؛ سالنامة ولاية سورية سنة 1317هـ/1899م، دفعة (31)، سورية ولايتي مطبعة سنده، طبع أولنمشدر، 1317هـ/1899م، ص377؛ سالنامة ولاية سورية سنة 1318هـ/1900م، دفعة (32)، سورية ولايتي مطبعة سنده، طبع أولنمشدر، 1318هـ/1900م، ص384.

(2) محكمة الكرك الشرعية، سجل (1)، نومرو (40)، 11 ربيع الثاني 1330هـ/1912م، ص15.
(3) محكمة الكرك الشرعية، سجل (1)، نومرو (8)، 9 شوال 1330هـ/1912م، ص71.
(4) محكمة الكرك الشرعية، سجل (3)، رقم (7)، تاريخ 21 شوال 1341هـ/ 7 حزيران 1923م، ص5.
(5) عينيات دفترى، نومرو (42) عمومي (40) خصوصي، 13 تشرين الأول 1333 مالية/ 1335هـ/ 1917م، ص25.
(6) عينيات دفترى، نومرو (42) عمومي (40) خصوصي، 13 تشرين الأول 1333 مالية/ 1335هـ/ 1917م، ص25.
(7) دفتر تسجيل الاعلامات، أوراق (67) قرار (41)، 19 مارس 1919م، ص63-64.
(8) عينيات دفترى، نومرو (27) عمومي (25) خصوصي، 6 أيلول 1333 مالية/ 1335هـ/ 1917م، ص16.
(9) عينيات دفترى، نومرو (34) عمومي (32) خصوصي، 25 أيلول 1333 مالية/ 1335هـ/ 1917م، ص20.
(10) دفتر قرارات حاكم الحقوق عدد الأوراق (1465)، 25 كانون الأول 1919م، ص43.

سليمان المعاينة على معجل قدره (120) ليرة إنجليزية ذهب⁽¹⁾، وادعت المرأة علياء بنت جبر السحيمات على زوجها عطا الله بن عبد ربه السحيمات على باقي صداقها المعجل وقدره (150) ليرة إنجليزية ذهب⁽²⁾. فكانت تساوي في لواء الكرك في الفترة الواقعة ما بين عامي 1315-1337هـ/1897-1919م ما بين (135) إلى (140) قرشاً بحسب سعر السوق⁽³⁾.

المدينة	الليرة الفرنسية	الليرة الإنجليزية
بيروت	108.3	135.3
دمشق	114	143.5
حلب	110	138.3
طرابلس	107.15	135
حمص	108	136
اللاذقية	108.3	136.3
يافا	124.15	156.1
صيدا	109	137.2

3- النقود المصرية:

قرر مجلس الشورى في الحكومة العربية عام 1337هـ/1919م، التعامل بالعملة المصرية⁽⁴⁾، التي استمر التعامل بها في بداية عهد الإمارة، و أقدرا إشارة عن تداول العملة المصرية في شرقي الأردن تعود إلى عام 1341هـ/1922م، ومن النقود المصرية التي تم تداولها: الليرة الذهبية المصرية، والنقد الورقي المصري، والمسكوكات الفضية والنيكلية المصرية، واعتبرت قيمة الليرة الإنجليزية الذهبية بسعر (97.50) قرشاً مصرية، وقد صدرت مذكرة من المستشار المالي في حكومة شرقي الأردن اعتمدت في التعامل بالنقود المصرية، وأن يتم اعتماد النقد المصري في الواردات والنفقات والمعاملات الرسمية، وتبقى بناءً على هذه

- (1) محكمة الكرك الشرعية، سجل (3)، رقم (11)، تاريخ 23 محرم 1343هـ/ 26 آب 1924م، ص 11.
- (2) محكمة الكرك الشرعية، سجل (3)، رقم (15)، تاريخ 17 ربيع الثاني 1344هـ/ 3 تشرين الأول 1925م، ص 18.
- (3) سالنامة ولاية سورية سنة 1315هـ/ 1897م، دفعة (29)، مكتوبى ولايتك تحت نظاركندة اوله رق، ترتيب أولنمشدر، سورية ولايتي مطبعة سنده، 1315هـ/ 1897م، ص 338؛ سالنامة ولاية سورية سنة 1316هـ/ 1898م، دفعة (30)، مكتوبى ولايتك تحت نظارتندة اوله رق، ترتيب أولنمشدر، 1316هـ/ 1898م، ص 350؛ سالنامة ولاية سورية سنة 1317هـ/ 1899م، دفعة (31)، سورية ولايتي مطبعة سنده، طبع أولنمشدر، 1317هـ/ 1899م، ص 377؛ سالنامة ولاية سورية سنة 1318هـ/ 1900م، دفعة (32)، سورية ولايتي مطبعة سنده، طبع أولنمشدر، 1318هـ/ 1900م، ص 384؛ دفتر تسجيل الاعلانات، أوراق (50) قرار (30)، 13 شباط 1919م، ص 43.
- (4) جريدة العاصمة، دمشق، العدد (12)، تاريخ 1919/3/27م، ص 2.

المذكرة النقود الذهبية والورقة المالية المصرية حسب الأسعار: الجنية المصري يساوي (100) قرشاً، والورقة المالية المصرية (100) قرشاً، وحددت المذكرة في المادة الخامسة ضرورة تأدية الديون والضرائب والأموال الأميرية بعد تحويلها إلى العملة المصرية، وأن تدفع الرواتب أيضاً بالعملة المصرية⁽¹⁾. وتم تداول النقود المصرية بمختلف فئاتها بالمعاملات كافة⁽²⁾، واستمرت العملة المصرية في شرقي الأردن حتى 31 آذار-مارس 1928 م، عندما حلت محلها العملة النقدية الفلسطينية⁽³⁾.

4- النقد الفلسطيني:

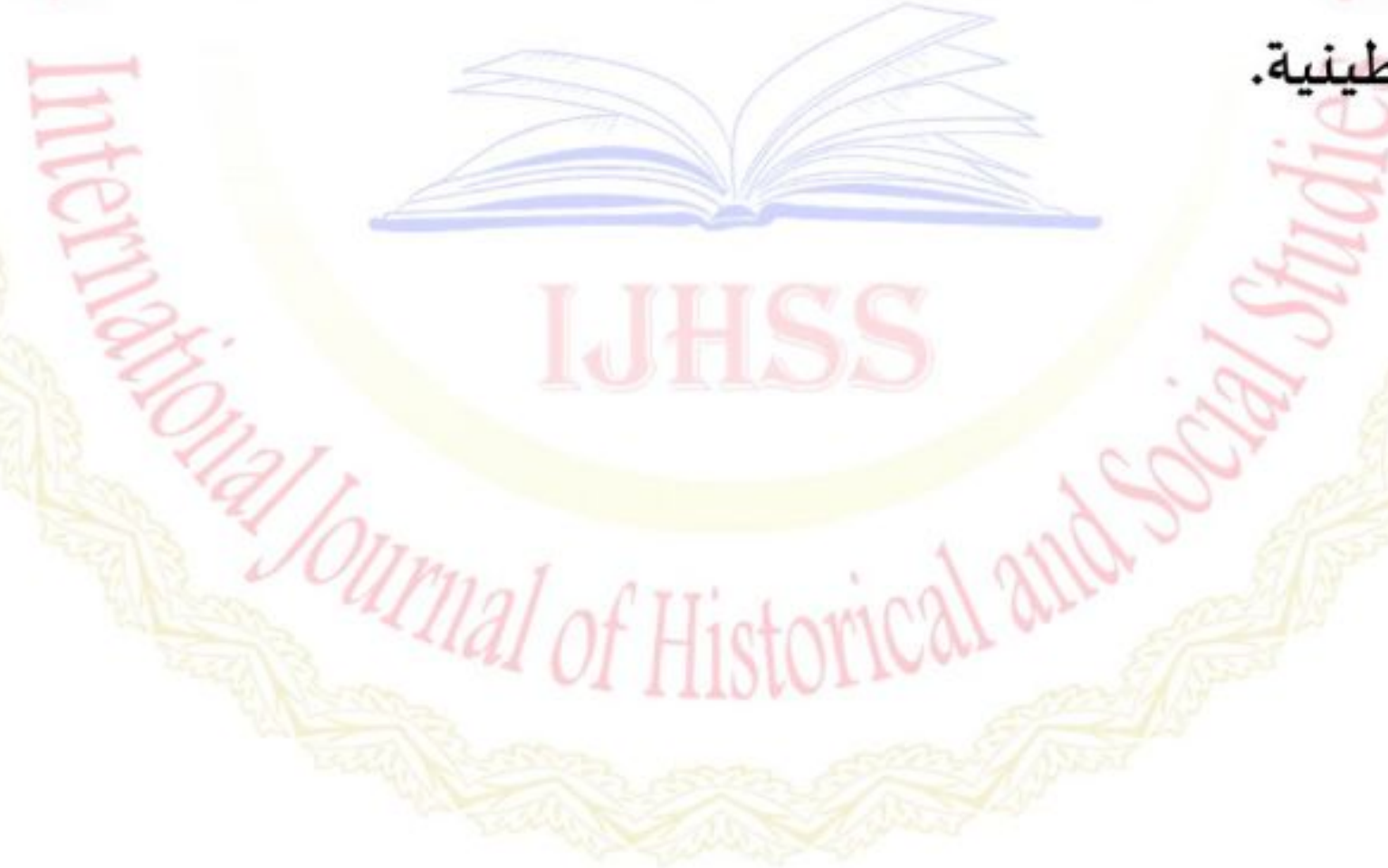
بدأت في أوائل عام 1924 م فكرة إنشاء نقد فلسطين يؤسس على الليرة الإسترلينية، فعين وزير المستعمرات البريطاني في 1344 هـ/ آب - أغسطس 1926 م، مجلس النقد الفلسطيني وإصدار الأحكام التي تعين واجبات وصلاحياته، فأنشأ في هذا القرار هيئة مسؤولة لمراقبة النقد، ولكن لا تحدد طبيعة النقد قانونياً، إلا في أواخر عام 1334 هـ/ 1926 م، وصدر مرسوم النقد الفلسطيني في 7 شباط - فبراير 1927 م، وقد سن المندوب السامي في فلسطين قانوناً يمنح الصفة الشرعية في فلسطين للنقد الفلسطيني الذي عينه وزير المستعمرات البريطاني، مانحاً إياه الصلاحية لإصدار أوراق نقدية بالنيابة عن حكومة فلسطين. وقد أصدر المندوب السامي البريطاني في فلسطين منشوراً بتعيين اليوم الأول من شهر تشرين الثاني - نوفمبر 1927 م، تاريخاً للعمل بمرسوم النقد الفلسطيني، فيمكن إذن يعد ذلك التاريخ التاريخ القانوني لإدخال النقد الفلسطيني إلى حيز التنفيذ، وبموجب ذلك لم تعد الأوراق النقدية المصرية والمسكوكات المصرية والليرة الإنجليزية الذهبية، نقداً قانونياً بعد. وقد وضعت النصوص اللازمة للسحب من التداول الأوراق النقدية المصرية، والمسكوكات المصرية، واستبدالها بأوراق نقد فلسطينية، ومسكوكات فلسطينية.

ويتألف النقد الفلسطيني من أوراق نقدية ومسكوكات فضية ونيكلية ونحاسية، ويصدر مجلس النقد الفلسطيني الأوراق النقدية من فئة خمسمائة مل، وليرة واحدة، وخمسة ليرات، وعشر ليرات، وخمسين ليرة. والمسكوكات الفضية، وهي من فئتين: خمسين مل، ومائة مل. والمسكوكات النحاسية هي من فئات: خمسة ملات، وعشرة ملات، وعشرين مل. والمسكوكات النحاسية هي من فئتين: مل واحد، ومليين⁽⁴⁾.

- (1) جريدة الشرق العربي، عمان، العدد (3)، تاريخ 1923/6/10 م؛ جريدة الشرق العربي، عمان، العدد (31)، تاريخ 1929/12/31 م؛ وانظر: محكمة الكرك الشرعية، سجل (3)، رقم (7)، تاريخ 21 شوال 1341 هـ/ 7 حزيران 1923 م، ص 4-5؛ محكمة الكرك الشرعية، سجل (3)، رقم (16)، تاريخ 9 جمادى الأولى 1342 هـ/ 17 كانون الأول 1923 م، ص 8، محكمة الكرك الشرعية، سجل (3)، الرقم المتسلسل (2)، تاريخ 24 شعبان 1343 هـ/ 19/3/1924 م، ص 21.
- (2) محكمة الكرك الشرعية، سجل (4)، الرقم (7)، تاريخ 11 شوال 1341 هـ/ 1 حزيران 1923 م، ص 5؛ محكمة الكرك الشرعية، سجل (4)، الرقم (13)، تاريخ 7 ربيع الأول 1343 هـ/ 5 تشرين الأول 1924 م، ص 16؛ محكمة الكرك الشرعية، سجل (5)، الرقم (155)، تاريخ 14 جمادى الثاني 1344 هـ/ 19 كانون الأول 1925 م، ص 5؛ محكمة الكرك الشرعية، سجل (5)، الرقم و (157)، تاريخ 4 جمادى الثاني 1344 هـ/ 19 كانون الأول 1925 م، ص 6-7.
- (3) جريدة الشرق العربي، عمان، العدد (3)، تاريخ 1923/6/10 م؛ جريدة الشرق العربي، عمان، العدد (31)، تاريخ 1929/12/31 م.
- (4) جريدة الشرق العربي، عمان، العدد (169)، تاريخ 1927/10/20 م؛ جريدة الشرق العربي، عمان، العدد (170)، تاريخ 1927/11/1 م؛ جريدة الشرق العربي، عمان، العدد (171)، تاريخ 1927/11/15 م؛

خلصت الدراسة إلى الآتي:

- 1- تعد هذه الدراسة محاولة علمية جادة لاستجلاء حقبة تاريخية مهمة من تاريخ الأردن الحديث، فقد كانت في عُرف معظم الباحثين والمؤرخين مجهولة، وهي محاولة لتغيير الصورة المشوهة والمضطربة التي يحملها الناس في أذهانهم عن هذه الحقبة.
- 2- أحدث الإجراءات الإدارية والتدابير الأمنية تغييراً شاملاً في البنية الاقتصادية في لواء الكرك في فترة الدراسة.
- 3- شكلت وثائق محكمة الكرك الشرعية مصدراً رئيساً من مصادر الدراسة، وتكمن قيمتها البحثية في استقصائها لكل الأنشطة المختلفة في لواء الكرك ولتفردها في معلومات نادرة لا توجد في سواها، كما أن رصدها اليومي والدقيق لكل الأحداث والوقائع جاء شاملاً، قد أمدت الدراسة لمعلومات نفيسة وتفصيلية عن الأوضاع الاقتصادية.
- 4- إن دراسة النقود المتداولة في لواء الكرك أثناء فترة الدراسة تعكس لنا الوضع الاقتصادي والتجاري المتميز لهذا اللواء، ومن أبرزها النقود العثمانية، والأجنبية، والنقود العربية من سورية وسورية وفلسطينية.



Hoofien. S. " Curreney Reform ", Bullrtin of the Palestine Economic Society, 1923, No, 3. p3;
Hooflein, " The New Currency", Palestine and Nast Economic Magazine, 1926, pp 188-189;
Bentwich Norman, pp 391-394; العطار، قصة النقود والمصارف في سورية، ص36.

الثورة الجزائرية في عيون الشعراء العرب المعاصرين

د. مهديان ليلي

جامعة الجيلالي بونعامة - خميس مليانة

كلية الآداب واللغات

الملخص:

صقلت الثورة الجزائرية قرائح الأدباء والشعراء الجزائريين والمشاركة نظرا لما تحمله من وقائع وحيثيات ومجريات طبعت نتائجهم بإمكانات فنية خاصة تعكس عمق إحساس الشاعر الإحيائي والوجداني والمعاصر، وهو الذي صور ووصف المعارك وجسد معاني البطولة والحماسة والنصر المحقق ليجتمع فن الشعر بصوره وخياله وإيقاعه وموسيقاه، وفن القتال والحرب بهوله وروعته، وهو ما ترك أثرا في دواوين هؤلاء الشعراء، وهو موضوع مداخلتنا التي تزوم التنقيب على ماضي وتراث الشعب الجزائري الذي حفظ ودون في الأشرطة والأفلام الوثائقية أو حتى في المدونات الشعرية.

فكيف يحفظ لنا التاريخ صدق أو كذب مجرياته؟ وإلى أي مدى أسهم الشاعر العربي في حفظه

وتدوينه؟

Summary:

The Algerian Revolution has refined the Algerian and Moroccan writers and poets because of the facts, perspectives and processes that have been produced by their artistic potentials, which reflect the depth of the poet's sensual, emotional, and contemporary sensations, which depicted and described the battles and the body of the meanings of heroism and enthusiasm and the victory achieved to meet the art of poetry with its image, imagination, rhythm and music. And this is what left an impact in the writings of these poets, which is the subject of our intervention, which aims to explore the past and heritage of the Algerian people, who kept and in tapes, documentaries or even in poetic codes.

How can history keep us true or false? To what extent did the Arab poet contribute to his memorization?

مقدمة:

حفل الشعر العربي الرسمي والشعبي بتناول الثورة الجزائرية وبطولات الشعب الجزائري تبعا لواقع السياسي الذي عاشته البلاد ونخص بالذكر الفترة الاستعمارية، حيث أخذ الوعي يتصاعد لتستمر المقاومة بشتى أشكالها الشعبية السياسية والاجتماعية حتى ترسم " ملحمة الشعب الجزائري التي امتدت فصولها ومآسيها عشرات السنين، ليتألف من أحداثها وملابساتها ونضال محاربيها وأدبائها صفحات مثالية من العناد المستميت للحفاظ على التراث، وإغنائه بجهد جديد ضد قوى قاهرة ومدمرة"¹

طمس الهوية الجزائرية بشتى أشكال النكال والتعذيب غير أنها قوبلت بمقاومة عنيفة بقيادة زعماء وقادة حفظ التاريخ ألقابهم.

ففي الوقت الذي يعيش فيه العالم تحولا عميقا على كافة المستويات نتيجة الانتشار لما يعرف بظاهرة العولمة، في هذا الوقت باتت إعادة قراءة التاريخ في ضوء التجريب الشعري العربي والجزائري ضرورة لما تطرحه من قضايا بارزة كالتبعية الكولونيالية في ضغطها على التركيبة الاجتماعية والثقافية من جهة، أو من خلال جميع القيم بأبعادها الروحية والجمالية التي ميزت القصيدة عن النواميس المألوفة في عصر الضعف والانحطاط من جهة أخرى.

إذا كان العمل الفني يعتمد في تركيبه على الصورة الفنية أساسا انتقالا من السطحية والتقريبية إلى مرحلة التأثير، ذلك أنها أساسا الخطاب الشعري وعماده الذي لا يمكن كشف أسراره إلا إذا تعرفنا على دلالاتها ومصادرها - الصورة - فمما لا شك فيه أن الشعر الحديث قد نحا منحى الشعراء القدامى تقليدا وإحياء، فجذوره ضاربة في القدم حين كان " الشعر العربي واحدا من أبرز المجالات الفكرية والحضارية التي أحاطها العرب بهالة من القداسة، جعلت كل رغبة في التغيير والتجديد تصطدم بسد منيع من المحافظة لا يلبث أن يجعل من محاولات التجديد صدى يضيع ويتجاوب في وهدة المحافظة السحيقة"¹ التي قيدت بقوانين وضوابط وجب اتباع آلياتها وصورها عبر دلالات حددت لكل فن من فنونه.

غير أن احتفاء النموذج المثالي لا ينفي توصيف مرحلة ما قبل النهضة بعصر الانحطاط، وما تميز به من الضعف وقلة الإبداع كنتيجة حتمية للاضطهاد الرهيب الذي كانت تعانيه الثقافة العربية من طرف المستعمر، مما جعل الشباب الذي يعتمد عليه في بعث الأدب في الوطن العربي، ينصرف عنه انصرافا

1 - نور سلمان، الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، ط1، دار العلم للملايين، لبنان، 1981، ص 29.

1 - محمد العيد حمود، الحداثة في الشعر العربي المعاصر، بيانها ومظاهرها، ط1، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، 1996، ص 13.

تاما إلى أغراض أخرى تسلية وملهية عن مشاق الحياة ومصاعبها، وأغراض تحمل مضامين علمية ودينية، ومن ثمة كانت النتيجة تفشي الجهل وكساد الشعر، وفقد محبيه وأضحت حرفة الشعر أبخص الحرف إلى أن أخذت تلوح في الأفق بوادر النهضة الأدبية التي تمثلت في شعر بعض الرواد الإصلاحيين تأثرا بالنهضة الإصلاحية المشرقية.

1- البطولة مصدرا من مصادر صورة الثورة:

حفل زمن الثورة التحريرية بحوادث عظام، فمن مقاومة شاملة ومحاولة لخلق أمة متمدنة حرة مستقلة إلى ثورات وفتن وحروب ومعارك، ونفي وتشريد، فتأثر الشاعر العربي بكل ذلك بعدما استلهم الشعب الجزائري بطولته وجهاده من وعيه بالعالم الذي يحيط به، فبادر اكه لنوايا الاستعمار الذي تفتن في كل الأساليب الممكنة لتجريدته من هويته الثقافية العربية الإسلامية، وإبدالها بثقافة مسيحية غربية جديدة، الشيء الذي بعث فيه حسا جهاديا ثوريا بطوليا وبهذا " تصدى للعدو بالخطوة الشاملة للحرب مستنفر كل ضمير حي في العالم منيها إلى هذا التحول الجهنمي في وسائل الصراع وانتقال أهداف الحروب من المغالبة التقليدية إلى التخطيط لإبادة الشعوب" ³ فهاجت هذه الأحداث شاعرية لدى الشاعر، فانطلق لسانه يردد تجارب الشعب الجزائري البطولية الحافلة.

لا يمكننا في هذا البحث أن نحصي كل الآثار الشعرية لدى الشعراء العرب بقدر ما يمكننا أن نبين أهم الأغراض التي برزت فيها المعاني البطولية والمدلولات المعبرة عن القيم الانسانية المفتقدة أو الحلم المضطهد وحتى عن حس الشاعر الانساني وهو ما يعكسه المقطع الموالي لمحمد بن الشاهد:

فأه على جهدي وما بي منعة*****وأه على داريسود بها غيري
أموت وما تدري البواكي بقصتي*****وكيف يطيب العيش والأنس في لكفر
فيا عين جودي بالدموع سماحة*****ويا حزن شيد في الفؤاد ولا تسر
ويا صاح تدبير الأمور لخالقي*****فصبرا عسى عسريبدل باليسر⁴

تتضح في هذا المقطع مظاهر الأسى والحزن والذل والهوان الذي لازم الشعب الجزائري راجيا من المولى عزوجل أن يحدث معجزة التغيير وإعادة البناء، ليتحقق ذلك بيروزراند المقاومة الأمير عبد القادر الزعيم والقائد والصوفي والشاعر الذي اجتمعت لديه سلطتي الإمارة والفروسية بجميع معانيها المتمثلة في القيادة والجهاد والتضحية والأخلاق السامية، فليست الكلمات أو الألفاظ في بساطتها هي المقصود،

3- عبد المجيد مزبان، عبقرية متكاملة، الجزائر، 75، 1983، ص 05.

4- أبو القاسم سعد الله، تجارب في الرحلة والأدب، طه، ص 113.

إنما الجمال يبدو في طاقته الحربية التي أكسبته بيانا تجلى في ديوانه الذي يحمل عنوان "ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري 1807-1883" بجمع وتحقيق العربي دحو، فالمتأمل في محتواه يجد ثنائية السيف والقلم بلغت قممها في غرض الفخر الذي يظهر في المقطع الموالي من قصيدة "بي يحتمي جيشي" من بحر الطويل:

تسألني أم البنين، وإنما***** لأعلم من تحت السماء بأحوالي
ألم تعلمي يا ربة الخدر أنني***** أجلي هموم القوم في يوم تجوالي؟
وأغشى مضي الموت لا متهيبا***** وأحمي نساء الحي في يوم تهوالي⁵

يبدأ الشاعر مقطوعته بضرورة الاعتزاز الوطني لكل مقاوم (أجلي، أحمي نساء الحي)، إذ تراه في هذا المقام يسمو عزمًا إذا ما قيس بالفارس البطل الذي يحث على إبداء الشهامة كشرط ضروري لكل قائد لا يهاب العدو ولا يهاب المخاطر في كل ربع من ربوع الوطن.

إيمان الشاعر بالقضية الجزائرية والأخذ بأسبابها كان من أكبر عناصر القوة في نظم القصيدة الثورية، وهو الذي يصف الحرب لا من باب الإسراف والتفخيم، وإنما لجمع صورتها العدة والعتاد والقلم، فمع نيته إماراة البيان والنظم له أن تعينه تراكيبه وصوره وموسيقاه على تصوير قوة الثورة واستطلاع مستقبل الجزائر مع تظافر جهود الجزائريين من لال إرادتهم وإصرارهم وعزمهم على تحمل الفناء وهو ما يشير إليه عبد الوهاب البياتي قائلا:

الثورة العملاقه
الفكرة الخلاقه
تجرف في طريقها المسوخ والطبول
والجيف المعطرة
والنصب الشائعة المبعثره
تحدث في إعصارها الحقول
تعيد صنع الرائع النبيل⁶

ما دام أن الثورة تحمل في طياتها مقاصد سياسية وفقا لتمثلات ومعطيات الواقع، فإنه يجب إعادة إنتاج هذه المعطيات التي تتم انطلاقا من تصور واقعي ما، لما ينبغي أن يكون على أرض الواقع مساندة

5- العربي دحو، ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري 1807-1883، أنجزت هذه الطبعة في إطار الجزائر عاصمة الثقافة العربية، ط3، 2007، ص49.

6- عبد الوهاب البياتي، ديوان النار والكلمات، بيروت، لبنان، 1964.

وتأييدا أو معارضة، غير أن الشاعر العربي التزم بالقضايا الجماهيرية والتي على رأسها تحقيق مطلب الحرية بالسيف والقوة، بل أخذ على عاتقه تمجيد بطولات الجزائر و بطولات نوفمبر المجيد، وها هو مفدي زكريا يتغنى به في الذكرى الرابعة للثورة قائلا:

هذا نوفمبر قم، وحي المدفعا***** واذكر جهادك والسنين الأربعا
و اقرأ كتابك للأنام مفصلا***** تقرأ به الدنيا الحديث الأروعا
إن الجزائر قطعة قدسية***** في الكون لحنها الرصاص ووقعا
وقصيدة أزلية، أبياتها***** حمراء كان لها (نمبر) مطالعا
نظمت قوا فيها الجماجم في الوغى***** وسقى النجيع روثها فتدقعا
غنى بها حر الضمير فأيقظت***** شعبا إلى التحرير شمر مسرعا⁷

يريد الشاعر من خلال هذا المقطع أن يجعل نوفمبر والجزائر قلعة محاربة بعدتها وأدواتها الحربية، وأبراجها لتدب الحياة فيها من جديد، كما أنه ينهض بمعالمها ليجعل منها جزائر مقدسة طاهرة، وكل من حاول السيطرة عليها وعلى أسوارها وثقافتها وعقيدتها الإسلامية (اقرأ كتابك، اذكر جهادك) بآء بالفشل والهزيمة، والشاعر بهذا كله يريد أن يعيد للجزائر بهائمها وعظمتها التي كانت ولا تزال على مر الأزمنة خالدة إلى اليوم على الرغم من الصور القاسية لمجازر المستعمر الدموية (الرصاص، حمراء، الجماجم، النجيع...)

2- الهوية ودلالاتها في القصيدة الثورية:

تتدخل اللغة في صياغة خطاب الهوية الأدبية، بوصفها "المادة الأساسية لكل فاعل أدبي والمولدة للفعل الأدبي مع ما تحمله من رموز، وإشارات وبصمات النسيج الاجتماعي والوطني الذي تعبر عنه"⁸ إن الخطاب الأدبي يتأسس في ضوء اللغة التي تستنطقه، حيث بطابعها الرمزي الإشاري الدال كما تطعمه بالسند الاجتماعي والوطني الذي تحتكم إليه أولا قبل أن يسير هذا الخطاب في ركبها فينقل بدوره تلك البصمة الاجتماعية والوطنية المتضمنة في النسيج اللغوي، ومهما يكن فإن "الأدب لا يفكر تفكيرا يتصل بالمشكلات الواقعية والاجتماعية، إلا إذا كانت في إطار قومي ولا يؤدي أفكاره وأحاسيسه تأدية خالصة، صادقة إلا باللغة القومية"⁹

7- مفدي زكريا، اللهب المقدس، دط، دت، ص 57.

8- عمار بلحسن، الجزائر كنص، سؤال عن الأدب الوطني، التبيين، العدد الفصلي الأول، الجزائر، 1990، ص 134.

9- محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، دت، ص 383.

إننا حين نرتاد الشعر الثوري في لحظة من اللحظات، تستوقفنا مظاهر الاعتزاز والفخر بالهوية العربية والجزائرية والدفاع عنها بكل شراسة وهو حال جميلة بوحييد المرأة الثائرة التي تخلت عن أنوثتها وعدوبتها وهي الأم الرؤوم الصاعقة كلما اغتصب كرامتها الطغاة الغزاة ليقول الشاعر أيوب صبري عباس:

واذكر جميلة نغمة أبدأ بها الأباد تشدو

إني الجميلة.. والربيع أنا به أرج وورد

إني أنا امرأة أشد على الطغاة قد استبدوا

ماء وبرد في الحياة، وفي الوغى ناروقد

كفي الرقيقة كف والدة بهارأم وسعد

لكنها أبدأ على الأعداء صاعقة، ورعد¹⁰

كانت العناصر التعبيرية التي يسوقها الوصف لتجلية مقاصده تخدم صورة من صور البطولة والشجاعة والإقدام التي تتحول بالقارىء من السكون وإلى الحركة والإلحاح عليها، وهو حال الشعب الجزائري الذي فضل الانتفاضة تحقيقاً لأماله وأحلامه داخل وطنه الذي تعددت الصيغ اللغوية فيه فهو المنزل والدار والبيت والبلد والموطن والأرض التي احتلت الصدارة عند الشعراء الذين وضعوا لها قصائد كاملة تحدثوا فيها عن استعادة المكان الذي أرادت الحرب تدميره، يمثل الشموخ والتحدي وصلابة الشعب الجزائري، فبغض النظر عن الأوراس مهد الثورة الجزائرية التي كثيراً ما افتخربها الشاعر " فكلما ذكر الأوراس تبادر إلى الذهن معنى البطولة والتضحية والفداء " ¹¹ فهياهي وهران التي تغنى بها الشاعر صالح درويش في قصيدته " موعدي في وهران " معتبرا إياها رمزا من رموز المعاناة والألم قائلا:

هذا تراثك يا وهران فاحتفلي*****أوفي على تياها من الجدّل

أغلى المآثر قد ظللت يا بردى*****فخير ورثناه عن أجدادنا الأول

وهران يا قلعة بالموت قد هزأت*****الشعب في فرح والقلب في شغل¹²

تلقتي الثورة التي تستهدف الإصلاح في مختلف ميادين الحياة والأدب الملتزم الذي يحمل من خلاله الشاعر على عاتقه واجب التغيير، وهو ما يعتبر في نظر المؤرخين بمثابة الشرارة التي تؤدي إلى تبني العنف الثوري الذي تجسد وتحقق في الثورة الجزائرية على الرغم من الآلام والأسى الذي عاناه الفرد الجزائري

10- عثمان سعدي، الثورة الجزائرية في الشعر العراقي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ج1، ط2، 1985، ص 227.

11- عبد الله الركبي، الأوراس في الشعر العربي ودراسات أخرى، دار الكتاب العربي، الجزائر، دط، 2009، ص 12.

12- عثمان سعدي، الثورة الجزائرية في الشعر العربي، سوريا، ج2، ص 721.

رغم صموده وهو ما حدث للبطل "بوصوف" الذي أحرقه المستعمرون حيا لمجرد انضمامه لصفوف جبهة التحرير الوطني وهو ما عبر عنه الشاعر "حسن فتح الباب" في مقطع من قصيدة "شهيد من الجزائر" قائلا:

والشمس في صباحها تعود

لتنضج الثمار في الوهاد

والطفل يهجر المهاد

وحفنة من الرماد المحترق

في كفه يرمي بها الجناه

وكما تخضب الأفق

عادت إلى رفاتك الحياه

بوصوف يا مخلدا إلى الأبد¹³

ومنه كانت الثورة الجزائرية ببطولاتها مصدر إلهام لكثير من الشعراء سواء ممن جابلوها وشهدوا أحداثها فكانوا شاهدي عيان لأحداثها، أو ممن نقلت إليهم أحداثها عبر الرواة أو من خلال صفحات الكتب. تعتبر الثورة الجزائرية محرك من محركات الإبداع لدى الشاعر العربي، ذلك "استعداد حضاري عام وشامل يقوم به الإنسان لإنجاز المهام الكبرى التي تؤهله للسيادة والاستخلاف، والثورة بهذا المعنى لا تبني على العبث ولا يحكمها قانون الصدفة، بل هي نتيجة حتمية لسنن التغيير التي أودعها الله عباده، والتي إن ساروا وفقها بلغوا مرحلة الثورة التي تؤول بهم إلى زمن النصر الدائم"¹⁴ من خلال رفض كل أساليب المستعمر الغاصب، وهو ما حث الشعب الثائر على الصمود والمواجهة، وهو ما حاول الشاعر العربي التعبير عنه نصرة للجزائري، ذلك ما يعكس أصالة وصدق العلاقة بين الشعراء العرب والثورة الجزائرية، فهنا هو الشاعر المصري محمد التهامي يخلد مآثر الجنود وبطولاتهم وانتصاراتهم وكفاحهم المرير من أجل نيل الحرية في قصيدة بعنوان "بطل الجزائر سنة 1956م" والتي نشرت في صحيفة الشعب سنة 1958م قال فيها:

في الهول في لهب المجازر **** ألقاك يا بطل الجزائر

ألقاك مرفوع الجبين **** مخضب الجنين هادر

ألقاك بالجرح العميق **** وبالدم المهرق ساخر

13- حسن فتح الباب، ثورة الجزائر في إبداع شعراء مصر، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، دت، ص ص 88-89.

14- عمر بوقرورة، دراسات في الشعر الجزائري المعاصر، دار الهدى، الجزائر، 2004، ص 76.

ألقاك تزار في المروج **** الخضر في جوف المغاور

ألقاك للزرع المجنح **** في مجال الموت قاهر

ألقاك تقتل أو تموت **** وأنت في الحالين ظافر¹⁵

أضحى الجندي رمزا بطوليا خالدا لمعايشته مأساة بلده، ومعاصرته وقائع معاناتها، مما جعلها لدى الشاعر العربي صورة بطولية صادقة ومثالا للتضحيات الجسام ذلك ما نلفيه في الرمز البطولي جميلة بوحيرد التي تعتبر رمزا كليا للفتداء احتدى بها الشعب الجزائري وتباين الشعراء في مستويات توظيفها في قصائدهم، فقد استدعاها الشاعر محمد الفيتوري مواسيا إياها جاعلا منها رمزا انسانيا قائلا:

لا تدعي نقتهم تقتلك

لا تدعي وحمهم تغسلك

إنك قبر الامبراطورية

إنك تسقين بالأمك

أشعة الشمس الجزائرية

إنك تمشين بأقدامك

فوق جلال الامبراطورية

فوق عروش قتله

مازال في أعينهم جوع الملوك

مازال في دماهم صراخ القتل¹⁶

ألهمت جميلة بوحيرد الشاعر، فمنحها صور الحياة والجمال والبراءة، فالسياب يرتقي بجميلة الى ما

فوق آلهة الخصب، جاعلا إياها رمزا معطاء، رمزا للخصب والحياة قائلا:

ونحن أم أنت التي تولدين؟

أسخى من الميلاد ما تبذلين

والموت، أقسى منه من كل ما عاناه أجيال من الهالكين

أن الذي من دونه الجلجله

والسوط، والسجان والمقصلة

15- حسن فتح الباب، ثورة الجزائر في إبداع شعراء مصر، مرجع سابق، ص 133.

16- محمد الفيتوري، الديوان، دار العودة، بيروت، ط3، 1979، ص ص 304-305.

أن الذي يفديك أو تفتدين

غير الذي أذوه بالنار أو بالعار الماء الذي تشربين

(...) عشتار أم الخصب، والحب، والاحسان تلك الربة والوالهة

لم تعط ما أعطيت، لم ترو بالأمطار ما رويت: قلب الفقير

لم يلق ما تلقين أنت المسيح

أنت التي تفتدين جرح الجريح

أنت التي تعطين... لا قبض ربح¹⁶

فعلى الرغم من استدعاء السياب للرموز المسيحية الغربية، غير أن الوعي الوطني والحس الثوري جلي من خلال إرادتها وإرادة شعب استجاب له القدر، لبسالتها وشجاعتها ونضالها المستميت، فقد لقبت "بجنديك العرب" وهذا ما جعل الشعراء يصورون بطولاتها على أنها النموذج الأمثل للمرأة العربية المكافحة.

اندمج الشاعر مع جو الثورة والإصرار على تحقيق أهدافها، كونها ثورة عظيمة في زمنها ومكانها، نظرا لحجم البطولات في حرب غير متكافئة العدة والعدد، وهو تعكسه قصائد مفدي زكريا نختار مقطعاً يستميت فيه دفاعه عن وطنه قائلاً:

وقيل الجزائر... وأصغ إن ذكر اسمها****تجد الجبابة ساجدين وركعا

إن الجزائر في الوجود رسالة****الشعب حررها، وربك وقعها

إن الجزائر قطعة قدسية****في الكون لحنها الرصاص ووقعا

وقصيدة أزلية، أبياتها****حمراء، كان لها نوفمبر مطلعاً

نظمت قوافلها الجماجم في الوغى****وسقى النجيع رويها فتدققاً¹⁷

خاتمة:

ساير الخطاب الشعري العربي المشرقي والمغاربي الثورة الجزائرية وجعلها قضية داعما إياها مصرا على انتصارها متيحاً للشاعر البوح بمختلف الأحاسيس التي تختلج في صدره وهو يستدعي أبطالها مجسدا رموز البطولة والفداء والتضحية والقوة والكفاح لتجسد من خلال ذلك صورة الجزائر الثائرة التي ضحت بملون ونصف مليون شهيد.

16- بدر شاكر السياب، الديوان، دار العودة، بيروت، 1971، ص

17- مفدي زكريا، اللهب المقدس، المكتب التجاري، بيروت، ط1، 1996، ص 12.

LA VISION RELIGIEUSE ETRUSQUE, LIBYCO-PUNIQUE ET ORIENTALE : ORIGINALITÉS ET CONTINUITÉS¹

Mots-clés :

Vision religieuse - Etrusques - Libyques - Puniques - Connexion avec l'Orient.

Résumé :

Les civilisations de la Méditerranée antique ont eu un rôle prépondérant dans l'histoire humaine. Celles du bassin central telle que la civilisation des Etrusques, des Libyens et des Puniques sont de plus en plus considérées et étudiées. Une des approches nouvelles consiste à étudier leur vision commune de monde à travers l'iconographie funéraire. Il s'agit d'une relecture de ces documents connus ainsi que d'autres totalement nouveaux. Une réelle unité avait existé entre ces trois civilisations mais aussi une connexion avec les thèmes en vogue en Orient antique quant à la croyance dans l'au-delà, de la résurrection, du paradis et de l'enfer. Cette recherche n'est qu'à son début et mérite d'être poursuivie.

العنوان :

رؤية الكون الاثروورية واللوية والبونية و المشرقية : الأصالة و التواصل

الكلمات المفاتيح :

رؤية الكون – الأثروورين – اللوبيين – البونيين – التواصل مع الشرق.

الملخص :

لقد كان لحضارات المتوسط القديم لها دور هام في تاريخ البشرية. حضارات الحوض الأوسط للبحر المتوسط مثل الحضارة الأثروورية و اللوية و البونية صارت تحظى أكثر فأكثر بالدراسة و الاعتبار. من بين المقاربات الجديدة دراسة رؤيتها المشتركة للكون من خلال الرسوم الجنائزية. تتمثل هذه المقاربة في إعادة قراءة لوثائق معروفة و لوثائق جديدة. من خلالها نستنتج أن وحدة فعلية وجدت بين هذه الحضارات الثلاث و كذلك تواصل مع المحاور الرائجة في الشرق حول الاعتقاد في الماوراء و البعث و الجنة و النار. هذه الدراسة مازالت في بدايتها و هي قابلة للتعميق أكثر.

¹ Adel Njim. Faculté des Lettres et Sciences Humaines de Sfax (Tunisie). Mail : njim_adel@yahoo.com

THE RELIGIOUS AND RELIGIOUS VISION, LIBYCO-PUNIC AND ORIENTAL : ORIGINALITIES AND CONTINUITIES

Keywords:

Religious vision - Etruscans - Libyques - Punic - Connection with the Orient.

Abstract :

The civilizations of the ancient Mediterranean had a leading role in human history. Those of the central basin such as the civilization of the Etruscans, Libyans and Punics are more and more considered and studied. One of the new approaches is to study their common vision of the world through funerary iconography. This is a proofreading of these known documents as well as completely new ones. A real unity had existed between these three civilizations but also a connection with the themes in vogue in the ancient East as to the belief in the afterlife, the resurrection, paradise and hell. This research is only at its beginning and deserves to be continued.

Les historiens sont unanimes que les civilisations vivant au bord de la Méditerranée constituent un des acteurs principaux ayant largement forgé la personnalité de l'Humanité tout entière et ce depuis la très haute antiquité¹. Il faut dire que, les études précédentes avaient mis l'accent plus qu'il en faut sur la contribution de la civilisation grecque et romaine. Cette vision qui s'est avérée limitée et peu fondée est de plus en plus dépassée. Désormais, les nouvelles recherches sont d'accord pour admettre l'apport d'autres cultures autrefois considérées comme Barbares ou marginales². Parmi les civilisations occupant le bassin central de la Méditerranée durant l'antiquité préromaine trois grandes prestigieuses civilisations se distinguaient : il s'agit de celle des Etrusques, des Libyques et des Puniques qui occupaient le centre de la Méditerranée. Bien évidemment, les parallèles déjà faits et encore possibles à établir entre ces trois grandes cultures sont multiples et sans doute très instructifs. Cependant, on déplore que la plupart des approches visent le volet politique et rarement

1 Guilaine, Méditerranée, p. 7.

2 Fantar, Méditerranée, p. 81.

les aspects culturels sans doute influencées par l'hégémonie des sources littéraires et par la nature des recherches jusqu'à un temps très récent. De plus en plus, le recours aux données des sources matérielles inspirent de nouvelles approches où le culturel a une place importante. Parmi les questions soulevées il y a celles d'ordre comparatif. Il s'agit se demander dans quelle mesure la civilisation des Etrusques, des Libyens et des Puniques auraient elles un dénominateur commun sur le plan culturel. Justement, l'une des grandes questions porte plus précisément sur la conception de l'univers chez ces trois cultures. Ce volet est le plus communément appelé « Cosmogonie »¹. Ce terme est tiré du Grec « Kosmogonia » qui signifie « Genèse ». Il s'agit d'une théorie scientifique ou mythique expliquant la formation de l'univers. Il faut dire que certains aspects de la vision du monde chez les Puniques étaient déjà étudiés². Il s'agit de l'eschatologie c'est à dire du monde des morts et de leur devenir. Mais une vision globale consacrée à ces trois civilisations est un fait tout à fait nouveau. C'est l'objectif de cette nouvelle note.

Cette modeste contribution constitue une ébauche de réflexion sur ce qu'il a y de commun entre les civilisations antiques de la Méditerranée centrale dans le domaine de la conception de l'au-delà. Cette note sera axée sur la cosmogonie étrusque, libyque et punique et plus particulièrement la vision de l'univers d'outre-tombe, du devenir du mort, du paradis et de l'enfer à travers aussi bien l'iconographie inhérente au contexte funéraire que le mobilier funéraire. Les questions que cette recherche voudrait poser, portent sur l'existence ou pas d'une unité entre ces trois grandes cultures de la Méditerranée occidentale en matière de vision de l'univers dit de l'au-delà et quels sont les éléments de cette conception du monde ?

L'idée de ce travail est née suite à des réserves enregistrées au sujet d'explications avancées par nos prédécesseurs lors de la publication de documents relatifs à ce dossier. En voici quelques exemples : une scène de décor dans une tombe étrusque de la cité de Tarquinia, à laquelle on trouve aisément des parallèles ailleurs comme à Chypre par exemple, est

1 Rey-Debove – Rey, Le Robert, p. 559.

2 Fantar, Eschatologie, p. 5.

interprétée comme étant une scène de banquet champêtre du défunt dans sa vie d'ici-bas¹. Cette interprétation est inadéquate d'après nous. C'est ce que nous allons prouver tout au long de cette note. Également, une peinture d'époque punique dans une tombe du lieu-dit de Jbel Mlezza au Cap Bon en Tunisie, représentant une cité scindée de fortifications est décrite comme étant « la cité des âmes »². Ce terme est non seulement ambigu mais aussi inapproprié pour la civilisation punique à laquelle appartient cette peinture funéraire. Un autre exemple critique porte sur la civilisation libyque. Il s'agit d'une peinture dans un monument funéraire libyque de type hanout du lieu-dit Kef el Blida dans la région de Aïn Draham au Nord-ouest tunisien représentant une embarcation montée par des personnages avec tout autour deux individus l'un allongé à l'horizontale l'autre escalade une échelle. Cette figure est décrite comme étant le voyage du mort dans l'au-delà³. Nous allons montrer que cette scène funéraire est d'une grande originalité pour le dossier qui nous préoccupe. De plus, les dessins de deux gros poissons affrontés dans un monument funéraire libyque de type hanout de Sidi Mohamed Latrech au Cap Bon est vu comme une allusion à une culture maritime d'où cette scène est tirée⁴. Or, les poissons sont d'un grand rapport avec la conception du monde d'outre-tombe. Nous allons présenter la raison.

Les interprétations avancées de tous ces documents sont à nos yeux très impertinentes d'où le désir de cette nouvelle lecture au cours de laquelle nous allons essayer non seulement de souligner les limites de ces explications mais aussi de proposer une vision d'ensemble de ces différents documents en montrant qu'ils font partie d'un même puzzle et reflètent une seule et unique vision. Celle-ci fait partie d'une conception de l'univers chez les trois cultures ciblées par cette étude.

Cette note comportera deux axes. Le premier sera consacré à montrer le souci du devenir du mort aussi bien chez les Etrusques que chez leur voisins de l'autre rive de la Méditerranée qu'ils soient Libyens ou

1 Hermary, Scènes de culte, p. 117, figure 7.

2 Fantar, Ibid., p. 37, pl. XXVI.

3 Fantar, Ibid., p. 26 et suivant.

4 Ghaky, Latrech, p. 51 et figure.

Puniques. Dans la seconde partie de cette note, nous allons démontrer ce que nous qualifions d'obsession pour le paradis chez ces trois cultures de la Méditerranée occidentale antique.

Il y a long à dire sur notre façon d'avoir regardé les peuples de l'Antiquité ou du moins ceux qui nous ont précédé sur le sol africain et sur ceux de la rive nord de la Méditerranée. Ce regard n'a pas été souvent strictement le fruit des données textuelles ou de l'observation et de l'interpellation de leurs legs matériels. Assez souvent il est né d'un amalgame où la part de spéculation est grande. S'agissant du thème de la mort et de l'univers qui se situe après la vie d'ici-bas, comment les peuples antiques de la Méditerranée centrale voyaient-ils ce monde ?

Sans prétendre venir à bout de ce dossier, nous allons nous contenter de présenter ici quelques éléments de réponse. Certains qui sont déjà publiés seront revisités avec un regard nouveau, d'autres sont publiés pour la première fois.

Il n'y a aucun doute que les peuples Méditerranéens antiques se souciaient du devenir du mort une fois déposé dans la tombe. Ils croient à la résurrection du mort ou du moins à l'entité qui l'animait qui est l'âme¹. Une peinture funéraire de la tombe punique de Jbel Mlezza au Cap Bon (en Tunisie) montre une créature similaire à un volatile très proche du coq, qui est une schématisation de l'âme, sortant de la tombe et se dirigeant vers une cité murillée où se trouvent de multiples éléments similaires aux maisons d'ici-bas (figure 1).

Cette peinture était étudiée auparavant². La cité murillée était qualifiée de « cité des âmes ». Ce terme est d'après nous vague et ne correspond pas à la qualification de cette entité. Or, chez les cultures sémitiques dont la culture punique est issue cet élément correspond au paradis. Donc, l'image de la cité fortifiée est sans doute le paradis et les demeures sont celles des résidents ayant mérité d'y être admis.

1 Fantar, Eschatologie, p. 6.

2 Fantar, Ibid., p. 6 et suivant.

De multiples documents figurés funéraires étrusques nous dévoilent le souci de la récompense du mort après la fin de sa vie sur terre. Cette récompense sera soit positive sous forme d'accès à des plaisirs similaires à ceux de la vie terrestre ou négative sous forme de supplices physiques. Une peinture funéraire de la tombe de Tarquinia montre une scène de banquet où des personnes sont confortablement installées et d'autres leurs servent à boire et à manger (figure 2). Une scène originaire de Chypre reproduit le même thème (figure 3).

Ces représentations sont interprétées comme des scènes d'un banquet champêtre de la vie profane¹. Cependant, quelques éléments, non négligeables à nos yeux, nous permettent de dire que ces figures évoquent plutôt les plaisirs qui attendent le mort au paradis et non pas les souvenirs d'activités sur terre. Les personnes allongées sont peintes de deux manières. Les personnes qui servent à boire et à manger sont nues et ont une couleur de peau similaire à celle de la peau humaine. Alors que les personnes servies ont les visages blancs et portent des vêtements blancs. Il s'agit sans doute des personnes mortes. Cette manière de les représenter montre leur métamorphose une fois au paradis. Egalement, tous les personnages portent des couronnes de feuillages ce qui nous place dans un contexte autre que celui de la vie profane. Dans presque toutes les scènes funéraires étrusques similaires on trouve en haut de la scène un arbuste gardé par deux félins. Tous ces éléments confirment la spécificité du lieu et nous éloignent de l'idée banale d'une scène champêtre. Par ailleurs Quand on examine le reste du répertoire iconographique funéraire étrusque on comprend bien que ces scènes de banquet sont en rapport avec une conception entière de la vie dans l'au-delà. En effet, si la scène que nous avons décrit montre ce le mort souhaite après sa mort, une autre scène montre ce que le mort redoute dans sa vie d'outre-tombe.

En effet, une scène funéraire d'une tombe étrusque montre un personnage subissant des supplices physiques et même des vices sexuels (figure 4). Cette figure représente sans aucun doute le mort ayant mérité un devenir négatif dans sa vie de l'au-delà. Hélas, cette figure à elle seule ne nous dit pas plus sur les raisons de ce destin. En effet, les deux individus qui sont entrain de torturer la personne qui incarne le mort dans

1 Hermary, Op. Cit., p. 117 et suivant.

cette scène sont bien bâtis physiquement. Cette attitude n'est que pour montrer leur nature autre que celle des Humains. Ce sont sûrement les anges chargés de la punition des personnes qui après leur mort auront un destin négatif. En effet, on trouve des échos de cette conception chez les peuples sémitiques durant l'Antiquité, comme chez les Chrétiens et les Musulmans. Il est intéressant de découvrir que même chez les Etrusques cette conception est partagée. Cette question d'accéder aux plaisirs ou aux punitions après la mort n'est qu'une partie d'une conception plus large de l'univers qui suit la mort. En effet, d'autres scènes funéraires étrusques attirent notre attention sur d'autres épreuves qui attendent le mort dans sa vie d'outre-tombe. En effet, le mort sera confronté à franchir une porte flanquée de chaque côté d'un personnage jouant de la musique (figure 5). Cette porte est très blindée. Il s'agit sans doute d'une évocation de la porte du paradis. Egalement, le mort doit passer par d'autres épreuves. Une figure étrusque montre une femme qui semble passer par l'épreuve du jugement (figure 6). Un document sculpté montre un personnage allongé au-dessus d'un lit étalant avec un grand sourire de satisfaction un rouleau inscrit (figure 7). Cette image correspond à l'idée du livre des actes que les personnages une fois interpellés pour le jugement recevront. Le cheminement du mort vers un devenir heureux ou funeste sera en fonction du contenu de ce document. Cette représentation semble reproduire l'idée d'une personne satisfaite de sa destinée après sa mort puisque la personne qui y figure est contente et arbore ce document comme pour afficher cet accomplissement. Ainsi, à travers toute cette documentation, nous avons pu entrevoir le souci chez les peuples de la Méditerranée antique, du devenir du mort, leur espoir pour un devenir positif, leur phobie d'un devenir néfaste, leur souci de certaines épreuves comme celle du questionnement. Mais tous ces peuples ont une réelle obsession pour une destinée positive. Disons-le en clair pour accéder au paradis. C'est ce que bon nombre de documents nous permettent de voir.

Il n'y a pas le moindre doute que chez les peuples antiques de la Méditerranée centrale que nous étudions dans le cadre de cette note à savoir, les Etrusques, les Libyques et les Punique, le paradis avait constitué un réel souci, si non même une obsession. Un vase en terre cuite du secteur dit d'Ard el Morali de la nécropole de Carthage qui remonte au milieu du quatrième siècle avant J.-C. comporte une scène peinte en

noir d'une valeur pour le moins exceptionnelle pour ce dossier¹. Bien que ce vase fût exhumé il y a longtemps et publié depuis des décennies², aucun chercheur ne s'est intéressé au décor qu'il contient. Au fond de la cuvette de ce vase est nichée une scène de décor qui mérite qu'on s'y arrête (figure 8). Il s'agit de trois entités qui sont une forme stylisée de personnages. Devant eux et légèrement au-dessus se trouve une sorte de tubercule suspendu en l'air. Derrière les trois, une silhouette probablement d'un serpent. Tout autour, sur le bord de la cuvette, des rinceaux de feuillage encadrent la scène centrale. Pour comprendre le sens de cette scène il faut recourir à la Bible. En effet, les éléments qu'on retrouve dans cette œuvre trouvent leur parfaite correspondance dans la Bible. Les trois silhouettes seraient respectivement celle d'Adan, d'Eve et du Diable. Le tubercule serait une allégorie au fruit interdit du paradis et enfin le serpent. Le décor de rinceaux qui encadre la scène est pour évoquer l'endroit où se passe cet événement à savoir le paradis. Donc, ce décor est une représentation de l'acte dit du péché originel qui consiste à avoir transgressé l'ordre divin de ne pas toucher au fruit de l'arbre du paradis qu'Adan et Eve avait commis en compagnie du Diable et du serpent qui était probablement chargé de surveiller aussi bien l'arbre que ses fruits³. La scène du décor qui occupe ce vase est pour l'instant unique d'où sa grande valeur. Un document proche de celui-ci provient de Chypre. Il s'agit d'un bol provenant probablement d'une tombe du site de Kandou. Il remonte à une période située entre le milieu du huitième et la fin du septième siècle avant J.-C. Il comporte un décor peint sur la paroi externe⁴. Parmi les figures de ce décor on trouve deux représentations de femmes associées au palmier. Dans la première représentation la femme est entre deux palmiers, elle est entrain de cueillir ses fruits (figure 9). Dans la deuxième figure, la femme est au-dessus de l'arbre, elle semble avoir lancé un régime de datte qui est entrain de tomber. Non loin de ce régime de dattes et lui semble accroché un serpent. Une troisième figure, située entre ces deux dernières, représente un homme tenant ce qui semble être un ovidé d'une main et un objet difficile à déterminer de l'autre

1 Njim, Etude, p. 53, fig. P n° 113, pl. XXVI.

2 Cintas, Manuel, p. 339-340, fig. 54.

3 Bible, Livre Genèse, Chapitre La chute, Paragraphe 3.

4 Hermary, Op. Cit., p. 171, figure 1, p. 173, figures 2-4.

devant une sorte de poteau ou un arbuste. Nous retrouvons ici l'association de la femme, de l'arbre muni de ses fruits et du serpent. Ces figures représentent vraisemblablement Eve, le palmier qui incarne l'arbre interdit, le régime des dattes qui symbolise le fruit interdit et le serpent qui est le gardien de l'arbre. Cette représentation est une interprétation de l'histoire du péché originel. L'homme accompagné de l'animal représenté Adan qui s'apprête à accomplir un sacrifice sanglant soit pour se faire pardonner de Dieu soit pour remercier Dieu de l'avoir pardonné pour ce que lui et sa femme avaient commis. Contrairement à ce qu'on a voulu dire, ces scènes sont loin d'être de banales représentations d'activités champêtres¹. Les trois points qui encadrent ce décor de chaque côté, les deux bouquets qui y sont incrustés ainsi que le décor géométrique qui défile en dessous dénote la particularité aussi bien de l'évènement que de l'endroit où il se déroule. Il s'agit d'une histoire qui avait eu lieu au paradis. L'évocation de l'image du paradis est une chose très fréquente dans plusieurs représentations antiques surtout dans les contextes funéraires. Un vase de Carthage découvert dans un contexte funéraire semble reproduire par son décor l'ambiance du paradis². En effet, les deux palmiers situés au fond de la cuvette ainsi que les rinceaux sur le bord de la cuvette semblent évoquer le paradis. Toutes ces représentations veulent traduire chez ces cultures un souci majeur celui de retourner au paradis après leur vie sur terre.

Nous disposons d'autres documents remontant découverts en Tunisie et datant l'époque romaine offrant les mêmes éléments que cette scène ou ceux qui lui sont très proches.

Un fragment de bas-relief votif d'époque romaine découvert à Hajeb El Aioun se présente sous forme d'un rectangle au sommet triangulaire. C'est le registre supérieur d'une stèle. La scène représente un arbre, vraisemblablement un palmier, surmonté de deux colombes. Cet arbre est enlacé à la fois par un arbuste, probablement une vigne, chargé d'une

1 Selon l'opinion de V.Karageorghis. Voir Hermary, Op. Cit, p. 172.

2 Merlin – Drappier, Ard el-Khéraïb, p. 53-54, fig. 36.

grappe de fruit et d'un serpent énorme. La stèle est datée au plus tôt de Marc Aurèle et Lucius Verus (161-169 après J.-C.)¹.

D'autres documents lapidaires africains d'époque romaine découverts en Tunisie présentent des associations similaires d'arbre, de reptile, et accessoirement, de volatile. Par exemple, un pilier quadrangulaire de Bou Arada dont la figure inférieure est tronquée, porte l'image d'un arbre terminé par un bouquet ressemblant fort à celui d'un palmier. Tout autour s'enroule un énorme serpent. Sous l'arbre se trouve un coq². Egalement, un petit autel, autrefois déposé dans la délégation de Medjez el Bab, est orné sur trois faces au moins. L'une d'elles représente un arbre chargé de ces fruits et un gros serpent qui s'enroule autour du tronc³.

D'autres documents sculptés d'époque romaine découverts en Tunisie nous offrent des scènes associant un personnage féminin à l'arbre comme ce document provenant de la cité d'Apisa Maius, située entre Thuburbo Maius et Ardi aux environs sud de Carthage. Il s'agit d'un bas-relief taillé dans un bloc de calcaire blanc qui présente une scène d'un personnage féminin nu accroupi encadré de deux arbustes⁴.

D'autres documents n'évoquent pas seulement ce simple désir de retourner au paradis mais montrant clairement à quoi les personnes mortes s'attendent à obtenir une fois au paradis c'est-à-dire les divers délices que le paradis offre à ceux qui y seront admis. Il n'est pas rare de trouver dans les tombes puniques des fruits en terre cuite⁵. Ces fruits sont pour évoquer les fruits du paradis auxquels le mort aspire une fois il y est admis. D'autres plaisirs culinaires du paradis sont interpellés de plusieurs façons soit sous forme de représentations soit aussi carrément sous forme d'offrandes déposées dans la tombe. Parmi ces mets très souhaités figure le poisson. En effet, plusieurs plats munis de décor de poissons se

1 Ferchiou, Représentations culturelles, p. 491-492, figure 10.

2 Ferchiou, Ibid., p. 490, figure 9.

3 Ibid, p. 492, figure 11.

4 Ibid., p. 496-498, figure 13 à 17.

5 Fantar, Carthage, p. 355 et figures.

retrouvent parmi le mobilier funéraire comme par exemple ce plat découvert dans une tombe de la nécropole punique de Kerkouane. Dans la nécropole libyque de Sid Mohamed Latrech au Cap Bon en Tunisie, un hanout nous a donné une peinture funéraire représentant deux cétacés affrontés¹. Ces figures sont interprétées comme étant en rapport avec une culture maritime quelconque qui est à l'origine des haouanet. Pour nous, ces poissons ont une signification en rapport étroit avec ce contexte funéraire. Ils symbolisent les plaisirs culinaires du paradis. Egalement, des offrandes de poissons sont fréquentes dans les tombes libyques et puniques pour évoquer la nourriture du paradis. Donc, aussi bien les représentations de poissons que les offrandes de poisson déposées près du mort jouent un seul et même rôle celui d'évoquer les mets du paradis où le poisson semble avoir joué une place de choix. La religion chrétienne perpétue le même souci puisque les figures de poisson abondent dans les monuments funéraires chrétiens. Une seconde préférence culinaire qui n'est ni moins évoquée ni moins fréquente dans les tombes de presque toutes les cultures méditerranéennes antiques, c'est les volatiles. Ceux-ci sont soit représentés explicitement ou évoqués à travers les œufs. Selon une étude de synthèse sur le monde funéraire punique de la région du Sahel tunisien, région située au centre Est de la Tunisie, les offrandes alimentaires dans les nécropoles puniques sont constituées d'œufs, de poussins, de poules, de coqs et de volatiles². Un œuf d'autruche de la nécropole punique de Gouraya en Algérie va dans ce sens. Les décors que comportent certains œufs trouvés dans les tombes ne sont que pour accentuer leur caractère particulier de mets paradisiaques³. On a beaucoup écrit sur la symbolique de l'œuf et des volatils dans le milieu funéraire alors que leur vraie signification est celle d'évoquer les plaisirs de la bouche souhaités une fois le mort est au paradis. C'est aussi simple que cela. Enfin, le paradis constitue plus qu'un souci mais une réelle obsession et un destin que le mort ne souhaite rater sous aucun prétexte à un point où le mort va essayer de trouver un intermédiaire qui lui

1 Décor de deux gros poissons affrontés dans un monument funéraire de type hanout dans le site de Jbel Mangoub au Cap Bon (Tunisie). Ghaky, Latrech, p. 51 et figure.

2 Ben Younes, Libyphéniciens, p. 340.

3 Œuf d'autruche peint d'une tombe punique de Gouraya (Algérie) ; Camps-Fabrer, Autruche, p. 1181 et figure.

permettra d'augmenter sa chance pour entrer au paradis. Pour appuyer cette idée on va analyser une peinture découverte dans un hanout de la région de Kef el Blida située non loin de la ville actuelle de Aïn Draham dans le Nord de la Tunisie. Cette figure rare qualifiée de fresque libyque par certains auteurs a fait couler beaucoup d'encre sans être convenablement comprise. Cette peinture représente une barque montée par probablement sept individus. Les six sont munis chacun d'une lance gisent au fond de l'embarcation alors que la septième personne est sur la proue. Elle est munie d'une hache et d'un bouclier. Non loin de la barque, un peu au-dessus, une personne allongée semble patauger au fond des flots. Exactement devant la barque, une autre personne semble escalader une échelle pour gravir un rocher auquel l'échelle est adossée (figure 10). Cette scène est interprétée comme étant le voyage du mort dans l'au-delà¹. Nous pensons que la signification de cette représentation est tout autre. Il s'agit de l'évocation d'un événement majeur de la vie du prophète Noé, celui de déluge. En effet, la personne au-devant de la barque est Noé qu'on reconnaît à sa hache avec laquelle il a construit l'arche. La personne allongée est emportée par les flots du déluge. La personne qui escalade une échelle est le fils de Noé qui a refusé de monter dans l'arche selon la Bible². Cette représentation dans ce contexte funéraire un rôle bien précis. Elle évoque le prophète Noé qui a pour rôle de jouer l'intermédiaire en faveur du mort pour qu'il soit admis au paradis. On sait que dans les cultures sémitiques, les personnes accéderont au paradis avec le prophète auquel elles ont cru durant toute leur vie sur terre. Ce qui est très original d'après les données de cette scène, d'où la valeur exceptionnelle de ce document, c'est que nous ne savons jusqu'ici que si les Libyens qui ont peint cette figure ont un rapport quelconque avec l'Orient et encore moins avec le prophète Noé plus particulièrement, dossier sans doute très vaste que cette représentation pousse à ouvrir mais qui dépasse assurément le cadre de cette note. Pour résumer, on peut facilement dire que, d'après cette myriade de documents, nous pouvons affirmer que le paradis avait bien fait l'objet d'un grand souci chez ces civilisations de la Méditerranée antique.

1 Fantar, Eschatologie, p. 29 et suivant.

2 Bible, Livre Genèse, Chapitre Déluge.

Un témoignage inédit d'une valeur anthropologique très intéressante nous confirme que la mémoire du prophète Noé est encore ancrée dans l'imaginaire collectif des nord-africains. C'est tout à fait par hasard que nous avons découvert dans le village de Rajiche au Sahel que les femmes fabriquent encore de nos jours des vases en céramique modelée en forme de barque et qu'elles offrent aux jeunes mariées (figure 11). Nous pensons que cette pratique est très ancienne. Elle n'est autre que le souvenir du prophète Noé et son arche.

Au terme de cette communication, nous soulignons le fait que cette recherche n'est qu'un travail préliminaire. Elle ne peut donc prétendre à être exhaustive. De plus, elle ne peut en aucun cas venir à bout de toute la documentation inhérente à ce dossier. Par ailleurs, de multiples codes funéraires restent inexplicables et nécessitent sûrement plus d'effort à l'avenir pour être élucidés. S'ajoute à cela de multiples interprétations impertinentes dont certaines ont été reprises avec un regard critique au cours de ce travail au sein de cette nouvelle approche. Au terme de ce travail, nous pouvons d'ores et déjà dire que selon toute cette documentation, nous pouvons affirmer qu'une réelle unité existait en matière de conception de l'au-delà entre les cultures antiques de la Méditerranée centrale essentiellement chez les Etrusques, les Libyques et les Punique. Qu'il y avait également une réelle connexion et harmonie avec les idées de la Méditerranée orientale. Il est évident même que ce chapitre qui pourrait être élargi à l'avenir. Nous ajoutons à cela qu'une unité notoire existe aussi entre la vision de l'au-delà chez les cultures méditerranéennes antiques et les cultures de la fin de l'Antiquité issues de la religion Chrétienne et de l'Islam. Ces vérités aussi intéressantes soient-elles nécessitent sans doute des explications mais qui dépassent hélas le cadre de cette note. C'est à nos yeux un motif suffisant et louable pour approfondir ce dossier.

BIBLIOGRAPHIE

Ben Younes, Libyphéniciens : Ben Younes H., Les Libyphéniciens, dans A. Frejaoui (coordination), Carthage et les autochtones de son empire du temps de Zama, Tunis 2010, p. 337-340.

Camps-Fabrer, Autruche : Camps-Fabrer H., « Autruche », Encyclopédie berbère, volume 8, Aix-en-Provence 1990, p. 1176-1187.

Cintas, Manuel : Cintas P., Manuel d'archéologie punique I-II, Paris 1970-76.

Fantar, Carthage : Fantar Mh H., Carthage approche d'une civilisation Tome I-II, Tunis 1994.

Fantar, Eschatologie : Fantar Mh. H., Eschatologie phénicienne et punique, Tunis 1970.

Fantar, Méditerranée : Fantar Mh. H., Pour une Méditerranée solidaire, dans L'Africa Romana, XIX, volume I, p. 81-87, Rome 2012.

Ferchiou, Représentations cultuelles : N. Ferchiou, A propos de quelques représentations cultuelles et votives de l'ancien territoire de la Carthage punique, dans A. Ferjaoui (coordination), Carthage et les autochtones de son empire au temps de Zama, Tunis 2010, p. 497-507.

Gentil, Savoirs : Gentil V., Savoirs et pratiques de la religion étrusque, dans « Les Etrusques et la Méditerranée antique », Histoire antique et médiévale, N° 37, décembre 2013, p. 47-53.

Ghaky, Latrech : Ghaky M., Les haouanet de Sidi Mhamed Latrech, Tunis 1999.

Guilaine, Mer : Guilaine J., La mer partagée ; la Méditerranée avant l'écriture (7000-2000 av. J.-C.), Paris 1994.

Hermay, Scènes de culte : Hermay A., Scènes de culte originales sur un vase chypriote archaïque, dans Atti del V Congresso Internazionale di Studi Fenici e Punici, Volume I, Palermo 2005, p. 171-179.

Joncheray, Nécropoles : Joncheray C., Les nécropoles étrusques classées au patrimoine de l'Unesco, dans « Les Etrusques et la Méditerranée antique », Histoire antique et médiévale, N° 37, décembre 2013, p. 54-63.

Merlin A.-Drappier L., La nécropole d'Ard el-Khéraïb à Carthage, Notes et Documents numéro 3, Paris 1909, p. 1-84.

Njim, Etude : Njim A., Etude de collections de brûle-parfums et de kernoï puniques en terre cuite des Musées de Carthage et du Bardo (Tunisie), Diplôme d'Etudes Approfondies, Université d'Aix-Marseille I 1996.

Rauscher, Art : Rauscher E., Art étrusque, dans « Le miracle étrusque », Les cahiers de science et vie, N° 85, février 2005, p. 36-41.

Rey-Debove - Rey, Le Robert : Rey-Debove J.- Rey A., Le nouveau Petit Robert, Paris 2002.

LÉGENDES ET SOURCES DES FIGURES

Figure 1 : peinture funéraire du site punique de Kerkouane au Cap Bon (Tunisie) représentant le paradis ; Fantar, Eschatologie, pl. XXVI.

Figure 2 : peinture funéraire d'une tombe étrusque du site de Tarquinia représentant

le banquet des défunts une fois au paradis ; Rauscher, Art, p. 39 et figure.

Figure 3 : peinture sur une amphore chypriote représentant le banquet des défunts une fois au paradis ; Hermary, scènes de culte, p. 117, figure 7.

Figure 4 : peinture funéraire d'une tombe étrusque du site de Tarquinia représentant les supplices du mort dans l'au-delà ; Rauscher, Art, p. 40 et figure.

Figure 5 : peinture funéraire d'une tombe étrusque du site de Tarquinia représentant la porte du paradis ; Gentil, Savoirs, p. 47 et figure.

Figure 6 : peinture funéraire étrusque du site de Tarquinia représentant le défunt lors du jugement dans l'au-delà ; Joncheray, Nécropoles, p. 59 et figure.

Figure 7 : sarcophage étrusque dont le couvercle représente le défunt tenant un rouleau sensé être celui de ces actes dans la vie d'ici-bas ; Gentil, Savoirs, p. 49 et figure.

Figure 8 : dessin du décor de la cuvette d'un vase punique des tombes de Carthage muni d'un décor de la scène dite du péché originel. Njim, Etude, p. 53, fig. P n° 113, pl. XXVI.

Figure 9 : peinture funéraire du site de Kef el Blida (Tunisie du Nord) représentant vraisemblablement le prophète Noé fuyant le déluge. Fantar, Eschatologie, pl. XXII.

Figure 10 : barque actuelle en poterie modelée de Rajiche (Sahel Tunisien) ; Photo de l'auteur.

LISTE DES FIGURES

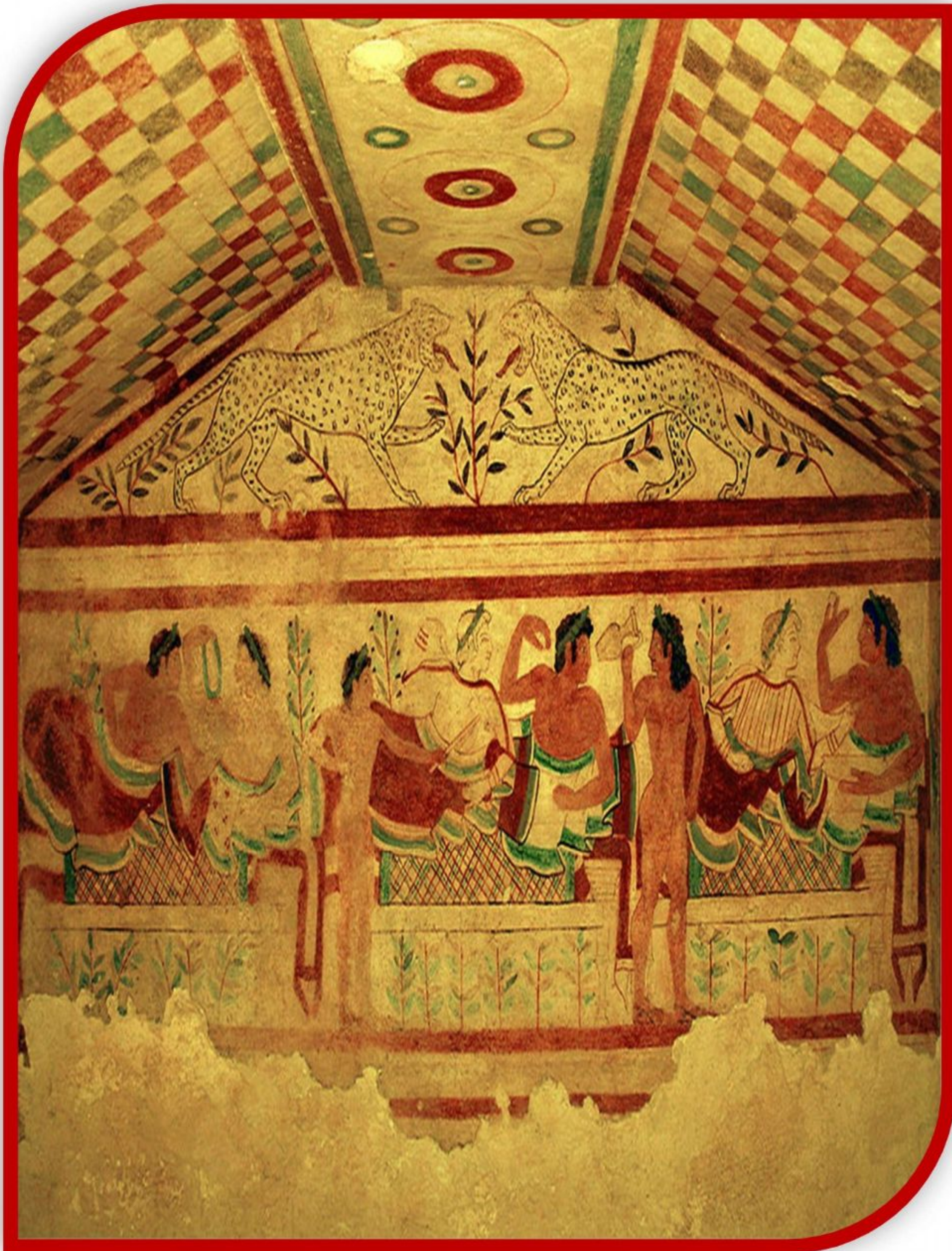


Figure 1



Figure 2

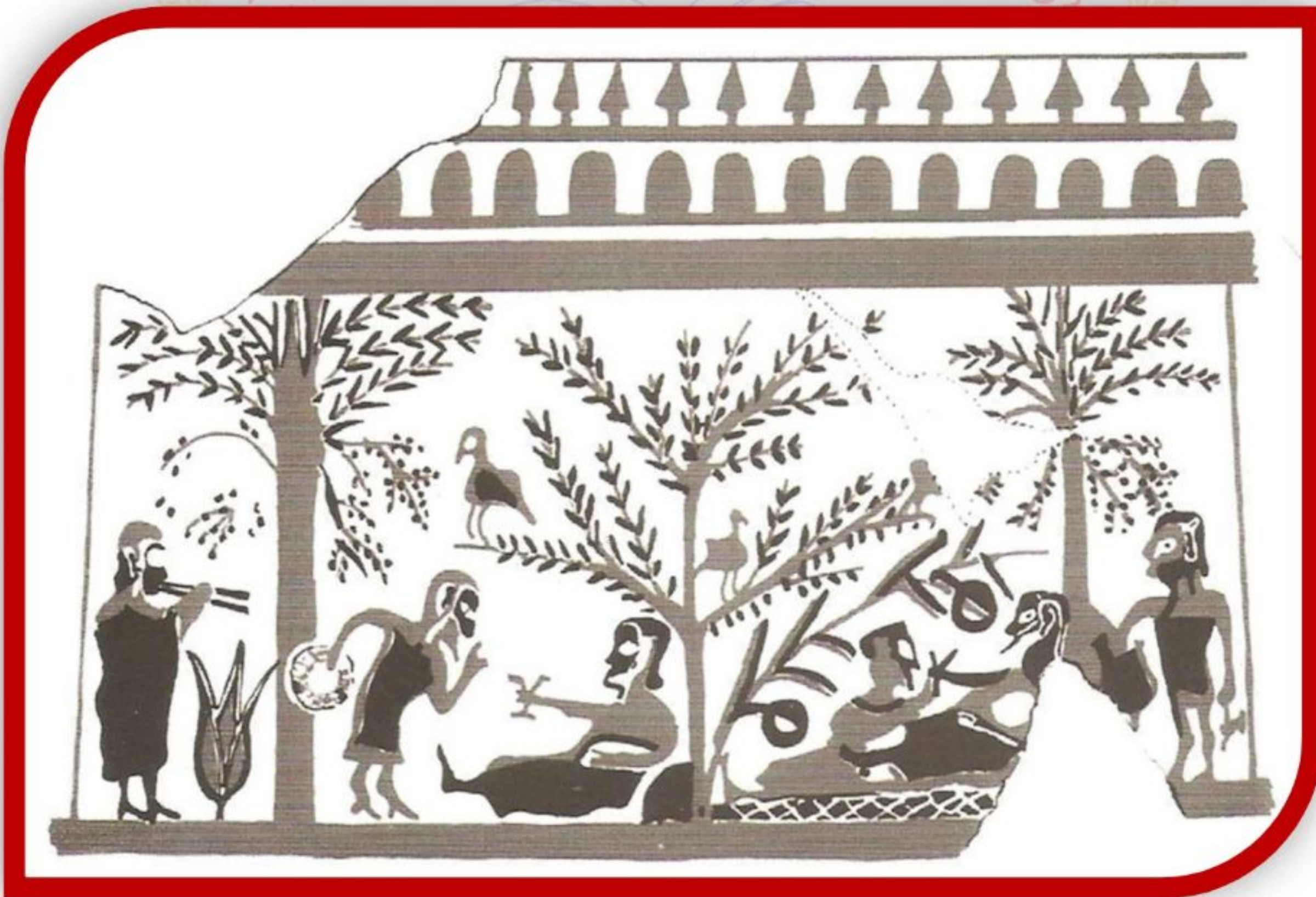


Figure 3



Figure 4



Figure 5



Figure 6



Figure 7



Figure 8

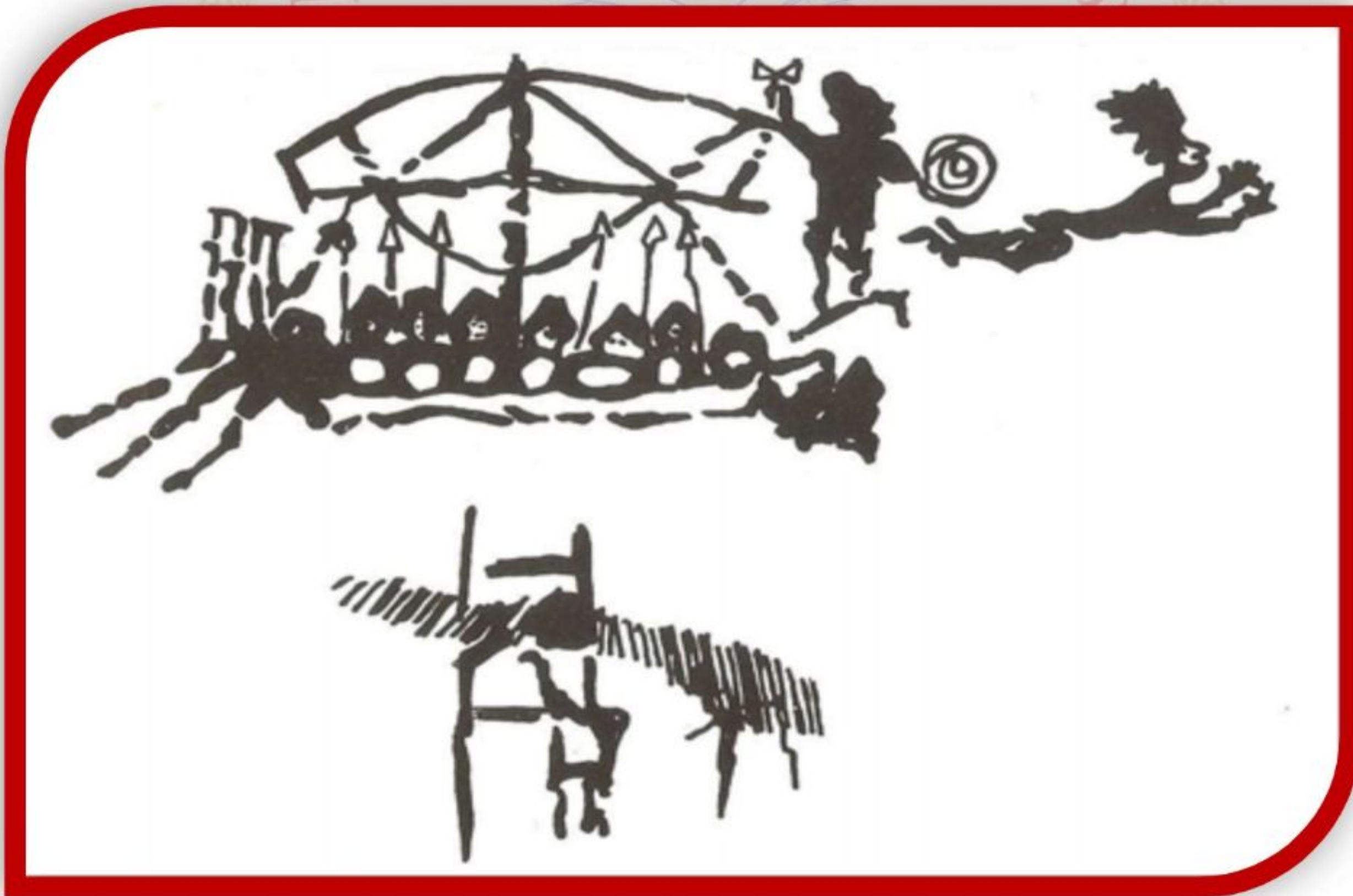


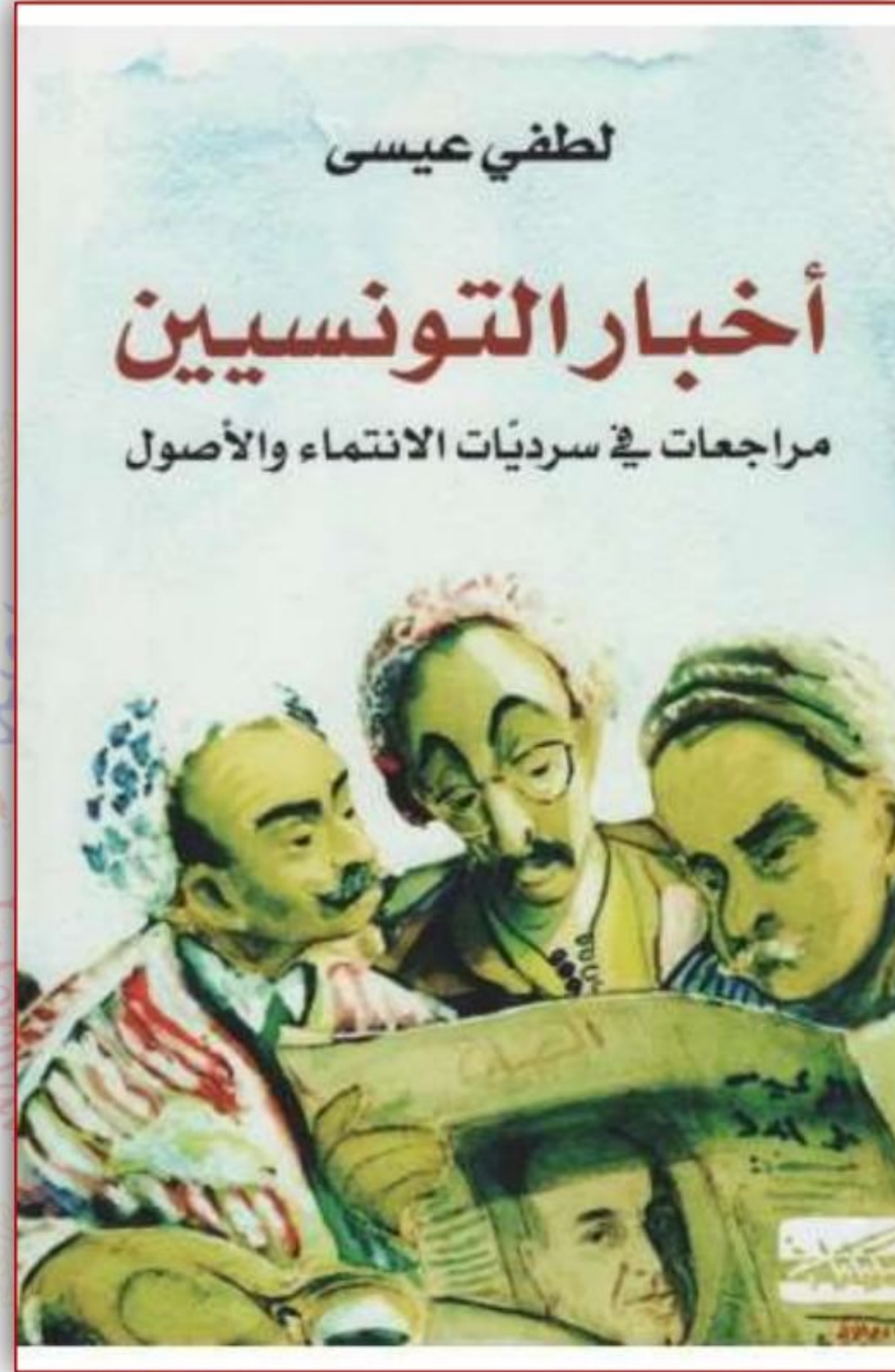
Figure 9



Figure 10

مراجعات لطفي عيسى لسرديات الانتماء واستعاراتها في كتاب "أخبار
التونسيين"

د. عادل النفاتي، جامعة تونس / تونس



عن دار مسكلياني للنشر والتوزيع بتونس صدر للأستاذ والباحث في التاريخ الثقافي لطفي عيسى سنة 2019 كتاب أخبار التونسيين: مراجعات في سرديات الانتماء والأصول. للكاتب إصدارات وبحوث ودراسات تاريخية عديدة باللغتين العربية والفرنسية، علاوة على نشاط صحفي منتظم حول قضايا ومواضيع متصلة بالواقع التونسي والإقليمي. نال المؤلف موضع الدرس في معرض الكتاب الدولي بتونس في دورته الخامسة وثلاثين جائزة الطاهر الحداد للبحوث في الإنسانيات، اعترافا بتوفيق صاحبه في دراسة جوانب من حياة التونسيين في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن الموالي من خلال مقارنة تاريخية انتروبولوجية، باحثا في مدونات لم توضع بالضرورة بغرض التأريخ، مُستخلصا منها بعض ما في الشخصية التونسية من تمثلات ومعايير في النظر ووعي بأهم

مجالات الانتماء إلى تونس. يدعوننا هذا الاستحقاق بالإضافة إلى معرفتنا بنبوغ صاحبه في كتاباته التاريخية المتخصصة في التاريخ الثقافي في بعديها النظري والميداني، واجتهاده في تضمين بحوثه بمضامين نظرية جديدة ومبتكرة في تخصصات انسانية مختلفة، إلى تسليط الضوء على تقاسيم منجزه ومعانيه.

ونستهل هذا التقديم بالتذكير بالإشكالية العامة التي تناولها الكاتب وتعمق فيها، والتي حامت حول كيفية نشوء مشاعر متآلفة بين عناصر مجموعة بشرية وقبولها بالعيش المشترك، على رقعة ترابية مُعلّمة بأمارات تضاريسية وثقافية معلومة، وجعلتهم يتوافقون حول انتماء موحد. وغني عن البيان أن هذه الاشكالية ليست مستحدثة أو وليدة الساعة، وإنما هي مشغل بحثي يحيل على حيرة فكرية تقاسمها عدد من المؤرخين والباحثين التونسيين ومن غير التونسيين منذ سنوات. وهو ما يدفع إلى الاعتبار بدور السياقات في إثارة مثل تلك الاشكالية ومعاودة ظهورها أو بروزها كلما حصل أمر مستجد، يحير الساكن ويعيد صياغة التوافقات أو المواضع. ومهما يكن من أمر فإنه من الثابت أن قائمة الكتاب التونسيين والباحثين الذين أثاروا موضوع "التونسة" وحاولوا البت في مميزات الشخصية التونسية طويلة، نستحضر من بينها البشير بن سلامة¹ وسعد غراب² وهشام جعيط³، المنصف وناس⁴ والهادي التيمومي⁵ وغيرهم من الباحثين والباحثات الذي تعرضوا جزئياً أو تفصيلاً إلى ذات المسألة.

كما أنه من الثابت لدينا أن لطفي عيسى كان على دراية بمحاور تلك السرديات، مما جعله يتخذ لنفسه في مقارنته لنفس الإشكالية مسلوكاً فريداً، تجنباً للسقوط في الاجترار ومُساءلة ذات الشأن وفقاً لعروض راوحت بين الظرف أحياناً والعمق في أحيان أخرى، محاولاً مراجعة محتويات جملة من المصادر لم تكن مثار أهل الباحثين في الحقل التاريخي من قبل. فقد تابع المنهج التأويلي في دراسة عينات من تلك المصادر⁶ وإعادة تركيب مضامينها ومعانيها ضمن اشكالية كبرى متصلة بمقومات بناء الهوية التونسية، على غرار الخرافات الشعبية والأحاجي والأمثال الواردة

1 - ابن سلامة(البشير)، الشخصية التونسية، مقوماتها وخصائصها، نشر مؤسسات بن عبد الله، تونس ، 1974.

2 - الغراب(سعد)، العامل الديني والهوية التونسية، الدار التونسية للنشر، تونس، 1990.

3 - جعيط (هشام)، الشخصية العربية الإسلامية والمصير العربي، ترجمة المنجي الصيادي، دار الطليعة، بيروت، 2008.

4 - وناس(المنصف)، الشخصية التونسية: محاولة لفهم الشخصية العربية، الدار المتوسطية للنشر، تونس، 2011،

5 - التيمومي(الهادي)، كيف صار التونسيون تونسيين؟، دار محمد علي الحامي، تونس 2015.

6 - للإطلاع على معنى التأويل في العلوم الإنسانية يمكن العودة إلى مقال " منهج التأويل في العلوم الإنسانية، لمصطفى غراب، مجلة التربية والابستمولوجيا، المجلد الخامس، العدد 9، الجزائر، 2015/12/30، ص ص 163-178.

في كتاب سالم ونيس "الحكايات الخرافية والشعبية"¹، والتدقيق في بعض المؤلفات المغمورة التي لم يجر تداولها كثيرا مثل كتاب "مفتاح التاريخ" لمحمد البشير صفر²، و"الرزنامة التونسية" لمحمد بن الخوجة³، و"العادات والتقاليد التونسية" لمحمد بن عثمان الحشايشي⁴، وثلاثة مقالات للأب أندري ديميرسمين (1901 – 1993) André Demeerseman نشرت بين سنة 1958 و1961 وهي: "تأملات في دراسة الشخصية التونسية"، و"بحث في الشخصية الأساسية لتونس" و"مساهمة في دراسة علاقة اللغة العربية والشخصية التونسية"⁵. ومن نافلة القول أن الباحث لطفي عيسى قد اختار بدوره الاشتغال على قضية "التونس" دون إطلاق أو تعميم، بل ركز جهوده على فترة زمنية محددة شكلت مفصلة زمنية دقيقة في تاريخ التونسيين وبخاصة مراقبة ذلك المرور المتأني في مستوى تمثلات التونسيين لذواتهم ولآخرهم القريب أو البعيد. فقد غطت المدة الزمنية المقترحة العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر وامتدت إلى العقدين الأولين من القرن الموالي. ففي تلك الفترة عايش التونسيين انتقال سلس بين زمنين: زمن الاحتلال وما قبله، وما رافقه من تحولات ملحوظة في مستوى الحياة الفكرية والعلمية وانعكاساتها البيئية على الذهنيات وبخاصة لدى النخب المتعلمة، التي أقبلت على التعامل بشغف مع الصحف (مثلما يشي بذلك غلاف الكتاب)، باعتبارها وسيلة اخبارية محدثة سحرت ألباب المثقفين التونسيين بعد أن ثبتت جدارتها في اطلاع قرائها على مجريات الأمور في الساحتين الوطنية والدولية.

طُبِع الكتاب في مجلد واحد متضمنا لثلاثمائة وخمسون صفحة من القطاع المتوسط. قسّمه صاحبه إلى مقدمة عامة عنونها ب "زمن للخرافة، زمن للسرد"، وأربعة فصول واتبعتها بخاتمة عامة. وتضمنت الصفحات الأخيرة

1 - إن انجذاب لطفي عيسى إلى المصادر غير المدروسة أو المهملة من قبل جمهور الباحثين في التاريخ هي مغامرة قد تعود الباحث على خوض غمارها منذ تسعينات القرن الماضي، فهو من رواد البحث والتقصي في كتب المناقب في الجامعة التونسية واستجلاء أخبارها تغطية لما سكتت المصادر التاريخية أو تحاشى واضعوها توضيحه. للمزيد حول الموضوع يمكن العودة إلى مؤلفه الموسوم ب أخبار المناقب: في المعجزة والكرامة والتاريخ، سراس للنشر، تونس، 1993، وكتاب السير: مقاربات لمدونات المناقب والتراجم والأخبار، دار المعرفة للنشر، تونس، 2007.

2 صفر(محمد البشير)، مفتاح التاريخ مفكرات ومقالات تاريخية، الطبعة الأولى سنة 1928، مطبعة النهضة، تونس. وطبعة ثانية تضمنت تقديمًا وتحقيقًا لحمادي الساحلي وصدرت عن دار الغرب الإسلامي، بيروت، سنة 2009.

3 ابن خوجة(محمد)، "الرزنامة التونسية"، تغطي الأعداد المحفوظة بمؤسسة الأرشيف الوطني التونسي الفترة المتراوحة بين 1901 و1916 متضمنة 16 عددا. ويتوفر الأرشيف على حافظتين تحملان الترقيم 52 دو.

4 - الحشايشي (محمد بن عثمان)، العادات والتقاليد التونسية/ أو الهدية أو الفوائد العلمية في العادات التونسية، تحقيق الجيلاني بن الحاج يحي، سراس للنشر، تونس، 1994.

5 - Demeerseman André, "Réflexions sur l'étude de la personnalité de la Tunisie", dans IBLA, la recherche de la personnalité de base de la Tunisie", 4 ème trimestre 1958, p 355 – 366. "A sans IBLA, 1er trimestre 1959, p 1-28. 2 ème trimestre 1959, p129 – 146. " Contribution à l'étude de la relation entre la langue arabe et la personnalité de la Tunisie" dans IBLA, 4ème trimestre 1960, p 357 – 399.

قائمة ثرية ومتنوعة من المصادر والمراجع باللغتين العربية والفرنسية، التي استند إليها الباحث لبناء مخطوطته، ومن شأنها أيضا إنارة سبيل الباحثين المنشغلين بدراسة مواضيع متصلة بمحتويات الكتاب. ولمزيد تقريب مضامين المدونة موضع الدرس إلى القراء، ارتأينا التوقف ببعض من التفصيل أو باقتباسات لبعض ما ورد في كل فصل، في محاولة منا للإلمام بمضامينه وتحليلات الكاتب.

عمل الكاتب في مقدمة أثره على معالجة مسألة دقيقة وذات أهمية قصوى في مجال البحث، تتعلق بشروط المعرفة التاريخية معرجا على العلاقة الوطيدة بين ذكر الخبر وبناء السردية، بمعنى هل يقتصر دور الإخباري أو المؤرخ على ذكر الخبر أم يتعين عليه تملك أساليب أدبية وفنية رفيعة، ورصيد ثري من المفردات والمعاني حتى يقدر على شدّ المتابع أو القارئ؟

مال الكاتب إلى تغليب الفرضية الثانية، مستشهدا بجملة من الشهادات والأمثلة ولعدد من المؤرخين الذين تم الاجماع من حولهم حول أدوارهم الريادية في التأريخ لأزمة أوروبا والعالم بدأ من شيشرون (106 ق.م - 43 ق.م) Cicéron وتاسيت (56 م - 120 م) Tacite وفرواسار (1337 - 1410) Froissart وجيل ميشلي (1798 - 1874) Jules Michelet. وخلص إلى ضرورة القطع مع التقليد السائد في الفصل بين الخبر والرواية، داعيا إلى إدماج المعطيات الوثائقية أو المصدرية والتحليل المتصلة بها في ثنايا الرواية، فلم يعد من المنطقي وفق تصور لطفي عيسى أن يقوم المؤرخ بتفضيل الرواية على رسم الوقائع أو الاعتبار بعكس ذلك¹، فكتابة التاريخ وفق منظوره هو صناعة، والصناعة عند المؤرخ تشترط توفر موارد أساسية كالخبر وأدوات الإبلاغ والسرد.

قامت الاشكالية العامة لكتاب "أخبار التونسيين" حول مسألة مثيرة ومربكة في آن، تتمثل في طرق إدراك التونسيين لمسألة الزمن التاريخي ولأساطير تأسيس مجاهم وتكون شخصيتهم القاعدية. ففي محاولة لاسترجاع ذاكرة ضائع الأزمنة على حدّ تعبير لطفي عيسى، وضع الكاتب تصوره الخاص للأزمة التونسية وفق نوعية المصادر المتعامل معها، فقسّمها إلى أربعة أزمنة كبرى، لا تتخذ ضرورة نسقا تطوريا وفق خط كرونولوجي أفقي كما اعتاد تداوله بين المؤرخين، بل هي أزمنة متداخلة تقبل بتزامن زمنين أو أكثر، استجابة لحاجيات التونسيين في خلق وشائج وصلات تضمن تآلفهم واجتماعهم، وهذه الأزمنة هي: "زمن الحكاية" و"زمن المجال" و"زمن الرزنامة" ثم "زمن الذات أو الوجدان".

1 - - عيسى (لطفي)، أخبار التونسيين: مراجعات في سرديات الانتماء والأصول، دار مسكلياني للنشر والتوزيع، تونس 2019، ص 18.

سعى لطفي عيسى في الفصل الأول الذي سَمَّاه بـ"ديوان الخرافات الشعبية التونسية"، إلى مساءلة جانب من رصيد التونسيين من الحكايات والأمثلة الشعبية والأحاجي، والتعامل معها كمصادر تاريخية لها حيكاتها الخاصة من حيث الخطاب واللغة والبناء والسرود. وهي مرويات تكفلت بتغطية مجزية لجوانب مهمة متصلة بالحياة اليومية للتونسيين داخل المسورات وخارجها، ووثقت للذاكرة المشتركة وكشفت مواطن الشخصية الجماعية. وقد نُجحت هذه الخرافات حسب ما أورده «لطفي عيسى» في نقل تمثل التونسيين العميق لخصوصيات الوسط الذي عاشوا داخله، دون أن ننسى عرضها للقيم والطباع التي حكمت حياتهم. ورغم أهمية المتون الإخبارية الواردة في هذا الصنف من المصادر، إلا أنه تم التعامل معها بكثير من التجاهل نتيجة وثوقية المدارس التاريخية المفرطة وتمسكها الصارم بشروط صناعة المعارف التاريخية. وهو ما حدًا بالكاتب إلى الدعوة إلى ضرورة مراجعة أبستمولوجيا المعرفة التاريخية وفلسفتها، والاعتراف بالقيمة الإخبارية لما حفظته الذاكرة الجماعية للشعوب من حكايات وأمثلة تم تداولها بين الناس، طالما أن مرآتها المحدبة قادرة على عكس مراحل مهمة من معيش المجتمعات قبل التمكن من وضع ضوابط المعرفة التاريخية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وهو ما أحال تلك النوعية من المصادر إلى أسفل سلم اهتمام الباحثين اعتبارا لعدم توافقها مع شروط القراءة السياقية الصارمة والدقيقة¹.

تتطلب دراسة الحكايات الشعبية والأمثال والأحاجي وفق رؤية لطفي عيسى جهدا مضنيا وتركيز كبير لبلوغ معانيها ودقيق تحليلاتها، مع الأخذ بعين الاعتبار ضرورة الإلمام بفرادة كلمها وصياغاتها المخصوصة واتخاذ جميعها من العجائبي والخرق ركنًا رئيسًا في بناء السرد. الأمر الذي نتكشف بفضلته على مضامين تحيل على الطبيعة البشرية، وذلك حال التعويل على استعارات لها صلات وثيقة بمدرك سلوك التونسيين الواقعي، وأشكال توصلهم إلى تجاوز معيقات التعبير والإبلاغ العادية، وبلوغ المعاني السامية دونما نسيان لحاجات التسلية وتزجية الوقت على حدّ تعبير الكاتب².

انشد الفصل الثاني الموسوم بـ"سردية الانتماء في مفتاح التاريخ" إلى منجز محمد البشير صفر (1865-1917) باعتباره مؤلف قليل التداول بين معشر المؤرخين والباحثين التونسيين، رغم نظرتة الفريدة المجددة للسردية التاريخية التونسية. فـ"مفتاح التاريخ" هو في الأصل جملة من المحاضرات في التاريخ قدمها محمد البشير صفر في المدرسة الخلدونية على مسامع طلبة الجمعية الخلدونية بين 1897 - 1908، إبان خضوع البلاد لمعاهدة

1 - نفسه، ص 18.

2 - نفسه، ص 16.

الحماية، وفقدان التونسيين لاستقلال قرارهم السياسي. فقد عمد الكاتب إلى إعادة صياغة انتماءات التونسيين وتوثيق صلاتهم بجملة من الغيريات راوحت بين توسيع أفقهم الزمانية، عبر التذكير بمختلف الحضارات الكبرى التي وسمت تاريخ التونسيين القديم، وفتح أعينهم على تعدد انتماءاتهم المكانية من خلال ربطها بقديم تاريخ المغرب والمسلمين ووسيطه، وحديثه ومعاصره، مع الحرص في جميع ذلك على اطلاعهم على حقيقة اتصال ماضيهم كما حاضرهم بالبحيرة المتوسطية، والتشديد على ذلك التداخل بين تاريخ التونسيين وتاريخ أمم أوروبا بما فيها تاريخ "الأمة الفرنسية الحامية" والجارة المتوسطية الإيطالية والمملكة البريطانية¹. فقد تبين للطفي عيسى بعد مراجعة منجز محمد البشير صفر تلك النقلة النوعية التي حدثت في فكر صاحبه والتي قامت على إعادة تأسيس فكرة الانتماء على قاعدة الانفتاح على الآخر الجغرافي والزمني، "الأليف" منه و"الغريب"، وذلك بغية الحد من الاحساس بالدونية المزدوجة - المشرقية والغربية - والتركيز المرضي على محور حضاري واحد، وإقناع المتلقي بتوفر مشترك تاريخي وثقافي بين التونسيين، مع حضور عناصر تهجين أفصحت على قدرات تركيبية سمحت بالانفتاح على العديد من الغيريات الحضارية والثقافية، حاملة لبذور القبول بالثقافة والاختلاط، تكيّفًا مع توفر التونسيين على وطن يخصهم وتشكيلهم لأمة، عاشت على مجال اعتباري تحوّل بالتقادم إلى حيز للانتماء وتشوّفت ساكنته إلى التعافي من جميع مظاهر الانطواء التي لازمتها لقرون².

تطرق لطفي عيسى في الفصل الثالث من مؤلفه، وهو فصل وسمه بـ"زمن الاستطلاع وحب المعرفة الجذلي"، إلى دراسة مضامين "الرزنامة التونسية"، التي أشرف على تحريرها الجنرال محمد بن الخوجة (1869 - 1943) وبلغ عددها 16 عددا صدرت بدون انقطاع من سنة 1901 إلى موفى سنة 1917. حيث تضمنت تلك الدوريات معارف مستحدثة عملت على توسيع الاهتمام بالأخبار الفلكية والجغرافية والتاريخية والأدبية والإدارية والسياسية والجمالية والفنية وغيرها من المواضيع المستطرفة من قبل النخب الجديدة المندرجة ضمن التقاليد الوليدة للتونسي الجديد، وعزوف عن دواعي الركون إلى الاجترار والتقليد والجمود، مع الدفع باتجاه الانخراط في نبض الكون. وضمن تقييمه لمنجز محمد بن الخوجة تبين لمؤلفنا أن ما انجزه ضمن مغامرة "الرزنامة التونسية" قد شكّل اسهاما معرفيا تجميعيا غير غريب عن مثقف تونسي عُرف بنشاطه العلمي الغزير ضمن الصحف والمجلات التونسية الثقافية والعلمية، والتي أبانت على سعة اطلاع صاحبها على المصادر والمراجع شرق وغربا، وقدرة استثنائية على ربط مضامينها بالثقافة المحلية التونسية. كما اعتبر لطفي عيسى أن مضامين الدوريات كانت متممة للأغراض التوعوية والإخبارية التي من أجلها بعثت مجلة "الحاضرة" وللأفكار الحداثية التي بشر بها عدد من محرريها من بين الناهجين من التونسيين.

1 - نفسه، ص 20.

2 - نفسه، ص 332.

نوه لطفى عيسى بمجهودات محمد بن الخوجة في عنايته بـ "زمن الرزنامة Temps calendaire" والتقيّد بزمنية جديدة تحقق حول بعد اجماع كبير بين الشعوب المتحضرة من دون غيره من الأزمنة الدينية أو الروحية الأخرى، والتخلّي التدريجي عن جميع التقويمات الموروثة، كالدائرية أو الزراعية أو الطقسية، مُحِيلاً على ترسخ الوعي بوحدة المصير البشري. وهي فكرة جديدة عمل المؤرخون والإخباريون بشكل لافت على تقريبها من الأذهان عبر شدّها إلى قوائم تحويل ومقابلة قرّبت بين التقويمين الشمسي المسيحي والقمرى اليهودي، فشكّلت جهودهم لبنة أساسية على طريق اكساب الزمن التاريخي طابعا منفصلا عن التصوّرات الدينية التبعديّة¹.

كما عاين الكاتب نفس المضامين الحدائثية تقريبا في موسوعة "الأدب التونسي في القرن الرابع عشر" التي تصدى لتحرير محتوياتها زين العابدين السنوسي (1898 - 1965)، عند أواخر عشرينات القرن الماضي. فقد راهن هذا المؤلف بدوره على التجديدات الحاصلة في أشكال المعالجة الأدبية التونسية شكلا ومحتوى، وذلك بغرض اثبات حقيقة النقلة الفكرية التي عاشتها نخب الأدب والفن من خلال التركيز على شواغل مُحدثة أخذ ضمنها الإحساس بالانتماء الوطني والرغبة في التحرّر والانعتاق ومقاومة الظواهر الاجتماعية والثقافية البالية المفرطة في الحسيّة² موقع الصدارة. فقد تضمنت تلك السردية تراجما لأدباء الثلث الأول من القرن العشرين، ومختارات من أعمالهم الفنية وذلك في إطار خطة الكاتب لإعادة استكشاف ماضي التونسيين ونفض الغبار عنه، وليكتسب مدلولاً محدثاً يسمح بالانفتاح على دواعي التجديد وحب المعرفة الجدلى. ومن تلك الشخصيات التي تم الاحتفاء بها في الموسوعة وعدت من قامات الأدب التونسي في ذلك الحين تعرض هذا الفصل إلى: محمد الشاذلي خزندار وحسين الجزيري وسعيد أبو بكر وصالح النيفر ومحمد الفائز والهادي المديني وأبو القاسم الشابي وأحمد خير الدين ومحمد مناشو وسالم الأكودي، وجميعهم أدباء وشعراء تونسيون كتبوا في الأدب وفق رهانات السياقات الوطنية واستجابة للذائقة المحلية³.

شدّد لطفى عيسى عند النظرة التجديدية التي حملها كتاب السنوسي حول المعرفة التاريخية الجديدة، إذ استنتج "أن عقلية الأمم لم تعد تكتفي بمعرفة الأسباب النفسية للانقلابات التاريخية، بل لابد للمؤرخ اليوم من الجداول الواضحة والخرائط لمختلف الأعصر، ولا يكون كتابه مستوفى إذا كان خلوا من الرسوم والمناظر الصريحة.

1 - نفسه، ص 20

2 - نفسه، ص 22.

3 - نفسه، ص 152.

على أن تجدد التواريخ وسبكها على العقلية العصرية ليس من الأعمال الهينة البسيطة، بل يمكن أن ينسبك قبل بضع عشرات سنين يمضيها المجددون في الملاحظة والنقد والتعبير"¹.

خصّص المؤلف الفصل الرابع من كتابه إلى ما نعتبه ب"مراجعات حول شخصية التونسيين"، مستعرضا عينات أدبية مختارة حاز خطابها من وجهة نظره على كثير من الطرافة، لأنها اختارت الاشتغال على مقومات الشخصية التونسية من خلال بعض البحوث الميدانية، عاملة على التعريف بسكان البلاد التونسية: عرقا ولغة وتراثا وسلوكا وأعمالا وأياما². ومن تلك المنتقيات اختار الكاتب التوقف عند مؤلف "الهدية أو الفوائد العلمية في العادات والتقاليد التونسية" لمحمد بن عثمان الحشايشي، الذي عدّ جرّدا مفصلا وميداني لتقاليد التونسيين وعاداتهم، مستعرضا جملة من المعطيات أحالت على مضمون الثقافة المادية ومختلف المعارف والقيم والمعايير التي طبعت تصرفات التونسيين وسلوكياتهم، محاولا من خلال ذلك توسيع اطلاع أعوان الإدارة الحامية على ما شكّل الشخصية القاعدية للتونسيين³. وفي ذات الغرض استجلب لطفي عيسى المقالات الثلاثة للأب أندري ديميرسيمن (تمت الإشارة إليها سابقا) والتي تعرضت بالدراسة إلى تاريخ التونسيين وماضيهم اللاتيني الروماني دونما نسيان للجذور العربية الإسلامية وفق قراءة مشوبة بنفس استشراقي على حدّ توصيف لطفي عيسى⁴. حيث تضمنت تلك المقالات أسس نظريته للشخصية التونسية، معوّلا في تحديد معالمها الكبرى على الجهد الميداني الذي بذله بغية التعرف على طباع ساكنة البلاد ومزيد فهم واقعهم المعيش، وفق قراءات متواشجة مع عروض الحشايشي⁵. وخلص لطفي عيسى في نهاية عروضه إلى تحديد الخطوط العريضة للشخصية التونسية، تلك التي اختزلها في أربعة وهي: وحدتها، وتنوعها، وامتدادها وتواصلها، مع بعض من التفصيل في كل ركن منها.

ما يمكن استنتاجه بعد الاطلاع على تضاعيف كتاب أخبار التونسيين، مراجعات في سرديات الانتماء والأصول أنه مؤلف فريد اكتسب فرادته من جانبين أساسيين. فمن وجهة نظر اخبارية فقد نجح الكاتب وفي جانب كبير من الكتاب في استحضار زخما معرفيا وفيرا حول معاش التونسيين وحياتهم الثقافية في شقيها المادي واللامادي، والمسار التطوّري للوعي التونسي وخاصة لدى فئة المتعلمين الذين أقبلوا على قيم الحداثة الغربية

1 - السنوسي (زين العابدين)، الأدب التونسي في القرن الرابع عشر، تونس، 1927، مقدمة المؤلف، ورد في كتاب أخبار التونسيين ...، م س، ص 203.

2 - عيسى (لطفي)، أخبار التونسيين: مراجعات في سرديات الانتماء والأصول، م س، ص 23.

3 - نفسه، ص 255.

4 - نفسه، ص 230.

5 - نفسه، ص 256.

وعبروا عن رغبتهم في الانصهار ضمن المشترك الإنساني، مقتنعين بزوال عهد الانطواء والانغلاق على الذات، في زمن أخذ فيه النفوذ الاستعماري الفرنسي في التمدد داخل هياكل الدولة التونسية ومؤسساتها، وداخل نسيج سكان البلاد الثقافي والاجتماعي. كما اتضحت في نفس ذلك السياق مؤشرات بليغة عن بداية تفكير التونسيين بخصوص ملامح شخصيتهم القاعدية المستندة إلى مشترك حضاري أثيل يعود إلى عهود ما قبل الإسلامية، لما اشعت قرطاج ومن بعدها افريقيا Africa على المتوسط وجانب من الصحراء الافريقية.

كما تم فرادة ما أنجزه لطفي عيسى في جانب آخر على جرأة في اقتحام مجالات مجددة منهجا وتصورا وتركيبا، حتى وإن لم يسلم ارتياد تلك المغامرة من مخاطر عدة ومنزقات شتى، هذا فضلا عن تمسك جانب غير قليل من الباحثين بأساليب ومناهج في البحث والتمحيص يكاد حاصر المعارف الإنسانية والاجتماعية أن يعفو عنها تماما. ولكن سعة اطلاع المؤلف على منجز المدارس التاريخية والإنسانية غربا وشرقا، ورصيده المعرفي الثري والمتجدد، كما تملكه لأدوات السرد التاريخي وفصاحة بيانه، قد أسعفه جميعها في خوض مثل تلك المراوحة المنتجة لغزير الدلالة باقتدار وأناة، بحيث بدا لنا أن مثل هذا الأثر البديع في جنسه يمكن الاعتبار بمحصلته معرفيا وتحويله إلى أنموذج يمكن الاستفادة منه في مساءلة موضوع الانتماء وطرح سؤال الأصول، وخاصة بالنسبة للمجتمعات التي ثبت تقاطع مساراتها التاريخية أو تشابها مع ما حملته "أخبار التونسيين". /





جميع الحقوق محفوظة
للاتحاد الدولي للمؤرخين
2020

ISSN:2707-8183



INTERNATIONAL JOURNAL OF HISTORICAL AND SOCIAL STUDIES

المجلة الدولية للدراسات التاريخية والاجتماعية

المجلة الدولية للدراسات التاريخية والاجتماعية مجلة علمية محكمة تصدر عن الاتحاد الدولي للمؤرخين، وتعد منصة للكتاب والباحثين لنشر المقالات الفكرية العلمية الرصينة، تشرف عليها نخبة من المؤرخين والعلماء من دول مختلفة، وتسعى الى نشر العلوم والمعرفة، وتعتمد الاليات والمعايير العلمية التي تجعل منها مجلة رصينة تمتلك كل الشروط التي تجعل منها تحظى بالاعتماد والقبول والتميز.

Historical.magazine2015@gmail.com

WWW.INT-HISTORIANS.COM